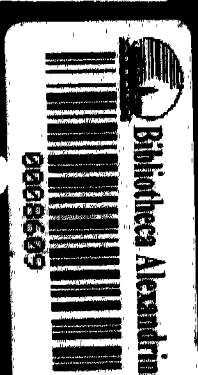
بين المعداوي وفدوى طوقان

صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر

رجاء النقاش







بين المعداوى وفدوى طوقان

صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر

«بسم الله الرحمن الرحيم»

© دار المريخ للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،
(الطبعة الثانية) ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ - (الطبعة الأولى ١٩٧٦ . . .

رجاء النقاش

بين المعداوى وفدوى طوقان

صفحات مجهولة فى الأدب العربي المعاصر



ص.ب: ١٠٧٢٠ ـ الرياض: ١١٤٤٣ ـ تلكس ٤٠٣١٢٩
المملكة العربية السعودية ـ تليفون ٤٦٥٨٥٢٣ ـ ٤٦٤٧٥٣١



«لا أظنني أعرف أدبًا مقيدًا غاليًا في الاحتياط كأدبنا العربي الحديث، الذي ينشئه أصحابه وهم يفكرون في الناس أكثر مما يفكرون في أنفسهم، حتى أطمعوا الناس فيهم، وأصبحوا عبيدًا للجماعة.. وخدمًا للقراء، فلنتمرّد على الجماعة، ولنثر بالقراء. ولننبذ الاحتياط كله إلا هذا الذي يثير الشر.. أو يؤذي الأخلاق»

طه حسين



مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٧٦ ، ولم تكد تمضى شهور قليلة حتى كانت هذه الطبعة قد نفدت من الأسواق ، حيث كان من حظ هذا الكتاب أن يهتم به القراء والنقاد والباحثون على نطاق واسع ، وقد كان من المفروض أن أعيد طبعه بعد ذلك ، ولكن السنوات التى تلت صدور الكتاب فى طبعته الأولى كانت بالنسبة لى سنوات تعب وعناء ، وكانت فترة تحملت فيها كثيرا من المشاغل والمشاكل ، مما أضاع الفرصة أمامى لإعادة طبعه بعد مراجعته ، خاصة أننى لاحظت أن الطبعة الأولى كانت مليئة بالأخطاء المطبعية الفادحة فى حجمها ونوعها ، وذلك لأن الكتاب قد تمت طباعته في بيروت بعيدا عنى ، فلم أتمكن من مراجعته وتصحيح « بروفاته » . ومنذ صدور الطبعة الأولى ونفادها وأنا أحلم بإعادة النظر فى الكتاب ، وتصحيح أخطائه ، وتقديمه فى صورة نهائية

سليمـة ، ولكن مشاغلى التى فرضتهـا ظروف عمـلى الصحفى ، واضطرارى للخروج من مصر للعمل فى دولة قطر الشقيقة مديـرا لتحرير جريدة الراية ورئيسا لتحرير مجلة الدوحة لمدة ثمانى سنوات متواصلة ، كل ذلك لم يتح لى وقتا كافيا ولا فراغا مناسبا لإعادة النظر فى هذا الكتاب أو فى غيره من كتبى المنشورة أو التى لم تنشر بعد . لقد كان عملى يلتهم وقتى كله ، ليلا ونهارا ، وصيفا وشتاء ، وما كنت خلال هذه السنوات الطويلة أستطيع أن أحصل على إجازة صغيرة ، فإن حصلت عليها فقد كنت أقضيها فى حالة من التعب الشديد الذى لا يتيح لى أن أنجز شيئا مما أريد ، حتى لقد بدا لى أن العمر سوف يفلت منى دون أن أحقق حلمى بنشر مجموعة كتبى ـ ومنها هـذا الكتاب ـ بالصورة الدقيقة المنشودة ، وأخذت أحدث نفسى فى أسى بأن جهادى الطويل الشاق فى الحياة الأدبية والثقافية سوف يضيـع ويتبدد ، بعد أن اختطفتنى الدوامة القاسية التى تعرضت لها مع معظم أبناء جيلى من المشتغلين بـالأدب والثقافـة ، وخاصـة هؤلاء الذين حرصوا ، فى صمت وصبر وهدوء ، على أن يسيروا فى طرق مستقيمة ، دون أن يغيروا شيئا مما يؤمنون به ، أو يكسبوا رزقهم بغير جهد شاق يبذلونه ، وبغير عرق غزير يسيل من فوق الجبين ، التماسا لراحة الضمير واحترام النفس ، مهما كان الثمن غاليا ، ومهما كانت المتاعب والآلام . على أن الحياة التى ملأت أيامنا بالمتاعب والمصاعب ، لم تخل من لحظات إشراق وأمل ، فعندما عدت إلى مصر بصورة نهائية فى يناير ١٩٨٧ ، وجدت الكثيرين من الأصدقاء والزملاء ، بل وحتى من القراء الذين تربطنى بهم صلة روحية ولا تربـطنى بهم صلات شخصية ، وجدت هؤلاء جميعا يطالبوننى ـ فى مودة صادقة وتشجيع كريم ـ بإعادة إصدار كتبى التى نشرت من قبل ، ومنها هذا الكتاب ، ويطالبوننى بنشـر الكتب الأخـرى التى أكملتهـا ولم أتمكن ـ لضـيق الـوقـت ـ

من نشرها ، ووجدت من هؤلاء جميعا فيضا من المشاعر الحارة ، التى زادت إيمانى بأن أى جهد يبذله الإنسان لا يضيع ، ولابد له من أن يثمر فى يوم من الأيام .

وأعود بعد ذلك إلى هذا الكتاب فى طبعته الجديدة ، فقد غيرت عنوانه تغييرا طفيفا التماسا لمزيد من الدقة والوضوح ، فبعد أن كان العنوان فى الطبعة الأولى هو « صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر » جعلت العنوان الجديد : « بين المعداوى وفدوى طوقان ـ صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر » ، كذلك فقد قمت بتصحيح الأخطاء الواردة فى الطبعة الأولى ، كما أضفت بعض الهوامش التى وجدت أنها ضرورية لتوضيح ما بدا لى أنه بحاجة إلى هذا التوضيح .

بقى أن أقول إن هذا الكتاب عند صدور طبعته الأولى قد تعرض لنقد بعض الأقلام ؛ فقد انزعج البعض من المنهج الذى اعتمدت عليه فى هذا الكتاب ، وهو منهج يلتزم بالصراحة الكاملة ، مما اعتبره البعض خروجا على المألوف فى حياتنا العامة وحياتنا الأدبية ، حيث تعودنا على عدم الخوض فى الحياة الشخصية للأدباء ، حتى لو كانت هذه الحياة الشخصية هى السبيل الوحيد لتفسير الظواهر الأدبية المختلفة ، ولفهم الواقع الاجتماعى وما يعانيه من مشاكل وتعقيدات ، وهذا النوع من النقد لم يقنعنى بعكس ما أراه ، ولم يغير موقفى . فالخوض فى الحياة الشخصية بغير هدف ، أو بدافع الثرثرة والفضول ، هو الخطأ الذى ينبغى أن نحاسب عليه من يقع فيه ، أما الخوض فى الحياة الشخصية لتفسير مأساة كاتب ، أو لفهم المجتمع والعصر الذى نعيش فيه من أجل الوصول إلى حل للمشكلات

المعقدة القاسية التى نعانى منها ، فذلك كله أمر مطلوب وضرورى ، مهما أثار غضب البعض ممن يفضلون التستر والتظاهر والتصنع على المواجهة والصدق والبحث الأمين عن حل وعلاج .

ولقد قيل عن هذا الكتاب عند صدور طبعته الأولى ، إنه يتضمن رسائل أنور المعداوى إلى فدوى طوقان ، ولا يتضمن رسائل فدوى إلى أنور ، وهذا خطأ كان ينبغى تجنبه ، وردى على ذلك أن رسائل فدوى إلى المعداوى ليست موجودة ، وأن المعداوى كان فى حياته شديد المسؤولية تجاه فدوى؛ وكان يخشى من أن ينتهى به المرض الذى يعانيه إلى الموت الفجائى وهو ما حدث بالفعل ، من أجل ذلك قام المعداوى بإتلاف رسائل فدوى جميعا قبل وفاته ، فلم يبق منها شىء ، لا عند فدوى ، ولا فى أوراق المعداوى التى تركها بعد موته .

على أننى ما كان لى بعد ذلك كله أن أنشر رسائل المعداوى لو أنها كانت مجرد رسائل شخصية خاصة ، ولكننى اقتنعت بضرورة نشرها والتعليق عليها بإسهاب وتفصيل ، لأننى وجدت فيها أثرا أدبيا وإنسانيا بالغ القيمة والأهمية كما أشرت إلى ذلك فى مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

ولقد كان من أهم النتائج التى خرجت بها من دراستى لرسائل المعداوى إلى فدوى طوقان أنه كان هناك بينهما « حب عاطفى » وليس حبا قائما على الإعجاب والصداقة الأدبية فقط ، وأن هذا الحب كان عنيفا مؤثرا على الطرفين ، ولكن هذا الحب كان من النوع المأساوى ، لأنه كان حبا رومانسيا ، وكان حبا « عذريا » أو « أفلاطونيا » . فالناقد المصرى والشاعرة الفلسطينية لم يلتقيا فى أى يوم أكثر من اللقاء الروحى الخيالى عن طريق الرسائل ، ومع ذلك فقد كان بينهما حب

عفيف ولكنه عنيف ، تماما كما نشأ الحب بين « مى » و« جبران » على البعد ، فقد كانت « مى » فى مصر و « جبران » فى أمريكا ، ولم يحدث قط أن التقى الاثنان أو تبادلا « النظرة والابتسامة والكلام والموعد واللقاء » ، حسب المعادلة التى رسمها شوقى فى أحد أبياته للحب الواقعى .

وقد اعترض البعض على هذا الاستنتاج الذى توصلت إليه ، من أنه كانت هناك عاطفة عنيفة وحقيقية تربط بين فدوى طوقان والمعداوى ، وأن هذه العاطفة قد قتلها إصرار الطرفين على الالتزام بالموقف الرومانسى الحساس المحتمى بالخيالات والأوهام ، دون أن يحاولا معا ، أو يحاول أحدهما أن ينقل هذه العاطفة المتمكنة منهما إلى علاقة واقعية ، فالمسافة بين « نابلس » ، حيث تقيم فدوى و « القاهرة » ، حيث يقيم المعداوى ، لم تكن بعيدة ، ولم يكن من الصعب اجتيازها ، على عكس الأمر بين مصر وأمريكا أيام « مى » و« جبران » فى العشرينات والثلاثينات ، ولقد كانت « فدوى » تتردد أحيانا على القاهرة ، ولكن الحبيبين الرومانسيين ظلت أفراحهما وأحزانهما تجد تعبيرها الوحيد على صفحات الورق ، حتى تحطمت العلاقة وتهشمت ، وانتهى الأمر كله بموت المعداوى سنة ١٩٦٥ فى سن الخامسة والأربعين وفى نفسه جرح عاطفى عميق وألم دفين لفقدان هذا الحب ، أما فدوى فقد اعتصمت بعالمها الداخلى ومشاعرها الخاصة ، وأقامت بينها وبين الحياة الخارجية نوعا من العزلة الشفافة التى كانت مع ذلك قوية وغير قابلة للكسر ، وتوالت عليها المحن المختلفة ، ولكنها لم تسمح لنفسها بالخروج من عالمها الداخلى الحصين حتى الآن ، رغم ما هو معروف عنها من رقة ودماثةولطف

ولين وحسن معاملة للآخرين وحرص على الاتصال بالحياة والناس ، ولكن دون الخروج من سجنها الروحى الذى صنعته لنفسها اتقاء منها لشرور الحياة وفواجعها المختلفة .

وكان من بين الذين أنكروا استنتاجى حول وجود حب رومانسى عنيف بين فدوى والمعداوى ، الناقد العربى الأردنى المعروف الدكتور عيسى الناعورى ، وذلك فى كتاب له بعنوان « مع الكتب والناس والحياة » ، فقد تضمن هذا الكتاب فصلا طويلا بعنوان « مع رجاء النقاش فى كتابه صفحات مجهولة » ، وفى هذا الفصل ينكر الناقد الأردنى إنكارا كاملا وجود أى عاطفة بين فدوى والمعداوى أكثر من عاطفة الصداقة ، ويتهمنى الناقد فى مقاله بالمبالغة وخطأ الاستنتاج ، بل لقد نسب الناعورى فى مقاله إلى فدوى أنها قالت له فى حديث بينهما إنها لا توافق على ما ذهبت إليه من حب بينها وبين المعداوى .

وقد اطلعت فدوى طوقان على ما كتبه الناعورى قبل نشره فى كتاب ، لأنه نشره قبل ذلك فى إحدى المجلات الأدبية ، وهنا كتبت فدوى إلى الناعورى رسالة صريحة تخالفه فيها حول ما انتهى إليه من رأى وما نسبه إليها من أقوال ، وقد تحلى الدكتور الناعورى فى كتابه بالأمانة النقدية والعلمية ، فنشر فى الكتاب نص رسالة فدوى إليه والتى تعارضه فيها معارضة كاملة ، وفى هذه الرسالة تقول فدوى موجهة حديثها إلى الدكتور الناعورى بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٨٥ :

« شكرا صادقا على استجابتك لرغبتى فى نشر تعليقى على بعض ما جاء فى مقالك « مع رجاء النقاش فى كتابه صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر » فى كتابك « مع الكتب والناس والحياة » وإليك التعليق :

جاء فى صفحة ٨٥ من كتابك قولك : وكان من السهل أن يلتقيا « أى المعداوى وفدوى » لو كان فى الأمر أكثر من صداقة بالمراسلة ، فقد زارت فدوى مصر أكثر من مرة .

فى الواقع إن أول زيارة قمت بها لمصر كانت فى شهر أغسطس عام ١٩٥٠ ، ولم تكن صلتى بأنور قد بدأت بعد ، والزيارة الثانية كانت فى إبريل عام ١٩٥٤ ، وكان أنور قد انقطع عنى ذلك الانقطاع المفاجىء الذى تكرر أكثر من مرة ؛ مما انتهى بى إلى الظن بأنه يتلاعب بعاطفتى تجاهه ، أما الزيارة الثالثة فكانت بين شهرى ديسمبر ١٩٥٥ ويناير ١٩٥٦ حين كانت العلاقة بيننا قد انتهت تماما »

ثم تقول فدوى بعد ذلك فى رسالتها إلى الناعورى عن علاقتها بالمعداوى :

« نعم ، كان هناك حب حقيقى ، وعبرت عنه بأكثر من قصيدة » . ثم تقول فدوى بعد ذلك فى الرسالة نفسها :

« أما بشأن مصير رسائلى لأنور فحقيقة الأمر هى أننى كنت حدثت أنور فى بعض تلك الرسائل عن إصابتى بمرض بغض الأهل لشدة ما كنت أعانى من اضطهاد وظلم وفظاظة من قبل بعض أفراد أسرتى ، وقد رجوته أن يبقى هذه المعلومة سرا مكتوما ؛ إذ كنت أرى فيها مهانة لى ولمركزى الأدبى ، فأكد لى أنور أن رسائلى لن تقع يوما فى يدى إنسان ، وهذا يؤكد أن أنور قد قام بإتلاف تلك الرسائل وفاء بعهد قطعه على نفسه ، ومن عرف أنور فقد عرف مدى ما كانت تتحلى به شخصيته من مروءة وشهامة . . »

هذا هو بعض ما جاء فى رسالة فدوى طوقان إلى الدكتور الناعورى الذى كان يصر على القول بأن ما كان بين المعداوى وفدوى لم يخرج عن حدود الصداقة العادية ، وأن من المبالغة ومجافاة الحقيقة أن نقول إنه كان حبا عنيفا وقويا .

وتأتى فدوى طوقان لتحسم الأمر فى شجاعة روحية تمتد جذورها إلى الصدق الذى تقوم عليه شخصية فدوى ومشاعرها ويقوم عليه فنها أيضا ، من هذا الصدق الذى دفعت فدوى ثمنه غاليا فى حياتها تستمد الشاعرة شجاعتها فتقول : نعم كنت أحب المعداوى وكان يحبنى ، والاستنتاجات التى توصلت إلى وجود هذا الحب بيننا صحيحة .

إن شجاعة فدوى وصدقها هما شىء جديد فى حياتنا الأدبية . فما أكثر الأدباء والأديبات الذين يخفون حقيقة مشاعرهم وحقيقة صراعاتهم الروحية التى كانت مصدرا لأدبهم وفنهم وأفراحهم وآلامهم ، ومن هنا أصيب أدبنا فى حالات كثيرة بالعتمة ، وفقد تلك الروح المضيئة المؤثرة المنفتحة على الدنيا ، والتى يمكن أن يخرج منها أدب جديد ومجتمع جديد وعلاقات إنسانية جديدة ، وهذا الجديد الذى ننشده لابد أن يعتمد على الصدق والشجاعة الروحية ، كما فعلت فدوى طوقان حين اعترفت بحقيقة حبها للمعداوى دون أن تحاول تغطية ذلك بأى لون من ألوان الغموض والإنكار .

وهنا ، فى هذا الميدان الأصيل من الصدق ، فليتنافس المتنافسون إن أرادوا لنا أدبا حيا ونفسية قادرة على مواجهة الواقع والاعتراف بكل ما نشعر به دون خوف أو هروب من الحقيقة ، فالصادقون الشجعان من الموهوبين هم القادرون وحدهم على الإبداع العظيم ، وهم القادرون على أن يؤثروا تأثيرا حقيقيا فى الحياة والناس .

وأحب أن أنهى حديثى عن الحب بين فدوى والمعداوى بعبارتين وردتا فى رسالة تلقيتها من فدوى بتاريخ ١ / ١ / ١٩٨٠ ، أما العبارة الأولى فهى قولها : « إن قصتى مع أنور توجع القلب دائما بما انتهت إليه وبما حملته نهايتها من طابع مأساوى » ، أما العبارة الأخرى التى وردت فى الرسالة نفسها فتقول فيها فدوى عن هذا الكتاب الذى بين يديك : « . . . إن الكتاب لو صدر قبل عشرين عاما لكان مصدر فضيحة أخلاقية بالنسبة لى فى محيط نابلس ، المدينة المحافظة المتزمتة ، أما اليوم وبحكم قانون التطور فى المفاهيم والأفكار والأشياء فقد تغيرت مواقف الناس تجاه مثل هذه الشئون » .

هاتان العبارتان من رسالة فدوى الخاصة ما كنت لأسمح لنفسى بنشرهما فى هذه المقدمة ، لولا أن فدوى نفسها قد أصدرت سيرتها الذاتية فى كتاب رائع هو « حياة جبلية ، حياة صعبة » شرحت فيه بصدق شديد وأمانة عالية وفن رفيع كل ما عانته من ظروف قاسية مع أسرتها ومدينتها نابلس ، وألقت فيه ضوءا كاشفا على كل العوامل التى أثرت فى شخصيتها وخلقت ما فى هذه الشخصية من تناقضات ، « لاسيما فيما يتعلق بتراوحى طيلة حياتى بين حبى للناس والعلاقة الإنسانية العميقة التى تشدنى إليهم وبين خوفى منهم ونزوعى إلى مصادقة النفس وإلى العزلة والتوحد » .

هذه هى نفسية فدوى وشخصيتها الإنسانية التى تلتزم بالصدق مع النفس ومع الآخرين ، والتى لم ترتكب أى خطأ يمكن أن يحاسبها عليه إنسان منصف ، وكل ما حدث هو أن قلبها نبض بحب صادق عبرت عنه فى عدد من قصائدها الجميلة ، مما أشرت إليه بالتفصيل فى هذا الكتاب ، وكان حبها متجها لكاتب وناقد موهوب وإنسان صادق

جاد ، فتنه شعر فدوى وشخصيتها ، على البعد . وكان المعداوى جديرا بفدوى وكانت جديرة به ، لولا مرض أنور فى بدايات هذه العلاقة ولولا ما أحاط بعلاقتهما من ظروف إنسانية واجتماعية شديدة التعقيد ، ولولا ما تميز به العصر الرومانسى من مشاعر قائمة على الخوف والسلبية والهروب من مواجهة الواقع الصعب ، مما أدى إلى وجود فجوة قاسية حطمت هذا الحب الكبير الذى كان قابلا للنجاح لو كان العصر مختلفا والظروف الاجتماعية فى المجتمع العربى غير ما كانت عليه فى أوائل الخمسينات .

على أننى أحب أن أشير أخيرا إلى أن النظر إلى هذا الكتاب على أنه لا يعالج شيئا آخر غير قصة الحب بين فدوى والمعداوى ، هو أمر بعيد كل البعد عن الحقيقة ، فهذه القصة لا تمثل فى الكتاب إلا الخيط الرفيع الدقيق الذى يربط بين أجزائه المختلفة ، أما الكتاب فهو فى جوهره دراسة للحياة الأدبية والاجتماعية فى الخمسينات والستينات فى مصر والمجتمع العربى كله ، وهو محاولة للكشف عن محنة جيل بأكمله فى تلك الفترة الحساسة من تاريخنا العربى ، والاقتصار فى النظر إليه على أنه قصة حب بين ناقد وشاعرة هو أمر يخرج تماما عن الهدف الواسع البعيد الذى وضعته أمامى وأنا أقوم بإعداد هذا الكتاب وجمع مادته وتحليل الظواهر التى تعرضت لها فى فصول الكتاب المختلفة . وأرجو صادقا أن تكون هذه الرؤية واضحة أمام القارىء والباحث ، وأن يكون الكتاب قد استطاع تقديم البرهان على صحة هذه الرؤية ، فبذلك وحده أشعر أن الجهد الذى بذلته فيه لم يخطىء الهدف ، ولم يصل إلى نتيجة مخالفة للنتيجة التى وضعتها أمامى منذ أول كلمة فى الكتاب وحتى آخر كلمة فيه .

القاهرة فى أغسطس ١٩٨٩ — **رجاء النقاش**

مقدمة الطبعة الأولـى

فى أوائل سنة ١٩٧٤ تلقيت رسالة من الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان ، وكنت قد التقيت بفدوى فى بيروت سنة ١٩٦٧ فى مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا الذى انعقد قبل حرب يونيو بشهرين تقريبا ، وفى لقائى العاجل السريع مع فدوى طوقان دارت بينها وبينى أحاديث متعددة كان من أهمها حديث عن الناقد المصرى الراحل أنور المعداوى ، وكان المعداوى بالنسبة لى أستاذا وصديقا ، وكنت أعلم منه أنه كان على صلة وثيقة بفدوى عن طريق رسائل متبادلة بينهما ، وإن كانا لم يلتقيا أبدا ، وكنت أعلم منه أيضا أنه يحمل فى قلبه لفدوى طوقان عاطفة عميقة تفوق عاطفة الصداقة ، وكانت هذه العاطفة الخاصة هى فى صراحة وبساطة عاطفة حب كبير ملأ عليه قلبه ووجدانه .

وفى حياء شديد سألت فدوى طوقان فى لقائنا السريع عما إذا كان بإمكانى أن أحصل منها على رسائل المعداوى إليها ، لعل فى هذه الرسائل ما يساعدنى على ما عاهدت نفسى عليه من تأليف كتاب عن

أدب المعداوى ومأساة حياته ، ووافقت فدوى على ما طلبته منها بلا تردد ورحبت به ، ثم انتهى مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا وعادت فدوى إلى نابلس وعدت أنا إلى القاهرة ، ولم تمض أسابيع قليلة حتى قامت الحرب بيننا وبين إسرائيل ، وحلت بالأمة العربية نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ وحملت معها كثيرا من العواصف والأعاصير ، ومرت الأيام والسنوات وتصورت أن فدوى قد نسيت لقاءنا الوحيد فى بيروت وما دار فيه من أحاديث ، والتمست لفدوى الأعذار ، لأن الضفة الغربية للأردن حيث توجد نابلس ، مدينة فدوى ، قد وقعت فى قبضة الاحتلال الإسرائيلى ، وكانت هموم هذا الاحتلال كفيلة بأن تشغل فدوى عن المعداوى وعنى وعن كل شىء ، ولكننى فوجئت بعد سبع سنوات برسالة من فدوى طوقان تحمل معها فى نفس الوقت كل رسائل المعداوى إليها ، وقد هزتنى رسالة فدوى ، وأتاحت لى أن أطل على جانب من عالمها الإنسانى الشفاف ، وألمس عن قرب مدى ما فى نفسها من صفاء ووفاء وصدق وتكوين روحى شديد الأصالة .

ماذا كتبت فدوى فى رسالتها وماذا قالت ؟ هذا هو ما نعرفه من سطور هذه الرسالة الكريمة الوفية التى أنقلها هنا بالنص :

« تحية خالصة . . لعلك تذكر لقاءنا فى بيروت عام ١٩٦٧ قبل الحرب . . ولعلك تذكر وعدى بموافاتى برسائل الصديق العزيز أنور المعداوى . ولقد هجمت علينا حرب حزيران بعد لقائنا بأقل من شهرين وشغلنا فيها بعد بالاحتلال الصهيونى عن كل ما عداه . . كان فى نيتى المجىء إلى القاهرة هذا الشتاء . . ولكن ظروفا قاهرة أحبطت نيتى تلك وكم كان بودى أن أجىء إليك بنفسى ومعى هذه الوديعة العزيزة لأضعها بين يديك ويتاح لى الحديث معك بحرية أكثر . . لقد اضطررت إلى السفر إلى « انكلترا » لمراجعة الجراح بشأن عملية

جراحية كان قد أجراها لى ، ومن عـادتى أن أراجع قبـل سفرى البعيـد أوراقى الخاصة فألغى منها ما لا أحب أن يبقى بعدى فى حالة حدوث سقوط طائرة أو أى شىء محتمل وقوعه . وهكذا وجدتنى مع رسائل أنور ، ووجدتنى مع وعدى لك ، وأحسست بدافع غريب يدفعنى إلى إرسالها إليك وعدم تـأجيل ذلـك إلى حين يتـاح لى فيه السفـر إلى القاهرة . سترى أننى حذفت صفحتين من الرسالة المؤرخة فى ٤ / ١١ / ١٩٥٢ ففى هاتين الصفحتين ورد ذكر أسماء وحديث بصدد تلك الأسماء ـ وهم من نابلس ـ أوثر أن أبقيه مطويا . . وأؤكد لك أن الحديث ذاك لا يغنى المعرفة ولا يضيف إليها جديدا . حقا ان فيه دليلا على خفة روح أنور وحس النكتة لديـه ، ولكن أعتقد أنـك وأصدقاءه وعارفيه لا يعوزهم هذا الدليل .

مسألة أخرى أود أن أقف عندها قليلا . . فى العامين الأخيرين من مراسلاتنا كنت قد ضقت ذرعا بالتوتر والألم الذى كان يسببه لى أنور بانقطاعه المفاجىء عنى ثم عودته من جديد معتذرا بالمرض . . وحين تكرر ذلك توهمت أنه كان يحب اللعب بعاطفتى تجاهه . وتسلطت على تبعا لهذا الوهم كبرياء غبية وحمقاء خلقت عندى إحساسا خاطئا بأن قصة مرضه كانت غير حقيقية مـائة فى المائة ،لذلك لم أرد على آخر رسالتين بعث بهما إلى ، وصممت على رفع جدار بينى وبينه ، وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت .

وحين قرأت ما كتبه الدكتور لويس عوض فى الأهرام عن « رفض الحياة » وهو المقال الذى أتى فيه على ذكر مرض أنور ، انجلى ما كان غامضا ، وملأنى حزن شديد ، وندم قاتـل ، كنت فى هذه الفتـرة أعانى هبوطا نفسيا على أثر فجيعتى بمصرع شقيقى « نمر » فى حادث

تحطم طائرة . . . وزادنى مقال الدكتور عوض كآبة وحزنا ، ثم توفى أنور والتحم حزنى عليه بحزنى على « نمر » . . لا أزال أذكـر تلك الليلة التى كتبت فيها قصيدتى « فى ليلة ممطرة » ، كنت قد وضعت صورة لأنور كان أهدانيها فى « ألبوم » صور « نمر » ، وكانت رسائل أنور مبعثرة على مقعدى فى تلك الليلة الماطرة ، ووجدتنى محكومة للحالة الغامضة التى تعترينى كلما حاصرنى الانفعال ، وكتبت القصيدة :

. . أحـبـاى تحـت الـريـاح وتحـت المـطر
وأصـغـى إلى وقـع أقـدامـهـم فى الـمـمـر
وتـعـبـر ضـحـكـاتـهـم من رواق الـظلام
إلى وتحيا
بعينى منهم صـور
أقبـل هـذا الجبـين وأمسـح هـذا الشـعـر
وألمس كـم قـمـيص دفء ، أشـم ربـاط عـنـق
وألمح أعينهم بالأمانى تبرق ،
توغل خلف الأفق
وأسمع تلك القلوب الطموحة
تنبض بالمنتظر
بما خططوا لغد لن يجىء يا
قسوة الموت ، مال الردى
بما خططوه ومال القـدر
. . . .
وتسـقى الشـجر
رياح الشتاء ويهمى مطر
ويهمى مطـر
ويهمى مطـر

أقسم لك لقد كان أنور مع شقيقي : « إبراهيم » و« نمر » في هذه القصيدة . . ثم جاءت الحرب الحزيرانية لتخرجني من دائرة أحزاني الخاصة وتلقيني في دوامة الاحتلال الصهيوني اللعين ، ولتصهرني مع شعبي في بوتقة المأساة الكبيرة . . أختم رسالتي بأصدق مشاعر التقدير والاحترام ، سلمك الله .

« فدوى طوقان »

هذه هي الرسالة التي تلقيتها من فدوى في أوائل سنة ١٩٧٤ ، ومع هذه الرسالة ـ كما قالت ـ بعثت فدوى لي بكل ما كتبه أنور المعداوي إليها من رسائل ، ومجموع هذه الرسائل سبع عشرة رسالة متفاوتة في الحجم ، فبعضها يبلغ عشر صفحات وبعضها لا يتجاوز صفحة واحدة .

وقد عكفت على قراءة رسائل المعداوي بعناية ودقة ، وأذكر أنني قضيت ليلة كاملة مع هذه الرسائل حتى انتهيت من آخر صفحة فيها مع الخيوط الأولى من نور الصباح ، ثم ناقشت نفسي طويلا في أمر هذه الرسائل ، هل أنشرها أم أطويها ؟ وبعد تفكير ومراجعة قررت أن أنشرها على الرأى العام الأدبي مهما كانت النتائج ، وقررت إلى جانب ذلك أن أكتب تعليقا أو أكثر على كل رسالة من هذه الرسائل يتضمن شرحا وافيا لما فيها من إشارات أدبية وشخصية .

لقد ترددت أول الأمر في نشر هذه الرسائل لأنني لست واثقا من أن الحياة الأدبية تستطيع أن تتحمل ما يمكن أن تكشفه هذه الرسائل من جوانب شخصية صريحة تتصل بالمعداوي وفدوى طوقان وأدباء آخرين ، كما أن هذه الرسائل قد فرضت على من ناحية أخرى أن

أكشف عما أعلمه من جوانب خفية فى حياة المعداوى مما قد ترى تقاليدنا الأدبية أنه غير سليم . . كل ذلك لأن حياتنا الأدبية ما زالت تعيش فى جو من المحافظة والكتمان ، واستنكار المصارحة فى الكشف عن حياة الأدباء المعاصرين فى أضواء ساطعة من الوقائع والحقائق ، فمازلنا نميل إلى الظلال والتلميحات والإشارات البعيدة بدلا من النور الكاشف والضوء الصريح ، وهذا كله بالطبع يمثل عائقا كبيرا بالنسبة للدراسات الأدبية المعاصرة ، ويمثل نقصا خطيرا فى هذه الدراسات ، وقد ينتهى الأمر أحيانا بوقوع كارثة من الكوارث لا يستطيع أحد أن يمنعها ، ومثل هذه الكوارث ليس لها سوى سبب واحد هو أننا نرفض الصراحة ونرفض مواجهة الحقائق ، ونفضل دائما أن نضع أقنعة فوق الوجوه حتى تبدو هذه الوجوه مناسبة للأفكار السائدة والتقاليد المقدسة الموروثة .

ولعل من المفيد أن أقف هنا قليلا لمناقشة هذه الفكرة وتوضيحها بالنماذج المختلفة ، ففى أوائل الستينات مات فى مصر أحد الأدباء والمفكرين العرب الكبار ، وبعد وفاته بيوم واحد نشرت الصحف قصة فتاة انتحرت حزنا على هذا الأديب الكبير ، وقد لفتت هذه القصة نظرى فتتبعتها وحاولت أن أعرف ما وراءها ، وعلمت أخيرا أن هذه الفتاة فى رأى عدد كبير جدا من أقارب ذلك الأديب المعروف وأصدقائه وتلاميذه هى ابنة غير شرعية له ، وأنه كان يحبها أشد الحب وكان يمنحها راتبا شهريا كبيرا ، وقد ترك فى وصيته ما يكفل لها حياة سعيدة . . ولكن هذا الأديب الكبير لم يفكر قبل وفاته أن يعترف بأبوته لهذه الفتاة ، كما أن أهله طردوها من بيته يوم وفاته ومزقوا وصيته ، وكان دافع الأديب الكبير الى هذا التصرف ودافع أهله من بعده هو أنهم أرادوا أن يحتفظوا بصورة الأديب الكبير فى أذهان الرأى

العام ، وقد كانت هذه الصورة هى صورة رجل من رجال الفكـر الدينى ، وكان ظهور هذه الفتاة واكتشاف الناس لأمرها كفيلا بأن يخدش صورة هذا الأديب الكبير ويقلل من قيمته عند الناس .[1]

وفى رأيى أن ما حدث هو جريمة لا شك فيهـا ، وقد كـان على الأديب الكبير أن يعالج الأمر بشجاعة فى حياته مهما كان الثمن ، ولا يغفر لهذا الأديب الكبير أنه كان يدفع لهذه الفتاة مالا ويمنحها حبا ورعاية . . لقد حرمها من أهم شىء تحتاج إليه وتستحقه ، وكـان بـذلك يحكم عليهـا بالإعـدام المـدنى والأدبى الـذى انتهى بهـا إلى الانتحار .

نموذج آخر . . فقد أصدر الكاتب الكبير توفيق الحكيم منذ شهور كتابا يجمع فيه عددا من الرسائل التى وصلت إليه خلال حياته الأدبية ويعلق عليها ، وإذا قرأنا هذا الكتاب استطعنا أن نستنتج بسهـولة أن توفيق الحكيم قد أبعد من صفحات هذا الكتاب كل ما يتصل بقلبه وعـواطفه ، فليس فى الكتـاب رسـالـة من امـرأة . . حتى ولا من زوجته ، وكأن الحكيم قد عاش بعيدا كل البعد عن أى علاقـات عاطفية من أى نوع ، ولذلك جاء الكتاب ناقصا فى الكشف عن حياة الحكيم ، والسبب واضح : فالحكيم أيضا ما زال يتصور أن مثل هذه العلاقات العاطفية يمكن أن تخدش صورته فى أذهان الناس ؛ ولذلك آثر أن يغلق هذا الباب ويطوى هذه الصفحة .

---

(١) لا أستطيع أن أذكر اسم هذا الكاتب الكبير ؛ لأننى لا أملك دليلا ماديا ثابتا على ما أقول ، ولكن القارىء المثقف يمكن أن يهتدى إلى اسم الكاتب الكبير من سياق الحديث عنه .

ونحن نجد أنفسنا أمام ظاهرة عامة فى حياتنا الثقافية ، وهى أن « أدب الاعترافات » معدوم أو شبه معدوم ، فلا أحد من أدبائنا يبوح بشيء ، ولا أحد يكشف عن جانب من جوانب ضعفه ، أو جانب من جوانب تجربته العاطفية الصادقة فى الحياة ، ومثل هذا الكتمان المفروض على حياتنا الأدبية يؤثر تأثيرا كبيرا على المجتمع نفسه ، فالأدب فى النهاية هو فى جانب هام من جوانبه إنما يعكس مشاكل الإنسان والحياة حتى تصبح مواجهة هذه المشاكل ممكنة ، فإذا ما أصبح الأدب أدب كتمان وإخفاء لا أدب كشف وإفضاء ، فإن ذلك يعنى أن تتأخر مواجهة المشاكل الحقيقية التى يعانيها البشر .

أين هذا الكتمان الذى يغلف أدبنا المعاصر مما نجده فى اعترافات « جان جاك روسو » واعترافات « أندريه جيد » ؟ وأين هذا الضباب الذى يحيط بأدبنا من كتاب أوسكار وايلد « من الأعماق » . . ذلك الكتاب الذى يكشف فيه الفنان الكبير حقيقة نفسه وخطاياه ، ويحاول من خلال هذا الكشف أن يعالج أمراضه الخاصة ويتخلص منها ويتغلب عليها ؟ . . إن هذه النماذج من الاعترافات الشهيرة فى الأدب الغربى استطاعت أن تهز المجتمعات الأوروبية وتحركها للتخلص من أسباب الانحراف الذى يتعرض له الفرد والمجتمع ، وقد دفعت هذه الاعترافات علماء النفس وعلماء التربية وعلماء الاجتماع وعلماء القانون إلى البحث الدقيق فى قضايا الإنسان ومشاكله ، ودفعتهم إلى التفكير فى تنظيم المجتمع وقوانينه وأساليب التربية فيه بحيث يتوصل المجتمع إلى أفضل وسائل التماسك الإنسانى فى السلوك والعلاقات البشرية المختلفة .

ولكن أدبنا ما زال يعيش فى هذا الضباب الكثيف الذى يخفى المشاكل الحقيقية للإنسان خوفا من أن يعرف الناس ما قد يؤدى إلى

عدم احترام الكاتب أو الفنان إذا ما ظهرت فى حياته بعض الأخطاء والعيوب ، أو إذا ظهرت فى شخصه بعض جوانب المرض أو الضعف حتى لو كان غير مسئول عن هذه الجوانب .

وأذكر أننى قرأت دراسة عن أدب نجيب محفوظ لكاتب إسرائيلى هو «ميتتياهوبليد» ، وقد تقدم بهذه الدراسة إلى إحدى جامعات أمريكا لينال بها درجة الدكتوراه ، ولست أشك فى أن هذه الدراسة الإسرائيلية - مثلها مثل غيرها من الدراسات الإسرائيلية - هى جزء مما تحتاج إليه أقسام المعلومات والأبحاث فى المخابرات الإسرائيلية التى تعمل فى خدمة أهداف إسرائيل البعيدة وأهمها فهم مصر والوطن العربى من الداخل ، وفى هذه الدراسة الإسرائيلية عن نجيب محفوظ سجل المؤلف فى مقدمة دراسته ملاحظة صحيحة أنقلها هنا حيث يقول هذا الباحث الإسرائيلى : « إذا أردنا أن نبحث عن المعلومات التى تتصل بالحياة الخاصة لنجيب محفوظ فإننا لن نجد أمامنا شيئا ذا بال فى هذا الميدان ، وعدم الاهتمام بالحياة الخاصة ظاهرة مميزة للحضارة العربية الإسلامية ، فقد استمرت هذه الحضارة عدة قرون متصلة تنظر إلى الشخصيات العامة ، وخاصة تلك الشخصيات التى تحظى بالحب والإعجاب ، نظرة تنزيه وتقديس ، وتميل هذه النظرة فى المجتمع الإسلامى إلى تجريد الشخصيات العامة المحبوبة فى المجتمع وتحويلهم إلى نماذج ومثل عليا وكأنهم فى نظر مجتمعهم أدلة وبراهين تثبت نعمة الله على المجتمع والإنسان ، وهذه النظرة المثالية « شبه الدينية » تفرض الابتعاد عن الخوض فى الحياة الخاصة للشخصيات العامة ، ومن هنا كان من الصعب أن تظهر دراسات تفصيلية عن التطور النفسى والثقافى لنجيب محفوظ ، استنادا إلى المعلومات الدقيقة عن حياته الخاصة ، ومن هنا أيضا أصبح من

الصعب أن نتعرف بوضوح على التأثير الذى تركته تجربة الكاتب الخاصة فى الحياة على المواقف والشخصيات المختلفة فى رواياته . كل ما يستطيع الباحث أن يحصل عليه فى هذا الميدان هو المعلومات المجردة العامة عن حياة الكاتب ، وهى نفسها المعلومات المحدودة التى تكرر ذكرها وسردها فى مناسبات لا حصر لها » .

وملاحظة الكاتب الإسرائيلى عن الثقافة العربية والأدب العربى صحيحة مع الأسف .

وفى رأيى أنه من الضرورى أن ننتقل من عصر الكتمان هذا إلى عصر الكشف والمصارحة ، وعلينا أن نبدأ ذلك مهما صدمتنا الحقائق فى أول الأمر ؛ لأننا بعد الصدمة سوف نستيقظ ونتنبه ونبحث عن العلاج الصحيح لمشاكلنا المطروحة أمامنا بوضوح .

وقد واجهتنى أكثر من مشكلة وأنا أعد هذا الكتاب ، وهى كلها مشاكل تتصل بهذه القضية : هل أكون صريحا فى الحديث عما أراه صحيحا أو ألتزم الكتمان والإخفاء ؟ . . لقد ترددت كثيرا فى الاختيار ، إلا أننى فى النهاية قررت أن تكون الحقيقة هى الأساس الوحيد لكل ما يتصل بهذه الرسائل من تعليقات وشروح .

فالرسائل نفسها تكشف عن قصة حب بين المعداوى وفدوى طوقان ، ولو آثرنا منهج الكتمان والإخفاء لكان من الأفضل ألا ننشر هذه الرسائل حرصا على ذكرى أنور المعداوى من ناحية ، وحرصا على وضع فدوى طوقان الاجتماعى من ناحية أخرى ، ولكننى رأيت أن نشر هذه الرسائل بصورتها الأصلية ضرورة أدبية وإنسانية ، فماذا فى أن نكتشف هذا الحب الذى كان قائما بين المعداوى وفدوى

طوقان ؟ ، خاصة إذا ما تأكدنا أن هذا الحب لن يكن حبا شائنا أو علاقة آثمة ، بل على العكس كان حبا طاهرا عفيفا مثاليا ، وكان فى نهاية الأمر حبا غير واقعى ، حتى أن الحبيبين - فيما أعلم - لم يلتقيا على الإطلاق وإنما اكتفيا بتبادل الرسائل وكتابة الأشعار حول هذا الحب .

وقد انتهى هذا الحب بالفشل ، كما انتهت كل علاقات المعداوى العاطفية ، فلماذا كان الفشل دائما حليف المعداوى فى تجاربه العاطفية ؟ لماذا كان يفشل دائما فى حبه حتى فى تلك الأيام التى كان فيها لامعا ومعروفا ومسموع الكلمة فى الحياة الأدبية ، مع أنه كان رجلا وسيما أنيقا مديد القامة مثقفا جذاب الشخصية بصورة واضحة ؟ ! لقد بدا لى وأنا أفكر فى هذا الموضوع أن هناك سببا أساسيا وراء هذا الفشل الذى كان يلاحق المعداوى فى حياته العاطفية ، ووجدت أدلة تؤيدنى فى رأيى ، فهل أحجب هذا الرأى وأخفيه ، أو أعلنه فى وضوح وصراحة حتى لو كان فيه ما قد يغضب أو يصدم ؟ . . . لقد اخترت أن أقول رأيى بصراحة دون أن أدعى أن هذا الرأى هو الصواب ، فقد يأتى من يستطيع أن يثبت عكس ما أقول به ، ولكننى حسب اجتهادى أرى أن الأدلة والبراهين التى تشير إلى صحة ما أراه هى أدلة وبراهين قوية .

وهنا يواجهنى سؤال آخر : إننى فيما توصلت إليه من رأى قد اعتمدت على عدة مصادر من بينها ماعرفته من معلومات خاصة خلال صداقتى الطويلة مع أنور المعداوى ، فهل يكون فى ذلك إساءة استغلال للصداقة ، وقلة حرص على كتمان ما ينبغى كتمانه محافظة على ذكرى الرجل الذى كان لى بمثابة الأستاذ والأخ الأكبر والصديق ؟ . . مرة أخرى أحس أنه لا تناقض بين حرصى على المعداوى ومحبتى له وعرفانى بجميله الأدبى والشخصى وبين عرض

الحقائق كما توصلت إليها ، وخاصة أن المعداوى إنما هو فى النهاية شخصية عامة تملكها الحياة الثقافية والأدبية أكثر مما يملكها الأهل والأصدقاء .

ولكن ما هو الهدف من عرض هذه الحقائق ؟ . . الهدف فى رأيى هو أن نعرف أمراضنا بصراحة ، وأن نعالجها بجرأة وشجاعة ، وأن نتخلص من ذلك الداء الكامن فينا وهو إخفاء رؤوسنا فى الرمال ، والذعر من كل ما هو حقيقى ، محافظة منا على الشكل الخارجى والصورة الوهمية والوردية . . إننا لو تعودنا الصراحة والصدق فى حياتنا الأدبية والاجتماعية فإننا سوف نتخلص من مشاكل كثيرة معقدة تواجهنا ولا نلقى لها علاجا ولا حلا ، فحياة المعداوى هى مأساة كبيرة كان يمكنه فى تصورى أن يعالجها ويتخلص منها أو من جانب كبير فيها لو أنه كان يعيش فى مجتمع آخر ، ولكن هذه المأساة - بسبب الإخفاء والكتمان وعدم الصراحة - أودت بحياته كلها وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ، كما أنها جعلته يتعرض لألوان شتى من العذاب خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته ، وانتهى به الأمر إلى هذا الموت المفجع المفاجىء .

لست أهدف إلا إلى أن نعرف هذه القصة لكى نتجنب تكرار هذه المأساة ، سواء فى حياة أديب موهوب مثل أنور المعداوى ، أو فى حياة إنسان عادى ومواطن بسيط يمكن أن يتعرض لما تعرض له المعداوى من آلام دون أن يستطيع التعبير عن ذلك لأنه لا يملك موهبة المعداوى فى التعبير ولا قدرته على تصوير بعض همومه وأحزانه ومشاكله .

لابد أن نلتزم بمنهج الصراحة والصدق والمكاشفة ، ولابد أن نمزق الأقنعة التى تخفى الحقائق وتشوه الوجوه .

مرة أخرى . . هل ترانى أخطأت فى نشر رسـائل المعـداوى إلى فدوى طوقان ؟ هل أخطأت فى أن جعلت الصراحة منهجى وسمحت لنفسى بأن أبوح بما كان ينبغى أن يظل مكتوما فى الصدور ؟ هـل أخطأت فى اجتهاداتى ومـا توصلت إليـه من تفسير لجانب من جوانب المأساة فى حياة المعداوى ؟ هل أسأت إلى صديق عمرى وأستـاذى وصاحب الفضل علىّ بأن نشرت على الناس صورته العارية كما رأيتها وفهمتها وهيأ لى الظن أنها صحيحة ؟

تلك كلها أسئلة لا أستطيع أن أجيب عنها ، فالإجابة متروكـة للتاريخ والرأى العام الأدبى ، ولكننى أحب أن أنسب لنفسى شيئا واحدا لست أشك فيه ، هذا الشىء هو أننى حرصت على أن أكون صادقا ، وقد يكون فى هذا الصدق ما يصدم حياتنا الأدبية وحياتنا الاجتماعية . ولكن ما هو الضرر فى مثل هذه الصدمة ؟ ألا يمكن أن تساعد الصدمة مجتمعنا على أن يستيقظ من نومه ، ويتخلى عن قسوته وعدم مبالاته فى بعض القضايا التى يقف منها موقف الجلاد ؟ . . ألا يمكن أن تساعد هذه الصدمة مجتمعنا حتى لا يسقط فيه بعد اليـوم أديب أو فنان موهوب لأنه حرص على كرامته ورأيه الحر ، ولا يموت فيه مريض لأنه لا يجد بيئة صالحة تكشف عن مرضه مهما كان هذا المرض عنيفا وقاسيا ، ولا يضيع فيه عاشق صادق لأن مجتمعنا لا يحب العشاق الصادقين إلا إذا قيدوا أنفسهم بألف قيد وقيد ، ولا تخفت ذكرى إنسان موهوب حساس مثل أنور المعداوى بعد صراع طويل مع المرض والألم لأن مجتمعنا لا يذكر إلا الصاخبين أصحاب الأصوات العالية المرتفعة ، والذين حرصوا على الدوام أن يكون لهم جاه وأتباع وجماعات تحمى ذكراهم وتستغلها على مر الايام ؟!

ذلك هو ما حاولت إثارته فى هذا الكتاب ، فإن كنت قد أصبت شيئا من النجاح فإنى أهدى هذا النجاح إلى ذكرى أنور المعداوى الذى عاش وأبدع وتعذب ومات . وأهديه للذين يرون أن الحقيقة مهما كانت قاسية هى طريقنا إلى التقدم والنور فى العلم والأدب والحياة والمجتمع ، وأننا لن نستطيع أن نبنى حضارتنا على غير الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولا شىء غير الحقيقة .

أما إذا كنت قد أخطأت فيما قصدت إليه ، فلكل مجتهد نصيب ، ونصيبى الذى أطمع فيه هنا هو أن يعذرنى القارىء ويغفر لى .

رجاء النقاش

القاهرة - ديسمبر ١٩٧٥

أنور المعداوى ورسائله

ماذا تعنى هذه الرسائل التى كتبها أنـور المعداوى إلى فـدوى طوقـان وما هى قيمتها ؟ . مع السطور الأولى من هذه الرسائل نشعر أن المعداوى قد كتبها بأسلوب رائع جميل يتدفق حيوية وعذوبة ، وقد كان المعداوى فى كل كتاباته من أصحاب الأساليب المتميزة ، وكان على الدوام حريصا على جمال اللفظ والعبارة ، وكان حريصا فى نفس الوقت على تحقيق نوع من الإيقاع المـوسيقى فى كتابتـه مما أعـطى لأدبه لمسة من لمسات الشاعرية الجميلة النادرة .

وقد ساعد المعداوى على تحقيق ذلك كله موهبة أدبية لاشك فى خصوبتها وأصالتها ، وهذه الموهبة هى التى جعلت من رسـائله إلى فدوى طوقان صفحة من الأدب الحى الجديد بأن يقرأه الناس ويهتموا به .

على أن الجمال الأدبى فى هذه الرسائل ليس هو وحده الذى يعطيهـا القيمة والأهمية ، فقد ضمت الرسائل مجمـوعة من الآراء النقـدية

الذكية الجريئة ، وهى فى جملتها آراء تشرح وتكمل الآراء النقدية التى نادى بها أنور المعداوى فى كتاباته المختلفة ، فالرسائل من هذه الناحية تمتاز بقيمة موضوعية إلى جانب قيمتها الجمالية ، وقد كان المعداوى يكتب هذه الآراء دون أن يفكر فى أنها ستنتشر على الناس فى يوم من الأيام ، وكان يكتبها لإنسانة يعتز بها ويحبها كل الحب ، ولذلك فقد كان يتحدث فيها بانطلاق وصراحة لا تعرف التحفظ ، وهذه الصراحة تزيد فى قيمة الرسائل ، فالصراحة هى قيمة هامة نفتقدها فى كثير من نقادنا المعاصرين ، على أن المعداوى لم يكن يوما من هؤلاء النقاد الذين يسترون آراءهم الموضوعية بستار من المجاملة أو محاولة إرضاء الناس ، بل كان على الدوام - فى نقده - صريحا وجريئا وصاحب رأى حر ، مما جر عليه المتاعب وأثار فى حياته كثيرا من العواصف والخصومات ، فالصراحة إذن ليست جديدة عليه ، ولكنها هنا وفى هذه الرسائل تصبح نوعا من المكاشفة وحديث القلب المفتوح والأعصاب الهادئة غير المتوترة ، لأن المعداوى كان يشعر أنه يتحدث الى انسانة تتعاطف معه وتصغى إليه بكل ما تملك من فكر وعاطفة .

وهكذا أضافت هذه الصراحة مزيدا من القيمة والعمق إلى رسائل المعداوى ، ولا يمنعنا ذلك من أن نختلف مع بعض ما جاء فى هذه الرسائل من آراء ونرفضها أو نعترض عليها . . المهم أنها آراء جادة تستحق المناقشة بالتأييد أو المعارضة .

وفى الرسائل قيمة أخرى تضاف إلى أسلوبها الجميل وما فيها من آراء نقدية جريئة وصريحة ، هذه القيمة هى ما تحمله الرسائل من روح السخرية الراقية والفكاهة الحلوة ، خاصة فى القسم الأول من هذه

الرسائل ، قبل أن يتعرض المعداوى للمرض وللأزمات النفسية المختلفة التى أفقدته روح المرح والتفاؤل .

على أن أهمية الرسائل لا تقف عند هذه الحدود ، فهناك إلى جانب جمالها الأدبى وعمقها الموضوعى وما فيها من سخرية ذكية قيمة أخرى أكثر من ذلك كله أهمية ، فهذه الرسائل تحمل إلينا الخطوط الرئيسية لقصة أنور المعداوى الكاملة مع الأدب والحياة ، فقد بدأ هذه الرسائل سنة ١٩٥١ حيث كان فى قمة مجده وتألقه الأدبى من خلال بابه الأسبوعى الذى كان يكتبه فى مجلة « الرسالة » تحت عنوان « تعقيبات » ، وفى هذه الفترة كان يشعر بالنشوة والتفاؤل والإقبال على الحياة ، وقد أنهى المعداوى هذه الرسائل سنة ١٩٥٤ ، حين كانت محنته فى الأدب والحياة معا قد بدأت ، وحيث أخذت الدنيا تحاصره بالمتاعب والآلام ، وحيث بدأ المرض العضوى والمرض النفسى يتحالفان عليه ، وقد سجلت رسائل المعداوى هذه القصة بفصولها المختلفة ، وأصبحت هذه الرسائل وكأنها نوع من المذكرات أو الاعترافات الصادقة الصريحة التى كتبها المعداوى عن نفسه وصراعه مع المجتمع والحياة الأدبية . لقد استطاع المعداوى فى هذه الرسائل أن يكتب دون قصد أو تعمد قصة حياته فى صعودها ثم فيما تعرضت له من محنة حادة قضت عليه فى آخر الأمر .

وتكشف لنا هذه الرسائل من ناحية أخرى قصة حب المعداوى لفدوى طوقان ، وهى قصة يجب أن تظهر فى النور ؛ لأن المعداوى كتب فيها أدبا جميلا هو ما سجلته سطور رسائله ، ولأن فدوى طوقان قد كتبت فى هذه القصة مجموعة من أروع قصائدها ، بل هى مجموعة من أروع قصائد الحب فى أدبنا الحديث كله ، وقد كان حب فدوى والمعداوى يقوم على الرسائل المتبادلة بينهما فقط ، فهما لم يلتقيا ، ولم

ير أحدهما الآخر وجها لوجه فيما أعلم ، ومع ذلك فقد كان لهذا الحب فى حياة المعداوى وفدوى وفى أدبهما شأن كبير ، ورسائل المعداوى ، من هذه الناحية ، بالإضافة إلى قيمتها الذاتية ، فإنها تمثل مفتاحا من مفاتيح المعرفة والفهم الصحيح لشعر فدوى طوقان ، مما يتيح لنا فرصة ممتازة لقراءة قصائد فدوى على ضوء جديد ساطع ، ولقد قمت بهذه التجربة وحرصت على أن أشير إلى قصائد فدوى فى تعليقاتى على رسائل المعداوى ، بل حرصت فى معظم الأحايين على أن أسجل هذه القصائد بنصها فى تعليقاتى على الرسائل ، ولقد أحسست أن قصائد فدوى تزداد قيمة وجمالا وأهمية وتأثيرا فى النفس عندما ترتبط برسائل أنور المعداوى . إننا هنا لا نحس بأن هذه القصائد تتحدث عن حب مجرد ، بل نحس بها وهى مرتبطة بموقف محدد وإنسان معين ، وهكذا ينفتح أمامنا فى هذه القصائد عالم من المشاعر والأحاسيس لم يكن يخطر لنا على بال عندما كنا نقرؤها دون أن نعرف ما وراءها من دوافع وأحداث .

ومن هنا تلعب رسائل المعداوى دورا كبيرا فى إلقاء الضوء على شعر فدوى طوقان ، وتساعدنا على فهم جانب هام من جوانب هذا الشعر الذى يحتل ولا شك مكانة كبيرة فى أدبنا المعاصر . .

على أن رسائل المعداوى لا تقف عند هذا الحد من إلقاء الضوء على شعر فدوى طوقان الذى كتبته من وحى عاطفتها نحو المعداوى ، بل إن هذه الرسائل تلقى ضوءا على حياة فدوى العاطفية حتى قبل لقائها الروحى مع المعداوى ، وقد استفدت فائدة كبرى من علاقتى الشخصية الوثيقة بالمعداوى فى معرفة الإشارات والتلميحات التى جاءت فى رسائله حول حياة فدوى العاطفية ، وحرصت على تسجيل

ما أعرفه وربطه بقصائد فدوى المختلفة ، ولم أحاول إخفاء شيء إلا في لحظات قليلة ولأسباب سوف أشير إليها في حينها .

وهكذا فإن رسائل المعداوى تتيح فرصة لدراسة شعر فدوى طوقان وحياتها ، وهى فرصة لم يكن بالإمكان أن تتاح لأى باحث أو ناقد أدبى بدون هذه الرسائل ، فهذه الرسائل تضع أمامنا صورة واضحة لتجربة فدوى العاطفية ، وهى تجربة هامة وجديرة بالدراسة ، إذ أنها تمثل صراعا فى مجتمعنا ما زال قائما فى حياة المرأة العربية وقلبها . انها تجربة الحب المثالى الذى لا يقترب أبدا من الواقع وإنما يتحطم على أبوابه وينتهى ، ولا ينال من الدنيا إلا ما يناله الحلم والوهم والطيف والخيال ، ذلك لأن العقبات الاجتماعية والتقاليد الحادة الموروثة تحول بين هذا الحب وبين النجاح ، وتحول بينه وبين الخروج من دنيا الخيال إلى عالم الواقع ، وقد انتهى الأمر بفدوى إلى أن تقول كما يشير المعداوى فى إحدى رسائله ـ : « إن أملى من وراء الحب هو الحب ذاته » ، أى أنها انتهت إلى أن تكتفى من الحب بخيالها ومشاعرها العاطفية دون أن تفكر أو تعمل على أن يتحول هذا الحب إلى مشاركة واقعية فى الحياة . وفى اعتقادى أن فدوى طوقان قد ضحت بنفسها وبسعادتها الشخصية فى سبيل التعبير عن الحقوق الإنسانية للمرأة العربية ، إلا أن حياتها الشخصية من جانب آخر قد عجزت عن كسر هذه القيود التى استطاعت أن تكسرها فى الشعر .

وهذه الحرية العاطفية المثالية التى لا تقابلها قدرة عملية على تحويل هذه العاطفة إلى واقع منتج خلاق ، هى الازدواجية التى عاشت فيها فدوى ، وانكشفت لنا بوضوح كامل خلال رسائل المعداوى إليها ، فهى تحب بخيالها ، وتحب فى رسائلها وقصائدها ، ولكنها لا تخطو

خطوة واحدة أبعد من ذلك ، ولا تسمح لنفسها ولا تسمح لها قيودها الكثيرة أن تخطو مثل هذه الخطوة ، فهى لا تفكر فى أى لقاء مع حبيبها ، ولا تسعى إلى ذلك ، بل ربما سعت واجتهدت حتى لا يتم مثل هذا اللقاء ، وفى هذه الدائرة القاسية يولد ما يمكن أن نسميه « أحلام اليقظة العاطفية » ، لقد أحبت فدوى طوقان ، وقدمت لنا أجمل الشعر عن هذا الحب ، ولكن هذا الشعر الجميل إنما يعبر عن حياة عاطفية ناقصة وشقية وأسيرة للتعاسة . تقول فدوى بحق فى قصيدتها « هو وهى » :

كم فتاة رأت بشعرى انتفاضات
رؤاها الحبيسة المكتومة
كان شعرى مرآة كل فتاة
وأد الظلم روحها المحرومة

وهذا الذى تقوله فدوى هو الصدق والحقيقة ، ولكن فدوى لم تستطع أن تتجاوز حدود التعبير عن المشاعر المحرومة إلى الثورة الواقعية على الظروف التى خلقت هذه المشاعر . ظلت فدوى ـ فى حياتها العملية ـ أسيرة لهذه الظروف ، بل لقد قدمت حياتها قربانا للقيود القاسية والتقاليد الظالمة ، وهذا ما تكشف لنا رسائل المعداوى إليها عن جانب منه حيث تؤكد لنا هذه الرسائل أنه كان بينهما حب ، ولكنه حب من بعيد ، حب يعتمد على الخيال والوهم ، ولا يفكر لحظة فى أن يقترب من الواقع ، على أن المعداوى كان من جانبه هو الآخر حريصا على أن يبقى حبه لفدوى فى هذه الحدود الخيالية البعيدة عن الواقع ، بل إنه قد حاول يوما أن يقطع علاقته بها عندما تأكد له أن فى قلبها وقلبه عاطفة أكثر من الصداقة هى عاطفة الحب ، ولم يعد إلى فدوى إلا عندما تأكد له أن فلسفتها تقوم على : « ان أملها من

وراء الحب هو الحب ذاته » ، وموقف المعداوى له تفسير سنحاول أن نقدمه بعد قليل ، أما موقف فدوى فسببه هو عدم قدرتها على مواجهة التقاليد والقيود العائلية الموروثة ، وهذه القيود والتقاليد لها أكثر من وجه ، ومن هذه الوجوه ، أنها تفضل زواج المرأة من نفس عائلتها أو نفس بلدها على أن يتم الزواج بين مستويين متشابهين فى الحياة الاجتماعية ، ومن هذه القيود أيضا أن التعبير « العلنى » الواسع عن الحب فضيحة غير مقبولة ، مما يذكرنا بقصة « ليلى وقيس » ، فقد رفض أهل ليلى أن تتزوج بقيس لأنه ملأ الصحراء بقصة حبه لها عن طريق شعره مما عرضها للفضيحة ، وأصبح من المستحيل أن تسمح عائلة ليلى لها بالزواج ممن أقام الدنيا وأقعدها حول هذه الفضيحة العاطفية .

وقد سجلت فدوى هذه القضية ـ قضية التقاليد الخانقة للحرية العاطفية ـ تسجيلا جميلا فى قصيدتها « هو وهى » عندما كان بطل هذه القصيدة « عباس » يسألها عن حياتها فتقول له :

حياتى يا عباس حلم
مروع الأشباح
حلم أطبقت على به جدران سجن
داج رهيب النواحى
عشت فيه مخنوقة الروح ظمأى
لندى الفجر ، للشذى ، للنور
الهواء الثقيل يكتم أنفاسى وقيدى
يغل دفق شعورى
كلما ضقت بالظلام وبالكبت

تلفت مثل طير مكبل
علَّ فجر الخلاص يلمح ، لا شيء سوى
الليل
ليل سجنى المقفل
واذا انشق باب سجنى أطلت
منه عينا وحش رهيب كبير
هو جلادى اللئيم
ربيب الحقد
والعنف والأذى والشرور
مستبد بالحكم ، يسكره الشر
وتعذيب كل روح ضعيفة
كان لى من شذوذه كل يوم
محنة سلطت على مخيفة
ولقد كنت أنزوى والأسى يطحن
نفسى الطموحة المخذوله
ووراء الجدران تصخب دنيا الانطلاقات
والحياة الجميله
الحياة التى بملء اندفاعات خطاها
تسير نشوى غنيـه
لاتبالى بنا ، تسير ولا تثنى خطاها
مأساتنا الفرديه . .
وتعلمت كيف تختلط الثورة والبغض
فى دم المظلوم
وبأعماقى التربص يخفيه هدوئى

في صمته المسموم
أرقب اللحظة التي كم تطلعت إليها
في شوقي المكبوح
لحظة العتق والفرار إلى آفاق حريتي
ودنيا طموحي

ثم تتحدث فدوى في هذه القصيدة نفسها عن « الحب » وعن وظيفة هذا الحب بالنسبة لها في ظل الظروف التي عبرت عن قسوتها في الجزء السابق من القصيدة وهي ظروف القهر الاجتماعي والنفسي الذي تعيش فيه . وهنا نحس أن معنى الحب هو ذلك الحب الخيالي المثالي الذي يعتمد على أحلام اليقظة والذي لا علاقة له بالواقع ، وهنا أيضا ندرك الأسباب التي ربطت فدوى بهذا المعنى المحدود للحب ، فهي في النهاية لا تستطيع أن تملك من الحب إلا هذا المعنى الذي يتصل بشعورها وعواطفها وأحلامها ، وإن كانت القيود المسيطرة على واقع حياتها لا تستطيع أن تسيطر في نفس الوقت على مشاعرها وأحاسيسها .

تقول فدوى :

كان لي الحب مهربا أحتمي فيه
إليه أفر من مأساتي
كان دنيا في أفقها الرحب أسترجع حريتي
أحقق ذاتي
يا لقلبي الموتور كم رنحته
نشوة الإنتقام من جلادي
وأنا في مشاعر الحب غرقى

وهو خلف الأبواب بالمرصاد
أبوسع السجون خنق الأحاسيس
وقتل الحياة فى الأعماق ؟
من يصد الشلال عن سيره الكاسح
عن اندفاعه الدفاق ؟

هذا هو الحب كما تفهمه فدوى ، وهو حب مقيد يستحق أن يثور عليه مجتمعنا ويتحرر منه ، لأنه حب ناقص وهمى ، ليس له وجه واقعى ، مما يؤدى إلى الاضطراب والتعاسة فى حياة الإنسان والمجتمع ، ولو كانت فدوى والمعداوى قادرين على أن يخرجا بحبهما إلى عالم الواقع فربما كان من الممكن ألا تقع المأساة فى حياة المعداوى ، وربما لم يصبح الحزن هو النبع الرئيسى فى شعر فدوى حتى الآن ، وقد كان بالإمكان أن يحل « الفرح » محل « الحزن » فى شعر فدوى ويملأ قصائدها بالنشوة والإقبال على الحياة .

على أن الخروج بهذا الحب المثالى إلى عالم الواقع لم يكن فى قدرة فدوى بسبب ظروفها الاجتماعية ، ولم يكن فى قدرة المعداوى بسبب الظروف التى سأحاول شرحها بعد قليل ، ولكن تجربة فدوى والمعداوى تعطينا نموذجا للتجربة العاطفية التى تمهد عادة للمأساة فى حياة الإنسان ، لأنها تجربة عاطفية ناقصة لا تؤدى دورها السليم الكامل فى حياة أصحاب هذه التجربة .

قد يخطر على البال أن نتساءل هنا : وأين رسائل فدوى إلى المعداوى ؟ لقد كان وجود مثل هذه الرسائل ولا شك فرصة لكشف المزيد من الحقائق حول هذه التجربة العاطفية ، ولكن من الواضح أن فدوى تعانى من شعور معين هو الجزع والخوف من أن يعرف أحد أسرار

قلبها عن طريق آخر غير طريق الشعر ، إنها تستطيع وترغب فى أن تكتب شعرا عن الحب وعن مشاعرها العاطفية . . نعم ، أما أن يعرف الناس شيئا محددا عن هذه التجارب العاطفية فهو ما تخشاه وتهرب منه ، ولذلك فهى تحرص دائما على التخلص من رسائلها العاطفية باستردادها من أصحابها أو بأن تطلب اليهم إتلافها ، أو تتخلص من هذه الرسائل بأى وسيلة أخرى ، وقد حاولت أن أعرف مصير رسائلها إلى المعداوى ، وكان المعداوى قد وضع كل الرسائل التى كانت تصل إليه فى صندوق كبير ، ومات المعداوى فجأة ، فبقى هذا الصندوق على ما هو عليه حتى قام أحد أصدقائه وهو الأديب الأستاذ على شلش بالبحث فى هذه الرسائل تمهيدا لنشر ما يستحق النشر منها ، ولم يجد فى هذا الصندوق أى شىء من رسائل فدوى طوقان ، وقد سألت الفنان الشاب الأستاذ شاكر المعداوى ابن شقيق أنور المعداوى وهو الذى يحتفظ بأوراق عمه عن رسائل فدوى ، فقال لى إنه لم يعثر على أى رسالة لفدوى طوقان بين أوراق المعداوى ، ولم يتح لى أن التقى بفدوى ـ بعد لقائنا الوحيد فى بيروت سنة ١٩٦٧ ـ لأسألها عن مصير هذه الرسائل . وفى اعتقادى أن فدوى قد استردت رسائلها فى حياة المعداوى ، أو طلبت إتلافها وقام المعداوى بإتلافها بناء على طلبها ، أو أن المعداوى نفسه كان يحس بدنو أجله فقام وحده وبدافع ذاتى خاص بإتلاف هذه الرسائل[١] ، وقد أشار فى إحدى رسائله المنشورة فى هذا الكتاب إلى أنه أوشك أن يفعل ذلك عندما تعرض لأزمة من أزمات مرضه ، المهم أن هذه الرسائل غير موجودة عند المعداوى ، ولا يعرف سرها

(١) قالت فدوى فى رسالتها إلى عيسى الناعورى والمنشورة فى مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، إن المعداوى قد وعدها بألا تقع هذه الرسائل فى يد أحد ، وقد بر بوعده ، والأغلب أنه قام بتمزيق هذه الرسائل أو إحراقها قبل وفاته .

ومصيرها الآن سوى فدوى نفسها ، ولو أنّ هـذه الرسـائل كـانت موجودة بين أيدينا لكان لها فائدة كبرى فى إلقاء المزيد من الضوء على نوع هذه « التجربة العاطفية » التى عاشتها فدوى والتى كانت محاصرة بالخيالات والأوهام والأحلام والتقاليد والقيود .

نعود بعد ذلك إلى رسائل المعداوى لنقول إن هذه الرسائل لها أهمية أخرى تضاف إلى مـا سبق كله ، ففى هذه الـرسائـل إشارات عـديدة إلى صفحات مجهولة فى حياتنا الأدبية المعاصرة ، وقد أتاحت لى فرصة اتصالى بالمعداوى أن أعرف الكثير من الحقائق حول هذه الصفحات المجهولة وحول مصادر المعلومات المختلفة عن هـذه الصفحات ، ومن هنا حرصت على أن أقدم كل هذه الحقائق فى تعليقاتى على رسائل المعداوى ، كما فعلت على سبيل المثال فى قصة الشاعرة المصرية « ن . ط . ع » وفى قصة الأديبة السورية هجران شوقى ، وفى غير ذلك من الصفحات المجهولة الأخرى .

وهكذا فإن رسائل المعداوى إلى فدوى طـوقان تمتـد بجذورهـا الرقيقة الناعمة أحيانا ، المتألمة الحزينة أحيانا أخرى ، إلى أكثر من مجال فى حياتنا الأدبية ، فهى تقدم إلينا قصة المعـداوى وقصة صـراعه العنيف فى حياته الأدبية وحياته الاجتماعية والنفسية ، وهى تلقى أضواء جديدة على حياة فدوى طوقان وأدبها ، وعلى النموذج العاطفى الذى تمثله وتعبر عنه فى حياتنا العربية ، كما أنها تكشف لنا عديدا من الصفحات المجهولة فى حياتنا الأدبية المعاصرة ، كل ذلك بالإضافة إلى أن هـذه الرسـائل هى نفسهـا صفحة جميلة مجهـولة فى حيـاتنا الأدبية ، وهى صفحة جديرة بأن نقرأها وأن نستمتع بما فيها من فكر وفن وأن نتأمل ونناقش كل ما تكشفه من حقائق ومعلومات .

أنور المعداوى وأدبه

تضعنا رسائل أنور المعداوى إلى فدوى طوقان أمام أسئلة متعددة ، وأول هذه الأسئلة وأهمها جميعا هو : أنور المعداوى نفسه ، فالمعداوى ليس معروفا بالنسبة للأجيال الأدبية الجديدة . . بل إننى لست أشك فى أن معظم الذين يعرفونه من جيل الأربعينات والخمسينات - حين كان كاتبا لامعا - لم يعودوا يذكرونه ولم يعودوا يهتمون به ؛ ولذلك لابد من وقفة أمام حياته وأدبه ، وهذه الوقفة هى التى يمكن أن تحدد لنا قيمته الأدبية وتفسر أمامنا كثيرا مما جاء فى رسائله إلى فدوى طوقان من آراء وأفكار .

من هو أنور المعداوى ؟ . . لقد ولد المعداوى فى ٣ مايو سنة ١٩٢٠ فى قرية صغيرة اسمها « معدية مهدى » بمنطقة « كفر الشيخ » فى دلتا مصر ، وكان الابن الوحيد الشقيق بين ثلاث بنات شقيقات له ، وتعلم فى المدارس الابتدائية والثانوية ثم دخل كلية الآداب بجامعة القاهرة وتخرج من قسم اللغة العربية بها سنة ١٩٤٦ وعمل بعد تخرجه فى إدارة الثقافة بوزارة المعارف ، ثم انتقل منها ليعمل

مدرسا بمدرسة خليل أغا الثانوية ، وفصلته وزارة المعارف لانقطاعه عن العمل فترات طويلة ، وبقى فترة بلا عمل ، ثم عمل بعد ذلك فى وزارة الثقافة بعد إنشائها ، ثم ترك العمل فترة بسبب مرضه ، فقطعت عنه وزارة الثقافة راتبه ، ولكنه عاد فى أواخر حياته إلى وزارة الثقافة مرة أخرى ، ومات فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٦٥ ، وكان فى يوم وفاته ذاهبا إلى عمله فى الصباح فأحس بشىء من التعب وعاد إلى بيته ليستريح قليلا ولكنه مات بعد عودته ، وكان يعيش مع أمه التى جاءت بعد مرضه من القرية لتكون بالقرب منه فى بيته بحى الدقى فى القاهرة ، وقد مات المعداوى فى الخامسة والأربعين من العمر دون أن يتزوج .

أصدر المعداوى فى حياته كتابين اثنين ، أولهما « نماذج فنية من الأدب والنقد » وكان صدوره سنة ١٩٥١ ، أما الكتاب الثانى فقد أصدرته وزارة الثقافة العراقية بمساعدة الأديب الناقد الأستاذ محيى الدين إسماعيل ، وهو كتاب « على محمود طه الشاعر والإنسان » ، وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦٥ قبل وفاة المعداوى بشهور قليلة ، وكان المعداوى قد أتم هذا الكتاب فى أوائل الخمسينات ونشر معظم فصوله مسلسلة فى مجلة « الرسالة » القاهرية فى سنة ١٩٥٠ ، ولكنه لم يستطع اصدار هذا الكتاب الا بعد اتمامه بأكثر من عشر سنوات .

أما الكتاب الثالث فهو كتاب « كلمات فى الأدب » ، وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦٦ ، أى بعد وفاة المعداوى بشهور ، وقد أصدرته المكتبة العصرية فى لبنان بمساعدة الأديب الناقد غالى شكرى ، على أن هذه الكتب الثلاثة لا تمثل كل إنتاج المعداوى ، فللمعداوى كثير

من المقالات والدراسات التى لو تم جمعها وتصنيفها لقدمت إلى المكتبة ما يقرب من ثلاثة كتب كبيرة أخرى ، وهذه الكتب هى التى أرجو أن أعكف على إعدادها وجمعها وتقديمها للقراء فى أقرب وقت[١] .

على أننى أعتبر أن الرسائل التى أقدمها فى هذا الكتاب هى نفسها كتاب من تأليف المعداوى عن حياته بقلمه ؛ لأن هذه الرسائل تكشف الكثير من قصة حياته كما تقدم الكثير من آرائه ، وقد بذل فيها من الجهد ما كان يبذله فى كتابة مقالاته ودراساته ، بل وأعتقد أن الجهد الذى بذله فى هذه الرسائل يزيد على جهده فيما كان يكتبه من دراسات ومقالات ، ذلك لأنه وهو يكتب هذه الرسائل كان يخضع لحافز عميق من حوافز العاطفة التى كانت تدفعه وتحركه ، وهى عاطفة الحب لفدوى طوقان ، مما كان يثير لديه حماسا للكتابة والإفضاء بكل ما فى قلبه وعقله من مشاعر وآراء .

كانت المرحلة الأولى من حياة المعداوى الأدبية هى مرحلة ظهوره وتألق نجمه ، وقد امتدت هذه المرحلة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٢ ، وكان الأديب والناقد الكبير سيد قطب قد قدم أنور المعداوى إلى القراء فى مجلة « العالم العربى » التى كانت تصدر فى القاهرة ، وكتب المعداوى فى هذه المجلة لفترة من الوقت ثم انتقل إلى مجلة « الرسالة » ابتداء من سنة ١٩٤٨ ، ويشير « سيد قطب » إلى تقديمه لأنور المعداوى فى رسالة بعث بها إلى المعداوى سنة ١٩٥٠ عندما كان سيد قطب فى أمريكا فى بعثة دراسية ، حيث يقول سيد قطب فى

---

(١) لم أتمكن حتى الآن « ١٩٨٩ » من أداء هذا الواجب ؛ لكثرة المشاغل التى حاصرتنى فى السنوات الماضية ، ولعل أحدا غيرى من تلاميذ المعداوى وأصدقائه يتمكن من القيام بهذا الواجب وأداء هذه الأمانة .

هذه الرسالة : « . . كنت فى حاجة نفسية إلى رسالتك لأفرح بك ولك ، ثم لأصدق ظنى فيك ، فلقد كان الكثيرون يلوموننى - فى مواراة - إذ قدمتك للنقد الأدبى فى مجلة العالم العربى ، وكنت أعرف ماذا أصنع وهم لا يعرفون ، وإنك لتزيدنى فرحا وغبطة إذا أنت بعثت إلى بين الحين والحين بقصاصات من مقالاتك فى الرسالة فى شتى الموضوعات . . »

وقد نشر الأديب الأستاذ على شلش هذه الرسالة ضمن رسائل أخرى فى مجلة « الكاتب » القاهرية « العدد ١٧٣ أغسطس ١٩٧٥ » بعنوان « أنور المعداوى فى رسائل معاصرة » .

وقد كانت صلة المعداوى بسيد قطب ذات أهمية أدبية خاصة سوف نشير إليها بعد قليل .

فى الفترة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٢ لمع اسم المعداوى بسرعة كبيرة ، وأصبح خلال وقت قصير وبدون أى مبالغة أكبر ناقد أدبى فى الوطن العربى كله فى تلك الفترة التى تبلغ أربع سنوات متصلة .

كان يكتب حينذاك فى مجلة « الرسالة » بابا أسبوعيا بعنوان « تعقيبات » ، وكان يترك هذا الباب أحيانا ليكتب مقالات أخرى فى بعض الظروف الخاصة ، مثلما فعل بعد وفاة الشاعر على محمود طه ، حيث انطلق المعداوى ليكتب سلسلة من المقالات هى التى كانت أساسا لكتابه عن الشاعر على طه فيما بعد .

كان إنتاج المعداوى الأدبى فى هذه الفترة غزيرا جدا ، وقد حصل على شهرته آنذاك لأسباب موضوعية واضحة ، أهمها أن ميدان النقد الأدبى - فى تلك الفترة - فى الوطن العربى كله كان خاليا من رواده الكبار .

كـان العقـاد وطـه حسـين قـد انصـرفـا إلى الـدراسـات الـدينيـه والفكرية والتاريخية فشملت كل إنتاجهما تقريبا ، وأصبح النقد الادبى بالنسبة لهما على الهامش ، وكان هناك فارسان آخران فى ميدان النقد الأدبى جاءا بعد العقاد وطه حسين وجيلهما من النقاد والكتاب الكبار الذين صمتوا بسبب الموت أو الشيخوخة مثل أحمد أمين والمازنى وزكى مبارك . كان هذان الفارسان الكبيران هما محمد مندور وسيد قطب .

وفى هذه الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ انصرف مندور إلى العمل السياسى وانغمس فيه حتى أذنيه ، ولم يعد إلى ميدان النقد الأدبى إلا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو حينما أصبح باب السياسة مغلقا أمامه ، كان مندور قد انضم إلى حزب الوفد ، وأصبح علما من أعلامه ، كما أصبح أبرز كاتب فى معسكر الوفد ، بل وفى معسكر الحركة الوطنية الشعبية فى مصر كلها ، وكان يكتب تقريبا كل يوم فى جريدة « الوفد المصرى » أو فى جريدة « صوت الأمـة » أو فى مجلة « البعث » أو فى غير ذلك من الصحف والمجلات الوطنية . وكانت كتاباته السياسية من أخطر ما كان يقدمه الفكر الوطنى اليسارى الحر فى ذلك الحين ؛ فقد جعـل قضيته الكبـرى هى فضح الاستعمـار الاقتصـادى والثقـافى والعسكرى ، وفضح الرجعية السيـاسية داخـل مصر ، وفضـح القصر الملكى المصرى المتآمر مع الرجعية والاستعمار ، كان مندور قد تحول من ناقد أدبى الى قديس وطنى يحارب فى معركة الاستقلال والتقدم ساعة بعد ساعة ، وبذلك خلا ميدان النقد الأدبى من هذا الناقـد المثقف الحساس البصير بحقائق الجمال الأدبى ، كل ذلك لأنه أراد فى عزم وقوة أن يواجه قبح الحياة ويحاربه ويدعو إلى التخلص منه قبل أن يواجه قبح الفن وينقده .

أما سيد قطب فقد ترك هو الآخر ميدان النقد ، وكان ناقدا ذكيا بصيرا بالتراث العربى وبروح العصر فى الوقت نفسه ، ورغم أن ثقافته الغربية كانت محدودة بسبب تعليمه الأزهرى ، فإنه كان يعوض ذلك بذوقه وحرصه الواسع على قراءة المترجمات التى جعلت منه عصريا أكثر ممن تعلموا فى باريس أو لندن .

ولكن سيد قطب هو الآخر قد اتجه بعنف إلى قضية الإصلاح الاجتماعى ، وقادته ثقافته الخاصة إلى التحمس الكبير للفكرة الإسلامية فانضم إلى الإخوان المسلمين ، وحاول أن يقدم اجتهادات بالغة الأهمية فى التوفيق بين مبادىء الإسلام العملية والفكر الاشتراكى ، وأن يبرز إلى النور وبقوة قضية العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

وقد سافر سيد قطب إلى أمريكا فى بعثة دراسية ، وقضى ما يقرب من سنتين هناك بين ١٩٤٩ و ١٩٥٠ ، وعندما عاد بعد ذلك تحول نهائيا إلى ميدان السياسة والدعوة العنيفة إلى الثورة والتغيير ، يقول سيد قطب فى رسالته التى بعث بها إلى المعداوى والتى أشرنا اليها فى الصفحات السابقة ، « ومن الواضح أنه يرد فى هذه الرسالة على رسالة من المعداوى كان بعثها إليه من القاهرة ، يقول سيد قطب :

« تنتظر عودتى لآخذ مكانى فى ميدان النقد الأدبى ؟ . .
أخشى أن أقول لك : إن هذا لن يكون وانه من الأولى لك أن تعتمد على نفسك إلى أن ينبثق ناقد جديد . . إننى سأخصص ما بقى من حياتى وجهدى لبرنامج اجتماعى كامل يستغرق أعمار الكثيرين ، ويكفى أن أجدك فى ميدان النقد الأدبى لأطمئن إلى هذا الميدان » .

ويبدو أن المعداوى كان قد أشار فى رسالته إلى سيد قطب إلى أن طه حسين قد تولى وزارة المعارف ، وأن طه بينه وبين سيد قطب خصومة أدبية ، وسيد قطب موظف فى وزارة المعارف ، وهنا يرد عليه سيد قطب فى الرسالة نفسها فيقول :

« .. وأشرت إلى ما بينى وبين الدكتور طه .. إننى أعتقد على أيه حال أنه من الخير للبلد أن يكون هذا الرجل فى وزارة المعارف ، ولست أسأل عما يكون لى أو على ، فطريقى واضح أمامى وهدفى معروف فى جميع الظروف .. »

وأود قبل أن أعلق على رسالة سيد قطب إلى المعداوى أن أتوقف لحظة - هى نوع من الاستطراد - عند قصة سيد قطب وطه حسين ، فقد روى لى أنور المعداوى أن طه حسين استدعى سيد قطب الذى كان قد قدم استقالته إلى طه حسين باعتباره وزيرا للمعارف ، وقال طه حسين لسيد : إننى أعرف ظروفك الاقتصادية السيئة ، فلماذا تستقيل ؟ ، إننى لن أقبل هذه الاستقالة بحال من الأحوال ، وأنت وأمثالك من المفكرين والأدباء أمانة فى عنقى ما دمت وزيرا للمعارف ، أما ما قد يتبادر إلى ذهنك من أننا على خلاف أدبى فأرجو أن تمحوه من رأسك فنحن عائلة واحدة هى عائلة الفكر والأدب ، وأنا أبوكم جميعا ، ولن أسمح لأحد منكم أن يتألم أو يسيء إلى نفسه ، ومزق طه حسين استقالة سيد قطب . وأنا لا أذكر هنا كلمات طه حسين لسيد قطب بنصها ، ولكننى أذكر معناها بكل ما أستطيع من دقة ، وأعتمد فى ذلك على ما رواه لى أنور المعداوى .

نعود - بعد هذا الاستطراد - إلى موقف سيد قطب لنرى أنه فى تلك الفترة من سنة ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ كان قد انصرف عن النقد الأدبى إلى

شيء آخر ، حيث يقول المعداوى : « إننى سأخصص ما بقى من حياتى وجهدى لبرنامج اجتماعى كامل يستغرق أعمار الكثيرين » ، ثم يقول مرة أخرى « لست أسأل عما يكون لى أو على ، فطريقى واضح أمامى وهدفى معروف لى فى جميع الظروف » .

لقد دخل سيد قطب دوامة العمل السياسى بكل قوة وعنف ، مثلما فعل مندور تماما ، وإن كان قد سار فى طريق آخر غير طريق مندور ، كان مندور يمشى فى طريق الاشتراكية والثورة الاشتراكية ، أما سيد قطب فكان يدعو إلى تجديد الإسلام والعودة إلى منابعه الأصلية وتحقيق الثورة المنتظرة عن طريق المبادىء الإسلامية .

مندور وسيد قطب ثائران ، ولكن كلا منهما يحمل راية مختلفة عن راية الآخر ، والتاريخ واحد من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ والقضية واحدة ؛ وهى قضية التغيير الكبير الذى أصبح ضروريا فى مصر فى ذلك الحين .

وهنا لابد أن أسجل ملاحظة عامة تحتاج إلى دراسة طويلة أخرى ، وهى أن النقاد الكبار فى الأدب العربى وفى سائر الآداب العالمية يبدءون حياتهم بنقد الأدب وينتهون فى سنوات النضج بنقد الحياة ؛ ولذلك فإن كثيرين منهم قد انغمسوا فى دوامة السياسة لأن الأدب الجميل لا يمكن أن يوجد فى حياة غير جميلة .

وهكذا خلا ميدان النقد الأدبى من فرسانه فى مصر ، فإذا تلفتنا إلى سائر أنحاء الوطن العربى فى تلك السنوات وجدنا صورة مشابهة ، ميخائيل نعيمة ومارون عبود فى لبنان سكتا عن النقد الأدبى بحكم تقدم السن وهبوط العزم ، ولم يعد لهما ذلك الصوت المدوى الذى

كـان لميخائيـل نعيمة فى « الغـربال » ولمـارون عبـود فى « مجـددون ومجترون » و « على المحك » .

أما بقية أجزاء الوطن العربى فقد كانت غارقة فى مشاكلها السياسية والوطنية العنيفة .

فى هذه السنوات المجدبة من النقد الأدبى ظهر أنور المعداوى ، وتفرغ تفرغا تاما لوظيفة أدبية واحدة هى وظيفة الناقد ، وجاهد وثابر وانتج بغزارة فى هذه السنوات الأبع « ١٩٤٨ - ١٩٥٢ » ، وأصبح الناقد الأول فى الوطن العربى بل والناقد الوحيد فى تلك الفترة .

ولكن هل خلو الميدان الأدبى من النقاد يكفى لتفسير النجاح الكبير الذى حققه أنور المعداوى كناقد أدبى فى تلك السنوات ؟

لا يكفى ذلك بالطبع ، فقد كان من الممكن أن يخلو الميدان ويظل خاليا ويقال : لقد مات النقد الأدبى وجفت ينابيعه فى تلك الأعوام .

ولكن الحقيقة أن المعداوى كان يملك من الموهبة والقدرة والرؤية الأدبية الذكية - فى ذلك الحين - ما كان يساعده ويمكنه من أن يملأ الفراغ ويلفت الأنظار .

فقـد كان أنـور المعداوى يتمتـع بـأسلوب أدبى جميـل متميـز ، ونستطيع أن نقول إنه كـان من أجمل أصحـاب الأساليب فى أدبنـا المعاصر كله ، رغم أن هذا الأسلوب كان يعتمد أحيانا على الافتعال والمبالغة والعاطفية المسرفة والصنعة اللفظية ، لكننا مع ذلك نستطيع أن نتبـين جمـال أسـلوبـه وتميـزه بـين شتى الأسـاليـب الأدبيـة المعاصرة من النظرة الأولى إلى أى مقال له أو دراسة ، وهذا الأسلوب

الأدبي المتميز يتضح تماما من خلال رسائله المنشورة فى هذا الكتاب .
ويكفى أن نقرأ هذه الفقرة من مقال وجدانى له بعنوان « من الأعماق » حتى تتبين لنا بوضوح هذه القيمة الجمالية فى كتابات المعداوى ويتبين لنا حرصه الكبير على هذه القيمة فى أدبه ، يقول المعداوى فى هذا المقال الذى يتحدث فيه عن تجربة عاطفية له :

« . . وفى تلك الدار من ذلك الحى كان هواه . . يذهب إليها مع الصبح ، وحين يقبل الليل ، وكلما هزه الشوق وطال الحنين ، ولن ينسى كيف كانت تستقبله الدار يوم كان يقصد إليها : ملء يديه زهر ، وملء عينيه أمل ، وملء قلبه حب ، وملء نفسه دنيا من الأحلام . . أبدا لن ينسى الوجه الذى كان يتلقاه باليدين حين يقبل ، وبالروح حين يجلس ، وبالدعاء حين ينصرف مودعا إلى لقاء قريب . . ولن ينسى أنها كانت تهوى الأدب ، وتعشق الفن . . ويملك عليها المشاعر كل معنى جميل . . ولن ينسى أن صلتها به كانت عن هذا الطريق الذى جمع بين قلبها وقلبه . . وبين طبعها وطبعه . . وبين شعورها وشعوره . . ومن أجل هذا كله كان يدفع إليها كل كتاب يقرؤه وكل مقال يكتبه وكل أثر من آثار الفن يعلم أنه يلقى من نفسها هوى ورعاية . . » .

على هذا النسق من الحرص على جمال الأسلوب كان المعداوى يكتب ، دون أن يقتصر هذا الحرص الجمالى على كتاباته الوجدانية التى كانت له فى ميدانها محاولات عديدة ، بل لقد كان يحرص على هذا الأسلوب نفسه فى كتاباته النقدية المختلفة .

على أن الأسلوب الجميل وحده لم يكن ليلفت النظر الى المعداوى ، خاصة أن هذا الأسلوب كان يميل أحيانا ـ كما أشرت من

قبل - إلى التصنع والافتعال اللفظى ، فلم يكن مثل هذا النوع من الجمال التعبيرى كافيا لأن يجعل المعداوى ألمع ناقد عربى فى تلك السنوات الأربع من حياته النقدية التى تمتد من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ .

كان هناك شىء آخر فى كتابات المعداوى ، فالمعداوى لم يكن يكتب نقدا تقريريا جافا ، وإنما كان يقدم أفكاره النقدية ممتزجة بعاطفة حارة ساخنة ، فلم يكن يعرف البرود والوقار العلمى الهادىء المتردد المصطنع ، وهذه العاطفة التى تمتزج بآرائه كانت تخلق له شخصية ذاتية مستقلة سرعان ما ارتبطت بها عواطف القراء فى الوطن العربى .

على أن كتابات المعداوى كانت تتميز بميزة أخرى واضحة هى الجرأة البالغة ، فلم يكن المعداوى يتردد فى مهاجمة أى أديب كبير مهما كانت مكانته ، ولم يكن يجامل فى آرائه ، فقد هاجم طه حسين وهاجم العقاد وهاجم سلامة موسى ، وكان هؤلاء جميعا من كبار الكتاب والأدباء ، وكانوا قد صنعوا لأنفسهم مكانة راسخة فى الحياة الثقافية ، ومع ذلك لم يعبأ المعداوى بشىء من ذلك بل اشتبك معهم فى معارك أدبية وفكرية ، بعضها كان حادا عنيفا مثل معركته مع سلامة موسى ، وقد كان هناك مفكرون آخرون هاجمهم المعداوى هجوما بالغ القسوة والعنف ، حتى لقد اضطر بعضهم إلى تقديم بلاغات إلى النيابة العامة على اعتبار أن ما كتبه المعداوى ضدهم هو نوع من القذف والتشهير ، فقد كتب المعداوى ضد الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وهاجمه هجوما قاسيا فى إنتاجه الفكرى وفى إنتاجه الأدبى وفى تحقيقاته للتراث الإسلامى . وكتب المعداوى ضد

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى أستاذ علم النفس فى جامعة القاهرة ، وهاجم آراءه الأدبية هجوما قاسيا دفع الدكتور الأهوانى إلى إبلاغ النيابة العامة ضد المعداوى ، واستمرت القضية فترة ثم تنازل عنها الدكتور الأهوانى بعد أن هدأت ثورته .

وهناك آخرون هاجمهم المعداوى بقسوة وعنف مما خلق له أعداء كثيرين ، ولكن هذا العنف وهذه الحدة جعلت له مكانة كبيرة عند القراء الذين أحسوا بالاحترام له والتقدير لجرأته وصراحته فى الرأى ، وثقته بنفسه وعدم شعوره بأى تردد أو هيبة أو خوف أمام الأسماء الكبيرة اللامعة التى سبقته فى الحياة الثقافية واحتلت مكانا راسخا قبل أن يبدأ الكتابة ويظهر بآرائه أمام الناس .

والواقع أن آراء المعداوى هذه لم تكن كلها على صواب ، فقد كان فيها آراء خاطئة ، ولقد تراجع هو عن بعض هذه الآراء بعد ذلك بسنوات مثلما فعل مع رأيه فى سلامة موسى ، ولكن المهم أن هذه الآراء الجريئة الحادة قد خلقت حول المعداوى وبسببه مناقشات واسعة وعواصف أدبية فى كل مكان من الحياة الثقافية على امتداد الوطن العربى كله ؛ مما أتاح الذيوع والانتشار لاسم المعداوى وآرائه .

على أن هناك جانبا آخر فى المعداوى ساعد على تدعيم مكانته فى تلك المرحلة من حياته الأدبية ، وهى ألمع مراحل حياته على الإطلاق ، وهذا الجانب هو أن المعداوى قد تبنى الكثير من القضايا الخاصة للأدباء العرب ودافع عنها ، وهذا الجانب قد يبدو متناقضا مع الجانب السابق فى شخصيته وهو الجانب العنيف الاستفزازى الذى دفعه إلى أن يهاجم عددا كبيرا من الأدباء بأسلوب قاس لا رحمة فيه ،

ولكن هذا الجانب العاطفى الإنسانى فى شخصية المعداوى يكشف لنا عن أن العنف فى شخصيته لم يكن مصدره الحقد أو القسوة النفسية أو كراهية الناس أو أى شىء آخر من هذا الطراز ، بل كان نوعا من الحيوية واندفاع الشباب الذى كان يكره حالة الركون القائمة آنذاك فى الحياة الأدبية فأراد أن يحركها بالرأى الجرىء والنقد الحر الصريح الذى لا يعبأ بشىء .

ولقد بدأت علاقة المعداوى بفدوى طوقان عندما عرض عليها أن ينشر لها شعرها فى ديوان ، وقد قام فعلا بنشر ديوانها الأول « وحدى مع الأيام » فى مصر ، كل ذلك قبل أن تتطور العلاقة بينهما لتصبح علاقة عاطفية ، وقد سهر المعداوى على طبع هذا الديوان واهتم بإخراجه كأنه عمل خاص به ، وهذا ما كان يفعله مع كثيرين من الأدباء ، حيث جعل بابه « تعقيبات » منبرا حرا لعرض قضاياهم الأدبية والشخصية والدفاع عنها ، فكتب عن الأديب المريض الذى يحتاج إلى رعاية وعلاج ، وكتب عن الأديب الذى يحتاج إلى إتمام تعليمه فى الخارج ويحتاج إلى مساندة الدولة ، وكتب عن الأديب الموهوب الذى ترك الإنتاج وينبغى أن يعود إليه ، ولم يترك المعداوى قضية إنسانية وصلت إلى علمه لأى أديب من الأدباء دون أن يعرضها ويتحمس لها ويدافع عنها .

وكما ترك عنفه ضد بعض كبار الأدباء انطباعا بأنه شخصية قاسية مدمرة ، ترك اهتمامه بعدد كبير آخر من الأدباء وبقضاياهم الأدبية والإنسانية انطباعا مناقضا ؛ وهو أنه شخصية طيبة عاطفية مخلصة أشد الإخلاص لقضايا الأدب والأدباء ، وقد ترك الانطباعان معا فى الحياة الأدبية دويا عنيفا حول اسم المعداوى وحول آرائه وكتاباته المختلفة .

على أن شيئا بارزا آخر ميز كتابات المعداوى فى تلك الفترة ، وهو أنه كان بعيدا عن أن يكون ناقدا مصريا محدود الاهتمام بقضايا الأدب والأدباء فى مصر وحدها ، بل لقد مد بصره إلى شتى أنحاء الوطن العربى ، واهتم أشد الاهتمام بمتابعة الأدب العربى وقضاياه خارج مصر ، وكانت هذه النزعة العربية فى كتابات أنور المعداوى ميزة رائعة وبارزة ، وكان فى الوقت نفسه سببا من أسباب انتشار اسمه فى كل مكان من الوطن العربى .

يمكننا أن نتساءل بعد ذلك كله عن الإضافات التى قدمها المعداوى إلى النقد الأدبى فى تلك المرحلة التى تمثل الجانب الأساسى والأكبر ـ كما وكيفا ـ من إنتاجه الأدبى .

إن الإضافة الأساسية التى قدمها المعداوى هى نظريته التى أسماها باسم « الأداء النفسى فى الفن » ، والذى أطلق عليها اسم « النظرية » هو المعداوى نفسه ، وكان أحيانا يسميها نظرية نقدية ، وأحيانا أخرى كان يسميها مذهبا فى النقد ، والحقيقة أنها ليست مذهبا ولا نظرية ، ولكنها فكرة نقدية ذكية واضحة محددة حاول المعداوى أن يجعل منها مقياسا يقيس به الإنتاج الأدبى ومدى قيمته وجودته ، وهى فكرة نقدية تأثر فيها المعداوى بعدد من النقاد العرب السابقين عليه وبخاصة العقاد ومحمد مندور وسيد قطب ، وخلاصة فكرة « الأداء النفسى » هذه نجدها فى الفصل العاشر من كتاب المعداوى عن « على محمود طه » ، وعنوان هذا الفصل هو « الأداء النفسى » ، ويلخص المعداوى فكرته فى مقدمة هذا الفصل فيقول فى الصفحة الحادية عشرة بعد المائة من هذا الكتاب :

« هناك فنان فهم الحياة حق الفهم وخبرها كل الخبرة ومع ذلك فهو يتذوقها بقدر محدود لا يتناسب وخبرته العميقة ولا يتفق وفهمه الأصيل ، فما هو الفارق بين طبيعة الفهم وطبيعة التذوق فى حياة الفنانين . . ؟ »

« لتوضيح هذا الفارق الفنى بين الطبيعتين نقول : إنك تفهم الشىء بعقلك وتتذوقه بشعورك . . نعنى أن الفهم أداته الذهن الفاحص وأن التذوق أداته الشعور الرهيف . . إنهما طاقتان . طاقة عقلية وطاقة شعورية . . والذين قويت عندهم الطاقة الأولى وضعفت الثانية هم الذين تتوقد فى وجودهم شعلة الفهم وتخبو شعلة التذوق بالنسبة إلى أي قيمة من قيم الفن وأى معنى من معانى الحياة ، إن هناك مثلا من يفهم قصيدة من الشعر ، يفهم فيها اللفظ والصورة ويفهم الوزن والقافية ويفهمها اتجاهيا إذا طلبت إليه الشرح والتفسير . . ومع هذا كله فهو لا يستطيع أن « يتذوق » فيها وحدة العمل الفنى ولا إيحائية التركيب اللفظى ، ولا تماسك التجربة الشعورية وهى معروضة عرضا تفصيليا من خلال مضمون ، وقل مثل ذلك عن الذى يفهم أصول النوتة الموسيقية للحن من الألحان ، ثم لا يتذوق جمال اللحن ، ولا يهتز لروعة الإيقاع ، ولا يتجاوب وتصويرية النغم » .

« إن فهم الحياة هو أن نفتح « لمشاهدها » أبواب العقل ، أما تذوق الحياة فهو أن نفتح لتجاربها أبواب الشعور . . إننا « نرقبها » هناك تحت إشعاع الومضة الذهنية ، ولكننا « نتلقاها » هنا تحت تأثير الدفقة الوجدانية . . وعلى مدار هذه الكلمات نستطيع أن ننظر إلى كل عمل يمت إلى الفن بسبب من الأسباب » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك :

« هـذه الكلمـات هى معـالم الـطريق إلى « الأداء النفسى » أو إلى هذه المحاولة المذهبية التى تحمل ذلك العنوان وهدفها أن تـزن قيم الفن بميزان جديد ، سواء أكان الفن ممثلا فى قصة تحليلية أم فى لوحة أم فى مقطوعة موسيقية أم فى قصيدة ، وسواء أكان الفهم أو التذوق فى كل أثر من هذه الآثار متعلقا بموقف الفنان من مشاهد الحياة وتجارب النفس حين ينتج ، أم كان مرتبطا بموقف الذين يحكمون على الفن ويقيمون له الميزان عن طريق الذهن أو عن طريق الشعور » .

هذه هى فكرة المعداوى عن « الأداء النفسى » فى الأدب والفن ، وقد قدم المعداوى فى هذا الفصل عن « الأداء النفسى » نماذج متعددة للتفرقـة بين الفهم والتـذوق ، ونستـطيـع أن نقف أمـام نمـوذج واحد من هذه النماذج لتتضح أمامنا فكرة المعداوى بصورة كاملة . يقول المعداوى فى الصفحة الثالثة عشرة بعد المائة من كتابه عن على محمود طه :

« دعى الموسيقار العظيم فرانزلست إلى حفل من تلك الحفلات الخاصة التى كانت تزخر بها الصالونات الباريسية . . ويدعى إليها جمهور خاص من الطبقة المترفة التى كانت تعشق فيها تعشق من متع الحياة أنغام الخالدين . . وحين نهض لست ليأخذ مكانه من البيانو طلب إليه المدعوون أن يعزف شيئا من آثار بتهوفن وشيئا من آثار ذلك الفنان العبقرى الذى كان يجلس بين الصفوف فى انتظار العزف ، صديقه فردريك شوبان . . ومن المعروف عن لست أنه كان يجمع إلى موهبته الفذة فى التأليف الموسيقى موهبة أخرى لا يختلف فى تقديرها النقاد ، وهى أنه كان أقدر القـادرين على عـزف موسيقى بتهـوفن خاصة ، وموسيقى غيره من أقطاب الفن على العموم .

وحين انتهى لست من عزف مقطوعة « الاداجيو » من سوناته « دود بيزمينير » لبتهوفن ، أقبل عليه المدعوون وفى مقدمتهم شوبان ليثنوا بمشاعرهم التى أغرقها فى فيض الذهول سحر النغم على تلك القدرة الفائقة التى أعادت إلى الأذهان صورة حية من صور بتهوفن الخالد . . ومرة أخرى طلب الحاضرون إلى لست أن يعزف لهم مقطوعة خاصة من مقطوعات « البريلود » لشوبان . . وكانت مقطوعة يعتز بها الموسيقار البولونى ويعتز بها الفن لأنها قطعة من نفسه الشاعرة فى فترة من فترات ألمه العبقرى ، ألمه الذى طالما تحدث عنه إلى الناس فى أنغام ، وعندما فرغ لست من عزف المقطوعة علت الدهشة وجوه الحاضرين . لأن شوبان لم يشترك بشعوره فى الإنصات . . ولا بلسانه فى الثناء ، كما فعل فى المرة السابقة حين عزف لست تلك المقطوعة الأولى من موسيقى بيتهوفن . . إن لست لم يخرج على أصول النوتة كما وضعها شوبان . . ولم تخنه المقدرة على العزف فى يوم من الأيام ، ولم يستطع صديقه صاحب « البريلود » أن ينكر هذا عليه ، ولكن . . ولكن كان هناك شىء ناقص أحسه شوبان ، ولم يحسه سواه إلا حين نهض هو ليأخذ مكان لست وليبدأ عزف المقطوعة من جديد .

لقد لمس الحاضرون أن هناك فارقا بعيدا بين الأنغام حين انطلقت من بين أنامل لست فى المرة الأولى وحين انطلقت فى المرة الثانية من بين أنامل شوبان ، ولقد كانت « مشاعرهم » هى المرصد الدقيق لتسجيل الفارق الفنى هنا وهناك ، لقد أقبل لست على صديقه يعانقه ويقبله ويقول له : حقا يا عزيزى شوبان ، إن اللحن قد خرج من بين يديك وهو شىء آخر . . لقد بعثت فيه من روحك لأنه قطعة من حياتك أنت . . هذا هو الأثر الفنى بين الفهم والتذوق حين يتمثل فى

مقطوعة موسيقية . . لقد كان الفارق الملموس بين لست وشوبان هو الفارق بين من « فهم » اللحن بعقله حين نقله عن أصول النوتة ، وبين من « تذوق » اللحن بشعوره حين نقله عن حديث الوجدان ، ومن هنا بدت مقطوعة « البريلود » عند لست جسدا جميلا بغير روح ، وبدت عند شوبان جسدا يفوق الأول جمالا لأن فيه الروح الذى يضفى على الفن كل معنى من معانى الحياة .

هنا فى هذا المثال ، مفترق الطريق بين أسلوبين فى تقديم الأثر الفنى إلى الجماهير . . أسلوب يعتمد على الذهن « الفاهم » وأسلوب يعتمد على الشعور « الذواق » . أو قل إنه اختلاف بين طبيعتين : طبيعة تتلقى الإثارة عن طريق الحس وطبيعة تتلقى الإثارة عن طريق النفس ، أو قل مرة أخرى إنه اختلاف بين مزاجين : مزاج يحلق بالتجربة المادية فى آفاق الفكر ومزاج يحلق بالتجربة النفسية فى آفاق الشعور . . وإنه لذلك الاختلاف الذى تبرزه الفوارق الدقيقة بين فنان تذوق الحياة منعكسة على الذات الشاعرة وبين فنان فهم الحياة منعكسة على الورقة الناقلة ونعنى النوتة الموسيقية التى نقل عنها لست فترة من حياة صديقه بنقلا ذهنيا لا حرارة فيه » .

هذه هى فكرة المعداوى النظرية والتطبيقية عن « الأداء النفسى » ، فهل هذه الفكرة النقدية جديدة ؟ وهل ترقى إلى أن تكون مذهبا مستقلا أو نظرية جديدة كما يحلو للمعداوى أن يسمى فكرته ؟

بالنسبة للقسم الأول من السؤال عن الجديد الذى قدمه المعداوى فى فكرته النقدية ، فنحن نجد أن المعداوى هو فى حقيقته ناقد جديد حقا ، ولكنه فى النهاية حلقة فى سلسلة قدمتها مدرسة سابقة عليه فى النقد العربى ، وقد بدأت هذه المدرسة بما يسمى باسم « مدرسة

الديوان » التى كان أعلامها هم : العقاد والمازنى وشكرى ، وقد ظهرت هذه المدرسة فى أوائل القرن العشرين ، وكانت دعوتها تقوم على أن الشعر ينبغى أن يعبر أساسا عن العالم الداخلى للإنسان ، وأن يكون صادرا عن الشخصية المستقلة المتميزة للفنان دون تقليد أو ترديد ، وكما قال عبد الرحمن شكرى أحد أعلام هذه المدرسة فى إحدى قصائده :

يا طائر الفردوس
إن الشعر وجدان

كان موقف أصحاب هذه المدرسة من الفن ، والذى كان يتركز عندهم فى الشعر ، هو رد على الموقف الكلاسيكى فى فهم الشعر العربى ، وهو الموقف الذى كان ينظر إلى الشعر على أنه تعبير عن المناسبات الخارجية بعيدا عن الوجدان الذاتى للشاعر نفسه .

وقد تطور هذا المفهوم الجديد وازداد وضوحا على يد الدكتور محمد مندور ، فقد دعا مندور إلى ما أسماه « الهمس فى الأدب » بدلا من « الخطابة » وهو ما يساوى عند المعداوى « الأداء النفسى » بدلا من « الأداء اللفظى » . . يقول مندور عن « الهمس » فى الصفحة الخمسين من كتابه « فى الميزان الجديد » :

« الهمس فى الشعر ليس معناه الضعف ، فالشاعر القوى هو الذى يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه فى نغمات حارة ، ولكنه غير الخطابة التى تغلب على شعرنا فتفسده ، إذ تبعده عن النفس ، عن الصدق ، عن الدنو من القلوب . الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع فى غير جهد ولا إحكام صناعة ، وإنما هو إحساس بتأثير

عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجد ، وهذا فى الغالب لا يكون من الشاعر عن وعى بما يفعل . . وإنما هى غريزته المستنيرة ما تزال به حتى يقع على ما يريد . الهمس ليس معناه قصر الأدب أو الشعر على المشاعر الشخصية ، فالأديب الإنسانى يحدثك عن أى شىء يهمس به فيثير فؤادك . . ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب » .

لو تأملنا هذه الكلمات التى كتبها مندور وجعل منها أساسا لدعوته التى انتشرت فى الوطن العربى كله وهى دعوة « الأدب المهموس » لوجدنا أن المعنى الذى يدعو إليه مندور قريب من المعنى الذى ينادى به المعداوى فى دعوته « للأداء النفسى » فى الفن ، وإن اختلفت المصطلحات والألفاظ واختلفت البراهين والأدلة عند الناقدين ، بل إن مندور عندما أراد أن يطبق دعوته إلى الأدب المهموس على الشعر العربى اختار نموذجا من الشعر المهجرى هو قصيدة « أخى » لميخائيل نعيمة ، وكذلك فإن المعداوى عندما اختار نموذجا من الشعر العربى المعاصر ليطبق عليه دعوته إلى الأداء النفسى فقد وقع اختياره على قصيدة « وطن النجوم » للشاعر المهجرى إيليا أبو ماضى ، والقصيدتان متشابهتان فى جوهما وطريقة تعبيرهما وروحهما الإنسانية والفنية .

على أن أوضح مؤثر فى دعوة المعداوى إلى « الأداء النفسى » هو سيد قطب . . فالمعداوى يقول عندما يكتب عن الاداء النفسى :

« . . . إن فهم الحياة هو أن نفتح لها أبواب العقل . . أما تذوق الحياة فهو أن نفتح لتجاربها أبواب الشعور » .

وعلى أساس تفرقة المعداوى بين الفهم والتذوق أو بين العقل والشعور تتحدد ملامح « الأداء النفسى » الذى يعتمد على التذوق والشعور أكثر مما يعتمد على الفهم والعقل .

عندما نقرأ هذه الكلمات للمعداوى نجد أنها تدور فى حدود الفكرة التى سبقه إليها « سيد قطب » وعبر عنها فى كتابات نقدية متعددة ، ففى مقال بعنوان : « إلى الأستاذ توفيق الحكيم » نشره سيد قطب فى العدد ٨٢٧ من مجلة الرسالة الصادر فى ٩ مايو سنة ١٩٤٩ يقول مخاطبا توفيق الحكيم :

« أحب أن أطمئنك منذ اليوم على أن التاريخ لن ينسى لك دورك الأساسى الذى قمت به فى وضع « القالب الفنى » للمرة الأولى فى تاريخ الادب العربى للرواية التمثيلية وصنعه على أساس فنى صحيح ، وإلا فإن محاولات كثيرة قد سبقتك لوضع هذا القالب ، إلى آن جئت أنت فوفقت نهائيا لتكوين قالب فنى للحوار يحمل فكرة تدخله فى باب الأدب ، وينهج نهجا لم يلحقك فيه إلى اليوم أحد ، ولست أدرى متى يظهر التالى لك ، أو المتفوق عليك فيه .

هذا دورك الذى لن ينسى . دور « فى تاريخ التطور الفنى » ، أما نصيبك الذى سيبقى فى باب « القيم الفنية المطلقة » فأخشى أن أقول : إنك لم تقم به بعد ، لأنك ـ فى باب التمثيليات ـ لم تهتد بعد إلى النبع الأصيل الذى تستقى منه روحك العميقة لا فكرك الواعى فتنشىء عملا خالدا فيه حياة وروح » .

ثم يتحدث سيد قطب عن النبع الذى يشير إليه فيقول :
« . . إننى لا أعيب الثقافة ـ فهى أمر لابد منه اليوم لتكوين الأديب ـ ولكن الذى أعنيه أيها الصديق أنك ـ شأنك فى هذا شأن

ذلك الجيل كله من الشيوخ ـ تستلهم ثقافتك الفنية الغربية ، قبل أن تجد ذاتك الأصيلة .
من هنا يفقد فنك ـ كما تفقد أعمالهم جميعا ـ ذلك الطعم الخاص الذى يتذوقه القارىء فى آداب كل أمة ، والذى يميزه من آداب الأمم الأخرى . إنكم لا تجدون أنفسكم فى خضم ثقافتكم . إنكم تمتحون من رؤوسكم أكثر مما تستوحون قلوبكم ، وهذا هو العنصر الخطر عليكم جميعا » .

ثم يواصل سيد قطب التفرقة بين « الفهم » و« الشعور » فى مقاله وهو يحاول أن يفسر عدم ترجمة العرب للمسرح اليونانى المعتمد أساسا على أساطير الإغريق ، وسيد قطب يعترض على اتجاه توفيق الحكيم إلى الأسطورة اليونانية ، والمقال أساسا هو تعليق على مسرحية « أوديب » لتوفيق الحكيم . . يقول سيد قطب فى المقال نفسه معلقا على ترجمة العرب لجمهورية أفلاطون وعدم ترجمتهم للمسرح الإغريقى :

« إن الفارق بين كتاب الجمهورية والتراجيديا الإغريقية لبعيد . . إن الجمهورية موضوع يحتاج إلى « فهم » والتراجيديا موضوع يحتاج إلى « شعور » . . . وهذه هى العقدة فى قضية العرب والفن الإغريقى ، ثم فى قضيتك أنت بالذات .

إن الصعوبة الأساسية فى الأساطير واستلهامها ليست فى الحاجة إلى « الفهم » ، فالفهم قد يكون ممكنا بالشرح على نحو من الأنحاء ، لكن الصعوبة الحقيقية كامنة فى « الشعور » بها فى أعماق الضمير . إن الأسطورة تنبع من ضمير الشعب لا من رأسه ، وتعيش كامنة فى دمه وأحاسيسه .

« . . لهذا لم يكن ممكنا أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الإغريقية المستمدة فى صميمها من هذه الأساطير ، ولا أن تنتقل إلى تراثهم كما انتقلت الفلسفة ، لأن الفلسفة تراث ذهنى فى الأغلب ، والأسطورة تراث شعورى فى الصميم » .

ثم ينهى سيد قطب مقاله وهو يخاطب توفيق الحكيم :

« . . ولا تؤمن بما يقوله الدكتور طه حسين ـ مساه الله بالخير ـ ويردده من أن مصر إغريقية التفكير ؛ لأن مدرسة الإسكندرية القائمة على أساس الفلسفة الاغريقية تركت آثارا عميقة لا تمحى . . لا تؤمن بهذا فإنما هذه هى فتنة الدكتور الكبرى بالإغريق .

قد يكون ذلك صحيحا فى الفلسفة ، فى منطقة من مناطق الفكر المصرى لا فى سائر مناطقه . أما المنطقة الشعورية فلم تمسها تلك الفلسفة فضمائر ، الشعوب لا علاقة لها بالفلسفة . والأساطير تنبع من هذه الضمائر الحية لا من الأذهان الجرداء .

والفنون لا تكتب لها الحياة إلا حين تمتح من هذه الضمائر المكنونة حين تتصل بالنبع العميق السارى ، وراء الأذهان والأفكار .

ما من عمل واحد يخلد إلا إذا فاض من الشعور » .

هذه كلمات سيد قطب التى يفرق فيها بين « العقل » « والشعور » ، والتى يرى فيها أن الفن الأصيل إنما ينبع من الشعور قبل أن ينبع من العقل ، وهذه هى نفسها الفكرة التى أقام المعداوى على أساسها دعوته إلى « الأداء النفسى » فى الفن ، فالفن الذى يتوفر له الاعتماد على الوجدان والقلب والشعور والتذوق هو الفن الذى يتلاءم مع فكرة الأداء النفسى ، أما الفن الذى يعتمد على العقل والفكر والفهم فهو الفن الذى يبتعد عن الأداء النفسى ويسقط فى مجاله .

ففكرة المعداوى إذن عن « الأداء النفسى » فكرة سبقه إليها النقد العربى المعاصر ، وهو لا شك قد تأثر بالنقاد السابقين عليه فى تحديد هذه الفكرة ، وقد كان بينه وبين سيد قطب بالذات علاقة أدبية وشخصية وثيقة فى بداية حياته الأدبية ، فسيد قطب هو الذى قدم المعداوى إلى الحياة الأدبية ، كما أشرنا فى الصفحات السابقة ، وقد كان المعداوى يقول لى إنه كان يعتبر كتاب « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » للعقاد وكتاب « كتب وشخصيات » لسيد قطب أهم كتابين فى النقد العربى المعاصر ، وأنه بعد أن نضج تجاوز هذين الكتابين وأصبح ينظر إليهما نظرة أقل مما كان عليه الأمر فى البداية .

والحقيقة أننا إذا أضفنا إلى هذين الكتابين كتابا ثالثا هو « فى الميزان الجديد » لمحمد مندور فإننا نكون قد عرفنا المصادر النقدية العربية الأساسية التى تخرج تشكل المعداوى كناقد أدبى ، وليس معنى ذلك أن المعداوى لم يكن له جهد خاص به ، فالحقيقة أنه اكتسب أفكاره الرئيسية من هذه الكتب الثلاثة ، ولكنه استطاع أن يصوغ أفكاره النقدية صياغة خاصة به ، وأن يتوسع فى هذه الأفكار ويقدم عليها براهين جديدة ، ويدعمها بنماذج من ثقافته التى لم تكن قاصرة على الأدب العربى ، فقد كان المعداوى يحرص على مطالعة آثار النقد الأجنبى ، وخاصة عن طريق النصوص المترجمة إلى اللغة العربية لأن معرفته بالإنجليزية والفرنسية كانت معرفة متوسطة . وقد كان المعداوى قادرا على أن يهضم ما يقرؤه هضما جيدا وقادرا على أن يتذوقه تذوقا ممتازا ، وكانت قدرته على الهضم والاستيعاب والتذوق كبيرة جدا ، فقد كان يقرأ ما يقرؤه بعمق وحساسية بالغة .

كان المعداوى إذن متأثرا بما سبقه من أفكار نقدية ، ولكنه استوعب هذه الآراء وأضاف إليها وعبر عنها تعبيرا خاصا مستقلا ،

ثم أحسن استخدام هذه الأفكار النقدية فى مناقشاته للأعمال الأدبية المختلفة . إنه لم ينقل ولم يكرر آراء الآخرين ، ولكنه استوعب هذه الآراء وأضاف إليها ، ثم سار فى نفس الطريق متقدما على غيره ؛ لأنه كان أكثر شبابا من النقاد الذين تأثر بهم وأخذ عنهم .

أما أن « الأداء النفسى » كان نظرية نقدية أو مذهبا خاصا من مذاهب النقد ، كما يقول المعداوى ، فهذا ما لا يمكننا أن نوافق عليه ، فالنظرية النقدية هى التى تحدث « انقلابا » كاملا فى الحياة الأدبية ، والمذهب النقدى هو الذى يخلق مدرسة كاملة من الأدباء الملتزمين بهذا المذهب ، و« الأداء النفسى » لم يحدث انقلابا فى الأدب العربى المعاصر ، كما أننا لا نجد أدباء يمكننا أن نطلق عليهم اسم مدرسة « الأداء النفسى » فى الأدب العربى المعاصر .

« الأداء النفسى » هو فكرة ذكية صاغها المعداوى صياغة ممتازة ، وكان لها مساهمتها الفعالة فى هدم المفهوم الكلاسيكى للأدب ، ذلك المفهوم الذى كاد يؤدى إلى تجميد الأدب العربى كله عند حدود الألفاظ والقوالب التقليدية الجامدة ، فجاءت مدرسة النقد العربى الجديد وأرست مفهوما إنسانيا شاملا للأدب العربى ، وكان المعداوى من أبرز نقاد هذه المدرسة .

هذا هو الإنجاز الادبى البارز الذى قدمه أنور المعداوى فى فترة إنتاجه الخصب العزير من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ ، وهذه الفترة هى أفضل فترات حياته الأدبية وأكثرها ذكاء وحرارة ، وهى الفترة التى لمع فيها نجم المعداوى وارتفع صوته الأدبى حتى أصبح خلال هذه السنوات ـ كما أشرت من قبل ـ ألمع ناقد فى الوطن العربى كله .

لقد ارتبط المعداوى بالاتجاهات الجديدة فى النقد الأدبى ، وساهم مساهمة بارزة فى هذه الاتجاهات التى كانت تهدف إلى تحرير الأدب العربى من الصنعة والافتعال ، وتحريره من الآفاق الضيقة التى كان يتحرك فيها . ودفعه إلى الآفاق الإنسانية الواسعة حيث يستطيع هذا الأدب أن يشمس التعبير عن النفس الإنسانية وعن حياة الإنسان وصراعه مع المجتمع والطبيعة ، بدلا مما كان الأدب العربى قد وصل إليه من جمود ووقف عنده من صراعات حول الألفاظ وحول التشبيهات والاستعارات وسائر ألوان البلاغة التقليدية . . . وما كان قد وصل إليه أيضا فى المجال الموضوعى من وقوف عند أغراض المدح والتهنئة والرثاء وصياغة الأحداث الواقعية صياغة منظومة بدون رؤية خاصة أو تفسير مستقل ، أو تصوير للتجارب الإنسانية والاجتماعية العميقة .

بعد سنة ١٩٥٢ بدأت حياة المعداوى الأدبية تتعرض لأزمات عديدة ، وكان يتخلص من أزمة ليقع من أزمة جديدة ، وقد ظلت هذه الأزمات تتصاعد حتى قضت عليه سنة ١٩٦٥ .

فى أول سنة ١٩٥٣ توقفت مجلة « الرسالة » عن الصدور ، وبذلك فقد المعداوى تلك البيئة الأدبية التى كانت تتلقاه بالترحيب والتدليل ، على أن المعداوى كان قد انقطع عن مجلة « الرسالة » قبل أن تغلق أبوابها بشهور ، وذلك ـ كما يقول فى رسائله إلى فدوى طوقان ـ لأن «الرسالة» قد فقدت قيمتها وبدأت تنشر إنتاجا أدبيا ضعيفا ، مما جعل المعداوى غير قادر على أن يتلاءم مع جو « الرسالة » بعد أن أصابها كل هذا الضعف ، بسبب شيخوخة صاحبها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات وعجزه عن متابعة الحياة الأدبية بحيوية ونشاط وقوة كما كان يفعل فى الماضى .

على أن إغلاق مجلة الرسالة سنة ١٩٥٣ كان يعنى فى حقيقته انتهاء مرحلة أدبية وبداية مرحلة أخرى ، فقد كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد قامت ، وانهار مع قيامها النظام الملكى ، كما انهارت الأرستقراطية القديمة فى الريف والمدن مع انهيار النظام الملكى ، وبدأت تسرى فى حياة مصر روح شعبية ، مصدرها أن الطبقات الشعبية قد أحست بأن التغيير يتم لمصلحتها بصورة عامة ، وفى هذا الجو ظهرت موجة جديدة من الأدب والنقد ، وكان الاتجاه الواقعى هو الاتجاه الأدبى الوليد الذى أخذ يفرض نفسه على الحياة ، ومع هذه الموجة الجديدة ، ظهر أدباء جدد ونقاد لهم منطق آخر فى فهم الأدب وتقويمه غير منطق المعداوى ، وكان هذا المنطق الجديد فى جوهره يدعو دعوة عنيفة ومباشرة وصريحة إلى أن يكون « الأدب للحياة » ، أى أن يكون الأدب تعبيرا عن مشاكل الإنسان الاجتماعية قبل أى شىء آخر ، وكأى شىء جديد سيطرت الموجة الأدبية الوليدة على الميدان ، حيث وجد المعداوى أنه ابتعد عن الصورة ، ولم يعد فى قلب الحركة الأدبية كما كان من قبل .

ولا شك أن هذه الموجة الأدبية الجديدة قد عدلت من نظرة المعداوى النقدية ، فتبنى - عن اقتناع وصدق - فى هذه الفترة دعوة « سارتر » إلى « الالتزام الأدبى » ؛ هذا الالتزام الذى يفرض على الأديب أن يرتبط بقضية عامة كبيرة وألا يقتصر فى تعبيره الأدبى على قضاياه الذاتية . وقد ظل المعداوى ينادى بالالتزام حتى آخر لحظة فى حياته الأدبية .

كان ظهور هذه الموجة الجديدة فى الأدب هو أول صدمة للمعداوى ؛ لأنها زحزحته عن مكانته النقدية البارزة وأفسحت

المجال لنقاد آخرين ، وقد اصطدم المعداوى مع أبرز نقاد هذه المرحلة « من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٨ » وهو محمود أمين العالم ، فقد كتب المعداوى ينقد رواية « الأرض » لعبد الرحمن الشرقاوى ، وكانت نموذجا يعتز به النقاد الواقعيون ويعتبرونه أحد الأمثلة العليا للأدب الجديد ، ورد عليه العالم يطالبه بالدليل ، فكتب المعداوى بحثا نقديا طويلا يثبت فيه أن رواية الأرض ما هى إلا « ريبورتاج صحفى وسياسى كبير » ، وأنها رواية ضعيفة من الناحية الفنية ضعفا واضحا ، وكان ميدان هذه المعركة هو مجلة الآداب اللبنانية ، وقد نشر المعداوى بحثه عن رواية الأرض بعد ذلك فى كتابه « كلمات فى الأدب » وهو الكتاب الذى ظهر بعد وفاته بقليل .

وليس المهم هنا هو أن نستعرض تفاصيل هذه المعركة الأدبية حول رواية « الأرض » ، ولكن المهم هو أن نشير إلى أن المعداوى لم يكن على وفاق مع نقاد اليسار ؛ لأنه لم يكن يحب أبدا أن يضحى « بالقيمة الجمالية » فى الأدب لحساب القيمة الموضوعية ، ولم تكن الدوافع السياسية تكفى لديه لكى يكون للأدب عنده قيمة وأهمية ، بل كان يحرص أشد الحرص على القيمة الفنية أولا وقبل كل شىء ، وقد كان هذا الموقف من جانب المعداوى فى دفاعه عن « الجمال الفنى » وعدم التضحية بهذا الجمال لحساب الفكر أو الموضوع ؛ كان هذا الموقف من المواقف الهامة التى خدمت الأدب العربى الجديد وأنقذته من التحول إلى منشورات سياسية باردة .

ورغم أن المعداوى واجه معركته مع النقد اليسارى بقوة وشجاعة فإنه أحس أن موجة النقد اليسارى التى كانت طاغية فى أوائل الخمسينات قد وقفت منه موقف « اللا مبالاة » مع شىء من التوجس والحذر .

وهنا نتوقف لحظة لنشير إلى المحنة التى وقع فيها « أنور المعداوى » باعتباره ناقدا يمكننا أن نسميه باسم الناقد « اللا منتمى » ، لقد وقع فى أزمة مع نقاد اليسار ؛ لأنه كان يرفض التضحية بالجمال الفنى من أجل الفكرة السياسية ، ووقع فى نفس الوقت فى أزمة أشد وأقسى مع اليمين الادبى ؛ لان أدب اليمين فى مصر كان أدبا سطحيا تافها يهدف إلى الاثارة والرواج التجارى قبل كل شىء ، وهو أدب لا قيمة له لا من ناحية الفكر ولا من ناحية الجمال الفنى .

وهكذا وجد المعداوى نفسه وحيدا بين معسكرين كبيرين : معسكر اليسار ومعسكر اليمين ، لقد كان يرفع رايته الخاصة وهى راية الجمال الفنى قبل أى شىء آخر ، وهذه « الوحدة » التى سقط فيها المعداوى سدت أمامه السبل ، فلم يهتم اليساريون بدعوته للكتابة فى صحفهم لأنهم سلبيون إزاءه ، أما اليمين الأدبى فقد حاربه بضراوة وعنف حتى آخر لحظة له فى حياته .

وهذه الوحدة أو العزلة التى تعرض لها المعداوى كانت من أقوى الأسباب التى سدت فى طريقه أبواب الحياة الأدبية بعد أن كانت مفتوحة له على مصراعيها فى المرحلة الأولى من حياته .

ولا شك أن اليسار قد أخطأ فى موقفه من المعداوى ؛ لانه كان كاتبا وطنيا جادا وكان ناقدا شجاعا ، ولم يقبل أن يكون أبدا على وفاق مع اليمين الأدبى ، ولقد كان من أجل هذا كله جديرا بالاهتمام والرعاية من معسكر اليسار الأدبى ، الذى أهمله واتخذ منه موقف السلبية وعدم الاهتمام أو المبالاة .



أنور المعداوى ومأساته الخاصة

بينما كان أنور المعداوى يعانى من صراعه مع الحياة الأدبية كما شرحنا ذلك فى الفصل السابق ، ويحاول أن يخرج من هذا الصراع منتصرا أو على الاقل واقفا على قدميه وسط الأعاصير التى كانت تعمل على اقتلاعه من جذوره والقضاء عليه ، بينما كان المعداوى يعانى من هذا الصراع وقعت له أزمة أخرى فى حياته الشخصية ، لقد كان موظفا فى « إدارة الثقافة » بوزارة المعارف ، وذات يوم اصطدم بمدير هذه الادارة وكان فى ذلك الحين هو الدكتور سليمان حزين ، وكان الصدام حول تقرير كتبه المعداوى لمديره ، وقد أراد المدير أن يغير فى هذا التقرير بحجة ضعف بعض عباراته ولم يقبل المعداوى ذلك واحتج بشدة وعنف .

كان المعداوى ـ كما يقول فى احدى رسائله الى فدوى طوقان ـ يريد من الناس أن يعاملوه على قدر منصبه « الثقافى » ـ ولكن مديره أراد أن يعامله على قدر منصبه « الحكومى » ، وكان منصب المعداوى الثقافى

كبيرا فى ذلك الحين بينما كان منصبه الحكومى بسيطا ، فقد كان فى أول سلم الوظيفة لأنه مازال شابا تخرج من الجامعة منذ أقل من عشر سنوات .

وعندما انتقل الدكتور سليمان حزين ليعمل وكيلا لوزارة المعارف بعد ذلك لم ينس موقف المعداوى منه ، وأصدر الوكيل قرارا بنقل المعداوى من وظيفته فى إدارة الثقافة بوزارة المعارف إلى وظيفة أخرى هى وظيفة مدرس للغة العربية بمدرسة خليل أغا الثانوية بالقاهرة .

وكان موقف الدكتور حزين انتقاميا وقاسيا وغير عادل على الإطلاق ، رغم أن الدكتور حزين عالم كبير وكاتب كبير وأستاذ بارز من أساتذة الجيل ، وكان هذا الصدام بين المعداوى و« البيروقراطية » صداما مرا ، حيث وجد المعداوى نفسه فجأة وهو مطالب بتدريس النحو والإنشاء والنصوص الشعرية الرديئة لتلاميذ المدارس الثانوية ، بعد أن كان فى عمله القديم يقوم بمهمة ثقافية هى اختيار الكتب المناسبة لمكتبات المدارس .

وقد تأثر المعداوى أشد التأثر بسبب قرار نقله إلى التدريس ، وحاول أن يلغى القرار فلم يستطع ولم تمتد إليه يد بالعون . . وهو الذى كان بالأمس يمد يده بالعون للكثيرين ، ولم يستطع المعداوى أن يجد لنفسه مكانا مناسبا فى الصحافة ، وتخلى عنه - مع الأسف - جميع أصدقائه من كبار الصحفيين ومن بينهم كامل الشناوى وأحمد الصاوى محمد وغيرهما من أصحاب الكلمة المسموعة فى الصحافة المصرية آنذاك .

وحاصرته من ناحية أخرى « لا مبالاة » اليسار وحذره منه ، وكراهية اليمين الأدبى له وحربه عليه .

واضطر المعداوى إلى أن يعمل مدرسا لمدة ثلاث سنوات فيما أذكر ما بين ١٩٥٤ و ١٩٥٧ ، ثم ترك التدريس وفصلته وزارة المعارف بسبب تغيبه عن عمله بدون إذن ، ويبقى فترة من الوقت بلا عمل ، وأخيرا سعى له بعض أصدقائه حتى تم تعيينه موظفا بالمكافأة - أى على غير درجة ثابتة - بوزارة الثقافة ، وظل فى هذا العمل المتواضع حتى وفاته سنة ١٩٦٥ وكان على رأس الذين وقفوا بجانبه وساعدوه فى تلك الفترة الأديب الكبير يحيى حقى .

تأثر المعداوى أشد التأثر بصراعه مع « البيروقراطية » فى وزارة المعارف ، وأحس بأن قيمته الأدبية وكفاحه الثقافى يهدران إهدارا غير كريم ، وكان المعداوى محقا فى إحساسه كل الحق ، فلقد كان موقف وزارة المعارف منه هو حرب من « البيروقراطية » ضد الموهبة ، وكانت حربا غير عادلة وغير رحيمة .

على أن المحنة التى أصابت المعداوى فى عمله ، والجرح الذى أصيبت به نفسه فى صراعه مع البيروقراطية قد أضيفت إليهما محنة أخرى هى محنة المرض الذى أصاب المعداوى منذ سنة ١٩٥٣ وظل مصاحبا له حتى وفاته فى ١٩٦٥ .

ولم يكن مرض المعداوى واحدا بل كان أكثر من مرض .
كان أول مرض عانى منه المعداوى هو مرض « الكلى » ، وكان هذا المرض يسبب له آلاما شديدة ، وقد أجريت له عملية جراحية خطيرة لإخراج « حصوة » من إحدى كليتيه ، ولكن هذه العملية لم تنجح نجاحا كاملا . بل كان من الضرورى إجراء عملية جديدة ، ولكنه رفض هذه العملية الأخرى وظل يعالج نفسه بالمسّكنات حتى النهاية .

أما المرض الثانى فهو المرض القاتل الذى أصابه فى أواخر الخمسينات وهو « ضغط الدم الخبيث » ، ويحدثنا المعداوى نفسه عن هذا المرض فى رسالة بعث بها سنة ١٩٦٣ إلى الأستاذ غالى شكرى ونشر الدكتور لويس عوض نصها عندما كتب عن المعداوى وعن محنته فى مقال له فى الأهرام بعنوان « رفض الحياة » ، وقد نشرت الأهرام هذا المقال فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ .

يقول المعداوى فى رسالته :

« . . الذى حدث لى يا عزيزى غالى أننى مصاب بضغط دم يسميه الأطباء « ضغط الدم الخبيث » . . . ولقد سبب هذا النوع من الضغط التهابا فى أعصاب المخ ترتب عليه أننى مكثت أربعة أشهر لا أنام فى اليوم بأكمله غير ثلاث ساعات ، ولقد سببت لى قلة النوم انهيارا فى الأعصاب حتى أصبحت لا أستطيع النوم الآن بغير الأقراص المنومة ، رغم خطورة الاستعمال الدائم لها ، وأنا الآن ومنذ شهرين فى الإسكندرية أعالج الأعصاب المرهقة من قلة النوم ، ولقد زارنى هنا الأستاذ يحيى حقى واطلع بنفسه على أكداس الأدوية التى قررها الأطباء ، ولا أدرى يا عزيزى غالى متى ينتهى العلاج » .

هذا هو وصف المعداوى لمرض ضغط الدم الذى أصابه فى سنواته الأخيرة والذى كان سببا رئيسيا فى وفاته .

وقد أصيب المعداوى نتيجة لهذين المرضين ، ونتيجة للمرض الأخير بالذات بحالة من الكآبة النفسية البالغة التى يصفها لنا الدكتور لويس عوض فى مقاله فيقول :

« لست أدرى كيف أبدأ هذا المقال عن رفض الحياة ، لأن موضوعى هذه المرة ليس مشكلة أدبية أو ثقافية ولكنه مشكلة

إنسانية . وهذه المشكلة تتصل بزميل لنا فى القلم كلنا نقدر فضله على النقد الأدبى مهما اختلفنا معه فى الرأى أو تعددت انتماءاتنا الأدبية ومدارسنا الفنية ومناهجنا فى البحث عن الحقيقة . وهذا الزميل فى القلم هو الناقد المعروف أنور المعداوى ، صاحب كتاب « نماذج فنية من الأدب والنقد » الذى صدر فى عام ١٩٥١ ، وصاحب البحوث الأدبية العديدة فى مجلة « الرسالة » أيام ازدهارها وفى مجلة « المجلة » وسواهما من مجلات الأدب والثقافة فى مصر وغيرها من بلاد العالم العربى .

أقول إنها مشكلة إنسانية لأن الأنباء تواترت بأن هذا الزميل الكريم قد قرر أو قرر له أن يعتزل المجتمع وكل ما فيه من ناس وشئون . وأن يعتزل الأدب والفن والفكر ، باختصار قرر أو قرر له أن يعتزل الحياة . تواترت الأنباء أن أنور المعداوى قد قرر أو قرر له منذ شهور أن يترك القاهرة وصراعاتها وأن يعتكف فى قريته وهى معدية مهدى بمحافظة كفر الشيخ ، وأن يخلع البدلة وأن يعود إلى الجلباب يلبسه طول اليوم وألا يرى أحدا ولا يراه أحد ، وأن يجلس عامة النهار صامتا أو شبه صامت يفكر فى لا شىء على وجه التحديد ، أو يفكر فى أشياء الله وحده يعلم ما هى ومن أين نبعت وأين تصب ، لأنها أفكار انطوائية من أفكار النفس المغلقة على ذاتها التى لا تتصل إلى الحياة بسبب معروف ، أفكار لا يستطيع قراءاتها إلا الأطباء النفسانيون لأنها مقطوعة الوشائج بالحياة الخارجية . فان سألتنى ما علة أنور المعداوى لم أعرف لك جوابا : قيل إنها انهيار عصبى ، وقيل إنها داء الكآبة أو الميلانكويا ، ولعلها تكون غير ذلك من أمراض النفس الكثيرة التى لا يحسن تشخيصها إلا الأطباء النفسانيون ، وهى فى صميمها نابعة من رفض الحياة » .

هذا هو ما يقوله الدكتور لويس عوض .

على أن أنور المعداوى فى رسالته التى كتبها إلى غالى شكرى يفض هذا « التشخيص » الذى يقدمه لويس عوض لمرضه فيقول فى هذه الرسالة :

« يا عزيزى غالى
أرجو أن تقوم بالنيابة عنى بتكذيب الإشاعة الرائجة بأننى أعانى من أزمة نفسية ، أقسم لك بأخوتنا أن هذا كذب واختلاق ولا أساس له من الصحة ، ولست أنا الذى ترغمه الأزمات النفسية على العزلة والانطواء ، إنك أول من يعرف عنى هذه الحقيقة ، ولعلك تنفيها من الأساس » .

ويعلق الدكتور لويس عوض على هذه الفقرة من خطاب أنور المعداوى فيقول وهو على حق تماما فيما يقول :

« واضح من هذا الخطاب أن أنور المعداوى رجل صاحب عزة وأنفه وإيمان بقوته وقدرته على احتمال الشدائد بحيث يأبى أن يقال عنه إنه أصيب بأزمة نفسية أو أن انطواءه كان نتيجة لتخاذله أمام أزمات النفس ، ونحن الأدباء لا نستغرب منه هذا القول لأننا نعرف أنور المعداوى أديبا معتدا برأيه وكرامته وشخصيته وناقدا مقداما صائلا جائلا خواضا للمعارك فى سبيل الحق أو فى سبيل ما يعتقد أنه الحق » .

ثم يواصل الدكتور لويس عوض تعليقه على خطاب المعداوى فيقول :

« . . ومع ذلك فإن بقية الخطاب تدل على أن المعداوى مريض فعلا بمرض من أمراض النفس ، فما التهـاب أعصاب المخ الذى يتحدث عنه ـ لا شك عن تشخيص الأطباء ـ إلا النـورستانيـا فيما نعلم ، وهى التى تمنـع صاحبهـا من النـوم إلا بمسـاعـدة الحبـوب المنومة ، وسواء أسمينا ما يعانى منه أنور المعداوى مرضا من أمراض النفس أو مرضا من أمراض الأعصاب فالنتيجة فى الحالتين واحدة وهى أنه مريض مرضا شديدا ، وهى أن مرضه قـد أفضى به إلى الانزواء هذا الانزواء التام فى قريته ورفض الحياة جملة وتفصيلا . بل إننا نفهم من كلام بعض الأطبـاء أن هذا النـوع من الأمراض إذا استطال واستعصى ولم يجد صاحبه الرعاية الكافية والعلاج الكافى قد يكون خطرا على الحياة نفسها . ونحن نبغض أن نتصور ناقدا نابها وخادما مخلصا لحياتنا الأدبية كأنور المعداوى لا يزال فى صدر رجولته فهو لم يتجاوز الثانية والأربعين من عمره ، معـرض لهذا المعـرض الأليم . فهو إذن بحاجة إلى عين تسهر على صحته ، وهو إذن بحاجة إلى يد تعينه على دفع غائلة هذا المرض الوبيل ، وهو ليس وحـده المحتاج إلى هذه العين الساهرة وهذه اليد المعينة ، لأن الأدب العربى والنقد العربى بحاجة إلى أنور المعداوى الذى لا يزال فى مقتبل حياته والذى نرجو أن يعود إلى دولة القلم ليثرى أدبنا بعلمه ورأيه » .

هذه الصرخة التى صرخها الدكتور لَوِيس عوض فى أواخر سنة ١٩٦٣ لم تجد شيئا فى إنقاذ أنور المعداوى ، فقد ظل المعداوى أسيـرا لمرضه حتى مات بعد صرخة لويس عوض بعامين وثلاثة أسابيع ، فقد توفى المعداوى ـ كما أشرنا من قبل ـ فى ٧ ديسمبر ١٩٦٥ .

ويقول لويس عوض فى مقاله أيضا :

« لقد جاء إلى علمى أن أحد الأدباء ميسور الحال من المشتغلين بشئون الثقافة[1] ، استحى من ذكر أسمه حتى لا أخجله يرسل له كل شهر من ماله الخاص مرتبه الذى كان يتقاضاه من وزارة الثقافة بعد أن قطعت وزارة الثقافة هذا المرتب بسبب انقطاعه عن العمل . . إن هذا الأديب الكريم يرسل للمعداوى مرتبه من ماله الخاص ليس فقط لأن المعداوى - وهو من أسرة كريمة - كأكثرنا بحاجة إلى مرتبه ليعيش ، ولكن ليجعله يحس أنه لا يزال موظفا فى الدولة ، وأن الأسباب لم تنقطع بينه وبين الحياة ، وأن مكانه فى المجتمع لا يزال محفوظا له ، وما عليه إلا أن يعود إلى القاهرة ليحتله من جديد ، وكأنه الآن فى إجازة لا أكثر ولا أقل ، وما ذكرت هذا الأمر إلا لدلالته على أن بلادنا مازالت بخير وأن الأوفياء من أبنائها وأهل الشهامة والفروسية مازالوا كثيرين تجدهم فى كل ركن وفى كل قطاع من قطاعات المجتمع ، وأن هؤلاء الفرسان الأوفياء يصلحون بوفائهم وفروسيتهم ما يفسده الروتين الحكومى والجمود البيروقراطى » .

وينقل الدكتور لويس عوض حديثا لأحد الأدباء الذين زاروا المعداوى فى قريته أثناء مرضه فيقول : « حدثنى أحد هؤلاء الأدباء

---

(١) هذا الأديب الذى لم يذكر الدكتور لويس أسمه هو الأستاذ الفاضل محمود شعبان الذى كان موظفا بوزارة الثقافة ، ثم انتقل أخيرا إلى العمل كخبير بالمجالس القومية المتخصصة ، وكان شعبان صديقا مخلصا للمعداوى ولم يتخل عنه أبدا فى أيام محنته ، وقد حدثنى الأستاذ شعبان أن ما كان يدفعه للمعداوى كان نوعا من القرض ، وأن المعداوى قد سدد له كل مليم أخذه منه قبل وفاته ، وقد توفى الأستاذ شعبان فى أوائل ١٩٨٩ ، رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان من أنبل الشخصيات التى عرفتها فى حياتنا الثقافية .

الأوفياء الذين عادوا المعداوى أثناء مرضه ، وهو محمود السعدنى ، قال :

كأنى به يريد أن يعود إلى رحم الأم من جديد ، هكذا بلغت رغبته فى الانسحاب من الحياة ، فهو لا يقرأ حتى الصحيفة اليومية ، وحين فاجأه صوت الترانزستور الذى كنت أحمله ثار فى وجهى ثورة تبلغ مبلغ الهياج وأمرنى أن أقفل الراديو ، وهو يأبى أن يسمع أى شىء يتصل بمجرى الحياة ولا سيما فى محيط الأدب والأدباء » .

هذا هو المعداوى فى أزمته المرضية التى انتهى إليها ، حرصت على أن أنقلها بقدر كبير من التفصيل من خلال تلك الصورة الدقيقة التى رسمها الدكتور لويس عوض ، وهى صورة صحيحة تماما ، وقد ظل المعداوى على هذه الحالة النفسية المكتئبة الحزينة حتى بعد عودته إلى القاهرة فى أوائل سنة ١٩٦٤ ، رغم أنه كان ينكر فى أحاديثه أى قول بأنه يعانى أزمة نفسية ، وكان ينكر أيضا أنه فى حاجة إلى علاج آخر غير علاج الجسد ، فقد كان على الدوام شديد الكبرياء حريصا على ألا يجرحه أحد أو موقف من مواقف الحياة .

على أننى أود اليوم ـ للحقيقة والتاريخ ـ أن أضيف شيئا عن مرضه ، فلم يكن المعداوى يعانى فقط من مرض الكلى أو ضغط الدم ، فقد كان هناك مرض ثالث لست أشك فى أنه كان يعانى منه ، وأنه كان يسبب له كثيرا من ألوان الضيق والأزمات النفسية الخفية ، ولست أشك فى أن هذا المرض الأخير كان من أكبر أسباب المحنة التى تعرضت لها شخصية المعداوى ونفسيته .

لقد كان المعداوى ـ فى رأيى ـ يعانى مرضا من الأمراض التى منعته من الزواج ، وقد حاول أن يخفى هذا المرض عن الجميع ، وظل يعانى منه وحده حتى مات .

كان المعداوى عندما لقيته لأول مرة سنة ١٩٥١ فى الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان شديد الأناقة والوسامة مشرقا قويا طويل القامة مليئا بالصحة والعافية مقبلا على الحياة . . ولم أكن أتصور على الإطلاق أن مثل هذه القوة والحيوية المتفجرة والقامة المديدة يمكن أن يكون وراءها مرض من هذه الأمراض الخفية التى تحول بين صاحبها وممارسة الحياة الطبيعية ، ولم يخطر على بالى مثل هذا الخاطر أبدا ، ولكن فكرتى عن هذا المرض الذى كان المعداوى يعانيه بدأت تولد فى ذهنى بعد لقائنا الأول بسنوات عديدة ومن خلال ملاحظات تجمعت فى ذهنى واحدة بعد الأخرى حتى تكاملت صورة تقريبية لهذا المرض فى آخر الأمر .

كنت أسأل المعداوى عن سر عدم زواجه فكان يجيب بأنه لا يأمن الظروف الاجتماعية ، ولا يحب أن يحنى رأسه ، ولا يريد أن يعرض أولاده لأى مشكلة من مشاكل الحياة فى مجتمع مثل مجتمعنا لا يرحم .

وقد كانت هذه الفكرة غريبة بالنسبة للمعداوى ، وخاصة فى أوائل الخمسينات عندما كان المعداوى فى مقتبل حياته وكامل قوته ، وكان نجمه الأدبى متألقا ، وكانت الحياة تفتح له آنذاك ذراعيها بقوة وحرارة ؛ ولذلك فلم يكن هناك مبرر لهذا التشاؤم المبكر ولم يكن هناك تفسير سليم له .

ثم لاحظت بعد ذلك أن كل علاقات المعداوى العاطفية التى كتب عنها أو حدثنى بها دون أن يكتب حولها شيئا . . هذه العلاقات العاطفية كلها كانت تنتهى بالفشل على الدوام . وقد كتب عن علاقة عاطفية له فى مقال وجدانى نشره سنة ١٩٤٨ فى مجلة « الرسالة » بعنوان « من الأعماق » وأنهى المقال بأن حبيبته قد ماتت فجأة فى ليلة

عيد ، وقد حدثنى المعداوى عن أن هذه العلاقة لم تنته بالموت كما كتب فى مقاله الوجدانى وإنما انتهت بالافتراق لسبب من الأسباب ، وهذا هو ما كتبه لفدوى طوقان فى إحدى رسائله المنشورة فى هذا الكتاب ، وقد قال لفدوى أيضا إن صاحبة « من الأعماق » لم تمت ، وإنما حدث بينهما فراق اعتبره المعداوى نوعا من الموت الذى أنهى هذه العلاقة .

وذات يوم فى أواخر الخمسينات قال لى المعداوى : « إننى سوف أكشف لك سرا لم أكشفه لأحد عن حياتى ، ولكننى لن أقوله لك الآن ، وسوف أضع هذا السر أمانة فى عنقك وحدك بعد أن عرفتك وعرفت مدى وفائك لى » .

ولكن الأيام مرت وتوفى « المعداوى » دون أن يقول لى شيئا عن هذا السر الذى أشار اليه .

ومرة أخرى قال لى إنه سأل فتاة كانت تحبه أشد الحب : هل بالإمكان أن نتزوج دون أن تكون بيننا علاقة جسدية ؟ فأجابته الفتاة بأن كل ما يهمها منه هو الحب ، هو قلبه وعاطفته ، ولكن الفتاة ذهبت فى اليوم التالى ولم تعد إليه أبدا .

وقد روى لى هذه القصة وهو يقول لى : إن المرأة لايمكن أن تحب بقلبها فقط ولكنها تحب بجسدها أيضا ولاتستطيع أن تستغنى عن ذلك .

وكنت ألاحظ أن برنامج حياته فى القاهرة كان واحدا لا يتغير ، فهو فى عمله صباحا ، أما فى المساء فهو فى ندوته بمقهى « عبد الله » فى الجيزة أو « مقهى انديانا » أو مقهى « بارادى » بالدقى ، وكنت

أسأل نفسى أحيانا فى فضول : أليس هذا الأديب الموهوب والرجل الرشيق الوسيم علاقة حب تشغل بعض وقته وتملأ جانبا من حياته ؟ . . وكنت لا أجد جوابا عن هذا السؤال .

وفى رسائله إلى فدوى طوقان سوف نلاحظ أنه فى القسم الأول من هذه الرسائل يحاول أن يؤكد لفدوى أن شعوره نحوها هو شعور الأخوة الصادقة ، وكان يحاول أن يهرب من أى تلميح من جانبه إلى أى معنى عاطفى ، وعندما بدأت فدوى تبوح بعواطفها نحوه ، وبدأ هو يعجز عن كتمان عواطفه هو الآخر إذا به فجأة يكتب لها : يجب الآن أن نفترق ، أى أنه بعد أن بدأت علاقته بفدوى تأخذ طابعا عاطفيا قرر الهرب وقطع علاقته بها . وقد اضطربت فدوى لهذا الموقف المفاجىء ممن كان يهتم بها أشد الاهتمام ، ويحنو عليها حنوا بالغا فى رسائله السابقة ، على أننا نجد المعداوى يعود مرة أخرى وبصورة مفاجئة إلى فدوى ، ولكن بعد أن أصابه المرض وأحس بحاجته المعنوية إليها ، وهو عندما يعود يبرر عودته بأنه اطمأن إلى أن فدوى « لا تهدف من وراء الحب إلا إلى الحب ذاته » حيث يقول لها فى رسالته السادسة عشرة :

« . . . إن الموت هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يفرق بينى وبينك ، ترى هل طمأنتك هذه العبارة الأخيرة على أننى لن أقول لك بعد اليوم : وداعا ؟ . . إنها كلمة قلتها بالأمس ، وشرحت لك دوافعها النفسية . . . قلتها ولم أكن أعلم أنها ستحدث كل هذا الأثر فى حياتك ، ولشد ما أتوق اليوم إلى لقائك لأعتذر إليك . . ولأقول لك كما قلت بالأمس : لقد كنت أشفق عليك يافدوى . . أشفق عليك من حب لا أمل فيه ، حتى هذه الأمنية الصغيرة ، أمنية اللقاء

بين إنسان وإنسانة يعيش أحدهما فى القاهرة ويعيش الآخر فى نابلس . . وأقول لك أيضا لقد كنت أحاول أن أجعلها فلسفة ، بأن أتركك للزمن ليقدم إليك بيديه الحانيتين جرعة النسيان . . ولم أكن أعلم أن لك أنت الأخرى فلسفة حين قلت إن أملك من وراء الحب هو الحب ذاته . . هو أن يجد الإنسان فى هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك ، لأننى سأكون إلى جانبك : بكل خلجة نفس وبكل خفقة قلب ، وبكل دفقة من دفقات الشعور . . وتسألينى الرأى فى هذه الفلسفة فأقول : إننى مؤمن بها لأننى أومن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح ! » .

ثم يقول بعد ذلك فى الرسالة نفسها :

« لن أشفق عليك إذن يا فدوى العزيزة ، يا شريكة حياتى ، ولو فصلت بيننا الآماد والأبعاد . . نعم أنت شريكة الحياة طالت أم قصرت ، ابتسمت أم تجهمت ، حكمت بالبعد بين نابلس والقاهرة أم جادت بالقرب وأذنت باللقاء ! » .

وهنا نتساءل : لماذا اندفع المعداوى فى البداية إلى تقديم عواطف الود الحارة إلى فدوى بشكل يكاد يمثل نوعا من الإغراء العاطفى ، وعندما تجاوبت فدوى معه آثر الهروب ؟ ثم لماذا عاد إليها عندما اطمأن إلى أنها « لا تهدف من وراء الحب إلا إلى الحب ذاته » ، أى عندما اطمأن إلى أنها لاتفكر فى أن تتجاوز علاقتها به تلك الحدود المثالية الرومانسية التى تتمثل فى تبادل الرسائل وكتابة الأشعار ، ولا تزيد على ذلك خطوة واحدة ، وعندما تكتب فدوى إليه بأن أملها من « وراء الحب هو الحب ذاته » ثم تسأله رأيه فى هذه الفلسفة فإنه يصرخ صرخة فرح ويقول : إننى مؤمن بهذه الفلسفة لأننى أومن

بـالفن ، الفن الذى يـرتفع بـالإنسانيـة من أرض المـادة إلى سـماء الـروح » ، ثم يقول المعـداوى لفدوى بعـد ذلـك « يـا شـريكـة حياتى » ، وهى عبارة لا تقـال عادة إلا للزوجـة ، ترى هـل اعتبر المعداوى أن ما بينهما من علاقة روحية هو كل المطلوب لكى تصبح فدوى شريكة حياتـه ؟. كل هـذه المواقف والعبـارات تميل بى إلى ترجيح الرأى الذى انتهيت إليه ، وهو أن أنور المعداوى كان يعانى من مرض يمنعه من الزواج ، ويجعل من كل حب عنده « حبـا لا أمل فيه » .

وليس من الضـرورى أبدا أن يكـون هذا المـرض أمـرا يتصـل بالجنس ، فقد يكون الإنسان صاحب عافية وبعيدا عن المرض المباشر فى هذا المجال ، ولكنه يكون فى نفس الوقت خاضعا لمشكلة نفسية حادة تمنعه من الزواج ؛ أو يكون مريضا بمرض عضوى آخر ينصحه الأطباء معها بعدم الإقدام على الزواج ، لما قد يمثله ذلك من خطورة على حياته .

وقصة علاقة المعداوى بفدوى كانت تتكـرر فى معظم عـلاقاتـه العاطفية الأخرى التى حدثنى عنها : تبدأ القصة بعاطفـة حارة ثم تنتهى بمحاولة للهروب من جانبـه أو من الجانب الآخـر ، وتكون النتيجة هى فشل كل العلاقات العاطفية التى نشأت فى حياته .

وأذكر أن المعداوى كان يتوهم بعض الوقائع التى لم تحدث فى حياته العاطفية ، وكنت أكتشف أن هذه الوقائع إنما تقوم على الأوهام ؛ لأنه يذكرها أمامى أكثر من مرة بأكثر من صورة ، وعلى سبيل المثال فقد ذكر لى أنه التقى الشاعرة المصرية « ن . ط . ع » وأنها كانت تحبه ، وأنه كان يلتقى معها فى أطراف مصر الجديدة ، ولكنه عاد فذكر لى أنه

لم ير هذه الشاعرة فى حياته ، وكرر أمامى هذه القصص المتناقضة عدة مرات خلال السنوات التى عرفته فيها معرفة وثيقة والتى امتدت من ١٩٥١ حتى وفاته سنة ١٩٦٥ ، وفى اعتقادى أن الصحيح هو أنه لم يلتق الشاعرة المصرية ، فهذه الشاعرة كانت شابة صغيـرة وكانت مهمومة أشد الهم بأزمتها النفسية ومرضها الذى قضى على حيـاتها وهى فى مقتبل العمر ، وقصائد الشاعرة المصرية أمامنا وليس فيها أى حديث عن الحب ، بل إن هذا الشعر المنشور يدور كله حول السعادة والشقاء وغيرهما من المعانى الفلسفية للحياة ، أما العاطفة وتجارب العاطفة فهى بعيدة كل البعد عن شعر هذه الفنانة التى قضى عليها الحزن والمرض والعزلة عن الحياة . . وقد تناولت حياة هذه الشاعرة وفنها ومأساتها بشىء من التفصيل فى التعليق على رسالة المعـداوى الخامسة إلى فدوى طوقان .

هذه الظواهر كلها إنما تدل على شىء واحد هو أن علاقة المعداوى بالمرأة كان فيها سر ما ، وهذا السر فى رأيى هو مرضه الذى أخفاه عن الناس وتحمل آلامه بشجاعـة وكتمان ، وقـد كان هـذا المرض من الأمراض التى تمنع صاحبها من الزواج .

هل نحتاج إلى أدلة جديدة غير الأدلـة السابقـة على وجـود هذا المرض فى حياة المعداوى ؟ . . هناك دليل آخر له أهمية كبرى فى هذا المجال ، وهذا الدليل يقدمه لنا أدب المعداوى نفسه ، ففى بعض دراساته ومقالاته ، وفى بعض القصص التى كان يكتبها أحيـانا أو يترجمها عن الفرنسية ، كان هناك فكرة « متسلطة على ذهنه » ، هذه الفكرة هى : فشل العلاقات الزوجية أو العاطفية بسبب وجود عجز معين عند الرجل أو المرأة .

ففى مقاله عن « مشكلة العلاقة بين مى وجبران » يفسر لنا المعداوى فشل هذه العلاقة بما أسماه « الأنوثة المقتولة » عند مى . . يقول المعداوى فى بداية هذا البحث المنشور فى كتابه « كلمات فى الأدب » فى الصفحة الخامسة والعشرين :

« . . إن صورة تلك العلاقة بين مى وجبران قد بدأت فى نفسى داخل إطار من الشك المثير ، أما مصدر هذا الشك فهو طبيعة مى ، ولقد بدت لى هذه الطبيعة يوما وهى مغلفة بالانحراف ملفعة بالشذوذ ، حتى استحالت فى بوتقة الفكر إلى سؤال حائر ينتظر الجواب . . هل كانت مى امرأة ؟ امرأة ورثت كغيرها من النساء تلك التركة الخالدة عن الأم الأولى وهى حواء ؟

إن المرأة الطبيعية فى رأيى هى تلك التى يستيقظ فى أعماقها الشعور بالرجل ، سواء أكانت هذه اليقظة فى صورة حب مضطرم ، أم كانت فى صورة عاطفة جياشة أم كانت فى صورة حس مشبوب . . هذه هى المرأة الطبيعية ، أما المرأة الشاذة فهى تلك التى « تنام » فى أعماقها مثل هذه « اليقظة » ، هى تلك التى تلهب دون ان تحس بين جنبيها وهج النار ، هى تلك التى تثير ولا تثار . . هى مى فى حقيقتها العميقة التى لم تتذوق طعم الحب لأنها فقدت شهية الأنوثة ، وهذا هو الباب المغلق الذى يحتاج ليفتح على مصراعية إلى طرق عنيف .

لقد تتبعت حياتها النفسية وهى بين الرجال ، وهى فى صالونها الأدبى ، وكان من بين أولئك الذين يحيطون بها رجال ممتازون . . بعضهم لا تنقصه الرجولة ، وبعضهم لاتنقصه الشهرة . . وبعضهم لا تنقصه المكانة الادبية والاجتماعية . وكل هذه الصفات جديرة بلفت نظر المرأة واجتذاب أعمق ما فيها من غرائز الأنوثة ، تلك التى تنشد فى الرجل وجها معينا من وجوه الإثارة . كانت تجتمع بهم

وتتحدث إليهم ، ثم لا شيء وراء الحديث المألوف واللقاء المتكرر مما يتصل بالشعور الأنثوى والعاطفة الوجدانية . . »

ثم يقول مرة أخرى تعليقا على رسالتين متبادلتين بين مى وجبران :

« . . هذه هى المرأة التى كان يخاطبها جبران . . المرأة التى كان يخاطبها بلغة الشعر فتخاطبه بلغة الشعر ، ويحدثها عن قلبه وهو بين يدى الأشواق فتحدثه عن رأسها وهو بين يدى الحلاق ، وإنه لحديث الأنوثة المكفنة بأثواب العدم ومن حولها صرخة من أصدق صرخات الوجود . أنوثة مقتولة ولو التمست لها « مى » شتى الأسباب والمعاذير » .

وكتب المعداوى تعليقا آخر على رسالة من « مى » إلى جبران تقول فيها :

« . . لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت . . وكثيرا ما أنسى أن هناك شخصا ، أن هناك « رجلا » أخاطبه ! فاكلمك كما أكلم نفسى ، وأحيانا كأنك رفيقة لى فى المدرسة » .

ويكتب المعداوى فى تعليقه على رسالة مى :

« هكذا تكلمت مى ، وإذا تكلمت مى فليس هناك زيادة لمستزيد . . إن ذلك « الشىء » الذى سألت عنه جبران قد أجابت عنه هنا فى لحظة غضب ثائرة ، ولم يكن فى كلمة واحدة غير « الأنوثة المقتولة » . وإذا ما قتلت الأنوثة فى أعماق المرأة فقد قتل إحساسها بالرجل وانمحت الفوارق الجنسية فى عالم الشعور . . يبدو الرجل فى

منظارها وهو لا يختلف عنها فى شىء ، . لأنها حرمت حاسة الجنس وسلبت توجيه الغريزة ، وقل بعد ذلك إنه فقد الشهية نحو الاشياء وما يترتب عليه من أثر فى سلوك الأحياء : تفقد شهية الطموح فتزهد فى المجد ، وتفقد شهية الأكل فتعزف عن الطعام . . وكذلك المرأة حين تفقد شهية الأنوثة فتنسى الرجل وتنفر من الحب . لقد كانت « مى » فى تلك السطور الأخيرة التى كتبتها لجبران هى المرأة التى « نسيت » ان هناك « رجلا » تخاطبه ، وكل امرأة تتعرض لهذا الشذوذ فهى واحدة من اثنتين : امرأة يتجرد إزاءها الرجل من أعمق صفات الرجولة فإذا هو فى بوتقة إحساسها « رفيقة » من عالم النساء ، وامرأة تتجرد إزاء الرجل من أبرز الخصائص الأنوثة فإذا هى فى البوتقة نفسها « رفيق » من عالم الرجال ، ومن هنا ينقطع التيار العاطفى بينها وبينه وكأنه تيار كهربائى بين قطبين سالبين . . وهذا هو المفتاح » .

هذا هو ما كتبه المعداوى عن مى ، واذ أخذنا بمقاييسه ، فنحن نردد الأسئلة نفسها حول شخصيته . . لماذا يهرب من الحب عندما يولد فى حياته ؟ ولماذا ينهى علاقته العاطفية بأى امرأة عندما تقترب من النجاح ؟ ولماذا يحرص على أن يكون الحب كالفن روحا فوق المادة ؟ ولماذا يرى فى آخر الامر هذا التفسير الغريب لشخصية مى ، إن لم تكن هناك فكرة ثابتة مسيطرة على ذهنه وهى فكرة الأنوثة المقتولة أو ما يخابلها من الرجولة المقتولة ؟ . . الغريب أن الأبحاث العلمية الجديدة قد اكتشفت بأدلة شبه قاطعة أن « جبران » هو الذى كان يشكو من مرض يمنعه من الزواج . . مرض عضوى كان يفرض عليه ـ بعد أن تجاوز شبابه الأول الذى عرف فيه بعض العلاقات والمغامرات ـ ألا تزيد علاقته بأى امرأة عن حدود العلاقة الروحية .

ويمكننا فى هذا المجال ان نراجع كتاب « أضواء جديدة على جبران » للاستاذ توفيق صايغ ففيه فصل الخطاب فى هذا المجال بالأدلة والوثائق ، على ان تسلط فكرة العلاقة الناقصة بين الرجل والمرأة على ذهن المعداوى لا يتمثل فى مقال المعداوى عن « مى وجبران » فقط ، بل اننا نجد هذه الفكرة تشغل ذهنه فيعبر عنها فى عدد آخر من من الكتابات المختلفة ، ففى قصة كتبها بعنوان « الشقاء المقدس » واعتمد فيها على كتاب « مدام ريكاميه » للكاتب والسياسى الفرنسى إدوار هريو ، يصور المعداوى أيضا نفس المشكلة : فتاة رائعة الجمال هى « جوابيت برنار » تتزوج وهى فى الخامسة عشرة من عمرها رجلاً فى الأربعين هو مسيو « ريكامييه » الثرى وصاحب المصرف الشهير . . وعاشت الحسناء الرائعة « جولييت » التى أصبحت الآن « مدام ريكامييه » حياة حزينة . . وكما يقول المعداوى :

« مضت بها الأيام قلقة متشابهة ، لا يشع فيها أمل يبدد من ظلام القلب والروح . أى شباب هذا الذى تقذف به المقادير فى خضم من أعاصير الحيرة ، فلا يدرى على أى شاطىء ترسو سفينة أحلامه وأوهامه ؟ . لقد مرت شهور ومدام ريكامييه لاتزال عذراء كما كانت . حياة كلها غموض وأسرار ، ولقد كان الحياء وحده هو الذى يمنعها أن تسأله عن سره . . سره الذى طال . أى إنسان هذا الذى يحوطها بعطفه وحبه وحنانه ، ثم لا يقربها كما يقرب الأزواج . . ؟ .

كانت تتعذب فى صمت ، وتبكى للجمال يذوى بين يدى الحرمان ولا تجد الجرأة على أن تفاتحه يوما بما يعتلج فى نفسها : أليس رجلا ؟ أليس زوجا ؟ ألا يهزه هذا الجمال ؟ ألا يصير راهبا إلا حين تربط بينهما المقادير ؟ . وتتلظى الكلمات على شفتيها كصفوف جيش أعدت للهجوم ، وتلتهب الأفكار فيما بينها التهاب القنابل . . ولكنها حين

تلتقى بزوجها وجها لوجه تموت الكلمات ، وتخور العزيمة ، وتخمد المرأة ، ولا يبقى إلا الحياء يشل منها اللسان ، ويجعل منها إنسانة ضعيفة مسلوبة الإرادة ، كانت تتلهف إلى شيء واحد . . هو أن تعلم سره ولكن سره الرهيب كان أمنية بعيدة المنال ، وعاشت مدام ريكامييه وماتت دون أن تعلم شيئا . لقد عاشت عذراء ، وماتت عذراء » ، حيث ينكشف لنا فى آخر الأمر أنها كانت متزوجة من والدها دون أن تدرى .

هذه هى المشكلة التى يعرضها المعداوى فى قصة « الشقاء المقدس » ، وهى المشكلة التى كانت تلح على ذهنه فيما أرى لسبب واحد هو جنها كانت تتصل بحياته الشخصية . كان يحوم حولها بكتابته ويحاول أن يجد لها تفسيرا أو علاجا من خلال الكتابة ، وقد كان تفسيرها وعلاجها فى يد الأطباء وحدهم ، ولكنه وهو الرومانسى المثالى الحالم ، وهو الذى يحافظ على كبريائه وكرامته ويخشى عليهما من النسيم . . لم يستطع ابدا ـ وهذه شخصيته ـ أن يواجه مشكلة بصراحة ووضوح ، وأن يضعها بين يدى العلم ليجد لها العلاج الصحيح ، ولست أرى أن المعداوى وحده هو المسئول عن هذا الموقف الأليم ، فمجتمعنا كله أيضا مسئول ، لانه مجتمع يرفض الصراحة ويرفض تحكيم المنطق العلمى فى هذه الامور ، بل وينظر إليها على أنها مسألة مخجلة وجارحة مما يضيف تعقيدا فوق تعقيد الى كل من أصيب برغمه فى هذا الميدان . ولو تعود مجتمعنا الصراحة والوضوح وأعطى للعلم سلطانه ودوره ، ومزق أقنعة الخجل والحياء وهى كلها اقنعة زائفة ملفقة . . لو تعود مجتمعنا على ذلك لأصبح بالإمكان مواجهة كثير من المشاكل والمآسى التى يتعرض لها بعض الناس فى مجتمعنا فتنهار حياتهم وتتعرض لأقسى الصدمات . . وفى

رأيى أن آلام المعداوى كلها على كثرتها وقسوتها كانت أقل خطورة من هذا الألم الخفى الكبير الذى كان يعانى منه ولا يستطيع مواجهته إلا بالكبرياء والكتمان والألم الحبيس الذى هو فى الوقت نفسه ألم مدمر قاتل . ولست أشك فى أن هذا المرض الخفى بالذات كان من أسباب النهاية المبكرة والمفاجئة لحياة أنور المعداوى ، وهذه ليست جريمة انتحار ، وإنما هى جريمة قتل متعمد قام بها المجتمع الذى يرفض الصدق والصراحة ، ويخجل من الحقائق ، ويحس بالعار من مواجهة الجراح التى تنزف بالدم ، مادامت الدماء خافية عن العيون والابصار .

وهنا أحب أن أشير إلى أن مرض المعداوى الذى كان يمنعه من الزواج ليس واضحا محددا فى ذهنى تماما كما سبق وأشرت : هل كان مرضا عضويا أو كان مرضا نفسيا يصل فى خطورته الى قوة المرض العضوى وتأثيره الحاد العنيف ؟ . . ذلك هو مالا أستطيع تحديده . واذا كان المرض عضويا فالأمر مفهوم وواضح . أما إذا كان المرض نفسيا فما هى حدود مثل هذا المرض النفسى الخطير ؟ .

يبدو لى أن المعداوى كان يعانى من مشكلة نفسية خاصة بأمه ، فقد كان يحبها حبا غير عادى ، وكان متعلقا بها إلى أبعد حدود التعلق ، وكان يروى عنها فى أحاديثه المختلفة لى أنها كانت تحبه هى الأخرى بشكل يفوق حب الأم لأولادها . وقد أشار المعداوى أكثر من مرة فى رسائله إلى هذه العاطفة العميقة التى كانت تحملها له ، فهو يقول لفدوى فى إحدى رسائله عن العملية الجراحية التى كان ينبغى أن يجريها :

« تقولين لى تشجع . . يكفى أن أقول لك يا فدوى إن العملية الجراحية التى تنتظرنى يفر منها أشجع الشجعان ، ومع ذلك سأقدم

عليهـا . . شيء واحـد هـو الـذى يخيفنى . . هــو أن تعيش أمى وحيدة . . أنا لم أحدثك كثيرا عن أمى . . أنها تعيش يا فدوى فى رغد من العيش ، فهى من هذه الناحية لا تحتاج إلى . . بل لعلى أنا الـذى احتاج إلى معـونتها أحيـانا بسبب إسـرافى . . إن وحـدتهـا الشعورية اذن هى التى تخيفنى . . »

ويقول فى رسالة أخرى : « لقد عرضت على وزارة المعارف أكثر من مرة أن توفدنى الى السوربون لنيل الدكتوراه ، ومع ذلك فقـد رفضت العـرض الجميل لسبب واحـد . هو أن والـدتى وشقيقـاتى لا يطيق شعورهن أن أكون بعيدا عنهن عـامين أو ثـلاثة . . » وفى رسـالة ثـالثة يقـول : « يصر الأطبـاء عـلى إجـراء عمليـة أخـرى والا قضيت بقية عمرى فى كهولة جسدية وتقول أمى : محال ! وتحضر إلى القاهرة لتلازمنى حتى لا أقدم على المخاطرة الثانية وكفى ما حدث فى المخاطرة الأولى ولم تعلم به إلا بعد حين » . .

وفى مجال كتاباته عن العلاقة الناقصة بين الرجل والمرأة ، وهى المشكلة التى كـانت تشغل ذهنـه وتسيطر عـلى تفكيـره ، يكتب فى دراسته عن « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » وهى نفس الدراسة التى نشرها مرة أخرى تحت عنوان « الاداء النفسى » فى كتابه عن على محمود طه . . يكتب المعداوى فى هذه الدراسة عن قصة « والدة » للكاتب الفرنسى فرنسوا مورياك فيقول :

« هنـاك لحظة من تلك اللحـظات النادرة التى نعنيهـا فى قصـة مورياك . وقبل أن نقف بك عند تلك اللحظة نلخص لك مضمون القصة بصراعة النفسى ، وهومضمون العلاقة « الخالدة » بين كل أم وزوجة تحتدم فى أعماقها المعركة حول الرجل الذى تربطه بـالأولى

روابط البنوة وبالثانية صلات الزوجية ، هذا الرجل الذى يقف بين « العدوتين » موقف الحائر المتردد الذى تتعرض حياته فى كل وقت لهبوب العواصف والأعاصير . . الإبن هنا وهو فرنان كازيناف ، رجل ضعيف الشخصية مسلوب الارادة يعطف على زوجته ولكنه لا يستطيع أن يجهر بهذا العطف خوفا من تلك الأم التى بقيت له بعد وفاة أبيه ، وطبعته منذ صباه الباكر بطابع الخضوع والرهبة . . فهو لا يستطيع أن يجادل ولا أن يعترض ولا أن يقف فى وجهها عندما تتعقد الأمور . والأم كازيناف تحب ابنها برغم قسوتها عليه ، وما كانت قسوتها تلك إلا نتيجة لهذا الحب الذى يريد به الأمومة أن تملك وأن تتحكم وأن تستأثر ، ولا يشاركها فى هذا اللون من حب التملك إنسان ، والزوجة وهى ماتيلد كازيناف فتاة لقيت من ظلم الحماة ، وإهمال الزوج وقسوة الحياة ، ما ينوء به الطوق ويفرغ معه الصبر . . ومع ذلك فقد صبرت واحتملت ، ولقيت متاعب العيش بالرضا القانع والصبر الجميل .

وتمضى القصة فى طريقها لتصور لك أدوار الصراع ، الصراع الذى انتهى بموت الزوجة بعد حالة وضع قوضت من الجسد المنهك آخر حصن من حصون المقاومة أو آخر معقل من معاقل الكفاح ، ولقد ماتت وحيدة : لا همسة عطف من الابن ، ولا نظرة رثاء من الأم ولا موعد لقاء مع رحمة القدر . . وحين انتهى كل شىء ، وسكنت كل حركة ، ودفنت فى تراب الموت كل خصومة ، استطاع فرنان كازيناف أن يصعد الى حجرة الشهيدة ، وأن يحس لذع الندم وأن يوجه إلى أمه كلمة عتاب .

ونلتقى باللحظة التى يصور فيها موررياك موقف النادم أمام الجثة الهامدة . . تلك اللحظة النادرة من لحظات « التذوق » لمشهد من

مشاهد الحياة منعكسا على صفحة الشعور . لقد وقف فرنان أمام جثة الشهيدة وكأنه يقف أمام قديس ليعترف له بما جنت يداه ، بما اقترف من إثم ، بما حمل من ذنـوب . . ترى من أغمض عينيـه كل تلك الأعوام فلم ير هذا الجمال ؟ ومن أغلق قلبه كل تلك السنين فلم ينعم بهذا الصفاء ؟ وهذا الطهر ، وهذا الصبر ، وهذا الإيمـان ، وهذه القيم الإنسانية من حال بينه وبينها حتى لكأنه يبصـرها لأول مرة ، ويستشعرها لأول مرة وينكشف له منها فى لحظة عابرة ما غاب فيها مر من أيام دنياه ؟ ترى هل يستطيع أن يفعل شيئا لهذا الجسد ، الجسد الذى احترق فى موقد العذاب ، وتألم ، وحمل من الشقاء فوق ما يحمل طوق الأحياء ؟ . . شيئا ولو كان صغيرا ضئيلا لا قيمة له ، يشعره بأنه قدم إليه فى رحاب الموت ما عجز عن أن يقدمه فى رحاب الحياة ؟ إنه يريد الآن أن يعبر للجسد الهامد عن عطفه ، عطفه الذى لم يستطع أن يعبر عنه فى يوم من الأيام . . وقد قدر له أن يعبر عن هذا العطف حين خطر لذبابة هائمة أن تستقـر على الـوجه الحـزين . . لقد انتفض كالمصعوق ليرد العدوان الآثم عن تلك البقعة الآمنة ، البقعة التى لن يسمح بعد الآن بأن « تقلق » أمنها هجمات المعتدين . . » .

هذا التلخيص الذى يقدمه لنا المعداوى لقصة « مورياك » بما فيه من تحليل ذكى حساس هل يلقى ببعض ظلاله وإيماءاته على حياة المعداوى نفسه ؟ . . هل تعرض فى حيـاته النفسيـة ، كلما أراد أن يقترب من امرأة يحبها ويتمنى أن يرتبط بهـا لهذا الصـراع النفسى الذى يقول عنه أنه « مضمون العلاقة الخالدة بين كل أم وزوجة تحتدم فى أعماقهما معركة حول الرجل الذى تربطه بالاولى روابط البنوة وبالثانية صلات الزوجية ، هذا الرجل الذى يقف بين « العدوتين » موقف الحائر المتردد الذى تتعـرض حياتـه فى كل وقت لهبـوب العواصف

والأعاصير » . . . هل انتصرت الأم فى نفس المعداوى على « المرأة » الأخرى حتى قبل أن تدخل هذه المرأة فى حياته ، فخضع خضوعا نفسيا كاملا لسطوة الأم ولم يستطع أن يرتبط بامرأة أخرى ، خاصة وأنه يشبه بطل القصة تماما فى أنه الإبن الوحيد لأمه بين ثلاث بنات وأن هذه الأم « هى التى بقيت له بعد وفاة أبيه ، وطبعته منذ صباه الباكر بطابع الخضوع والرهبة . . فهو لا يستطيع أن يجادل ولا أن يعترض ولا أن يقف فى وجهها عندما تتعقد الأمور » . . ومن المؤكد أن المعداوى لم يكن خاضعا بهذه الصورة الواقعية لأمة ولكن هـذا الخضوع وهذه الرهبة من الممكن أن يكونا قد تحولا الى خضـوع نفسى ورهبة نفسية ، ويكون الاثر هنا اثرا عميقا فى داخل النفس يعيش صاحبه تحت وطأته المرة دون أن يدرى به . وهل تكون أم المعداوى مثل تلك الأم التى يقول عنها وهو يلخص رواية مورياك : « إنها تحب ابنها برغم قسوتها عليه ، وما كانت قسوتها تلك إلا نتيجة لهذا الحب الذى تريد به الأمومة أن تملك وأن تتحكم وأن تستأثر ، ولا يشاركها فى هذا اللون من حب التملك إنسان ؟ » . . أليس فى هذا الذى كتبه المعداوى ما يمكن أن يلقى ـ كما أشرت ـ ظلالا وإيماءات حول علاقتـه بأمه ؟ ألا يمكن أن تكون هذه العلاقة ، وقد أخذت فى حياته شكل الحب الغامر العنيف من جانبه ومن جانب أمه معا ، قد تحولت إلى مرض نفسى تمكن منه ، وقتل فى حياته كل رغبة فى امرأة أخرى ؟ ورغم أن مثـل هذه المشكلة هى فى أسـاسها مشكلة نفسيـة إلا أن مظاهرها تكون فى العادة مظاهر عضوية وهذا هـو ما يسميـه علماء النفس باسم « عقدة أوديب » .

والحقيقة أننى لا أعتقد بوجود نماذج واقعية كثيرة تجسد هذه العقدة النفسية ، أو غيرها من العقد تجسيدا كاملا ، ولكن الذى لاشك فيه

أن هذه النماذج الواقعية من الخاضعين لأمثال هذه العقد النفسية موجودة وحقيقية مهما كانت قليلة ومحدودة . وفى ظنى أن المعداوى إذا كان مرضه نفسياً فقد كان هذا المرض هو « عقدة أوديب » ، أى تعلقه غير الصحى بأمه التى ربته بعد وفاة أبيه ، حيث كان ابنها الوحيد بين ثلاث بنات ، فأحبته فى وله وإسراف وأحبها هو أيضا فى وله وإسراف وانتهى به الأمر إلى هذا المرض النفسى الذى لابد أن تكون له مظاهر عضوية هى عدم قدرة المريض على الزواج .

هذا ما أظنه وأعتقده وأراه فى حياة أنور المعداوى ، وفى محنته الصحية والنفسية ، وفى محنته مع الحياة ، على أن هذه العلاقة الخاصة بين المعداوى وأمه لم يكن لها ذلك التأثير الأساسى على حياته فقط من حيث علاقته بالمرأة بل كان لها تأثيرات جانبية أخرى ساهمت فى تدمير حياته العملية ، وساهمت آخر الأمر فى تدمير صحته ، ومن هذه الآثار الجانبية لشدة تدليله فى نشأته ، أنه كان لا يطيق أن يطلب شيئا من أحد ، وكان يحب أن يذهب الناس إليه ويعرضوا عليه كل ما يريد دون أن يقوم هو من جانبه بأى جهد فى هذا السبيل ، وقد انتهى الأمر بتقطيع كثير من الخيوط بينه وبين الحياة الاجتماعية ، لأن المجتمع لم يكن يعامله مثلما كانت أمه تعامله على الإطلاق ، ومن هذه الآثار الجانبية ما نلاحظه فى كتاباته كلها ، ومن بينها رسائله إلى فدوى طوقان ، من تلك النغمة « الذاتية » التى تظهر بوضوح فى كل كتاباته . . . لقد كان يتحدث عن نفسه كثيرا ، وكان يعجب بنفسه على صورة جعلت الكثيرين ممن لا يعرفونه على حقيقته يعتبرونه مريضا بالغرور ، إن « الأنا » ظاهرة جدا فى كتاباته ، والنرجسية أو الإعجاب بالنفس شىء ظاهر جدا فى هذه الكتابات . . . وهذه كلها ظواهر نفسية لابد أن تكون قد تخلفت فى شخصيته من أثر التربية

الاولى . . . هذه التربية التى أشعرته فيها أمه بأنه كل شىء فى هذه الدنيا ، وبأنه مركز العالم بالنسبة لها . ويلوح لى أن هذه الظواهر كانت كلها نوعا من المرض النفسى المترتب على علاقته بأمه ، ذلك لأن المعداوى كان فى أعماقه انسانا طيبا كريم النفس بعيدا عن « الأنانية الشريرة » التى تحملها بعض النفوس المشوهة وتتحرك على أساسها فى علاقتها بالناس والمجتمع والحياة . . . كان المعداوى ذاتيا ، معجبا بنفسه ، يرى دائما أن الناس يجب أن يضعوه فى مكان الصدارة فى كل عمل يشترك فيه مع الآخرين ، لا لأنه أنانى وحاقد وشرير ، بل لأنه تعود فى نشأته الأولى أن يكون فى الصدارة دائما ، وغرست فيه أمه هذه الصفات التى أصبحت جزءا من شخصيته ، والتى انتهت بإفساد الكثير من علاقاته مع الحياة والمجتمع .

وكانت فى رأيى من أكبر أسباب دماره وعدم قدرته على التلاؤم مع الواقع وفشله الذى لا يستحقه ولا تستحقه مواهبه . . لقد تصرف مع الدنيا كأنه فى بيته ومع أمه ، وانتظر من الحياة أن تعامله معاملة هذه الام التى كانت تحبه بعنف وشغف ، ولم تعطه الحياة شيئا من هذا الشعور وما كان بإمكانها أن تعطيه أو تعطى غيره مثل هذا الشعور ، فالحياة والمجتمع يحتاجان من كل إنسان كثيرا من المرونة والقدرة على الكفاح وإحتمال التحديات ، ولا يمكن للإنسان أن يبقى فى مكانه منتظرا أن تقبل عليه الدنيا لأنه فى رأى نفسه موهوب وقادر ومستحق لهذه المعاملة التى تعود عليها من أم تعشقه وتهواه .

تلك كلها كانت حدود المأساة التى عاش فيها المعداوى ، وانتهت بعجزه عن إقامة علاقة طبيعية مع المرأة ، وبعجزه عن التلاؤم مع الحياة الأدبية أو الحياة الإجتماعية ، ثم أدت به آخر الأمر الى العزلة والمرض والموت فى الخامسة والاربعين من عمره .



الرسالة الأولى

عزيزتى فدوى . .

منذ شهر ونصف وأنا بعيد عن القاهرة ، وحين عدت إليها منذ يومين وجدت رسالتك العزيزة فى انتظارى . . هناك فى دار « الرسالة » ، أما عن كتابى « نماذج فنية » فأحمد الله على أنه قد وقع بين يديك ولم يتعرض لمخاطر الطريق . . وأما عن هذا الشكر الخالص الذى وجهته إلى فلا أحسبنى أستحق منه شيئا . كل ما فعلته هو أننى قد كتبت كلمة تعبر سطورها عن تقديرها لشعرك ، وإنه لواجب مفروض على الناقد . وإنك لتستحقين مثل هذا التقدير .

ترى هل كان تقديرى لشعرك من وحى الأمس القريب ؟ كلا . . بل أشهد أنه كان الحليف الصادق للأمس البعيد ، منذ أن قرأت لك شعرا ووزنته بعد أن تذوقته . . إن رأيى فى شعرك لم يكتب بعد ، وأرجو أن يكتب عندما يجمع هذا الشعر فى ديوان ، إنه تقدير قديم يا فدوى ، يرجع به العهد إلى أيام مضت . . وتلك حقيقة أخرى قد

تغمر نفسك بشيء من السعادة ، كما غمرتها على حد قولك كلمة « الرسالة » وعبارة الإهداء . ويالها من كلمات تلك التى قلتها عن السعادة ولفحت منى الشعور : « إن الدنيا المجنونة لا تجود على بها إلا فى القليل النادر من الأحيان » ، هذه الكلمات يا طالما سمعت مثلها من أقلام كتبت إلى ، ويا طالما عطفت عليها بالقلب والروح !

وأعود بك إلى الوراء سنوات لأقص عليك قصة هذا التقدير القديم ، كان هناك أديب لبنانى مهاجر وكان له كتاب ، وأرسل إلى هذا الكتاب يوما من لبنان ، مع عدد من رسائل التوصية التى ترغب فى إنصاف الكتاب وصاحبه ، وقد بعث إلى بها بعض الأدباء من أصدقاء الكاتب ومقدريه . . ولا أطيل عليك فقد تحدثت عن الكتاب بما يرضى الحق والذوق والضمير حتى لقد ترك ذلك فى نفس صاحبه ونفوس أصدقائه كثيرا من الرضى وعرفان الجميل .

وقدر للأديب المهاجر أن يعود يوما إلى وطنه ، وأن يمكث قبل العودة شهرا فى القاهرة . . وفى خلال تلك الفترة توطدت بيننا أواصر الصداقة وروابط المودة ، بعد أن لمست فيه كثيرا من صفات الإنسان . ولكن يوما واحدا من أيام الصلة التى جمعت بينى وبينه هو الذى جعلنى أنظر إليه نظرة جديدة ، نظرة من تنكشف له من خلف وهج الإنسانية معدنها النفيس . . فى ذلك اليوم الذى لن أنساه تحدث إلى فى التليفون وهو ينادينى بصوته المهدج النبرات : تعال حالا . . أريدك لأمر هام . .

أتحبين يا فدوى أن تعرفى حقيقة هذا الأمر الهام ؟ لقد كان مقالا حزينا فرغ من كتابته وأراد أن يقرأه علىّ كعادته كلما كتب شيئا وهو مقيم بالقاهرة . . كان مقالا وكان قصة ، قصة وفاء لصديق مات . .

هذا الصديق هو أخوك إبراهيم طوقان ، لقد بكى وهو يقرأ المقال وأبكانى . أبكانى لأننى لم أكن أنتظر من ذلك المرح الضاحك فى أيامه ولياليه ، أن تتألق فى عينيه قطرات الدموع .

وسألنى سعيد تقى الدين وهو يجفف دموعه : ترى هل أعجبتك القصة ؟ وأجبته وأنا أعنى ما أقول : رائعة يا سعيد . . وأروع منها الدموع التى فى عينيك ، وأخذت المقال وأرسلته إلى مجلة « الأديب » وكان عنوانه « موعدى مع ابراهيم » .

بعد ذلك راح يحدثنى عن أخيك الشاعر ، وعن أخيك الإنسان ، وعن أخيك الصديق . . وحين فرغ من حديثه شعرت أن أخاك رحمه الله كان صديقا لى وأن سعيد تقى الدين هو الذى قدم كلا منا إلى الآخر ، هو الذى قدم روحا وراء الأبد إلى روح ! . . وقال متنهدا وهو يختم حديثه المضمخ بأرج الوفاء : ترى من يملأ فى دنيا الشعر مكان إبراهيم ؟ وأجبته مرة أخرى صادقا وأنا أعنى ما أقول : فدوى يا سعيد . . وحولك يا فدوى دار حديث طويل .

ولك يا أختاه منى تقدير اليوم بعد تقدير الأمس مع خالص التحية من الشاكر الذاكر .

القاهرة فى ٢٦ / ١١ / ١٩٥١ — أنور المعداوى



تعليق على الرسالة الأولى

يشير أنور المعداوى فى هذه الرسالة إلى مجلة « الرسالة » التى أنشأها الأديب المصرى العربى المعروف أحمد حسن الزيات سنة ١٩٣٣ واستمرت فى الصدور أسبوعيا حتى سنة ١٩٥٣ وصدر منها ١٠٢٥ عددا ، وكان أنور المعداوى عندما كتب هذه الرسالة وهى أولى رسائله إلى فدوى طوقان يعمل فى مجلة الرسالة ، حيث كان يكتب فيها أسبوعيا تحت عنوان « تعقيبات » ، بل كان أنجح باب فيها على الإطلاق فى تلك الفترة بما كان يثيره من قضايا ومعارك أدبية عنيفة .

ويشير المعداوى فى هذه الرسالة أيضا إلى كتابه الأول وهو « نماذج فنية من الأدب والنقد » ، وهو مجموعة من المقالات النقدية التى كان المعداوى قد نشر معظمها فى مجلة الرسالة ، ونشر القليل منها قبل ذلك فى مجلة « العالم العربى » التى كان يكتب فيها قبل أن ينتقل إلى الرسالة .

وفى هذه الرسالة أيضا إشارة إلى بداية التعارف الأدبى بين فدوى طوقان وأنور المعداوى ، ففى عدد مجلة « الرسالة » رقم ٩٤٤ الصادر فى ٦ أغسطس سنة ١٩٥١ نشرت فدوى طوقان قصيدة بعنوان « مع لاجئة فى العيد » وأهدت هذه القصيدة « إلى الأستاذ أنور المعداوى » وكان مطلع قصيدة فدوى يقول :

أختاه هذا العيد رفّ سناه فى روح الوجود . .
وأشاع فى قلب الحياة بشاشة الفجر السعيد
وأراك ما بين الخيام تمثالا شقيا . . . . . .
متهالكا يطوى وراء همومه ألما عتيا . . . . . .
يرنو إلى اللا شىء منسرحا مع الأفق البعيد

وبعد أسبوعين من ظهور هذه القصيدة وفى العدد ٩٤٦ الصادر فى ٣٠ أغسطس ١٩٥١ نشر أنور المعداوى فى بابه الاسبوعى بالرسالة كلمة بعنوان « الى الشاعرة فدوى طوقان » . . . وفى هذه الكلمة يقول :

« إذا قلت لك إنك من هذه الفئة القليلة التى تملأ نفسى اطمئنانا على حاضر الشعر العربى وتذهب بأكثر ما فيها من قلق على مستقبله ، فانظرى إلى هذا القول على أنه تقرير لحق وتصوير لواقع ، ولا تنظرى إليه على أنه مجاملة لآنسة شاعرة وقصيدة مهداة ، لقد تفضلت فأهديت إلى قصيدتك المحلقة فى العدد ٩٤٤ من الرسالة وأنا إذ أتقبلها شاكرا فإنما أغترف الشكر من منابع تقديرى لشعرك ، وما أكثر دواوين الشعر التى يهديها إلى شعراء كبار فلا يسمعون منى كلمة شكر ، لأن الشكر عندى أساسه التقدير ، ولأن التقدير عندى مبعثه الإثارة النفسية التى يلهب بها الشعور كل فن جميل .

إن قصيدتك تشعرنى أننى مقصر فى حقك وحق شعرك لأن للفن الجميل حقوقا على النقد يجب أن يؤديها بإخلاص ، ويرعاها بأمانة . . ولست أدرى كيف شغلت عن حقوق فنك وأنا حريص على حقوق الناس ؟! . . مهما يكن من شىء فإن بوسع الغد المرتقب أن يستدرك ما غفل عنه الأمس الغابر واليوم المشهود ، وأشهد أن شعرك جدير بأن يحتل من تاريخ الأدب مكانا ملحوظا وسطورا مشرقة ، وأشهد مرة أخرى أن هذه الكلمات خالصة لوجه الحق وحده دون سواه ، وليس مرجعها إلى مجاملة الآنسة الشاعرة وقصيدتها المهداة . » .

ثم يعلق المعداوى بعد ذلك على موضوع قصيدة فدوى ويعلق على موقف الطبقات الغنية العربية من اللاجئين حيث يرى أن الضمير الإنسانى فى هذه الطبقات قد مات « ولو كان حيا لما سمح لنفسه بأن يطيق منظر الموت البشع وهو يحصد بمنجله الرهيب جموعا من الأحياء شردهم الظلم والطغيان فهاموا على وجوههم فى كل واد وكل فلاة : بطونهم خاوية وأجسادهم عارية بينما شبعت الكلاب واكتست الأضرحة واطمأنت إلى المأوى الأمين أخس أنواع الحشرات . » .

بعد هذه الكلمة التى كتبها أنور المعداوى تعليقا على قصيدة فدوى « لاجئة فى العيد » ، والتى أهدتها إليه ، كتبت إليه فدوى وكتب إليها وكانت هذه الرسائل التى يضمها هذا الكتاب .

وفى هذه الرسالة أيضا إشارة إلى الأديب اللبنانى الكبير سعيد تقى الدين ، وقد بدأ سعيد حياته كاتبا قصصيا ومسرحيا وله مسرحية مشهورة هى « نخب العدو » تأثر فيها تأثرا كبيرا بمسرحية شكسبير المعروفة « روميو وجولييت » ، وقد كتب أنور المعداوى عنه وعن أدبه

بتقدير وحماس ، وكان هذا الموقف جزءا من اهتمام المعداوى الواسع بالأدب العربى خارج مصر ، حيث كان من أكثر النقاد متابعة لما يصدر من إنتاج ثقافى فى العواصم العربية المختلفة ، ولم يكتف أنور المعداوى بذلك ، بل ارتبط بصلات شخصية وثيقة مع عدد كبير من الأدباء العرب ، وكان من أول من تعرف عليهم وارتبط بهم : سعيد تقى الدين وسهيل إدريس ، وكان للمعداوى أيضا صلة شخصية وثيقة مع نزار قبانى ، وقد بدأت هذه الصلة منذ أن كان نزار يعمل فى السفارة السورية فى القاهرة فى أواخر الأربعينات ، وكان أنور المعداوى ـ فيما أعلم ـ هو أول من كتب عن نزار قبانى فى مصر وذلك بمناسبة صدور ديوانه « طفولة نهد » .

نعود إلى سعيد تقى الدين فنقول إن صلة المعداوى به قد انقطعت بعد أن استقر سعيد فى لبنان وترك الأدب وانصرف إلى السياسة حيث أصبح أحد زعماء « الحزب القومى السورى » ، وكانت سمعة هذا الحزب سيئة جدا فى الأوساط السياسية والثقافية التقدمية والوطنية فى مصر بسبب عدائه للوحدة العربية والاشتراكية ، وكان سعيد تقى الدين مرتبطا بحماس وتشنج بالحزب القومى السورى ؛ مما أدى إلى قطع علاقته تدريجيا بالأدب والأدباء ، وكان من بين هذه العلاقات التى انقطعت نتيجة لموقف سعيد تقى الدين السياسى علاقته بأنور المعداوى ، على أننى كنت أسمع من أنور المعداوى طيلة حياته ثناء على سعيد تقى الدين وأدبه ، وأسفا على ما أصابه من انحراف سياسى أبعده عن مواهبه الأدبية وأبعده عن الموقف الوطنى العربى الصحيح . وقد عثر الدكتور على شلش عند بحثه فى أوراق المعداوى بعد وفاته على رسالة واحدة قصيرة من سعيد تقى الدين إلى المعداوى ونشر الدكتور شلش هذه الرسالة ضمن رسائل أخرى عثر عليها فى

أوراق المعداوى ، وذلك فى مجلة « الكاتب » القاهرية فى عددها رقم ١٧٣ الصادر فى أغسطس ١٩٧٥ ، وهذا هو نص الرسالة الطريفة التى كتبها سعيد تقى الدين للمعداوى :

« يا سى أنور . .

جرى إيه ؟ من عض اللجام ؟ لماذا لم تجبنى على رسائلى الكثيرة ؟ صحيح لم أرسل لك ولا واحدة ، ولكن هذا لا يمنع أنك أخطأت بعدم الجواب عليها . أما وقد احمر وجهك واعتذرت ، وثُبت ، وأخذت نفَسك فلم يبق لى الآن إلا أن أقبل اعتذارك بشرط أن لاتعود إلى الأخطاء .

بالطبع أنا مشتاق إليك « شىء بسيط » وانتظر مجيئك إلى لبنان كما قلت لى حين أنست مصر بحضورى .

سهيل إدريس لا يزال فى قيد الحياة . . كلنا بخير « مشغول بالك ؟ »

أخوك : سعيد تقى الدين

حاشية ـ صحتك ازاى ؟

٥ حزيران :

بعد كتابة ما تقدم أرانى المدعو سهيل إدريس رسالة منك عطرتها بالمجىء على ذكرى . . فحالا استشرت ٥٤ محاميا واتفقوا أن فيها « قدح وذم »[1] . . فاكرنى أنا توفيق الحكيم حتى تهجونى ؟ إن

(١) هكذا جاء فى نص رسالة سعيد تقى الدين ، ومن الواضح أنه كتب بالعامية ، فالصحيح أن تكون العبارة « إن فيها قدحاً وذماً . . » .

شـرفت لبنان سيـلاقيك وفـد من البوليس العـدل . . مع مـذكرة توقيف[1] . . إنما مجال التكفير أمامك دائما مفتوح » .

(١) التوقيف عند إخواننا عرب الشام هو : السجن والاعتقال .

الرسالة الثانية

فدوى العزيزة :

يخيل إلى أن رسالتى الأخيرة قد فقدت وهى تعبر إليك الطريق ، ويخيل إلى أنك الآن عاتبة على هذا القلم إهماله ، لأنه تأخر عن الجواب فاستحق العتاب . . معذرة إذا كان هذا الظن قد طاف بخاطرك واستقر فى نفسك ، ومعذرة إذا لم يكن لخيالى من عالم الواقع نصيب !

ترى هل تلقيت رسالتى الأخيرة أم قدر لها أن تقع فى يد غيريدك ؟ مهما يكن من شىء فإننى أكرر هنا ما قلته هناك ، ولا بأس أن أضيف إليه أشياء . . لقد قصصت على من أنباء سعيد تقى الدين ما بعث الماضى من مرقده مصحوبا بابتسامة عابرة ، إذا قلت لك يا فدوى إن هذا الرجل هو ابن اللحظة التى يعيش فيها فصدقى ما أقول . . إننى أعرفه أحسن المعرفة ، ولهذا لم أعجب حين قلت لى إنه قد طلب إليك أن توافيه بمجموعتك الشعرية ليدفع بها إلى دار من دور النشر ثم لم

يف بوعده المنتظر ! إنه ابن اللحظة التى يعيش فيها كما قلت لك . . يقول اليوم ما ينساه غدا ، ويقدر للغد ما ينساه بعد أيام ، وعذره فى ذلك أنه هو نفسه ينسى « نفسه » فى كثير من الأحيان ! هذا هو سعيد تقى الدين على حقيقته . . فيه تلك « الفوضى » الشعورية التى يسميها الفن « بوهيمية » ويحدد معانيها تبعا لاختلاف التكوين النفسى بين الناس .

هو إنسان وفى جدا لأصدقائه ، ولكنه يشعر مثلا أن تسطير رسالة لأحدهم يعبر فيها عن شوقه . . عبء ثقيل ! وهو إنسان تذوق يوما طعم الفاقة ، حتى لقد هجر وطنه سعيا وراء المال . . وحين أقبلت عليه الدنيا نسى أن يتعظ بماضيه وعاش لحاضره ، وراح ينفق بغير حساب . لماذا ؟ لأن وجود المال فى حوزته . . عبء ثقيل ! وهو أديب أعجب يوما بشعر فدوى طوقان ، ثم دفعه الوفاء للفن أن يعرض عليها جهوده لدى الناشرين ، وحين بعثت إليه بمجموعتها الشعرية نسى وعده ، ولعله أحس أن بذل الجهود فى مثل هذا الأمر . . عبء ثقيل ! . . هذه هى الفوضى الشعورية التى يسميها الفن بوهيمية ، ويحدد معانيها عند هذا الصديق بأنها ضعف الطاقة عن تحمل القيود والوفاء بالعهود ، وحسبك أنه كتب إلى أكثر من مرة يلح على أن أزوره فى لبنان وأن أحل عليه ضيفا عزيزا فى قريته « بعقلين » . . وكان ردى عليه هو رفض تلك الدعوة الكريمة ، لأننى أشفق من أن أذهب إلى « بعقلين » فأجده قد نسى دعوته وشد الرحال إلى « جزائر الفلبين » . . هناك حيث قدر له أن يقضى من عمره خمسة وعشرين عاما بعيدا عن أرض الوطن !

لهذا كله لم أستطع يافدوى أن أحول بين الابتسامة العابرة وبين شفتى ، حين رحت تقصين على بعض ما خفى عنك من أحوال

صديقى سعيد تقى الدين ، هذا الصديق الذى أحبه على الرغم مما فيه من عيوب ، ولقد رأيت أن أكفر عن سيئاته بأن أقوم أنـا بنشر ديوانك العزيز ، هذا الديوان الذى يهمنى أمره أكثر مما يهمنى أى أثر من آثارى الأدبية .

وقد اتفقت فى هذا الشأن مع « لجنـة النشر للجـامعيين » وهى اللجنة التى قامت بطبع كتابى الأول « نماذج فنية » وستقوم بطبع كتابى الثانى عن « على محمود طه » ، وأود أن أقول لك بهذه المناسبة ، إننى قد بذلت الكثير من الجهد فى إقناع اللجنة بطبع ديوانك ، لأن دور النشر هنا معرضة إعراضا تاما عن نشر الدواوين الشعرية على نفقتها الخاصة ، مهما بلغ أصحابها من شهرة بين طبقات القراء . . والسبب راجع كما لا يخفى عليك الى ما تعرضت له تلك الدور من خسارة مادية مصدرها انصراف الجمهور القارىء فى البلاد العربية عن تذوق الشعر . . هذا الفن الجميل .

هذه حقيقة تملأ نفسى بالأسى والأسف ، ومما يشعرنى بالحرج أن تطلب إلى لجنة النشر للجامعيين أن أكتب مقدمة الديوان ، لأن هذه المقدمة فى رأى اللجنة لا فى رأيى كفيلة بأن تساعد عـلى انتشاره بـين القراء ، بعد إقبـالهم العجيب على كتـابى المتواضـع حتى لقد نفـدت طبعته الأولى بعد بضعة أسابيع . . ولقد حاولت مخلصا أن أقنعهم بأن فدوى طوقان ليست بحاجة إلى من يقدم شعرها إلى الناس ، وأن ديوانها ليس كدواوين غيرها من الناس ، ولكننى لم أفلح ، قلت هذا لأننى أومن به ، ولأننى من جهة أخرى لا أحب أن أفرض نفسى على أحد ، ولكننى فى سبيل ديوانك العزيز قد وعدتهم على طريقة سعيد تقى الدين !

معذرة يا فدوى ، فأنا والله يسعدنى أن أكتب عن شعـرك وأن أكشف عن معدنه النفيس للناس . . ولكننى لم أكن أستطيع أن أقف غير هذا الموقف ، خشية أن يكون لك رأى آخر يخالف رأى لجنة النشر للجامعيين ، أعنى أنك قد لا ترغبين فى أن يقدم شعرك أحد الأقلام إلى جمهرة القراء . . ومن هنا وعدتهم كما قلت لك على طريقة أخينا سعيد تقى الدين !

مهما يكن من شىء فسيطبع الديوان إن شاء الله وسأشرف بنفسى على إخراجه الفنى من جميع نواحيه . . غير أن الطبع سيبدأ فى أول يناير سنـة ١٩٥٢ أى بعد شهـر وبعض شهر ، ومـرجع ذلـك إلى انصراف مطابع الدار منذ شهور إلى مساعدة المطابع الأميرية فى طبع مقررات وزارة المعارف ، مما أدى إلى إرجاء طبع كتابى الأخير الى مثل هذا الموعد المرتقب ولا بأس من أن ترسلى إلى مجموعتك الشعرية فى أى وقت تشائين .

وقبل أن أختم هذه الرسالة ، أود أن أهنئك من قلبى على تلك القصيدة الفريدة التى قرأتها لك فى عدد أكتوبر من مجلة « الأديب » تحت هذا العنوان « وأنا وحدى مع الليل » . . كل ما أقوله لك هنا هو أن تكثرى من هذا اللون الجديد من الشعر ، لأنه سيتيح لى أن أتحدث عن لون جديد من ألـوان « الأداء النفسى » يوم أن يكـون ديوانك العزيز بين أيدى القراء فى الغد القريب !

نعم ، أكثـرى من هذا اللون يـا فـدوى . . أنت وحـدك مـع الليل . . . وأنا وحدى الذى أفهم هذا الشعر ، شعر الذين يعتزون بصداقة الليل حين يعز فى الدنيا وجود الصديق !

ولك يا فدوى العزيزة أخلص تحيات المخلص .

١٦ / ١١ / ١٩٥١ — أنور المعداوى

تعليق على الرسالة الثانية

يعود أنور المعداوى فى هذه الرسالة إلى الحديث عن شخصية سعيد تقى الدين ، حيث ظل المعداوى كما أشرت سابقا يحمل له الكثير الود والإعجاب ، حتى بعد أن انقطعت بينهما الصلة وتوقفت الرسائل ، واندفع سعيد إلى عالم السياسة وغرق فى دوامات الحزب القومى السورى وانقطع عن دنيا الثقافة والأدب . وتكشف لنا هذه الرسالة عن قصة الديوان الأول لفدوى طوقان .. وهو ديوان « .. وحدى مع الأيام » ، فقد ظهر هذا الديوان فى طبعته الأولى بالقاهرة ، وأشرف المعداوى بالفعل على إخراجه ، وقامت لجنة النشر للجامعيين بطبعه ، وقد ظهر الديوان فى أوائل ١٩٥٢ ، وكنت أيامها طالبا بالسنة الأولى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، كما كنت قد تعرفت على المعداوى واتصلت به وتوثقت علاقتنا . وأذكر أنه فى تلك الأيام كان سعيدا جدا بإشرافه على إخراج الديوان ، حريصا على متابعة « البروفات » ومراجعتها وتصحيحها بمنتهى العناية والدقة ، وكان يعامل الديوان كأنه عمل خاص به ، ولا أنسى فرحة المعداوى عندما

حصل على أول نسخة من الديوان ، وحملها بين يديه وكأنه أم تحمل على صدرها طفلها الوليد الحبيب ، والحقيقة أن المعداوى كان يحمل فى قلبه حماسا حقيقيا مشتعلا لأدب أصدقائه ، ورغم أننا نجد فى كتابته لمسة من لمسات الغرور والاعتداد البالغ بالنفس ، فإن هذه الظاهرة فى شخصيته كانت فى حقيقة الأمر نوعا من « غرور البراءة والطفولة » ولم تكن تصدر عن أنانية أو طبع شرير . لقد كان المعداوى دائما حريصا على أصدقائه متحمسا لأدبهم ، ما دام مقتنعا بهذا الأدب ومحبا له ، وقد حاول طيلة حياته الأدبية أن يساعد الآخرين بكل ما يملك من طاقة وجهد ، وخاصة فى المرحلة الأولى من حياته الأدبية ، حيث كان له صوت مسموع فى الأوساط الثقافية المختلفة .

على أن من المهم هنا أن نشير إلى أن ديوان فدوى طوقان الأول الذى أشرف أنور المعداوى على إصداره ، قد ظهر بدون المقدمة التى أشار إليها المعداوى فى رسالته ، وفى ذلك ما يؤكد لنا حرص المعداوى على ألا يفرض نفسه على هذا الديوان رغم ما يبدو فى الرسالة من اعتزاز المعداوى بكتابته وقلمه اعتزازا يبلغ حد الغرور ، ولكنه ـ كما أشرت ـ غرور طفولى برىء ليس فيه من الشر والأنانية شىء .

ويشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى نفاد كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » خلال أسابيع قليلة ، وهذه الواقعة صحيحة ، فقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٥١ وأنور المعداوى فى أوج نجاحه ومجده الأدبى ، حيث كان فى تلك الفترة ألمع ناقد عربى عن طريق بابه الأسبوعى فى « الرسالة » وهو باب « تعقيبات » وعن طريق المعارك الأدبية المشتعلة التى كان يخوضها فى ذلك الحين ، وعن طريق الحماس والحرارة فى الصداقات الأدبية والخصومات الأدبية على

السـواء ، مما خلق للمعـداوى جمهورا كبيـرا متحمسـا لـه فى تلك السنوات التى كانت تعتبـر أزهى سنوات حيـاته الأدبيـة ، وهى تقريبـا السنوات التى تبدأ من سنة ١٩٤٨ وتصل إلى قمتها سنة ١٩٥٢ ، ويعيش المعداوى بعد ذلك فى الضوء الساطع لتلك السنوات الأربع حتى تبدأ محنته سنة ١٩٥٤ ، وتستمر المحنة فى صعود وتزايد حتى تنتهى بوفاته سنة ١٩٦٥ .

يشير المعداوى أيضا إلى كتابه الثانى عن « على محمود طه » والواقع أن هذا الكتاب لم يظهر سنة ١٩٥٢ كما أشـار المعداوى وكـما كان يتمنى ، بل ظهر سنة ١٩٦٥ قبل وفاته بشهور قليلة ، ولم يظهر فى مصر وإنما نشرته وزارة الثقافة العراقية ، وأذكر هنا ـ كما أشرت فى فصل سابق ـ أن هذا الكتاب قد نشر بفضل الأديب والناقد العراقى محيى الدين إسماعيـل الذى عـاش فى مصر عـدة سنوات واتصـل بالمعداوى وكان متحمسا له معجبا به .

وتكشف لنا هذه الرسالة عن أن هناك رسالة أخرى مفقودة كتبها المعداوى إلى فدوى طوقان بين رسالته الأولى ورسالته الثانية ، ولم أعثر على هذه الرسالة ، ولم تخبرنى فدوى عنها شيئـا ، وأعتقد أن هـذه الرسالة قد ضاعت كما تصور المعداوى نفسه .



الرسـالة الثالثـة

يا عزيزتى الغالية . .

تلقيت أمس مجموعتك الشعرية الرائعة كما تلقيت رسالتك الحبيبة منذ أيام . . وأبدأ الحديث عن شعـرك لأقول لـك إن هذا الشعـر مظلوم . . أقول هذا بعد أن فرغت من قراءته للمرة الرابعة ، وكأننى أقرؤه لأول مرة ، والفن الصادق فى رأيى هو مـا يبدو للذوق والشعـور جديدا دائما ، أقسم ما أحببت شعرا كما أحببت هذا الشعر ، وأقسم مـرة أخـرى أن حبى لشعــرك لا يختلط بـذرة واحــدة من ذرات المجاملة . . إننى مثلا أعجب كل الإعجاب بشعر على محمود طه ، ولكننى مع ذلك أحب شعرك أكثر مما أحب شعره ، لأن هناك فارقا بين الحب والإعجاب ، هذا الفارق يا فدوى مصدره أن شعرك قريب إلى قلبى . . هل رأيت منظر الشلال تنحدر ميـاهه فى قـوة عارمـة وصخب عنيف ؟ وهل رأيت منظر النبع وهو ينساب فى رقة هائمة وحنان رهيف ؟ إن المنظر الأول يذكرنى بشعر على محمود طه ويذكرنى

بشعرك المنظر الأخير . . هناك القوة التى تملأ فجاج النفس ، وهنا الرقة التى تملأ شغاف القلب ، وأنا أحب هذه وأعجب بتلك ، ولعلك قد أدركت الفارق بين الحب والإعجاب .

هل تصدقين أننى قضيت الليل كله حتى الصباح وحيدا مع شعرك ؟ معذرة يا فدوى فقد كان معى رفاق آخرون . . كان معى الليل والنيل والأرق والسكون . . إنهم رفاق قدامى ، ليس فيهم من جديد غير شعرك وأرقى . . ومع هذين الرفيقين الجديدين قضيت الليل كله حتى الصباح . . إن شعرك أرّق منى الشعور قبل الجفون . . شعرك هذا الذى طالعت من ورائه قصة العمر التى كتبها بمداد الشجن ظلم الحياة .

أنت يا مظلومة العمر ، ويا مظلومة الشعر ، ماذا أقول لك ؟ أتذكرين تلك الكلمة التى كتبتها يوما على صفحات « الرسالة » ووجهت فيها الحديث إلى الله حيث قلت : رباه . هل تأذن لى فى أن أعتب عليك ؟! . انبعث هذا الهتاف الملتاع مرة واحدة فى حياتى ويا طالما قلت لنفسى إنه لن يتكرر . . ومع ذلك فقد تكرر بالأمس ، وأنا أقرأ قصة حياتك ومعى الليل والنيل والأرق والسكون .

ترى لو لم يحترق شعرك يا فدوى فى وقدة العذاب ، ترى هل كنت تستطيعين أن تقدمى إلينا مثل هذا الشعر ؟ صدقينى أن الحياة قد ظلمتك لتنصف الفن . . فنك هذا الذى يذكرنى بالذهب ، حين لا يصفو معدنه إلا وهو معروض لوهج النار : ولكن أين هم الذين وهبوا نعمة الشعور ليفرقوا بين الذهب والقصدير ؟ لقد أنصفت الحياة فنك ولكنه مظلوم من الأحياء .

هنا يا فدوى يأتي دور النقد ، النقد النزيه المنصف الذى يرفع الستر عن الكنوز الدفينة . . ولقد رأيت أن أقوم ببعض الواجب نحو فدوى الإنسانة وفدوى الفنانة ، سأطبع ديوانها مهما تكن الظروف ، وأقدمه للناس فى أزهى حلة من حلل النقد ، وأقول للسائرين فى الظلام : حسبكم . . لقد أشرق نور فجر جديد .

إننى عندما أقول إن شعرك مظلوم من الأحياء يافدوى فإنما أعنى الناشرين والنقاد . . أما القراء فهم بخير والحمد لله ، وإنك لتظفرين من كثرتهم الغالبة بأعمق التقدير وأصدق الإعجاب ، ولهذا أود أن أطمئنك منذ الآن إلى مصير شعرك ، حين نخرج به على الجمهور القارىء مجموعا فى ديوان . . ولا تفكرى أبدا فى ذلك الموقف الذى تتخيلينه فى رسالتك ، ذلك الموقف الذى لا يمكن أن يكون ! . . إن فيك يا فدوى من عزة النفس وكرامة الإباء ما لم أصادفه كثيرا فى حياتى . . ولقد تجلى لى إباؤك وتمثل ، عندما طلبت إلى أن أوافيك بأنباء الديوان بعد طبعه « إذا لم يلق ـ لا سمح الله ـ ما نتطلع إليه معا من رواج مرتقب . . لتتدبرى بنفسك أمر تسديد النفقات للجنة على أى وجه كان » يا لهذا الإباء الذى أخفض له قلمى تقديرا وتحية . . ما هذا يا فدوى ؟ أتظنين ـ حتى لو فرضنا المستحيل ـ أننى أسمح لموقف كهذا أن يحدث ؟ إن لى عند اللجنة مبلغا من المال يكفى لطبع ديوانين من الشعر ، وأقسم لك أنى لست محتاجا إليه . . وما أيسر أن ينفق كله على طبع ديوانك ، إذا خضعنا لهذا المنطق الجميل ، منطق خيالك يا شاعرة .

اطمئنى يا فدوى ، لأننى واثق من رواج ديوانك كل الثقة ، تبعا لخبرتى الطويلة بأذواق القراء . . وإن أملى اليوم ليتجدد فى دار نشر أخرى يمكننى أن أخاطب أصحابها فى هذا الأمر ، وهى دار

المعارف ، لقد اتصلت بي هذه الدار منذ أيام ، عارضة على أن أشارك بقلمي في تحرير مجلتها الشهرية « الكتاب » وأن أقدم إليها كتابا لسلسلة « إقرأ » وأن أدفع إليها بكتابي الجديد المعد للطبع : « على محمود طه شاعر الأداء النفسي » . . ولقد لبيت رغبتهم الأولى ـ أعني أصحاب الدار ـ وسألبي رغبتهم الثانية وسأفكر في رغبتهم الثالثة لأن هناك شبه اتفاق على طبع الكتاب الثاني بيني وبين لجنة النشر للجامعيين . مهما يكن من شيء فسأفاتحهم في أمر ديوانك في الأيام المقبلة حتى يكون بين يدي أملان أو فرصتان بدلا من فرصة واحدة . . ولقد كنت بدار المعارف في الأسبوع الماضي حيث قدمت إليهم مقالي الأول عن « الأثر الفني بين الفهم والتذوق » ، وهو دراسة يهمني أن تطلعي عليها في العدد القادم من مجلة « الكتاب » ، لأنها المفتاح الأصيل للأداء النفسي في شتى الفنون . . وفي ذلك المجلس الذي جمع بيني وبينهم ، حدث خلاف فني بين مدير الدار وبين الأستاذ عادل الغضبان رئيس تحرير المجلة حول كتاب للأستاذ ألبير أديب عنوانه « لمن » ، هذا الكتاب يعترض الأستاذ الغضبان على طبعه لأنه سيعرض الدار لخسارة مادية ، بينما يدافع مدير الدار عن طبعه بحجة العطف على مؤلفه الذي شكا إليه حاله يوم أن كان في لبنان . . وانتهى الخلاف بالاحتكام إلى فقلت إنني أؤيد طبع الكتاب على الرغم من رأيي في شخصية صاحبه الأدبية وفي شعره وفي ثقافته ، وهو رأي يختلف عن رأي الأستاذ الغضبان .

هذه القصة يا فدوى أرجو أن تكون بيني وبينك وألا يعلم بها أحد ، ولقد قصصتها عليك لتحكمي بنفسك على موقفي من ألبير أديب ، هذا الرجل الذي يشكوني دائما لأصدقائي ومنهم سعيد تقي الدين زاعما أنني أردت يوما أن أقضي على سمعة مجلته وهي مورد

رزقه ، حين سمحت لأديب عراقى أن يبدى وجهـة نظره فى مجلة « الأديب » عـلى صفحات « الـرسالـة » مع أننى سمحت فى نفس الوقت لأحد أصدقائه ، أقصد أصدقاء ألبير ، بأن يدافع عنه وعن مجلته وأن يهاجم الأديب العـراقى بما شـاء من ألفاظ . . لقـد كان الكتاب متوقفا على كلمة منى لترفضه دار المعارف ، ومع ذلك فقد أبى على الذوق والضمير أن أنطق بتلك الكلمة لأننى لا أحب أن أحارب أحدا فى رزقه .

ومرة أخرى أعود إلى شعرك لأقـول إننى أفضل كثيـرا ألا يُضم القسم الثانى وهو شعر المناسبات إلى الديوان . . إن القسم الأول بما فيه من ترتيب فنى لوضع القصائد يكون فى مجموعـه وحدة نفسيـة وموضوعية لا نظير لها بين دواوين الشعر ، ويقدم إلى النـاس قصة حياة كاملة تقوم فيها القصائد الشعرية مقام الفصول الروائية ، ولهذا أود أن أرجىء القسم الثانى من شعرك إلى فرصة أخرى مقبلة ، وليس من شك فى أنه سيسرك أن يكون لك ديوانان من الشعر لا ديـوان واحد .

ثم هذه القصائد المهداة إلى بعض الناس . . لا يجوز فنيا أن تذكر عبارات الإهداء فى ديوان مطبوع ، وإنما يجوز ذلك عنـدما يكـون الشعر منشورا فى مجلة من المجلات . هل تسمحين لى بأن أحول بينها وبين الظهور عند طبع الديوان ؟ ثم هل تسمحين مرة أخـرى بأن اختلف معك حول هذه التسمية : « أشواق الحياة » ؟ إنها تسميـة عادية يا فدوى وأنا أحب دائما الأشياء غير العادية ، ثم إن هناك ديوانا تافها اسمه « من نبع الحياة » وأنا لا أريد أن يشترك مع ديوانك ولو فى هذه الكلمة الواحدة : « الحياة » ! . . إنى ألمح ابتسامة عابرة ترف على شفتيك كصدى لهذه « الحنبلية » فى النقد الأدبى . . ما علينا ،

ولنعد إلى ما كنا فيه . . إن شعرك شعر غير عادى ، ومن الحتم أن نبحث عن عنوان له غير عادى ، ولقد فكرت مثلا فى أن أستغير منك أنت عنوانا موسيقيا فاتنا مكونا من هذه الكلمات : « وأنا وحدى مع الليل » . . وهنا أيضا ألمح يدك ترتفع معترضة كما يفعل مندوب روسيا فى مجلس الأمن صائحا من أعماقه : « فيتو » !

ستعترضين مثلا لأن لنازك الملائكة ديوانا اسمه « عاشقة الليل » أعلم ذلك مقدما يا عزيزتى الغالية ، فضلا عن أننى أوثر ألا تشترك معك نازك الملائكة فى شىء ، لأن هذه الفتاة قد بدأت بداية طيبة ثم انحرفت آخر الأمر عن الطريق ، الطريق الفنى الذى كنت أحب لها أن تسير فيه لقد انتهت فى رأيى ولست أدرى ما هو رأى الناس .

ما علينا مرة أخرى ولنعد إلى ما كنا فيه . . ما رأيك أن نتخير للديوان هذه التسمية : « وأنا وحدى مع الأيام » ؟ إنها خير تسمية فيما أعتقد ، لأنها غير عادية من جهة ، ولأنها أكثر انطباقا على شعرك من أية تسمية أخرى مهما تفتق عن فنون التسميات خيالك الجميل !

أنا فى انتظار رأيك على كل حال . . وأود أن أهنئك من كل قلبى على موقفك من سعيد تقى الدين ، لقد كان هذا الموقف لفتة بارعة منك يا فدوى بغير جدال ! ولكن كيف تقولين إن الفوضى الشعورية عند سعيد هى بعض صفاتك ؟ يخيل إلى أنك تخلطين هنا بين « الفوضى الشعورية » و« الحيرة الشعورية » . . إن المشكلة عندك مشكلة حيرة وليست مشكلة فوضى ، وما أكثر ما بين المشكلتين من فروق !

بقى أن أسألك يا فدوى عن حياتك فى هذه الأيام . . كيف تعيشين وكيف تقضين يومك ؟ إننى أحب دائما أن أتطفل على حياة

الذين أعزهم وما أقلهم . . ليطمئن عليهم قلبى ! ثم ألا تفكرين مرة أخرى فى زيارة مصر ؟ ولماذا لم تعرجى على دار الرسالة لنسعد برؤيتك ، فى المرة السابقة ؟ أنا فى انتظار رسائلك ، وأرجو أن أقرأ لك شعرا جديدا فى الأيام المقبلة وعلى صفحات « الرسالة » . . ودمت أيتها العزيزة الغالية للذى يذكرك ولا ينساك .

١٥ / ١٢ / ١٩٥١

أنور المعداوى


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعليق على الرسالة الثالثة

فى هذه الرسالة يتضح لنا أن أنور المعداوى هو الذى اختار اسم الديوان الأول لفدوى طوقان ، كما عرفنا من قبل أنه هو الذى قام بنشر الديوان وأشرف على ظهوره فى القاهرة ، على أن الديوان لم يظهر بالاسم الذى اقترحه المعداوى فى هذه الرسالة وهو « . . . وأنا وحدى مع الأيام » بل ظهر بعد تعديل طفيف فى الاسم فأصبح « . . وحدى مع الأيام » .

وفى هذه الرسالة يتضح لنا أيضا مدى حماس المعداوى لفدوى طوقان وشعرها ، حتى أنه اندفع إلى الهجوم على نازك الملائكة دون أن يبرر لنا رأيه تبريرا أدبيا مقنعا ، ولعل المعداوى أراد بهذه المقارنة بين نازك وفدوى أن يؤكد لفدوى مكانتها فى نفسه من خلال هذه المقارنة التى تخطر على البال دائما بين فدوى ونازك باعتبارهما أكبر شاعرتين فى الوطن العربى فى هذا الجيل ، والحقيقة أننا إذا أردنا أن ننظر إلى فدوى ونازك بالمقاييس الأدبية الخالصة فسنجد كلا منهما تمثل مدرسة فنية

مختلفة عن الأخرى وأنهما لا تنتسبان أبدا إلى مدرسة واحدة ، مما يجعل المقارنة بينهما صعبة .

ويشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى دراسة نقدية له عنوانها « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » وهى دراسة من أجمل دراساته النقدية وأذكاها ، وقد نشرها فى كتابه الثانى « على محمود طه » تحت عنوان « الأداء النفسى » ، كما ظهرت هذه الدراسة نفسها بعنوانها الأصلى وهو « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » فى كتاب المعداوى الثالث وهو « كلمات فى الأدب » وهو الكتاب الذى ظهر بعد وفاته بشهور عن المكتبة العصرية فى لبنان .

يشير المعداوى بعد ذلك إلى الأستاذ « ألبير أديب » ومجلته « الأديب » وكانت هذه المجلة فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات هى أشهر مجلة أدبية فى الوطن العربى خارج مصر ، ولكنها كانت فى أوائل الخمسينات قد بدأت تضعف حتى انتهى بها الأمر إلى صورتها الراهنة حيث تحولت إلى نشرة هزيلة تخلفت تماما عن الحياة والثقافة .

ويمكننا هنا أن نلخص المعركة التى يشير إليها المعداوى والتى ثارت فى بابه الأسبوعى « تعقيبات » حول مجلة الأديب ، وهذه المعركة تعطى فكرة عن جانب من جوانب الحياة الأدبية فى الوطن العربى فى أوائل الخمسينات ، وما كانت تعانيه هذه الحياة من مشاكل واضطرابات وصراعات متعددة . .

ففى العدد ٨٨٩ من مجلة الرسالة الصادر فى ١٧ يوليو سنة ١٩٥٠ نشر المعداوى فى بابه « تعقيبات » رسالة من أديب عراقى من البصرة

هو الأستاذ « كارنيك جورج » يتحدث فيها عن مجلة « الأديب » ، وقد نشرها المعداوى تحت عنوان « معايير القيم فى الصحافة الأدبية » ، وهذا هو نص رسالة الأديب العراقى :

« ألم تقع فى يدك هذه المجلة الأدبية التى تصدر كل شهر فى أحد الأقطار العربية الشقيقة ؟ ألم تعجب إذ لا تجد فيها غير الغث والتافه من ذلك الأدب الذى لا يفهم ، والذى يصر أصحابه على تسميته بالأدب الرمزى ؟ لاشك فى ذلـك ، بيد أن هنـاك فى الصفحات الأخيرة زاوية خاصة لو بحثت عنها لوجدتها تعلن أسماء أنصار المجلة خلال تاريخ معين ، كما أنها تذكر أرقام المبالغ التى تلقتها من هؤلاء الأنصـار تاركـة قناع الحيـاء وهى تستجدى الليـرات من أصحاب الأقلام ، أو بالأحرى تبيعهم النشر بالمال ، فما من اسم يذكر فى هذه القائمة إلا وكانت له فى المجلة قطع أدبية من هذه القطع الأدبية التى لا تفهم ولا تهضم .

أعـرف قارئـا فى العراق أرسـل إلى هذه المجلة قيمـة الاشتراك السنوى فقط ، فإذا برسالة تأتيه بخط صاحبهـا يبدى فيهـا شكره الجزيل ويرحب به وبأدبه وبقلمـه . . فى حين لم يكن لـه ـ يشهد الله ـ أدب ولا قلم ! ليس من شك فى أن هذا الرجل قد جعله « الإدمان » على هذا المسلك الخاص لا يفكر فى حقيقة المشترك ، بل يفتح لـه صدر مجلته بمجرد استلامه بدل الاشتـراك أو تلك « المعونـة » التى يطلبها من الأنصار ! ولا أدرى لماذا ؟ فإن هذه المجلة لو بيعت فى كل مدينة تصل إليها عشرون نسخة منها لعادت على صاحبها بالربح ، والربح الوفير .

وأعرف الكثيرين من أصحاب الأقلام المعروفة فى العـراق يأبى صاحب هذه المجلة أن ينشر أى شىء لهم لأنهم لا يرفقون مع كتابتهم قيمة الاشتراك السنوى ، أو قيمة الهبة التى ينتظرها من الأنصار ، وقد سمعت أخيرا أن الرجل قـد عزم عـلى أن يهجر بـلاده ومجلته ولا يأخذ معه إلا ما جمع من مال .

هذا ما لا ينبغى أن تسكت عنه أنت أيها الرجل الذى وهب قلمه للدفاع عن قيم الأدب وكرامة الأدباء » .

هذه هى الرسالة التى نشرها المعداوى للأديب العراقى « كارنيك جورج » من البصرة ، وقد علق عليها المعداوى بكلمات قال فيها :

« لا نريد أن نصدق هذا الذى يقصه علينا الأديب الفاضل ، لأنه لو صحت هذه الوقائع التى ينسبها إلى هذه المجلة لترتب على ذلك أن يفقد القراء ثقتهم فى رسالة الصحافة الأدبية . . إننا نريد للصحافة الأدبية أن تسمو برسالتها فوق مستوى الظنون والشبهات ، فلا يتهم المشرفون عليها بما ينقص من قـدرهم وقدر الأدب وقـدر الكرامـة العقلية ، نقول هذا ولا نريد أن نصدق هذا الذى بلغنا عن زميلة نحرص كل الحرص على أن يظل مشعلها مضيئـا بنور الفن ونـور الإيمان . . الفن الذى لا يقبل أن تكون المساومة معبره إلى القلوب والأسماع ، والإيمان بهذه الحقيقة مهـما تنكر لهـا أصحاب المـطامع والأغراض » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك :

« أما عن هذا الأدب الرمزى الذى أشار اليه الأديب الفاضل فى رسالته فقد أبدينا رأينا فيه وفى أصحابه يوم أن تناولناه بما يستحق من

سخرية فى التعقيبات . وحسب الرمزيين والسرياليين ما تلقاه بضاعتهم الزائفة من إعراض هنا وهناك » .

وبعد عدة أسابيع من نشر رسالة الأديب العراقى وتعليق المعداوى عليها ينشر المعداوى رسالة من كاتب لبنانى يدافع عن مجلة « الأديب » ويرد على الكاتب العراقى ، ورغم أن رسالة الكاتب اللبنانى كانت بدون توقيع فإن من المرجح أن يكون صاحب هذه الرسالة هو الدكتور سهيل إدريس الذى كان صديقا للمعداوى والذى تعود أن يراسله ويكتب إليه ، وقد كان المعداوى - فيما أعلم - هو أول صديق فى مصر للدكتور سهيل إدريس ، وكان سهيل من ناحية أخرى متصلا بمجلة « الأديب » وكاتبا من كتابها قبل أن يقوم بإنشاء مجلته المعروفة « الاداب » سنة ١٩٥٣ ، ويشاء القدر والتطور الأدبى أن تكون هذه المجلة التى أنشأها سهيل إدريس هى التى تقضى نهائيا على مجلة « الأديب » وتحل محلها كأبرز مجلة أدبية تطل بها لبنان على الوطن العربى .

يقول سهيل إدريس فى كلمته غير الموقعة باسمه إن ما ذكره الكاتب العراقى عن مجلة « الأديب » هو مجموعة « افتراءات » مردها إلى مصلحة شخصية . . فقد أرسل هذا الكاتب إلى « الأديب » عدة مقالات وقصص كانت تهمل . . وكأنه أراد أن « يرشو » صاحب « الأديب » لينشر له مقالاته فأعلمه أنه مرسل إليه مائتى نسخة هدية توزع على الأصحاب من مجموعة قصصية أصدرها بعنوان « دموع عذراء » على ما أذكر . . وحين تلقى صاحب المجلة عشرين نسخة من هذا الكتاب « وهو كتاب قصصى سخيف على ما تبين لى لأنه أرسل إلى » كتب له يشكره ويرجو أن يوقف إرسال الباقى حتى يتم توزيع هذه النسخ العشرين التى لم يكن يجرؤ على أن يهديها للأدباء من أصحابه ،

لأنها ضعيفة جدا من الناحية القصصية . . وكان من الطبيعى أن يغضب هذا الكاتب العراقى ويرسل إليك هذه الكلمة الحافلة بالاتهامات والافتراءات » .

وقد عاد الأديب العراقى البصراوى إلى الرد المطول على رسالة سهيل إدريس ، وخلاصة رده أنه ينفى الاتهامات الخاصة به ويؤكد الاتهامات الخاصة بمجلة « الأديب » ويكاد هذا الرد يكرر ما ورد فى الرسالة لأولى للأديب العراقى .

وأهمية هذه المعركة أنها تكشف لنا بعض ما أصاب المجلات الأدبية فى أوائل الخمسينات ، فمعظم هذه المجلات كان قد استنفد دوره ولم تعد أمامه رسالة يؤديها ؛ وذلك بسبب ظهور أجيال أدبية جديدة تحمل أفكارا وآراء لم تعد تحتملها المجلات القديمة أو تستوعبها أو تدرك معناها وتستطيع التعبير عنها .

وبالنسبة لمجلة « الأديب » ، التى ما زالت تصدر إلى اليوم[1] ، فقد انهارت حقا ، وأصبحت تعتمد فى تحريرها على البريد الذى يأتيها من القراء ، كما انخفض مستواها إلى أبعد الحدود وأصبحت نشرة لا تعبر عن شىء له قيمة ، وقد امتدت هذه الأزمة إلى المجلات الأدبية فى مصر فتوقفت مجلة « الرسالة » عن الصدور سنة ١٩٥٣ وتوقفت أيضا مجلة « الثقافة » ، وهما أعرق مجلتين أدبيتين فى مصر والوطن العربى كله فى ذلك الحين ، وهذه المعركة حول مجلة « الأديب » والتى نشرها المعداوى فى بابه الأسبوعى « تعقيبات » هى

---

(١) كانت المجلة مازالت تصدر عند ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب « سنة ١٩٧٦ ، أما الآن ، سنة ١٩٨٩ ، فقد توقفت المجلة عن الصدور منذ عدة سنوات بعد وفاة صاحبها « ألبير أديب » .

التى يشير إليها المعداوى فى رسالته إلى فدوى طوقان بقوله « . . ألبير أديب . . هذا الرجل الذى يشكونى دائما لأصدقائى ، ومنهم سعيد تقى الدين ، زاعما أننى أردت يوما أن أقضى على سمعة مجلته وهى مورد رزقه . . » .

وفى هذه الرسالة إشارة إلى ديوان شعر مصرى هو ديوان « من نبع الحياة » ، ولم يشر المعداوى إلى اسم صاحب الديوان وهو الشاعر محمد عبد الغنى حسن ، وقد كان المعداوى يرفض شعره ويهاجمه بعنف ويعتبره نموذجا للشعر السطحى التافه .



الرسالة الرابعة

يا عزيزتى يا فدوى . .

أين أنت ؟ ولماذا انقطعت رسائلك منذ أمد بعيد ؟ لقد تلقيت مجموعتك الشعرية وكتبت إليك عقب وصولها رسالة مطولة ، قلت لك فيها أشياء كثيرة حول أمور كثيرة . . ولم أتلق منك جوابا عن تلك الرسالة ، مما أثار الظن بأنها قد ضلت إليك الطريق ! وحاولت أن أكتب إليك مرة أخرى لأسألك عن مصيرها ولكن الحوادث المفجعة قد تتابعت ، فشغلتنى عنك وعن الدنيا وعن الناس . . ومعذرة يا فدوى من هذا الذى حدث ، لأننى أعيش فى هذه الأيام فى جو نفسى قاتم لا يتيح لى أن أخلو كثيرا إلى القلم ، ولهذا انقطعت منذ بعيد عن الكتابة إليك !

إن ما تتعرض له مصر الحبيبة من عدوان آثم هو الذى يلقى بشعورىَ فى موقد العذاب ليحترق ، وهو الذى يكاد يلهينى عن التفكير فى كل شىء حتى الأهل والأحباب ، أريد أن أكتب فلا

أستطيع ، وهكذا تنقضى كل أوقاتى فى هذه الفترة العصيبة التى ترهق الأعصاب وتزلزل المشاعر ، إنها فترة كفاح مرير يا فدوى ، كم تبذل فيه مصر كل ما تملك من قطرات العرق والدم والدموع . . تبذلها فى سخاء لأن السخاء وحده هو الطريق إلى الحرية ، وقد أوشكنا أن نبلغ من هذا الطريق منتهاه ! ماذا أقول لك أيتها العزيزة ؟ إن لدى أشياء كثيرة أود أن أقولها ولكنها تحتاج إلى لحظة صفاء . . سأرجئها إذن إلى لقاء قريب بين السطور والكلمات ! كل ما أود أن أقوله اليوم هو أننى أريد أن أسألك عن رسالتى الماضية ، لأنها كانت تضم كثيرا من الآراء هى التى تنقصنى الآن قبل أن أدفع بشعرك إلى المطبعة . . ترى هل تلقيت تلك الرسالة أم أعود إلى شرح مقترحاتى الفنية من جديد وفى رسالة مقبلة ؟ أود أن أسمع منك الجواب ، كما أود أن تكثرى من الكتابة إلى فى هذه الأيام لأطمئن عليك يا فدوى ، ولا أنسى فى ظل روحك المضيئة ما يكتنفنى من ظلام !!

ولعلك قد أطلعت على تلك الكلمة التى كتبتها السيدة وداد سكاكينى ، لقد كانت تلك الكلمة محل نزاع بينى وبين الأستاذ الزيات ، لأنه مع تقديره الخالص لشعرك لم يكن يحب أن ينشرها عملا بمبدأ « الرسالة » فى عدم الكتابة عن الأحياء إلا اذا كانت هناك مناسبة تدفع إلى الكتابة ! ومع موافقتى على هذا المبدأ فقد أصررت على نشر الكلمة ولم أبرح دار الرسالة حتى أذعن الزيات مرغما لما أريد . . ولا أود بعد ذلك أن أسمع منك كلمة شكر ، ولا أن يعلم بهذا الذى صنعت أحد من الناس .

مع هذه الرسالة صورة تذكارية رأيت أن أهديها إليك لتعرفى منها الأساتذة : عباس خضر ، أحمد حسن الزيات بك ، أنور

المعداوى ، حبيب الزحلاوى ، وأمامهم الأستاذ كامل محمود حبيب الذى اضطرب طربوشه بين يديه فأثار ضحكى وضحك الزيات .

ولك يا فدوى العزيزة أخلص تحياتى المخلص :

٣ / ٢ / ١٥٢ أنور المعداوى



تعليق على الرسالة الرابعة

كتب المعداوى هذه الرسالة فى شهر فبراير سنة ١٩٥٢ ، وفى تلك الفترة كانت الحركة الوطنية فى مصر قد اشتعلت اشتعالا عنيفا ، فألغت حكومة الوفد بقيادة مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦ قبل كتابة هذه الرسالة بشهور ، وبالتحديد فى نوفمبر ١٩٥١ ، وهى المعاهدة التى كانت تنظم العلاقة بين مصر وانجلترا وتسمح ببقاء جيش الاحتلال الإنجليزى فى منطقة قناة السويس ، وبعد إلغاء المعاهدة سقطت شرعية الوجود الإنجليزى فى مصر من الناحية القانونية ، وبالطبع فإن هذا الوجود فاقد للشرعية من الناحية الوطنية منذ دخول الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، وبعد إلغاء المعاهدة فى أواخر ١٩٥١ دخل الفدائيون المصريون معركة عنيفة ضد الاحتلال الإنجليزى فى منطقة القناة ، وأخذ الشهداء من أبناء مصر يتساقطون واحدا وراء الآخر ، وبدأ الملك فاروق ـ بالتعاون مع الإنجليز ـ فى التآمر على الحركة الوطنية ، وكان حريق القاهرة المشهور فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ هو قمة التآمر على شعب مصر وحكومته الوطنية ،

وقد استغل الملك فاروق الحريق المدبر فأقال حكومة الوفد بقيادة النحاس وسلم الحكم لبعض أعوانه وأنصاره ، هؤلاء الذين أرادوا أن يطفئو شعلة الحركة الوطنية فى مصر تحت شعار حاجة الدولة المصرية إلى تطهير البلاد من العناصر الفاسدة التى ملأتها بالرشوة والانحراف ، وكان الهدف من ذلك هو إبعاد الأنظار عن المشكلة الأساسية وهى الإنجليز تشتد والشهداء يتساقطون كل يوم ، واعتداءات القوات الإنجليزية على المدن والقرى فى منطقة القناة تزداد عنفا وقسوة . وهذا هو ما يشير إليه المعداوى فى رسالته بقوله « إن ما تتعرض له

وهذا هو ما يشير إليه المعداوى فى رسالته بقوله « ان ما تتعرض له

مصر الحبيبة من عدوان آثم هو الذى يلقى بشعورى فى موقد العذاب ليحترق ، وهو الذى يكاد يلهينى عن التفكير فى كل شىء حتى الأهل والأحباب . . إنها فترة كفاح مرير يا فدوى ، كفاح تبذل فيه مصر كل ما تملك من قطرات العرق والدم والدموع . . تبذلها فى سخاء لأن السخاء وحده هو الطريق إلى الحرية ، وقد أوشكنا أن نبلغ من هذا الطريق منتهاه » .

وتصوير المعداوى لآلام مصر فى تلك الفترة صحيح وصادق . . فقد كانت مصر فى تلك الأيام تعيش مرحلة مليئة بالمجد والحزن واللوعة والأمل والألم فى وقت واحد ، وكانت لحظات الكآبة والانقباض ولحظات السعادة والفرح تمر على نفس الإنسان فى مصر عشرات المرات فى اليوم الواحد من شدة تلاحق الأحداث وتناقضها العنيف .

بعد هذه الإشارة العامة إلى ما كانت تعانيه مصر من آلام الكفاح ضد احتلال الإنجليز وطغيان فاروق يعود المعداوى ليتحدث فى بعض القضايا الأدبية والشخصية ، فيشير إلى مقال كتبته الأديبة

السورية السيدة وداد سكاكيني عن فدوى طوقان ، وقد نشرت مجلة « الرسالة » هذا المقال فى العدد ٩٦٨ الصادر فى ٢١ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكان المقال بعنوان « فدوى طوقان شاعرة الوجد والحنين » وقد تناولت الكاتبة السورية فى هذا المقال موقف فدوى من ثلاثة موضوعات ، الموضوع الأول هو حزنها على فقد أخيها الشاعر الفلسطيني العربى الكبير إبراهيم طوقان ، والموضوع الثانى هو تجربتها الأنثوية كفتاة حساسة تعيش فى مجتمع تحكمه التقاليد القاسية ، وتقول وداد سكاكيني حول هذا الموضوع « إن السائد من تقاليدنا مايزال يجعلنا متحفظين متحرزين فى التعبير عن حقيقة إحساسنا ومنازعنا ، فلا الشاعرة ولا الأديبة تستطيع مع هذا التحرج أن تصور هواجسها وخلجات قلبها ، ولا الناقد يستطيع النفاذ إلى ما وراء الكلام ، ولهذا فإنى حين نظرت إلى طائفة من شعر فدوى قالته فى التعبير العاطفى والشوق المقيد والقلق المستبد عزوته إلى هذا التحفظ النسوى . غير أن فدوى إذا قيست بشاعراتنا المعاصرات كانت أصدقهن تمثيلا للعاطفة الصحيحة والشعور الذى يخامر الأنثى ، وليس معنى هذا أن شعرها مقصور على الوجد والحنين فإن لها تأملات روحية وصورا حسية منوعة دلت على تتبعها وتعمقها فى فهم الكون والحياة مع تيارات الفكر لحديث » .

أما الموضوع الثالث الذى أشارت إليه الكاتبة السورية فى شعر فدوى طوقان فهو قضية فلسطين . . وحول هذا الموضوع تقول الكاتبة « إن لفدوى طوقان فى فلسطين المنكوبة المغصوبة شعرا لم يقل مثله الرجال » . . وهذا الحكم الأدبى الذى أصدرته وداد سكاكيني على شعر فدوى الوطنى حكم طريف وغريب معا ، ففضيلة شعر فدوى الوطنى عند الكاتبة هى أنه شعر « لم يقل مثله الرجال » ، وهى فضيلة

إن صحة لا قيمة لها ؛ لأن الوطنية شعور أصيل صادق ينبغى أن يتوفر لكل إنسان مثقف حساس ، سواء أكان هذ الإنسان رجلا أم امرأة . ومن ناحية أخرى فإننا نجد أن الشعر الوطنى الفلسطينى الذى قاله « الرجال » ـ ومن بينهم إبراهيم طوقان شقيق فدوى ـ لم يكن شعرا محدود القيمة أو قليل التأثير ، فقد كان شعراء فلسطين يعبرون بصدق وأصالة فنية عن محنة وطنهم بصورة لا توحى بأنهم قصروا فى هذا المجال ، ويكفى أن نذكر هنا شعر عبد الرحيم محمود وأبى سلمى إلى جانب شعر إبراهيم طوقان لنعرف أن المقارنة بين شعر فدوى وشعر الرجال فى هذا المجال لم يكن لها مبرر ، وفدوى وشعرها لم يكونا بحاجة إلى مثل هذه المقارنة .

وقد أنهت الكاتبة وداد سكاكينى مقالها عن فدوى طوقان بهذه الفقرة « . . إن طائفا من الإلهام الإلهى والفن المطبوع قد تخير فدوى طوقان لتحمل رسالة الشعر النسوى فى جيلنا المعاصر ، يمكنها من ذلك تضلعها فى الفصحى وتمرسها بالبيان ، وإنها لتجود بالشعر من نفسها وحسها غير منسحبة على التكلف والتقليد ولا مرددة لشعر مصنوع تفوح منه رائحة الترجمة والاقتباس ، وإن لها لأمدا بعيدا هى منطلقة نحوه وقد انشق أمامها الطريق » .

الرسالة الخامسة

فدوى العزيزة :

تلقيت اليوم رسالتك الغالية .. وما كان أشد أسفي حين علمت أنك قد كتبت إلى ، وأن رسالتك الماضية قد قدر لها ألا يكون بيني وبينها حديث وحديث .. لقد ضاعت يا فدوى وضاعت معها تلك الكلمات التي كنت تحرصين على ألا تقع في يد غير هذه التي تمسك بالقلم لتكتب إليك ، وأشهد لقد أحسست مرارة الأسف كاملة حين انتهيت من قراءة رسالتك وحين أسرعت إلى « دار الرسالة » لأبحث دون جدوى عن ذلك الأثر الضائع العزيز .. ترى ماذا قلت ، وماذا كتبت ، وما هي تلك الكلمات الخفية التي تشفقين وأشفق معك من أن يطلع عليها إنسان ؟ أسئلة حائرة ثائرة ستظل تلفح مشاعري حتى أتلقى منك الجواب !

اكتبها مرة أخرى ولا فائدة من الأسف على ما حدث وكان ... اكتبها واكتبي غيرها إذا شئت فلن ترى مني غير إنسان يفتح لك

القلب على مصراعيه لتستقر فى أعماقه كل كلمة من كلماتك سواء همست بها الروح أم نطق اللسان . . إننى أقدرك فى جهرك أكثر مما أقدرك فى صمتك ، وأكبرك فى إفضائك أكثر مما أكبرك فى كتمانك ، وأجلك فى صراحتك أكثر مما أجلك فى مواقف التحفظ والتحرج والإشفاق . . أقول هذا وأنا أعنيه ، لأنك عندى إنسانة كاملة يؤلمنى أن تقول لى فى رسالتها إنها تشفق من البوح والإفضاء خشية أن تظهر أمامى بمظهر الفتاة الحمقاء . لا . . يافدوى ! . . إنك لا تعلمين مكانتك من نفسى ، هذه المكانة التى ستقدمك دائما فى معرض الفكر صورة جميلة ، جميلة مهما اختلطت فيها الأضواء بالظلال . ولن أنقل هذه الصورة يوما من الإطار الذى وضعتها فيه ، الإطار الذى صنعته بنفسى وضننت به على كثير من صور الناس !

أتخشين أن أقرأ بعض السطور من كتاب حياتك ؟ ألا ليتك تقدمين إلى هذا الكتاب كاملا لأقف عند كل صفحة من صفحاته ، ولأقول لك فى نهاية المطاف لا تشفقى من هذا الناقد ، إنه يعطف كل العطف على كل كلمة لك فى كتاب الفن أو كتاب الحياة . . يعطف عليها بقلبه ، ويخصها بحنانه ، ويطوى عليها الضلوع !

إنك لتذكريننى بإنسانة عزيزة عليها رحمة الله . . لقد كانت مثلك فى بدء الاتصال الروحى بينها وبينى ، متحفظة ، مترددة ، تقول كلمة ثم تخفى كلمات . . وحين اطمأنت إلى ، ووثقت بى ، راحت تحدثنى عن كل شىء وتفضى إلى بكل شىء ، حتى لقد كانت هناك أشياء أعلمها « كاملة » ويعلم « بعضها » المحيطون بها من أم وأخوة وأخوات . . وبهذه المناسبة أود أن أذكر لك هذه الحقيقة لأول مرة ، وهى أنها كانت تحبك كل الحب وتعجب بك الإعجاب كله ،

ولا تذكر لى اسمك إلا مصحوبا بتلك التحية : أختى فدوى . . كانت كلما قرأت لك قصيدة فى « الرسالة » تسرع إلى التليفون إذا عز اللقاء ، لتسألنى عنها ، ولتأخذ رأيى فيها ، ولتنثر على شخصك وشعرك عبارات إطراء نثرا بغير حساب . . إنها الشاعرة المصرية التى خصصتها فى كتابى بذلك الفصل اللائع الحزين . . سألتنى مرة : ألم تكتب إليك فدوى فى يوم من الأيام ؟ ولما أجبتها بالنفى هتفت قائلة : واأسفاه . . لقد كنت أتمنى أن تكون أنت واسطة التعارف بينها وبينى ! وحين سألتها عن سر هذا الحب همست لأنى أجد نفسى فى شعر فدوى ، فى كل بيت من أبيات هذا الشعر ! . . وأشهد لقد ثارت على يوما ثورة عاصفة حين خطر لى أن أمتحن حبها لك بشىء من الدعابة أخذتها مأخذ الجد الصراح . . كان ذلك يوم أن نشرت لك « الرسالة » قصيدة بإمضاء « المطوقة » ، واتصلت هى بى لتسألنى فى لهفة : من هذه المطوقة ؟ وحين سألتها لماذا تسألين قالت : لأن قصيدتها مدهشة . . وهنا قلت متخابثا ومتصنعا لهجة الاستنكار : إنها قصيدة سخيفة يا ناهد ، ولو لم تكن سخيفة لما تحرجت صاحبتها وهى فدوى من أن تنسبها إلى اسمها الصريح ! . . وهبت الثورة العاصفة بعد أن سمعت هذا النقد ، ولو لم يرد ذكر اسمك لما هبت ثورة ولما حدث اعتراض . . وهدأت الثائرة العزيزة حين علمت أن الأمر الذى أكثر من دعابة قصد بها الامتحان !

وإذا عدت إلى المقال الذى رثيتها به طالعك منه قولى بأننى لم أرها ولم ألقها فى يوم من الأيام . . كل ما فى المقال صادق كل الصدق إلا هذه العبارة ! ولقد اضطرنى الوفاء لذكرها أن أقول ما قلت ، لأنها بحكم طبيعتها النفسية كانت تحرص الحرص كله على ألا يعلم هذا الأمر أحد من الناس ! ولقد كنت عند حسن ظنها فى الحياة وبعد

الموت ، ولولا أننى أستشف من وراء الغيب أن روحها لا تضيق بأن أتحدث عن هذا السر إلى « أختها » العزيزة ، لـولا هذا لما أبحت لنفسى أن أذكر لك يا فدوى بعض هذا الذى كان !

وأترك هذه الذكرى المؤلمة لأقول لـك إن هذه الكلمـات ما هى إلا من وحى عبارتين وردتا فى رسالتك : إحداهما تلك التى تقولين فيها بصدد الحديث عن زيارتك لمصر : « لقد سألتنى لماذا لم أزر دار الرسالة . . ولما كان جوابى سيسجل أمامك حماقتى . . فقد فضلت ألا أجيبـك عن هـذا السؤال » والأخـرى التى تقـولـين فيهـا وأنت فى معرض الإشارة إلى قصيدتك « الصخرة » : إننى أعانى شيئا ، أعانى ألما خفيا لا يدرى به أحد ولا أحب أن يدرى به أحد » !

لقد كانت كلماتى من وحى هاتـين العبارتـين . . وأعود فـأكرر ما سبق أن قلت ، وهو أن نظرتى إليك لن تتغير فى يوم من الأيام ، وسـواء علمت ما وراء هـاتين العبـارتين أم جهلتـه ، فستظلين فى شعورى إنسانة كاملة وفاضلة . . ومع هذا فأنا لا أحب أبدا أن أرغم قلمك على البوح والإفضاء ما دمت تؤثرين أن يظل كل شىء رهين مكانه من شعاب القلب ، لأننى أقدر كل التقديـر أن الطبـائع النفسيـة ليست واحدة عند كل الناس ! وإذا كنت قد قلت لك إننى أتمنى أن أقـرأ أكثر السـطور من كتاب حيـاتك فـلأننى أومن بأن المشـاركـة الوجدانية هى أساس الترويح عن النفوس الحزينة فى لحظات الضجر والقنوط . . إن النفس أحيانا لتمتلىء بالهم والأسى حتى لتود خشية الانفجـار أن تفيض ، وقد يكـون فيضها حـديثـا صـامتـا نسميـه الدموع ، وقد يكون حديثا ناطقا نسميه الكلام ، وكـلا الحديثـين خلاص للنفس من كل أثقالها فى لحظة ضيق ، وما أعمق العزاء حين

نتخير لنهر الأحزان أن يصب رواسبه بين يدى صديق ! هذا هو كل ما رميت إليه . . ولست أزعم أننى « أفهم » الجو النفسى لقصيدة « الصخرة » كل الفهم ، ولكننى متأكد من أننى قد « تذوقته » كل التذوق تبعا لنظريتى التى كتبتها عن الأثر الفنى حين نعرضه فى ساحة التجربة النفسية لنزنه بميزان الشعور ! .

وبهذا الميزان وحده سأتحدث عن ديوانك الحبيب فى الغد القريب على صفحات « الرسالة » بعد أن تلقيت موافقتك على المقترحات الفنية ، لقد استقر رأيى على أن الحديث عنه فى الرسالة سيكون أكثر جدوى مما لو ظهر كمقدمة نقدية ، لأن القراء لا يكثر إقبالهم على الآثار المطبوعة إلا بعد أن يسمعوا كلمة النقد فى صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات !

لن أكتب إذن مقدمة الديوان ، ولن أعود إلى الرسالة إلا بعد ظهوره لأقدمه إلى القراء ، لأننى منصرف فى هذه الأيام إلى إضافة بعض الفصول إلى كتابى الجديد . . ولا تشغلى نفسك يافدوى بتلك التوصيات اللطيفة التى زخرت بها رسالتك حول الديوان !

وأود أن أهنئك من قلبى على تلك اللمسة المدهشة التى عقبت بها على مقالى حول « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » . . الواقع أننى كنت أقصد العقاد بالذات حين كتبت ذلك المقال ، حتى لقد هممت بأن أهديه إليه لولا أننى رأيت أن الغمزة ستكون « مكشوفة » ! إن عيب العقاد يا فدوى أنه يناقش كل ظواهر النفس والحياة بعقله ، حتى لقد أوشك أن يجعلنى أخبط رأسى فى الجدار وأنا أقرأ قصته « سارة » . . تصورى أنه وهو يتحدث عن تجربته الذاتية فى علاقته

العاطفية بمن يحب ، كان يفكر ؟! أعوذ بالله . . أعوذ بالله من هؤلاء الذين يفكرون ولا يشعرون !

وماذا أقول لك أيضا ؟ أقول لابد من تهنئة أخرى على تلك اللمسة الأخرى فى رسالتك ، حول تهافت الشعراء على بعث أناشيد الجهاد فى « الرسالة » بعد تلك الوخزة المؤلمة . . لقد ضاق مكتبى فى وزارة المعارف بحضراتهم وهم يفدون إلى جماعات ، وبيد كل منهم قصيدة هى وثيقة التكفير عن الذنب وطلب المغفرة ، وكان من نتيجة هذا المشهد المضحك ذلك السيل المنهمر من شعر الجهاد الذى أشرت إليه والذى أصبح هنا حديث الناس . . أما مجلة « الكتاب » فلا أستطيع أن أكتب فيها وأنا منقطع عن الكتابة فى « الرسالة » حتى لا يتألم الأستاذ الزيات . . وقد اعتذرت لعادل الغضبان مرجئا عودتى للتحرير معه إلى أجل قريب .

وأشكرك الشكر كله على عنايتك بتلك الصورة التذكارية التى أهديتها إليك ، وإذا كنت قد استطعت أن تميزى شخصى من بين المحيطين بى قبل أن تقع عيناك على الأسماء ، فإن ذلك ليس بغريب على فنانة وهبت سلامة الحس وصفاء النفس ورهافة الوجدان . . أما صورتك أنت فهى عندى ، صورتك الإنسانية التى قلت لك إننى لن أنقلها من الإطار الذى وضعتها فيه ، الإطار الذى صنعته بنفسى وضننت به على كثير من صور الناس !

ودمت للذى يذكرك ولن ينساك .

أنور المعداوى

التعليق الأول
على الرسالة الخامسة
حول الشاعرة المصرية ن . ط . ع

لم يكتب المعداوى تاريخا لهذه الرسالة ، ولكن بعض ما جاء فى هذه الرسالة من إشارات يكشف عن تاريخها بالتقريب ، فقد كتب المعداوى إلى فدوى فى رسالته الرابعة يتساءل عن انقطاعها عن الكتابة إليه ، والرسالة الخامسة تكشف أن فدوى قد كتبت إليه وضاعت رسالتها فى البريد ، كما أن المعداوى كان يسأل فى الرسالة الرابعة عن رأى فدوى فى مقترحاته الفنية بالنسبة لديوانها الأول ، وأهم هذه المقترحات هو تغيير اسم ديوانها إلى « . . وحدى مع الأيام » . . وفى الرسالة الخامسة نجد ما يفيد موافقة فدوى على هذه المقترحات ، وبالإضافة إلى هاتين الملاحظتين اللتين تحددان مكان هذه الرسالة بين رسائل المعداوى فإن فدوى نفسها قد وضعت هذه الرسالة غير المؤرخة بعد الرسالة السابقة مباشرة مما يؤيد ما أراه من أنها هى الرسالة الخامسة ، وبذلك يكون تاريخ كتابتها هو الفترة

الممتدة بين الرسالة الرابعة وتاريخها ١٩٥٢/٢/٣ والرسالة السادسة وتاريخها ١٩٥٢/٣/٢٩ .

يحاول المعداوى فى هذه الرسالة أن يزداد اقترابا من فدوى ، ويحاول أن يكسر الحواجز الروحية بينهما ، وذلك بتأكيده على ما يكنه لها من إعزاز وتقدير ، كما أنه يحاول من ناحية أخرى أن يغريها بأن تفتح قلبها له وتفضى بأسرارها وتبوح بهمومها الروحية بغير حرج . . كل ذلك دون أن يعترف المعداوى بأنه يحمل لفدوى عاطفة غير عاطفة الود والصداقة الوثيقة .

ويتحدث المعداوى فى هذه الرسالة عن « إنسانة عزيزة » أخرى ، ويتضح لنا فى الرسالة نفسها أن هذه الإنسانة هى الشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » وقد ظهرت هذه الشاعرة فى الحياة الأدبية فى مصر حوالى سنة ١٩٤٨ ، وكانت تنشر شعرها فى بعض الصحف اليومية المصرية ، ثم بدأت تنشر فى مجلة الرسالة ، وكانت أول قصيدة نشرتها لها مجلة « الرسالة » فى ١٤ مارس سنة ١٩٤٩ .

والواقع أن هذه الشاعرة تعتبر شاعرة مجهولة حتى الآن ، ولا تكاد حياتنا الأدبية تعرف عنها شيئا أو تعترف بها ، وذلك لعدة أسباب ، فقد نشرت هذه الشاعرة كل قصائدها بتوقيع يتكون من الحروف الأولى من اسمها وهى « ن . ط . ع » ولم تكن توقع أبدا باسمها الكامل ، مما أدى إلى عدم معرفة القراء بها وباسمها الصريح ، ومن ناحية أخرى فإن عمرها الأدبى كان قصيرا جدا ، فحياتها الأدبية العلنة لم تزد على سنتين ، حيث بدأت نشر قصائدها سنة ١٩٤٨ وتوفيت سنة ١٩٥٠ ، ومن الواضح أنها ماتت صغيرة ، ولا أستطيع أن أحدد

عمرها[1] ؛ لأن المعلومات الخاصة بها قليلة جـدا ، ولكن كلمات الرثاء القليلة التى ظهرت بعد وفاتها تشير إلى أنها كانت فتاة صغيرة فى مقتبل عمرها . وقد عاشت هذه الفتاة حياة قـاسية مليئـة بالقيـود الاجتماعية مما كان له تأثير بالغ على صحتها ، ولاشك أن هذه القيود قد ساهمت مساهمة كبيرة فى التعجيل بموتها فى هذه السن الصغيرة .

ونستطيع أن نكتشف الظروف الصعبة القاسية التى كانت تعيش فيها هذه الشاعرة من خلال قصائدها القليلة المنشورة ، فكل هذه القصائد كانت تعبيرا عن الصراع العنيف مع الظروف القاسية التى كانت تحيط بالشاعرة ، ولم يكن هذا التعبير رمزيا خافيا ، بل كان تعبيرا صريحا مباشرا عن المأسـاة ، على أننـا لا نستطيـع أن نعرف بالضبط نوع القيود التى كانت تعانيها هذه الشاعرة الشابة المجهولة ، ولا نـوع المرض الـذى تعرضت لـه وأودى بحياتهـا فى هـذه السن المبكرة ، ومع ذلـك فشعرهـا يكشف لنا عن أنها كـانت « أسيرة » للحياة فى عائلة شديدة المحافظة ، حرمتها من الاختلاط بالناس ، ومنعتهـا من الانطلاق فى الحيـاة الأدبية كـما كانت تحب استجـابـة لطبيعتها وموهبتها الفنية الواضحة .

كانت أول قصيدة نشرتها « ن . ط . ع » أو « ناهد طه عبد البر » فى مجلة « الرسالة » فى ١٤ مارس ١٩٤٩ بعنـوان « وفاء وحنـان » وقد وقعت القصيـدة على طـريقتها بـالحـروف الأولى من اسمهـا وهى « ن.ط.ع » ، وقدمت للقصيدة بمقدمة نثرية تقول فيها « . . من وحى قصة سينمائية غربية شاهدتها على الشاشة تمثل أروع صـورة

(١) راجع الهامش المنشور فى صفحة ١٧٠ .

للحنان الإنسانى يضفيه رجل على أسرته وزوجته المريضة . . مما يهز أرق المشاعر ، ويثير أنبل الخواطر » .

وفى هذه القصيدة تكشف الشاعرة بأسلوب مباشر عما تشكو منه وتعانيه ، وترسم لنا صورة من المأساة التى تعيش فيها دون أن نعرف الأحداث والوقائع التى خلقت هذه المأساة ، تقول الشاعرة فى قصيدتها :

إلهى . . أفى الغرب هذا الوفاء ؟
أتحظى النساء بهذا الحنان . . . ؟
وفى الشرق يظلمهن الرجال
ويقسو عليهن صرف الزمان

وتواصل الشاعرة شكواها من طغيان الرجل الشرقى ومن فساد وضع المرأة فى المجتمع العربى فتقول :

أرى حكمة الله فى شرعه
ترد الفساد وتهدى الضلال
ففيم التلاعب بالدين . . . . ربى
يريدونهن متاعا لهم
تعددن مثنى به أو رباع
أهذا هو الشرع يا ويحهم
لقد صيروه سبيل الخداع
أخذتم من الغرب تلك القشور
وحب المظاهر دون اللباب
وأنتم لعمرى لا تبتغون

سوى الجسم مثل جياع الذئاب
وأنكرتم الروح ، يا ويحكم
وأين هو الرفق ! أين الحنان
ونبل النفوس ؟ وصدق الوفاء ؟
وأين النبيل بهذا الزمان

ثم تشير الشاعرة بعد ذلك إلى نفسها وإلى النموذج الأنثوى الذى تمثله فتقول :

ويا لهف من ضللتها المعانى
وحثت خطاها ابتغاء الكمال
فطاح الخيال بعذب الأمانى
ولم تدر أين تحط الرحال

وهكذا تشن الشاعرة هجوما عنيفا على « الرجل » وموقفه من المرأة ، وتصفه بأقسى الصفات ومن بينها الخداع والمادية ومجافاة روح الدين والابتعاد عن قيم الصدق والحنان والنبل ، وكان هذا الصراع الذى تعبر عنه هذه القصيدة هو محور الصراع فى القصائد الأخرى التى قرأتها لهذه الشاعرة ، وإن كانت تحاول فى كل قصيدة جديدة أن تكشف عن جانب من جوانب هذا الصراع أو عن مظهر من مظاهره ، فهى فى القصيدة السابقة تشكو وضع المرأة فى المجتمع ؛ مما يشير إلى أنها كانت تعانى من هذا الوضع معاناة حادة عنيفة ، ولكننا لا نعرف بالضبط من هو « الرجل الظالم » بالنسبة لهذه الشاعرة ؟ ، هل يتجسد هذا الرجل فى شخصية الأب أو شخصية الأخ ، أو فى شخصية حبيب لها غدر بها وتركها فريسة لأحزانها ؟ ، إذ من الواضح أنها لم تتزوج ، فقد كانت تحرص على كتابة كلمة « آنسة » قبل توقيعها على كل قصيدة .

هذه كلها أسئلة لا نجد لها إجابة ، ولن تتاح لنا الإجابة الصحيحة إلا بعد التوصل إلى خيط يقودنا بوضوح إلى حياتها الشخصية ، وقد يكون هذا الخيط فى شخص صديقة لها أو أحد أفراد عائلتها إذا رضى هذا الفرد أن يتكلم ويكشف لنا حقيقة ـ مأساة هذه الفتاة الشاعرة .

ومن الجوانب الأخرى التى كانت « ناهد » تركز عليها فى قصائدها تعبيرا عن المأساة التى تعانيها : شكواها الدائمة من أن السعادة مفقودة فى هذه الحياة ، وفى قصيدة لها بعنوان « أين السعادة » تؤكد هذا المعنى وتلح عليه وتعبر عن أنها قد انتهت إلى خلو الحياة بكل أشكالها من السعادة ، وتقول فى هذه القصيدة :

ربى ترى أين السعا   دة لم نجدها فى القصور
وبحثت فى الأكواخ لم   أجد السعيد ولا القرير
ولكم تصفحت الوجو   ه وما تضن به الصدور
وعرفت أسرار الخلا   ئق من عظيم أو شريد
وارتدت أحضان الطبيعة علنى أجد السعيد
فإذا بكل الناس دأ   بهم التمرد والجحود

وفى قصيدة أخرى تؤكد الشاعرة رؤيتها المتشائمة للحياة والناس ، وتعبر عن نفس المعنى الذى عبرت عنه فى القصيدة السابقة وهو أن الحياة مليئة بالشقاء وأن السعادة حلم عسير بل حلم مستحيل :

يقولون فى الغد يأتى الهناء
ترى أين ذاك الغد المنتظر ؟
أيقبل بعد النعيم الشقاء

كـما يقبـل الـصحـو بـعـد المـطر ؟
إذا كـان هـذا نـظام الـقـضـاء
أصـبحـت أسـعـد مـن فى الـبـشـر
ولـكـنـى قـد رأيـت الـزمـان
أصـم الـسـريـرة أعـمى البـصـر

ومن خلال هذا الإحساس العميق بشقاء الحياة وشقاء البشر اتجهت الشاعرة إلى الموت وجعلت منه موضوعا أساسيا فى قصائدها المختلفة ، وما دامت الحياة خالية من السعادة فإن الموت يكون هو الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود ، وهذا المعنى هو ما تعبر عنه الشاعرة فى قصيدتها « عودة الملاح التائه » التى كتبتها فى رثاء الشاعر على محمود طه حيث تقول :

سـألت فقيـل مـلاح الليـالى
تعجل عمره وطـوى الشراعا
وعـاد لـداره تحـنـو عـليـه
وتمحو الحزن والعلل الوجاعـا
إذا عـز الـوفـاء فـلا دواء
يجنبنـا المكـائـد والنـزاعـا
سـوى الأرض الحنون فكـل عـان
سينعم حين تأويه اضطجـاعا

على أن الشاعرة كانت تجد شعاعـا واحدا من الأمـل وسط هذا الظلام كله ، هذا الشعاع هو الشعر ، فهو تعبير روحى عميق يسمو بالنفس ويخلصها من آلامها ، ويخرج بها من طريق العذاب ، وهذا الشعر بقوته الروحية قادر على أن يعوضها عن « الحب » وقادر عـلى أن

يعطيها « المجد » الذى يمكن أن يكون تعويضا من ناحية أخرى عن الحياة الاجتماعية ومباهجها المختلفة .. تقول ناهد فى قصيدة لها بعنوان « عقل وقلب » :

يا ضيعة العمر
فى ذلك السجن
محبوسة الفكر
فى ميعة السن
أأطيع ذا القلبا
وأجيب إحساسى
وأجرب الحبا
وأعيش كالناس
ورجعت أدراجى
أتجانب الناسا
فى برجى العاجى
أتذوق الكاسا
كأس من الطهر
وهناءة البال
والفن والشعر
فى برجى العاجى
هل يأخذ القبر
منى سوى جسمى
والصيت والشعر
لن يتركا إسمى
سأصير شاعرة

مـن قـادة الـفـكـر
أنـا لـسـت سـاخـرة
يـا قـلـب ، مـن يـدرى

فالشعر هو الأمل الوحيد الباقى ، وهو القوة القادرة على أن تخلصها من العذاب والألم ، بل هو قوة قادرة على أن تنتصر لها على الموت .

ولكن هذا الشعاع البسيط من الأمل سرعان ما ينطفىء ؛ لأن قوة اليأس فى نفس هذه الشاعرة أكبر من الحياة والأمل ، وهذا ما تكشفه لنا قصيدتها « الشاعرة » ، وهى آخر ما نشرته له مجلة « الرسالة » قبل وفاتها بأسابيع قليلة ، وقد كتبت الشاعرة مقدمة نثرية لقصيدتها تكشف فيها بوضوح أنها تعانى من مرض عضوى إلى جانب آلامها النفسية ، وربما كان المرض العضوى نتيجة من نتائج آلامها النفسية الحادة . تقول « ناهد » فى المقدمة النثرية لقصيدتها « الشاعرة » :

« . . نفس هذه الشاعرة رفيعة الهوى تنزع إلى سماء الأدب وتطمح إلى مجد القريض ، ولكن التقاليد خذلتها وجعلتها تسير فى فلكها إلى غير مستقر ، وتطير فى جوها المحصور إلى غير مدى ، وفى هذه القصيدة التى كتبتها وهى تكابد سأم النفس القاتل ، وألم الجسم المبرح ما يعبر عن هذا المقال » . . وتقول الشاعرة بعد ذلك فى قصيدتها تعبيرا عن عمق المأساة التى عاشت فيها وعن إحساسها باقتراب الموت منها ، وقد ماتت فعلا بعد أسابيع من كتابة هذه القصيدة :

لقـد مـالت الشمس نحـو المغيب
إلى أيـن مـسـراك يـا فـانـيـه ؟

فمازال شعرك رهن القيود
وكلت مجاديفك الواهيه
فلا نلت بالشعر ما تنشدين
ولا عشت هانئة راضيه
نشدت الخلود مع الخالدين
ولكن أسأت اختيار السبيل
فهيهات بالشعر أن تدركى
من الدهر غير العناء الطويل
فلو كنت فى زمرة الراقصات
لأثنوا عليك الثناء الجميل
وأطنب فى مدحك المادحون
ونجمك أمسى حليف الصعود
وقالوا : إلهة شتى الفنون
وأعجوبة فى سجل الخلود
وذلل فنك كل الصعاب
وهون شقوة هذا الوجود

وهكذا انتهى الأمر بهذه الشاعرة إلى اليأس المطلق ، ثم انتهى بها يأسها إلى المرض واعتلال الجسد ثم الموت .

هذه صورة عامة لشخصية « ناهد طه عبد البر » وشعرها ومأساتها . فكيف كانت العلاقة بينها وبين أنور المعداوى ؟ لقد بدأت العلاقة بينهما برسالة كتبتها ناهد إلى المعداوى بتوقيع « شاعرة حائرة » وقد نشر المعداوى هذه الرسالة وعلق عليها فى تعقيباته فى العدد ٨٢٩ من مجلة « الرسالة » الصادر فى ٢٣ مايو سنة ١٩٤٩ ، تقول الشاعرة فى رسالتها :

« أحييك وأهنئك فقد سموت بفن النقد الذى لم نكن نعرف عنه إلا أنه إما مدح أو تملق يحط من كرامـة الكاتب ، وإمـا ذم وتحقير مغرض لا هوادة فيه ولا رحمة . . لقد أعجبنى وأفادنى مقـالك عن الأستاذ توفيق الحكيم تحت عنـوان « الفن بين واقـع الفكر وواقـع الحياة » ولكنه لسوء الحظ ساءنى وأفزعنى .

لقد قرأته مرارا ثم قلت لنفسى : إذا كان إنتاج الأستاذ الحكيم قد تأثر بسبب انطوائه عـلى نفسه وابتعـاده عن الحياة وإغـلاقه « تلك النافذة المفتوحة التى كان يطل منها على ميدان الحياة الفسيح المترامى أمام عينيه » ، إذا كان هذا قد حدث مع الأستاذ الحكيم فكيف آمل أن أكون شاعرة ناجحة ؟ أنا ربيبة الانطواء المرير والعزلة الطويلة ، أنا التى لم أر العالم ولم أعرف المجتمع إلا عن طريق الصحف والكتب والخيال . . . لقد كان أملى فى الحياة أن أتعلم إلى آخر مـرحلة من مراحل التعليم ، ولكننى حين أتممت تعليمى الثانوى فوجئت بوحش ضار اعترض طريقى إلى الجامعة وقال بصوته الرهيب : إلى أين أيتها الحالمة ؟ قلت : إلى الجامعة . قال : حذار وإلا أشقيت أسرتك ، ألا تعلمين أن سلطانى عليهم عظيم ؟ وأننى سأقلق مضاجعكم جميعا إذا لم تتبعونى ؟ وسألته واجفة خاشعة : ومن أنت أيها السلطان الجبار ؟ قال : أنا سلطان التقاليد . تفقدت الوجوه الواجمة من حولى وعز على وجومها وقلت لن ألتحق بالجامعة ولأكن كبش الفداء . . وما أنا بأول ضحية من ضحايا التقاليد ، ولم تثن تلك المحنة القاسية من عزيمتى وداومت على القراءة ليلا ونهارا . . .

وأخيرا أخذت الغيوم الكثيفة تنقشع عن سمائى ، وأذن لى بنشر شعرى بالجرائد اليومية ، ولكننى ما كدت أشعر بالسعادة وبأن حلم حياتى قد تحقق حتى هب الكثيرون والكثيرات يهيبـون بى أن أترك

انطوائى وعزلتى ، وأن أخرج إلى المجتمع وأن أتردد على زيد وعبيد من كبار الكتاب والشعراء . وقيل لى إن لم تفعلى ذلك فسينحط إنتاجك وينضب معينك . ومما زاد فى شقوتى وارتباكى وكاد يطيح بى إلى هوة سحيقة من اليأس القاتل ما أقرؤه لك حول هذا المعنى فى هذه الأيام . فهل من المحال أن يكون الأديب أو الشاعر قديرا ناجحا ما دام منطويا على نفسه بعيدا عن دنيا الناس ؟ وهل الكتب لا تكفى ولا يمكن أن تكفى ليكون الإنسان مثقفا كما يقول الدكتور مندور ؟ . . . إذا كانت هذه هى الحقيقة فسلام على وفى ذمة الله آمالى وأحلامى ومستقبلى الأدبى الذى حلمت به السنين الطوال .

إن رجائى الحار هو أن تجيب عن هذين السؤالين على صفحات مجلتى الحبيبة « الرسالة » ولست أدرى لماذا أشعر شعورا قويا أنك لن تخيب رجائى ولن تهمل الرد على » .

هذه هى رسالة « ناهد » إلى المعداوى وقد كتبتها إليه فى مايو ١٩٤٩ ، ورغم أن ناهد لم توقع على هذه الرسالة فإن المعداوى نفسه قد كشف لنا عن صاحبة هذه الرسالة عندما رثاها بعد أن كتبت رسالتها إليه بأكثر من عام ، حيث توفيت ناهد فى ٢٩ يوليو ١٩٥٠ ، وهذه الرسالة من ناهد كانت هى بداية العلاقة بينها وبين المعداوى ، وهى فى تقديرى علاقة لم تتجاوز حدود الرسائل والمكالمات التليفونية ، ولست أعتقد أن أنور المعداوى قد التقى بناهد كما يقول فى رسالته إلى فدوى ، وأذكر أننى سألته يوما ، وكان ذلك بعد وفاة ناهد بسنوات ، عن حقيقة علاقته بناهد فأجابنى بأنه لم يرها على الإطلاق ؛ لشدة انطوائها على نفسها وخوفها من المجتمع وحذرها من الناس . وقد أكد أنور أنه لم يرها فى المقال الذى كتبه عنها بعد

وفاتها ، وفى هذا المقال - كما قلت - أشار إلى أن الشاعرة التى أرسلت إليه بالرسالة السابقة كانت هى ناهد طه عبد البر . ونعود إلى الرسالة الحائرة لنرى أن هذه الرسالة كانت تصويرا مباشرا وصادقا للظروف القاسية التى كانت تعيش فيها صاحبة الرسالة ، وقد رد المعداوى على الشاعرة ردا طويلا قال فيه :

« إنسانة فنانة ، وشاعرة حائرة ، وكلمات أحس فيها لوعة القلب وألمس حيرة القلم ، وأكاد أشم رائحة الدموع ، وأعود بذاكرتى إلى الوراء أستعرض ما قرأت على صفحات الجرائد اليومية ، عسى أن أضع يدى على مفتاح هذه الشخصية المجهولة التى تعرض على قضيتها فى انتظار الجواب . .

وأقف بالذاكرة طويلا عند صحيفة من صحف المساء[1] ، لأسترجع عن طريق التمثل الفكرى بعض ما كنت أقرأ فيها من شعر لآنسة مجهولة . . آنسة كانت ترمز إلى شخصيتها بالحروف الأولى من اسمها ولا تزيد ! لماذا لا تفصح عن اسمها صاحبة هذا الشعر ؟ لماذا أحس فى روحها هذه التهويمات التى يئن فيها النبض وتختنق العاطفة ؟ لماذا تهب على من شعرها رائحة الفن السجين ؟ لماذا تحلق بخيالها فى أفق يغلب فيه الضباب على الإشراق ؟ أسئلة لم أكن أجد لها غير جواب واحد أطمئن إليه ، هو أن صاحبة هذا الشعر إنسانة منطوية على نفسها قد فرضت عليها التقاليد أن تبتعد عن الحياة .

وكم قلت لنفسى : هنا أقباس من وهج الشاعرية ولكن لماذا تطل من تحت الرماد ؟ وهنا جناح يملك القدرة على التحليق ، ولكن لماذا تحد الرياح من رفاته ؟ وهنا روح تود أن تنطلق ولكن لماذا ألمح فى

(١) هذه الصحيفة التى يشير إليها المعداوى هى صحيفة « البلاغ ».

انطلاقها أثر القيود والأصفاد ؟ هذه الخواطر التى كانت فى النفس منذ حين قد ردتنى إليها اليوم رسالة الشاعرة الحائرة ، وجعلتنى أتساءل بينى وبين نفسى : ترى أتكون صاحبة هذه الرسالة التى تلقيتها منذ أيام هى صاحبة الشعر الذى طالعته فى إحدى صحف المساء منذ أسابيع ؟ إن الروح هى الروح ممثلة فى التحدث إلى الحياة والناس من وراء حجاب ، وإن اللوعة هى اللوعة مصورة فى شكوى التقاليد وظلم التقاليد . . رباه ، هل يقدر لهذه الانسانة الفنانة أن تحطم قيودها يوما ما ، وأن تستشعر حرارة الحياة كما يستشعرها كثير من الأحياء ؟ »

ثم يقول المعداوى بعد ذلك جوابا عن سؤال الشاعرة عن علاقة « إلفن بالحياة » :

« . . إن الفن بعيدا عن الحياة جسد تنقصه الحركة ، وفكرة يعوزها الروح ، ولوحة تخلو من الأضواء والظلال . . والفن كما قلت غير مرة ما هو إلا انعكاس صادق من الحياة على الشعور ، ولن يتحقق الصدق فى الفن ما لم يستخدم الفنان كل حواسه فى تذوق الحياة » .

« . . الحياة يا آنستى هى المنبع الأصيل لكل أثر من آثار الفن يترك ظله فى النفس وبقاءه على الزمن . فى أدب الكاتب ، فى شعر الشاعر ، فى لحن الموسيقار ، فى لوحة الرسام ! لتكن الحياة نقمة أو نعمة ، لتكن مأساة أو ملهاة ، لتكن ألما أو لذة ، لتكن دمعة أو ابتسامة . حسب الفن أن يعبر عن الحياة فيصدق فى التعبير ، وحسبه أن يترجم عن رؤية العين وإحساس القلب فيسمو فى الأداء » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك فى رده على الشاعرة الحائرة : « وتسألينى هل الكتب لا تكفى ولا يمكن أن تكفى ليكون الإنسان

مثقفا ؟ إن جوابى عن هذا السؤال هو أنها لا يمكن أن تكفى لسبب واحد هو أن ثقافة من هذا الطراز يشوبها النقص ويعتريها القصور ، لأنها تفقد عنصر التطبيق على الحياة . كيف تستطيعين أن تتذوقى آثار الفن وأنت بعيدة عن منابعه ؟ وكيف تستطيعين أن تحكمى على نتاج القرائح وليس بين يديك قاعدة ولا ميزان ؟ إن الثقافة يا آنستى ليست قراءة فحسب ، ولكنها فهم وتذوق وتطبيق واستيعاب ، وحياة من وراء هذا كله تعين الذهن على الإحاطة ، وتسعف الحواس على التوهج ، وترفع من قيم المواهب والملكات . معذرة يا آنستى فهذه هى الحقيقة . . ومع ذلك فلا موجب لهذا اليأس الذى ألهب منى الشعور فى كلماتك ، إننى أشعر شعورا عميقا بأن القيد سيتحطم يوما ، عندئذ يمكنك أن تستشعرى حرارة الحياة كما يستشعرها كثير من الأحياء »

تلك هى بعض الفقرات الرئيسية من رد المعداوى على رسالة الشاعرة الحائرة . وإذا كانت هذه الرسالة هى بداية العلاقة بين المعداوى وناهد ، فقد كانت أيضا بداية لعلاقة الشاعرة بمجلة « الرسالة » ، حيث أخذت المجلة بعد ذلك تنشر لها شعرها تحت توقيعها المفضل « ن . ط . ع » .

وبعد وفاة الشاعرة كتب المعداوى عنها مقالا بعنوان « شاعرة مصرية تودع الحياة » ، وقد نشر هذا المقال فى مجلة « الرسالة » ، ثم نشره فى كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » ، وفى بداية هذا المقال تحدث المعداوى عن مكالمة تليفونية بينه وبين الشاعرة قبل وفاتها بشهور قالت له فيها : « . . أقسم لك أننى أشعر شعورا قويا بأننى لن أعيش ، لأن الحياة لا يمكن أن تحتمل فتاة من هذا الطراز . . »

ثم يتحدث المعداوى بعد ذلك عن ناهد ويروى أطرافا من قصة حياتها وقصة محنتها ومأساتها فيقول :

« . . نشأت ناهد فى أسرة كريمة ، ومحافظة ، ترعى حقوق الخلق وتتمسك بمعنى الفضيلة . . ومن هذا الجو الذى عاشت فيه ، جو التقاليد الصارمة والمثل المفروضة والقيم الموروثة ، لم تستطع أن تواجه الحياة والناس بشىء من الشجاعة يتيح لفنها أن يتنفس كما يريد . . كانت تخشى لقاء الحياة وتشفق على نفسها من ألسنة الناس ، لأن المجتمع المصرى فى رأيها لم يبلغ من النضج الخلقى ما يجعلها تثق به وتطمئن إليه . من هنا عاشت فى عزلة ، عزلة مريرة قاسية فرضتها عليها ظروف التربية وطبيعة النشأة ، عزلة طبعت آثارها النفسية القاتمة فى أول كلمة بعثت بها إلى ونشرت فى الرسالة تحت هذا العنوان « شاعرة حائرة تسأل عن الفن والحياة » . ومن كلمتها تلك تستطيع أن تلمس صدق اللوعة وهى تتحدث إلى عن ظلم التقاليد ، هذا الظلم الذى حال بينها وبين التعليم الجامعى الذى كانت تتطلع إليه ، وحرمها فرصة الاتصال بالمجتمع الذى لم تعرفه إلا عن طريق الصحف والكتب والخيال . ولا تعجب إذا قلت لك إن هذه الشاعرة الراحلة قد بلغت من الانطواء على النفس ذلك الحد الذى لم تطق معه أن يعرف اسمها أحد أو يرى وجهها إنسان ، اللهم إلا هؤلاء الذين كانت تثق بهم وتلجأ إليهم فى سبيل شىء من العون أو أشياء من العزاء ، ولقد كان كاتب هذه السطور يعلم من أسرار حياتها ما لم يتح للآخرين أن يطلعوا عليه لأنه كان موضع ثقتها فى كثير من الأمور ، ومع ذلك فهو لم يرها رأى العين فى يوم من الأيام لأن لذلك قصة ستعلمها بعد سطور . . قصة تطلعك على مدى خشيتها من الناس وكلام الناس ، ومدى حرصها على أن تظل بمنأى عن كل ما يثير حولها

الظنون والشبهات . . قالت لى يوما فى حديثها التليفونى الذى كان يطرق سمعى كل صباح : « لقد أذنت لى منذ شهور فى أن أضع مستقبلى الأدبى بين يديك ، وأشهد لقد أخذت بيدى وفعلت من أجلى الكثير : فتحت لى أبواب « الرسالة » و« الأهرام » فقرأ الناس شعرى هنا وهناك ، ويالها من أبواب أمل كانت موصدة فتجدد بفتحها كل رجاء . . والآن لم يبق لى عندك غير أمنية واحدة وهى أن تكتب مقدمة ديوانى الذى أريد أن أدفع به الى أيدى القراء » وسكتت قليلا ثم قالت : « لقد كنت أزور الدكتور طه حسين منذ يومين ، ومع أنه كما قلت لك غير مرة يعطف على عطف الوالد على ابنته ، فقد خشيت أن أشق عليه اذا ما عرضت عليه هذه الرغبة التى عرضتها عليك . . ومن هنا خطر لى أن ألقاك أنت لأقدم اليك مجموعة شعرى كاملة قبل أن تقدم لها بما شئت من كلمات » . . وتوقفت لحظات قبل أن أقول لها وعلى شفتى ظل ابتسامة : « إننى أعلم يا ناهد أن لقاءك للدكتور طه لم تسمح به طبيعتك النفسية إلا لسبب واحد ، وهو اطمئنانك إلى أن أحدا لن يظن بك الظنون إذا ما جلست إلى أديب قد بلغ مرحلة الكهولة وتخطى الستين . . أما أنا فأخشى إذا ما علمت حقيقة سنى أن تحذفى من قائمة أمانيك هذه الأمنية الأخيرة ، لأننى يا أختاه لم أبلغ الثلاثين بعد ! » وهتفت فى صوت امتزجت فى نبراته الدهشة الخالصة بالأسف البالغ : ماذا ؟ لم تبلغ الثلاثين بعد ، بالله ماذا كان يمكن أن يقول الناس لو أنك كتبت هذه المقدمة ؟ أنت بالذات ؟ إن كلمة واحدة تنطلق من لسان جاهل بحقيقتى الخلقية لكفيلة بأن توردنى موارد الهلاك . . أقسم لك أننى ما فكرت فى لقائك إلا لاعتقادى بأنك فى سن الدكتور طه حسين ! هل تغفر لى إعفاءك من كتابة هذه الكلمة التى لن تعفينى من كلام الناس ؟ »

وراحت الشاعرة القديسة تعتذر إلى معلنة عن رغبتها فى أن تلقى الأستاذ الزيات[1] ليحل قلمه محل قلمى فى تقديم شعرها إلى القراء . . ومهدت لها سبيل اللقاء حتى تم ، وكان الأستاذ صاحب الرسالة ثانى اثنين رأتهما هى رأى العين قبل أن تودع دنيا الأحياء لتعيش فى جوار الله !

لقد عاشت حزينة وماتت حزينة . . هى التى كانت تسكن البيت الأنيق فى حى من أجمل أحياء القاهرة ، وتعيش فى ظل أسرة هيأت لها من رغد العيش وطيب المقام ما لم يتح لكثير من الفتيات ! ولقد كانت العزلة سببا من أسباب حزنها بلا مراء ، ولكنها لم تكن السبب الأصيل لهذا الألم الدفين الذى أحال حياتها إلى أقباس من العذاب ، وانعكس على شعرها لوعة وشكاة ، وأمسك القلم عن أن أحدثك عن سر حزنها الحقيقى ، لأنها الآن تشفق على حرمة ذكراها من كلام الناس ! »

وينهى المعداوى مقاله عن « ناهد » بقوله :

« وأشهد لكم وقفت منها موقف الطبيب من مريض تبخرت قطرات الأمل فى شفائه : مبضعى الذى يفتش عن مكامن الداء قلم ، ودوائى الذى يأسو جراح الزمن كلمات . وكان هذا هو كل ما أملكه . . أعالج بالقلم ودماء القلب تنزف ، وأسباب الرجاء تخيب ، وزورق العمر يمخر العباب والضباب إلى شواطىء الفناء »

هذه صورة عامة للشاعرة « ناهد طه عبد البر » من خلال شعرها ومن خلال ما كتبه عنها أنور المعداوى . وبالنسبة لما كتبه المعداوى

---

(١) هو الكاتب العربى الكبير أحمد حسن الزيات صاحب مجلة « الرسالة » .

فلابد من تسجيل بعض الملاحظات التى نأخذها على هذا المقال رغم ما فيه من شاعرية وعاطفة وتعبير جميل :

أولا : لم يكشف لنا المقال عن الأسباب الدقيقة لمحنة هذه الفتاة . واكتفى بأن يقول إنها كانت فتاة من أسرة محافظة ، ولا شك أن التقاليد الصارمة القاسية كفيلة بأن تخلق محنة كبيرة فى حياة فتاة حساسة وفنانة مثل ناهد طه عبد البر ، ولكن لابد أن تكون هناك أسباب إضافية غير تقاليد الأسرة ، خاصة إذا عرفنا أنها كانت أسرة ميسورة ، وأنها كانت تعيش فى حى من أجمل أحياء القاهرةالمتحضرة ، وقد علمت من ناحية أخرى أن أباها كان أستاذا معروفا فى كلية دار العلوم وأن أخاها الأكبر كان طبيبا معروفا هو الدكتور سيد طه عبد البر وقد توفى منذ سنوات قليلة . مثل هذه الأسرة لا يمكن أن نتصور أن الأمور قد وصلت فيها إلى هذا الحد من التوحش والتخلف ، ولابد أن يكون هناك سبب خاص لهذا الاختناق الذى عاشت فيه ناهد داخل هذه الأسرةوأدى بها إلى الموت فى سن مبكرة . . فما هو هذا السبب الغامض ؟ إن المعداوى فى مقاله لم يلق أى ضوء على هذا الجانب من مأساة الشاعرة .

ثانيا : من بين سطور مبعثرة هنا وهناك نستطيع أن نفهم أن الفتاة كانت مريضة مرضا عضويا ، بالإضافة إلى ما تعانيه من آلام نفسية ، ولابد أن يكون هذا المرض العضوى من النوع القاتل ، فما هو هذا المرض ، ولماذا لم يشر إليه المعداوى .

ثالثا : يشير المعداوى إلى أنه كان هناك سر آخر فى حياة هذه الفتاة ولكنه لا يستطيع أن يبوح به احتراما لذكراها ، وأذكر أننى سألت المعداوى ـ رحمه الله ـ عن هذا السر فلم أجد عنده شيئا ؛ مما يوحى

بأن المعداوى إنما كتب ما كتب من باب « الاستعراض » وإقناع القارى بأهميته وبأنه كان موضعا لثقة الفتاة ، وأنه كان أمينا على أسرارها ، وقد كانت هذه صفات معروفة فى المعداوى ، وكان يغفرها له ما يبدو فى أدبه من جمال فى التعبير وصدق فى العاطفة ، وما تنطوى عليه شخصيته من براءة وطفولة يبدو معها الغرور والإعجاب بالنفس والاستعراض والحديث الدائم عن قيمته وأهميته صفات مغتفرة وخاصة عند من يقدرون المواهب الأساسية لهذا الكاتب . نعود إلى موضوع السر الذى يشير إليه المعداوى فى حياة ناهد ، إذا كان هذا السر من ذلك اللون الذى يمكن كشفه فقد كان على الكاتب أن يكشفه من باب الأمانة العلمية والأدبية ، أما إذا لم يكن بالإمكان كشفه ـ كما يقول المعداوى ـ فقد كان على الكاتب ألا يشير إليه من الأساس .

وفى اعتقادى أن هذا السر الخاص لم يكن موجودا ، وإن كان موجودا فإن المعداوى لا يعلمه ، وكلماته فى هذا المجال هى مصدر من مصادر إعجابه الطفولى البرىء بنفسه ، وقد كان هذا الإعجاب بالنفس صفة من صفات المعداوى الأساسية ، ولم يكن هذا الإعجاب بالنفس من النوع المكروه ؛ لأنه ـ كما قلت مرارا ـ صادر عن براءة القلب الموهوب وطفولته ، وكثيرا ما كان الذين لا يعرفون المعداوى معرفة حقيقية يستنكرون هذه النغمة النفسية المغرورة فى كتابات المعداوى وشخصيته .

رابعا : يقول المعداوى فى رسالته إلى فدوى طوقان إنه رأى « ناهد » ولكنه فى المقال يؤكد أنه لم يرها ولم يلتق بها . فأين هى الحقيقة ؟ الحقيقة فى رأيى هى ما جاء فى المقال ، ومما جاء فى رسالة

المعداوى إلى فدوى هو ـ مرة أخرى ـ نوع من الغـرور والإعجاب بالنفس فى إطارهما الطفولى البرىء ، ولو كان أنور المعداوى قد التقى بالشاعرة فإنه لم يكن هناك أبدا ما يمنع من التصريح بذلك فى مقاله الذى كتبه بعد وفاتها ، كما أذكر أيضا أننى سألته يوما : هل التقى بالشاعرة فأكد أنه لم يرها أبدا ، كما أن الصورة الشخصية التى رسمها لها فى مقاله مبنية فى أساسها عـلى خوفهـا من لقاء النـاس . ولكن المعداوى فى رسالته إلى فدوى يحاول أن يكسب ثقتها ويوحى إليها بأنه أهل للثقة حتى من تلك التى لم تكن تثق بأحد ، وليس مما يساعد على تأكيد هذا المعنى أن يقول لفدوى إنه لم يلتق بناهد ولم يرها . إنه فى الرسالة إلى فدوى « يتحدث » حديثا شخصيا قد يحق له فيه أن يروى ما يشاء ، ولكنه فى المقال يكتب للرأى العام ويصعب عليه أن يروى واقعة لم تحدث .

والحقيقـة أن هذه الشـاعرة المصـرية المجهـولة لا تـزال بحـاجـة إلى دراسة ، ليس لقيمة شعرها فقط ، فشعرها على ما كان فيه من عاطفة صادقة وإحساس متدفق حار وألم عميق كان ما يزال شعرا غضا غير ناضج فى بعض جوانبه ، ولكن هذه الشاعـرة ـ وشعرهـا جزء من شخصيتها ـ تستحق الدراسة كظاهرة من ظواهر الحياة فى هذه المرحلة من عمـر مجتمعنا العـربى ، وفى رأيى أن محنة الشـاعـرة المصـريـة لا تختلف ـ موضوعيا ـ فى جوهرها عن محنة فدوى طوقان ، إلا أن فدوى طوقان ـ وشاعريتها أنضج وأكثر أصالة ـ قـد قاومت المحنـة وصمدت فى وجه العاصفة واستطاعت أن تنجو بحياتها وقد كانت مهددة بنفس المصير . . وهذه الدراسة التفصيلية للشاعرة المصرية ومأساتهـا هى ما أرجـو أن أتمكن من القيام بـه فى وقت قريب بعـد أن

أتمكن من جمع شعرها كله ومعرفة أكثر ما يمكنني أن أعرفه من تفاصيل حياتها ومأساتها الخاصة »[1].

---

(١) بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب تمكنت بفضل بعض الأصدقاء من الاتصال بأسرة الشاعرة ناهد طه عبد البر وحصلت منها على بعض المعلومات ، ومن بينها أن الشاعرة ولدت فى ٢٠ يناير ١٩٢٠ وأنها توفيت فى ٢٩ يوليو ١٩٥٠ ، أى أنها ماتت فى الثلاثين من عمرها . كذلك أتيح لى أن ألتقى السيدة الفاضلة المربية الكبيرة زينب البشرى وعرفت منها أنها كانت صديقة للشاعرة ، وقد تفضلت الأستاذة زينب فكشفت لى عن مجموعة من الحقائق والمعلومات الأساسية عن الشاعرة وحياتها ، وسوف أقدم هذه المعلومات فى دراسة أرجو أن أتمكن من إعدادها قريبا عن الشاعرة المصرية المجهولة .

التعليق الثانى
على الرسالة الخامسة

شغلنا موضوع الشاعرة ناهد طه عبد البر عن التعليق على الإشارات الأخرى المختلفة التى وردت فى الرسالة الخامسة ، وقد فضلت أن يكون التعليق على هذه الإشارات منفصلا عن موضوع الشاعرة الذى استغرق التعليق الأول بأكمله .

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة نشرتها فدوى طوقان بتوقيع « المطوقة » ، والواقع أن فدوى قد وقعت بعض قصائدها بهذا التوقيع أكثر من مرة ، وقد وجدت لها قصيدتين وقعتهما بهذا التوقيع . الأولى هى قصيدة « غب النوى » وقد نشرتها فى العدد ٨٤٥ من مجلة « الرسالة » بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٤٩ ومطلعها :

مضيتَ ؟ إلى أين ؟ هلا تعود
إلىَّ ، إلى روحى اللائب[1]

(١) الظمآن.

حنـانك ، ضقت ، وضـاقت حيـاتى
بهـذا الصـدى المحـرق الـلاهـب
بأشواقـى العـاتيات تـزلزل صـدرى
فى عـنـفـهـا .. الـصـاخـب
حـنـانـك قـلبـى يـذوب وراءك
أواه مـن قـلبـى الـذائـب
تـلفـت ، وراع بـقـايـاه تـذوى
وتـفـنى مع الأمـل الـغـائـب

أمـا القصيدة الأخـرى التى نشرتهـا فدوى بتـوقيع « المطوقـة » فهى قصيدة « من الأعماق » وقد نشرتها فى العدد ٨٤٦ من « الرسالة » الصادر بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩٤٩ ومطلعها :

سرت وحدى فى غربة العمر ، فى التيه المعمى ، تيه الحياة السحيق
لا أرى غاية لسيرى ، ولا أبصـر قصدا يـوفى إليه طـريقى
وأنـا فى توحشى ، تنفض الحـيـرة حولى أشبـاح رعب محيق

وتـوقيع « المطوقـة » الـذى اختـارتـه فـدوى مشتق من الحـروف الأصلية لاسمها « طوقان » من ناحية ، وهو من ناحية أخرى يدل على الحالة النفسية التى عبرت عنها فى هاتـين القصيدتـين ، بل فى قصـائد عديدة مشابهة كتبتها فى تلك المرحلة ، وهاتان القصيدتان بالذات تعبران عن تجربة عاطفيـة روحية عميقـة التأثـير فى نفس فدوى ، وكانت فدوى طرفا فى هذه التجربة ، أما الطرف الثانى فهو شاعـر مصرى اشترك ـ متطوعا ـ فى بعض معارك حرب فلسطين « ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ » والتقى بفـدوى فى هذه الفتـرة وكـان بينهـما حب روحى عميق ، ثم افترقا بعودة الشاعر إلى مصر ، وعلى أثر هذه العودة كتبت

فدوى هاتين القصيدتين . . . ففى القصيدة الأولى « غب النوى » تقول فدوى :

مضيت ؟ وكيف ؟ ألا رجعة
ترد إلى القلب دنيا رؤاه ؟ . . .
لقد أقفر الكون فى ناظرى
وغشى الظلام مجالى رؤاه
وكيف أحس جمال الوجود
ووجهك عنى توارى سناه ؟

وتستمر القصيدة الجميلة فى هذا التعبير عن ألم الفرقة ووحشة البعاد وبقايا الذكريات ، والقصيدة رائعة صادقة فى تصويرها لمحنة الفراغ النفسى والوحدة العاطفية بعد فراق الحبيب .

والقصيدة الثانية « من الأعماق » تدور حول نفس التجربة العاطفية الروحية التى انتهت بالفراق بين فدوى والشاعر المصرى . . . تقول فدوى فى هذه القصيدة :

وافترقنا وملء نفسى - لو تدرى - أحاسيس هائمات حيارى
وهواى المكبوت يجهش فى صمت ، وتهمى دموعه أشعارا
كم شجانى وداعك المر ، كم ساءلت قلبى الممزق المستطارا
كيف كان الفراق ؟ كيف انزوى وجهك عنى فى لحظة وتوارى ؟
وافترقنا ، وبين كفى رسم ، لم يزل كل زاد روحى المتيم
كم تلمست عمق عينيك فيه ، وبعينى أدمع تتضرم
يا لقلبى ، كم راح بين يديه ، يهتك الحجب عن هواه المكتم
أصغ تسمع عبر الصحارى صداه ، يترامى إليك شعرا مرنم

ولعل فدوى طوقان قد آثرت أن توقع القصيدتين بهذا الاسم المستعار « المطوقة » ، بسبب ما في القصيدتين من وضوح وصراحة عاطفية لم تكن مألوفة في شعر المرأة في تلك الفترة « ١٩٤٩ وما قبلها » في حياة المجتمع العربي ، خاصة أن فدوى إنما هي في آخر الأمر فتاة تنتسب إلى أسرة معروفة في « نابلس » حيث يتغلب جو المحافظة على جو التحرر والانطلاق[1] . كما أن فدوى نشرت هاتين القصيدتين في مصر حيث يعيش الشاعر الذي كان موضوعا للقصيدتين ، ولا شك أن فدوى كانت بتوقيعها المستعار تحاول أن تخفف ما بدا لها أنه « عرى » في عواطفها ، وتحاول أن تصنع لهذه العواطف غلالة رقيقة تخفيها بعض الشيء ، فالتوقيع المستعار هنا هو تعبير عن حذر « الإنسانة الاجتماعية » من « الشاعرة » التي لم تعبأ بشيء غير صدق التجربة العاطفية فعبرت عنها بصراحة وانطلاق .

أما الشاعر المصري الذي كان موضوعا لهاتين القصيدتين فسوف تأتي الإشارة إليه مرة أخرى في إحدى الرسائل التي كتبها المعداوي لفدوى ، وسوف نتحدث عنه من جديد في تعليقنا على هذه الرسالة .

ويبدو لي أن فدوى طوقان قد وقعت بعض كتاباتها بأسماء مستعارة أخرى غير « المطوقة » ومن هذه الأسماء المستعارة الأخرى « دنانير » ، وليس لدى من دليل على ذلك إلا كتابات فدوى نفسها ، وبعض هذه الكتابات نثر لا شعر ، ونستطيع أن نجد فيما كتبته « دنانير » روح

---

(١) صورت فدوى هذا الجو المحافظ تصويرا صادقا في سيرتها الذاتية الرائعة التي صدرت بعد ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب تحت عنوان « حياة جبلية . . حياة صعبة » .

فدوى التى لا تخفى على من يتابع قراءتها ويعرف أدبها . . . وإذا كان هناك خطأ فى هذا الاستنتاج فهو خطأ أتحمله وحدى ؛ لأننى لم أرجع فيه إلى أحد وإنما اعتمدت على استنتاجى الأدبى الخاص[1] .

فى هذه الرسالة الخامسة من المعداوى إلى فدوى طوقان إشارة إلى قصيدة لفدوى بعنوان « الصخرة » ، وهذه القصيدة هى التى قالت عنها فدوى للمعداوى كما جاء فى رسالته : « . . إننى أعانى شيئا ، أعانى ألما خفيا لا يدرى به أحد ولا أحب أن يدرى به أحد » ، وقد نشرت فدوى هذه القصيدة فى مجلة الرسالة ، ثم نشرتها فى ديوانها الثانى « وجدتها » بينما نشرت القصيدتين السابقتين : « من الأعماق » و « غب النوى » فى ديوانها الأول « . . وحدى مع الأيام » ، وتقول فدوى فى المقطع الأول من قصيدتها « الصخرة » :

انظر هنا : الصخرة السوداء شدت فوق صدرى
بسلاسل القدر العتى
بسلاسل الدنيا البغى
انظر إليها كيف تطحن تحتها ثمرى وزهرى
نحتت مع الأيام ذاتى
سحقت مع الدنيا حياتى
دعنى فلن تقوى عليها . لن تفك قيود أسرى

(١) اعترفت فدوى طوقان فى سيرتها الذاتية التى سبقت الإشارة إليها بأنها استخدمت اسم « دنانير » كتوقيع مستعار لها ، وقد وقع اختيارها على هذا الاسم من خلال قراءتها لكتاب الأغانى للأصفهانى وهو اسم مغنية وشاعرة كانت معروفة فى العصر العباسى .

سأظل وحدى فى انطواءْ
ما دام سجانى القضاءْ
دعنى ، سأبقى هكذا ، لانور ، لاغد ، لارجاء
الصخرة السوداء ما من مهرب ، ما من مفر

والقصيدة كلها تمضى على هذا النمط من الحزن والضيق ، وهى واضحة ولا غموض فيها ، والذى دفع فدوى إلى كتابتها أمر غير معروف إلا للشاعرة نفسها ، وما أكثر ما تكون الدوافع وراء العمل الفنى خافية دون أن يؤثر ذلك فى قيمة العمل الفنى أو فى درجة وضوحه وجماله . ومع ذلك فلا شك فى أن معرفة بعض الأحداث الكامنة وراء العمل الفنى تساعد على تعميق أثره فى نفس قارئه .

ولقد وجد المعداوى فى التعليق على هذه القصيدة فرصة للإشارة إلى منهجه فى النقد ، وهو المنهج الذى يعتز به أشد الاعتزاز والذى أسماه بالأداء النفسى .

يقول المعداوى فى رسالته : « ولست أزعم أننى « أفهم » الجو النفسى لقصيدة الصخرة كل الفهم ، ولكننى متأكد من أننى قد « تذوقته » كل التذوق ، تبعا لنظريتى التى كتبتها عن الأثر الفنى حين نعرضه فى ساحة التجربة النفسية لنزنه بميزان الشعور » . وقد شرح المعداوى ما يسميه بنظريته النقدية شرحا وافيا فى كتابه « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » وشرحه أيضا فى عدد من مقالاته المختلفة أهمها المقال الذى يشير إليه فى هذه الرسالة والذى أشار إليه فى رسالة سابقة وهو « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » ، وقد تناولنا هذه النظرية النقدية - التى نفضل أن نسميها باسم المنهج النقدى -

بالدراسة والمناقشة التفصيلية فى فصل سابق من هذا الكتاب ، ولو أردنا أن نعبر عن منهج المعداوى النقدى فى كلمات بسيطة لقلنا إنه يعلى من شأن القلب والشعور والتذوق فى العمل الفنى على حساب العقل والفكر والفهم دون أن ينكر قيمة العناصر العقلية والفكرية فى العمل الفنى ، ولكنه لا يعطيها الأولوية . وهذا المنهج النقدى ـ كما أشرنا فى المقدمة ـ ليس جديدا ولكن المعداوى تحمس له وتبناه ودعا إليه بحرارة وإخلاص وأضاف إليه وطور فيه .

الإشارة الأخيرة فى هذه الرسالة هى قول المعداوى :

« . . لابد من تهنئة أخرى على تلك اللمسة الأخرى فى رسالتك حول تهافت الشعراء على بعث أناشيد الجهاد فى الرسالة بعد تلك الوخزة المؤلمة . . » . ويشير المعداوى هنا بعبارة « الوخزة المؤلمة » إلى السطور الأخيرة من مقال له كتبه فى العدد ٩٥٨ من مجلة « الرسالة » الصادرة فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥١ حيث كانت المعركة محتدمة بين شعب مصر وقوات الاحتلال الإنجليزى ، وكان مقال المعداوى بعنوان « إلى أخى فى الجنوب » يتحدث فيها عن العلاقة بين مصر والسودان ، ويقدم فيها قصيدة لعلى محمود طه عن وحدة الكفاح بين مصر والسودان ، ثم يقول فى آخر مقاله ـ وهذه هى الوخزة المؤلمة التى تشير إليها فى رسالته ـ :

« . . . يارحمة الله للشاعر الخالد ـ على محمود طه ـ إنه فى معركة الحرية لا يزال يسمعنا صوته وهو فى عالم الفناء واليوم حين تبلغ المعركة أوجها يتخلف عن الإنشاد شعراؤنا الأحياء » .

وبعد هذه الكلمة ـ أو هذه الوخزة ـ بدأت مجلة « الرسالة » تنشر كل أسبوع عددا من قصائد الجهاد وأناشيد الكفاح .



الرسالة السادسة

فدوى العزيزة :

فى كل رسالة من رسائلك تزدادين فى عينى رفعة . . أشبهك بصاعد السلم كلما ارتقى درجة من درجاته كان فوق مستوى الأنظار ! هكذا كنت فى رؤية البصر والشعور فى رسالتك الأخيرة ، هذه الرسالة التى ما فرغت منها حتى رفعت على شفتى ابتسامة ، فيها من الحب لك ، وفيها من الإعجاب بك ، وفيها من كل ألوان التقدير طعم ومذاق . . صدقينى إذا قلت إننى لن أنسى هذه الثقة الغالية التى استروحت من خلال سطورك أنسامها الرخية ، وتفيأت ظلالها الرطيبة ، وعشت فى جوها العطر بأرج الفن والصدق والوفاء !

لقد قلت لى فى رسالتك الكثير ، والله يشهد أننى كنت أعلم هذا الكثير . . كنت أعلمه كما قصصته على منذ البداية حتى النهاية ، بكل ما حوته القصة من شتى المشاهد والفصول ! وقد تسالينى لماذا لم أشر إليه فى رسالتى الماضية فأقول لك : لقد أحجمت لسببين ،

أولهما : أن هذه القصة قد تركها الشاعر الصديق بين يدى وديعة وأنا لا أحب أن أفرط فى ودائع الأصدقاء . . أما السبب الثانى فهو أننى خشيت إذا أنا صرحت أن أجرح شعورك المرهف ، وما تعودت أن أجرح شعور أمثالك من الأحباء !

نعم يا فدوى لقد كنت أعرف كل شىء ، ومع ذلك فأنا أعود هنا لأكرر القول بأنك عندى إنسانة كاملة وفاضلة ، ولن يتغير على مر الأيام ما أكنه لها من تقدير خالص غير مشوب . . إنك فى منظارى كما كنت بالأمس وكما أنت اليوم وكما ستظلين فى الغد القريب والبعيد ، تلك الصورة التى يضمها لدى إطار ضننت به وسأضن به على كثير من صور الناس !! قلت لك ذلك بالأمس فظننتِ أنه لم يكن من وحى كلماتك بقدر ما كان من وحى ظنون تثار هنا حول اسمك الحبيب . . لكم وددت أن أكون بجانبك فى تلك اللحظة لأحول بين هذه الكلمة وبين أن تجهر بها شفتاك ! لا يا عزيزتى الغالية . . إننى الشخص الوحيد فى مصر الذى يعرف القصة دون سواه ، وإن اسمك عندنا وفى كل مكان ليسمو بصفاء جوهره فوق مستوى الظنون والشبهات ! أقول هذا وأنا أعنيه لأنه لا يوجد شخص هنا تصل إليه كل الهمسات فى الحياة الأدبية كما تصل إلى فى كل حين . . اطمئنى إذن إلى أن الذى تخيلته ليس له من الواقع نصيب !

إنك لو تعلمين يا فدوى أننى هنا الملجأ والملاذ لكثير من الأدباء ، أفتح لهم بيتى وقلبى لتستقر عندى آلامهم وتستريح ، وكأننى محطة الوصول لكل متعب أرهقه السير فى طريق الحياة . . ولقد كان هذا الشاعر الصديق واحدا من الذين حلوا ضيوفا على البيت والقلب ثم تفرد من بينهم بأرحب مكان ، ولا يزال يحتل مكانه حتى كتابة هذه

السـطور . من هنا أطلعنى يـوما عـلى قصتك وقصتـه ، وقـدم إلى رسائلك ورسائله ، وكان هذا للأسف بعد انتهاء آخر مشهـد من القصة حيث لجأ إلى لينفض بين يدى أحزانه ، وليبرر بمنطقه الخاص ما أقدم عليه من أخطاء ، وليقف منى فى النهاية موقف المحتكم إلى القاضى « العادل » يريد أن يسمع حكمه الأخير . . ماذا أقول لك ، لقد كنت فى حكمى قاسيا عليه ، ومن عادته كلما لقيتـه أن يلقانى بطلب الصفح والمغفرة فأستجيب ، لأنه انسان أشبه بالطفل البرىء الذى تتعثر خطواته ، ويحتاج الى من يقف دائما بجانبه ليحول بينه وبين العثرات !

صدقينى يا فدوى ، إنه قد ظلم نفسه ، وظلمك معه ، وظُلِمتْ بينكما الحقيقة وخرج الواقع من المعركـة وهو شهيـد . . إننى أعلم الناس بما حوى كتاب حياته من صفحات ، وأستطيع أن أقول لك وأنا مطمئن أن أكثر سطور هذا الكتاب قد أملاها الخيال الواهم ولم يملها الواقع الملموس . . لقد قالت لك رسائله إنه عرف الكثيرات وصدقته يا أختاه ، الله يعلم أنه فى هذا المجال صفر اليـدين قليل الحيلة مقصوص الجناح ! إننى أكتب إليك هذه الكلمات وأنا أبتسم لأننى لا أستطيع أن أحول بين نفسى وبين الابتسام ، حين أذكر لك أن هذا الصديق العزيز لم يعرف المرأة إلا فى مكان واحد هـو بيت الزوجية ، وأن ما أقدم عليه فى رسائله وفى شعره لم يكن الهدف من ورائه إلا إثارة غيرتك وما كان لها أن تثار ، لأنه يا فدوى دون جوان حقا ولكن على الورق !

وبهذه المناسبة أود أن أقص عليك هذه القصة اللطيفة وهى أنه كان عندى منذ أيام حيث حضر إلى لأكتب له مقدمة ديوانه الذى يريد أن

يدفع به إلى المطبعة . . ولقد قلت له فيما قلت وأنا أطلق فى الفضاء ضحكة عريضة : سأكتبها إذا أردت ولكننى إذا تحدثت عن « الصدق الشعورى » فى شعرك فسأحمل عليك حملة شعواء ، لأنك لم تعرف من النساء غير زوجتك الوفية ! وتردد صاحبنا طويلا قبل أن يقول : ولكن هذه المقدمة ستسىء الى شعرى أكثر مما تسىء الى شخصى فهل هذا يرضيك ؟ فأجبته وأنا أقطع عليه خط الرجعة بلهجة الجد الصريح : وماذا أفعل وأنت تعلم أننى لا أعرف فى النقد صداقة ولا مجاملة ؟! وتحير صاحبنا لحظات ثم همس فى إشفاق : افعل ما تريد !!

ويا عجبا للمصادفة التى ساقته إلى الحديث عنك حيث راح يستشيرنى فى هذه المشكلة النفسية . . قال لى إنك قد كتبت إليه طالبة استرداد مالك عنده من أشياء بعد أن أعدت اليه أشياءه ، ولكنه لا يستطيع لأنه يود أن يحتفظ بها كأثر عزيز لماض كان جزءا من حياته ، عندئذ لم أطق صبرا فقلت له بصيغة العاتب الآمر : ولكننى أريد منك أن ترد إليها تلك الأشياء ، لأن المسألة عندى تتعلق بالخلق والضمير قبل أن تتعلق بشىء آخر ! ولما كان إبراهيم لا يعصى لى أمرا فقد أذعن لما أردت ، ووعدنى مؤكدا أنه سيرسل إليك أشياءك فى يوم قريب . . ولقد دار بيننا هذا الحوار قبل أن أتلقى رسالتك بأيام ثلاثة ، ومن هنا عجبت لتوارد الخواطر بينى وبينك حول هذه الرغبة العزيزة التى سبقتك إلى تحقيقها منذ حين ! وبهذه المناسبة أود أن أقول إنه سيحضر إلى غدا أو بعد غد على أكثر تقدير ، وسيقضى معى فترة بقائه فى القاهرة كعادته كلما حضر حيث يحل ضيفا على البيت والقلب ، وبالطبع سأسأله عما إذا كان قد وفى بوعده وأرسل إليك تلك الأشياء ، ولابد من أن ترسل إليك على كل حال !

إن هذا الشخص يا فدوى إنسان طيب القلب إلى حد بعيد ، وأقسم لك أن تلك الأخطاء التى وقع فيها ليس لها إلا مرجع واحد هو السذاجة ، السذاجة التى لا تفترق فى جوهرها عن سذاجة الطفل البرىء ولهذا لم يستطع يوما أن يفهمك لأنك فوق مستوى فهمه لامراء . . وليس من شك فى أن إبراهيم قليل الخبرة بأمور الحياة ! أقول هذا حتى لا يكون فى نفسك شىء من جهته ، وعسى أن تغفرى له زلاته الماضية وحسبك أن القصة قد طويت منها الصفحات !

وأترك هذا لأقول لك إن السيدة وداد سكاكينى كانت تزورنى منذ أيام ، وقد تحدثنا عنك كثيرا بعد أن بدأت هى الحديث بمناسبة الكلمة التى كَتَبْتُها عنك فى « الرسالة » ، حيث راحت تسألنى عن رأيى فى تلك الكلمة فأثنيت عليها وشكرتها بالنيابة عنك ، وإن كنت قد أخفيت عنها أن بينى وبينك مراسلات . . ولقد تحدثنا أيضا عن الأستاذ « هجران شوقى » أو الآنسة « أنور العطار » بعد أن سألتنى السيدة وداد عن أثر الرسالة التى كتبتها فى الرسالة ورفعت فيها القناع عن الوجه المستعار ! الواقع يا فدوى أننى أحب أن أسرى عنك ببعض النوادر اللطيفة التى تقع فى الحياة الأدبية ، وكم أنا ساخط على هذه الآماد التى تفصل بيننا كما أنت ساخطة ، هذه الآماد التى لولاها لقصصت عليك من الفكاهات ما يجعل البسمة خلقة فى شفتيك تبعا لأسلوب المتنبى فى التعبير عندما يقول مشيرا إلى صاحبته :

أتراها لكثـــرة العشــــاق
تحسب الدمع خلقة فى المآقى

وهذا المتنبى ولو أنه شاعر مصنوع يشبه الفتاة « البلدى » التى أكثرت من استعمال المساحيق حتى ليبدو جمالها وهو جمال

التـواليت » ، هذا المتنبى ولـو أنه كـذلك إلا أن لـه « فلتات » شعـريـة تستحق الإعجاب ، ومنها هذا البيت الذى يطالعنى بلون من الجمال « الطبيعى » الذى يرتاح له الذوق والشعور !

معذرة لهذا الاستطراد الذى تدفعنى إليه شهوة النقد ولنعـد إلى ما كنا فيه . . أقول لولا هذه الآماد لاستطعت أن أجعل البسمة خلقة فى شفتيك ، حتى تختفى من شعرك كل « أوف » فى سفوح عيبال[1] !

أتـدرين ماذا فعـل السيد أنـور العطار ؟ لقـد بعث إلى الأستاذ الزيات برسالة مطولة تحفل بمرارة الشكوى وحـرارة العتاب ، لأن صديقه الزيات قد سمح لصاحب « التعقيبات » « ببهدلة » سمعة شاعر مثله يعرف قدره الناطقون بالضاد . . ثم يقول فى تلك الرسالة الشاكية العاتبة : ماذا حدث لعقل هذا الناقد الذى كنا نعتز به حتى يتخيل أن هجران شوقى هى أنور العطار ؟! ثم يمضى فى طريقه نافيا عن نفسه التهمة الظالمة ولكنه نسى شيئا مهما جدا يا فدوى جعـل الزيات يغرق فى الضحك وأغرق معه نسى للأسف الشديد أن : يكتب رسـالته بخط الرجال لا خط الأنامل الرقيقة ، أنامل الآنسة هجران شوقى ! !

أنا آسف جدإذا كنت لم تضحكى . . ومـا ذنبى أنا إذا كنت لا تفهمين النكتة المصرية ؟ إن الذنب ذنبك أنت لأنك حين زرت مصر لم تمكثى بها غير بضعة أيام ! إنك لو مكثت بيننا مدة طويلة لهزتك هذه النكتة المصرية هزا عنيفا من الضحك كما هزت السيـدة وداد التى تكره شعر العطار لوجه الله والفن !!

---

(١) جبل من جبال فلسطين .

بقى أن أشكر لك من قلبى هـديتك الجميلة ، هـذه الصـورة « الفـردية » التى تقتضينى أن أبعث إليك فى مقابلها بصـورة هى الأخرى « فردية » راجيا ألا يخدعك مظهرها الذى يقدمنى إلى العيون وكأننى من أصحاب الملايين . . إن هذه العربة الفخمة التى أستند اليها ليست ملكى يا عزيزق ، ولكنها ملك أحد أصدقائى من عباد الله الأثرياء وأرجو أن تصدقى !!

أمـا هذه القصيـدة المحلقة فسأضمها كـما رغبت إلى ديـوانـك المنتظر ، هذا الديوان الذى أرجأت طبعه حتى أفرغ من هذا الكتاب الذى بين يدى ، ليقدم ديوانك وكتابى إلى المطبعة فى يوم واحد وليدفع بهما إلى القراء فى يوم واحد ، هذا إذا كنت توافقين ولا يخطر فى ذهنك حكاية سعيد تقى الدين !!

وتسألينى عن الشاعرة المصرية الراحلة كيف ماتت ولماذا ماتت ؟ إننى أرجىء الحديث عن هذه المأساة إلى رسالة مقبلة لأننى لا أحب لهذه الرسالة الباسمة أن تتحول البسمات فيها إلى دموع . . ولـك أصدق الشكر وأخلص المودة من المخلص :

أنور المعداوى

٢٩/ ٣/ ١٩٥٢



التعليق الأول
على الرسالة السادسة

من الملاحظ أن أنور المعداوى فى هذه الرسالة وفى عدد آخر من الرسائل يترك لنفسه العنان ليبدو وكأنه ـ عند النظرة الأولى ـ شديد الغرور شديد الثقة بنفسه ، فهو يقول لفدوى : « إنك لا تعلمين يا فدوى أننى هنا الملجأ والملاذ لكثير من الأدباء » ، أو يقول لها « . . ولما كان إبراهيم لا يعصى لى أمرا فقد أذعن لما أردت » . مثل هذه العبارات فى رسالة المعداوى سوف تترك فى نفوسنا انطباعا واحدا هو أنه شديد الغرور ، وكما قلت فى المقدمة وفى صفحات سابقة من هذا الكتاب : إن غرور المعداوى ـ حسب معرفتى به ـ إنما كان يصدر عن نوع من البراءة والطفولة فى أغلب الأحيان ، ولا يصدر عن شر أو حقد أو ترفع على الناس ، وقد قويت نزعات الغرور والاستعراض والنرجسية أو حب النفس والإعجاب بها ثم التركيز على الذات مع تصور صاحب هذه الذات أنه مركز العالم . . هذه النزعات كلها قويت عند المعداوى منذ صباه الأول ، بسبب تربيته العائلية ، فقد

كان ـ كما أشرنا من قبل ـ الابن الوحيد بين ثلاث أخوات ، وركزت أمه كل جهدها فى الحياة على تربيته والاهتمام به وتدليله ، وكانت تشعر نحوه بحب غير عادى ، وقد انعكس هذا كله على شخصية المعداوى الذى تعود فى بيئته العائلية الأولى أن يكون محبوبا وأن يكون موضع الإعجاب به وإشعاره بالأهمية البالغة .

على أن هناك شيئا ينبغى أن نلتفت إليه ونحن نقرأ رسائل المعداوى ، فهذه الرسائل هى فى الأصل رسائل خاصة وشخصية ، يتحدث فيها المعداوى كما يتحدث الإنسان إلى نفسه أو إلى أهله ، ولم يكن المعداوى ـ رحمه الله ـ يتصور أن هذه الرسائل سوف تنشر على الرأى العام ، فكان يكتبها على سجيته ، وهو يعرف أن الإنسانة التى يكتب إليها هى إنسانة تثق به وتشعر نحوه بالإعجاب والمودة ، فلا بأس عليه أن يظهر فى هذه الرسائل بعض مظاهر قيمته واهتمام الناس به ، كما أن المعداوى يحاول فى هذه الرسائل وفى رسائل أخرى سابقة أن يكسب مزيدا من ثقة فدوى طوقان ، ويحاول أن يشجعها على مزيد من الثقة به والاعتماد عليه ؛ ومن هنا كانت لهجته فى هذه الرسائل مقبولة بهذا المنطق الخاص ، وليس فيها ما يجوز لنا أن ننكره ونرى فيه نوعا من الانحراف أو العيب النفسى . إن المعداوى هنا أشبه بمن يتحدث إلى « خطيبته » بانتصاراته فى الحياة ، مما يشجعها على الثقة به ويؤكد لها حسن اختيارها للإنسان الذى ارتبطت به ويزيد من فرحتها بالحياة ، ولعلنا نلاحظ أن المعداوى هنا يحاول أن يشجع فدوى على أن تزداد اقترابا عاطفيا منه ، وهو ما أعتقد أنه تم بالفعل بينهما ، حيث نشأت علاقة عاطفية قوية بين المعداوى وفدوى ، ولكن عن طريق الرسائل ودون أى لقاء بينهما ، وتلك هى الطريقة المفضلة

للحب عندهما معا نتيجة للظروف المختلفة التى حاولت أن أشرحها فى مقدمة هذا الكتاب .

وهكذا فإننى أعتقد أنه ليس من حق أحد أن يحاسب أنور المعداوى على هذه اللهجة التى كتب بها رسالته . . ليس من حق أحد أن ينظر إلى هذه اللهجة على أنها تعبير عن الغرور ؛ فهى لهجة تصدر عن إحساس بأن الرسالة خاصة ، وهى لهجة تصدر عن جو وجدانى شخصى من حق الإنسان أن يبدو فيه قويا واثقا من نفسه سعيدا بانتصاراته وامتيازاته المعنوية ؛ لأنه يعرف أن الطرف الآخر يسعده ذلك ورضيه ويعطيه إحساسا عميقا بالاطمئنان والإقدام العاطفى .

على أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن هذه الرسالة تفيض بالمرح والتفاؤل والرضا عن النفس والحياة ؛ ذلك لأن المعداوى عندما كتبها فى أوائل سنة ١٩٥٢ كان فى قمة نجاحه الأدبى ، وكان نجما ساطعا فى الحياة الثقافية ، وكان صغيرا ـ فى الثانية والثلاثين من عمره ـ وكان أمله كبيرا فى المستقبل ولم تكن الهموم والأحزان قد طرقت بابه بعد .



التعليق الثانى
على الرسالة السادسة
بين فدوى طوقان .. وشاعر مصرى

يتحدث المعداوى فى هذه الرسالة عن علاقة عاطفية كانت قائمة بين فدوى طوقان وشاعر مصرى ، وهذا الشاعر هو « إبراهيم محمد نجا » وقصة العلاقة بين فدوى وإبراهيم كانت معروفة لدى عدد من الأدباء المصريين ، وكان من السهل معرفة هذه القصة ، لأن القصة كلها كانت لا تزيد على مجموعة من قصائد الحب التى نشرها الشاعر « إبراهيم نجا » ونشرتها « فدوى » ، وكان من غير العسير على الأوساط الأدبية التى تعرف الشاعر عن قرب وتقرأ هذه القصائد المنشورة أن تعرف مناسبتها وما وراءها من تجربة عاطفية . وقد تأكدت لى هذه العلاقة العاطفية بين « فدوى » و« إبراهيم » عن طريق المعداوى الذى روى لى طرفا منها ، وأخيرا عرفت كل القصة من الشاعر

« إبراهيم نجا » نفسه الذى تعرفت عليه فى الخمسينات عن طريق المعداوى أيضا فى الندوة الدائمة التى كانت تجمع المعداوى مع عدد كبير من الأدباء فى « مقهى عبد الله » بالجيزة ، ثم فى مقهى « انديانا » بالدقى .

وقد روى لى « إبراهيم نجا » قصة حبه لفدوى ، فإذا بهذه القصة لا تخرج عن أنه أحبها على البعد من خلال شعرها وأنها أحبته على البعد من خلال شعره ، وأنهما لم يلتقيا أبدا وجها لوجه ، وإنما التقيا - إذا صح التعبير - « شعرا لشعر » .

عرفت « إبراهيم نجا » فى أواسط الخمسينات ، وكنت أقرأ له شعره قبل ذلك ، حيث كان ينشر قصائده بانتظام وكثرة فى مجلة « الرسالة » ، وقد توثقت علاقتى بالشاعر حتى توفى فجأة سنة ١٩٧٠ ، وكان « إبراهيم نجا » نموذجا للإنسان الطيب الوفى الودود البرىء ، وكان بعيدا فى سلوكه ومشاعره وأخلاقه عن أى تعقيد أو تفكير فى الشر ، بل لقد كنت أحس أحيانا أنه لم يكن يتصور ما فى الحياة والناس من تعقيدات لشدة بساطته وطيبته وسلامة نفسه ورفضه الفطرى للشر ، ولعل هذه النفسية التى كان يحيا بها إبراهيم نجا هى التى أثرت على شعره ، فكان شعرا بسيطا لا يمس أعماق الحياة الإنسانية ، بل يقف بعيدا عن هذه الأعماق ، كل ذلك رغم أن إبراهيم نجا كان صاحب موهبة شعرية حقيقية . وكانت شاعريته غزيرة خصبة ، وكانت صياغته الشعرية غاية فى الرقة والعذوبة والسلاسة ، ولقد كانت هذه الشاعرية الكبيرة قادرة على أن تضع إبراهيم نجا فى مكان بارز من الدرجة الأولى بين شعراء عصره ، لولا قلة تجربته ، ولولا ما فيه من براءة وطيبة بل وسذاجة فى النظر إلى أمور الحياة والإنسان ، والشاعرية الكبيرة بحاجة - ولاشك - إلى تجربة

كبيرة ، وبحاجة إلى معرفة عميقة بهموم الحياة ومشاكل النفس الإنسانية ، أما أن يتوقف الشاعر عند حدود الرؤية الخارجية لمشاكل الحياة والإنسان ، فذلك ما لابد أن يحد من انطلاقه الفنى ويحول بين شعره وبين التحليق فى السماء .

لقد عاش « إبراهيم نجا » فى نهاية المرحلة الأخيرة من الموجة الرومانسية التى تمثلت بأفضل إنتاجها الفنى فى شاعرين كبيرين هما : إبراهيم ناجى وعلى محمود طه ، وكان شعر « إبراهيم محمد نجا » يدور فى نفس الجو ويعيش فى نفس العالم الوجدانى الرومانسى ، ولكن إبراهيم نجا ـ رغم موهبته ـ لم يستطع أن يلحق بهذين الشاعرين الكبيرين : ناجى وعلى طه . لماذا ؟ لأن ناجى وعلى طه كانت لهما فى الحياة تجارب واسعة عميقة ، وكانت معرفتهما بالإنسان أدق وأكثر شمولا مما كان عليه شاعرنا البسيط الطيب إبراهيم نجا . على أن هناك سببا آخر أضعف مكانة إبراهيم نجا الشعرية ، هذا السبب هو اقتصار ثقافته الادبية على الثقافة العربية فقط ، فقد كانت دراسته أزهرية ، حيث تخرج من كلية اللغة العربية ، ولم تساعده دراسته على معرفة لغة أجنبية ، كما لم تفتح أمامه أبوابا لتعميق شاعريته عن طريق الثقافة العصرية التى كان بإمكانه أن يحصل على جانب كبير منها عن طريق قراءته للمترجمات الكثيرة التى امتلأت بها المكتبة العربية ، ولكنه مع الأسف اقتصر على موهبته الفطرية وثقافته الأزهرية ، فضعفت تجربته الشعرية وضاق أمامه مجال الرؤية الفنية والإنسانية ، رغم أنه كان صاحب موهبة حقيقية كبيرة .

والصورة الضاحكة التى يرسمها المعداوى لإبراهيم نجا هى صورة صحيحة فى مدلولها العام ، وخاصة عندما يقول المعداوى لفدوى

عن إبراهيم « . . لقد قالت لك رسائله إنه عرف الكثيرات وصدقته يا أختاه ، وقال لك شعره إنه تنقل بين هوى الغانيات وصدقته يا أختاه ، والله يشهد أنه فى هذا المجال صفر اليدين قليل الحيلة مقصوص الجناح ، إننى أكتب إليك هذه الكلمات وأنا أبتسم لأننى لا أستطيع أن أحول بين نفسى وبين الابتسام ، حين أذكر لك أن هذا الصديق العزيز لم يعرف المرأة إلا فى مكان واحد هو بيت الزوجية ، وأن ما أقدم عليه فى رسائله وشعره لم يكن الهدف من ورائه إلا إثارة غيرتك وما كان لها أن تثار . . إنه يا فدوى دون جوان حقا ولكن على الورق » .

هذا ما قاله المعداوى لفدوى ، وأعتقد أن ما قاله هو الحقيقة ، فقد كانت تجارب إبراهيم نجا فى الحياة محدودة وكان إنسانا شديد اللطف والحياء ، وكان المصدر الرئيسى لشعره هو الخيال وليس التجربة الإنسانية الواسعة .

نستطيع أن نفهم من رسالة المعداوى أن أزمة قد نشأت بين إبراهيم نجا وفدوى ، بسبب ما كتبه الشاعر فى رسائله وقصائده عن معرفته بعدد كبير من النساء ، وقد حدثنى إبراهيم نجا ـ رحمه الله ـ عن هذه الأزمة دون أن يذكر لى الأسباب ، وقال لى إنه على أثر هذه الأزمة أعاد إليها رسائلها ، ولكن بعد أن نقلها فى كراسة وأبقاها عنده ، وقد استأذنت إبراهيم فى الاطلاع على هذه الرسائل فأذن لى . . . وسأتحدث بعد قليل عن رسائل فدوى إلى إبراهيم نجا ، ولكن بعد أن نقرأ نماذج من شعر نجا عن حبه لفدوى وأزمته فى هذا الحب .

فى قصيدة بعنوان « صارحينى » نشرها إبراهيم نجا فى مجلة « الرسالة » فى العدد ٩٢٩ الصادر فى ٢٣ إبريل سنة ١٩٥١ نحس ببداية أزمته مع فدوى ، بل نحس بأن هذه الأزمة ربماتكون قد وصلت إلى قمتها بسبب بعض الشكوك التى تملأ قلب الشاعر ، وفى هذه القصيدة يكتب الشاعر مقدمة نثرية يقول فيها :

« كتبتِ تقولين فى رسالتك الأخيرة المريرة : لم أعد أعرف بأى الأسماء أناديك فاعذر حيرتى ، فإليك . . يا أنت ، أهدى هذه القصيدة » ثم يقول فى مطلع القصيدة :

صارحينى بما لديك من الأسرار
أنفض على يديك شجونى

ثم يشير فى مقطع آخر من القصيدة إلى ما كان بين فدوى وشاعر مصرى آخر من علاقة عاطفية ، وهذا الشاعر الأخر هو الذى أشرت إليه فى التعليق الثانى على الرسالة الخامسة ، وسأشير إليه مرة أخرى فى الصفحات التالية ، وكان هذا الشاعر قد التقى بفدوى فى حرب فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ونشأت بين الشاعر وفدوى علاقة عاطفية على طريقة فدوى فى الحب العفيف المثالى الرومانسى الذى لا يجد تعبيرا عن نفسه إلا فى الشعر ، ولا يعبر عن نفسه أبدا فى واقع الحياة ، وكان الكثيرون فى الحياة الأدبية يعرفون قصة العلاقة العاطفية بين الشاعر المجاهد المتطوع وفدوى طوقان عن طريق القصائد المنشورة للشاعر والشاعرة أيضا ، وكان إبراهيم نجا يعرف طرفا من هذه القصة ؛ ولذلك فهو يقول فى قصيدته :

حدثينى عن الغريب الذى جاءك
يسعى فى لهفة وحنين . . .

من وراء الصحراء يقتحم الهول
ويرتاد مستراد المنون
حدثيني أكان يبغي دفاعا
عن حماك المعذب المسكين
أم وصالا في ظل عشق عنيف
أم لقاء في ظل حب حنون ؟
لست أدري وذاك سر عذابي
وشقائي وغيرتي وجنوني

ويشير إبراهيم نجا في الأبيات السابقة إلى الشاعر الآخر وقصته مع فدوى وشقائه بهذه القصة ، ثم ينهي إبراهيم نجا قصيدته بهذه الأبيات التي يشير فيها إلى أزمته الخاصة ويكشف لنا في الوقت نفسه بعض ملامح شخصيته :

واذكري حين قلت .. يا أنت .. يوما
إنني في هواك غير أمين ..
قلت هذا حق يقوم لك العذر
إذا شئت في الهوى أن تخوني
تستطيعين أن تخوني ، ولكن
أنت مهما فعلت لن تخدعيني
واسأليني عن النساء فعندي
بقلوب النساء علم اليقين
واسألي عني النساء اللواتي
كن يوما ملكي وطوع يميني
اسأليهن تعرفي من صفاتي
أنني ملهم بكل دفين

واذهبى ، لا أريد منك وداعا
ودعينى ، فقد يئست ، دعينى
إن يأسا يريحنى هو خير
من خداع الأوهام لى كل حين
ما غناء السراب عندى إن لم
يك يوما بمائه يروينى ؟

هذه أبيات من قصيدة إبراهيم نجا تكشف لنا بعض ما كان يعانيه الشاعر من عذاب عاطفى ، وبعض ما كان يعيش فيه من خيالات وأوهام كانت تعزيه بعض العزاء ، خاصة ذلك الوهم الأكبر الذى كان يتصور من خلاله أنه يعرف العديد من النساء - كن يوما ملكى وطوع يمينى - وكأنه أمير شرقى يعيش فى عصر الحريم ، وهو فى الحق لم يكن يعرف المرأة - كما يقول المعداوى عنه - إلا فى بيت الزوجية ، وكان هذا الوهم الكبير بأنه خاض الكثير من التجارب العاطفية يمنح الشاعر نوعا من العلاج النفسى فى أزمته العاطفية ، وهو من ناحية أخرى - كما قال المعداوى بحق - محاولة لإثارة الغيرة فى نفس الشاعرة ، ولعل الغيرة تدفعها من جديد إليه وتزيد تعلقها به وتمنعها من قطع ما بينهما من علاقات الحب . . على الورق .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « رسائل ضائعة » يعبر إبراهيم نجا فى شجن حقيقى صادق عن محنته ، ويمكننا أن ندرك بوضوح أن هذه المحنة هى انقطاع رسائل فدوى عنه ، وقد كانت هذه الرسائل هى كل ما بينهما من حب عنيف حار ، فعندما تنقطع هذه الرسائل فإن ذلك يعنى محنة عاطفية كبرى للشاعر العاشق ، وقد عبر الشاعر عن هذه المحنة فى قصيدته تعبيرا جميلا يكشف لوعة قلبه ومأساة حبه

الأفلاطونى العجيب الذى كان بالنسبة له حقيقيا كأنه واقع ملموس . يقول إبراهيم فى قصيدته التى نشرتها له مجلة « الرسالة » فى عددها رقم ٨٨١ الصادر فى ٢٢ مايو سنة ١٩٥٠ ، وسأنقل هنا نص هذه القصيدة الجميلة حتى نتبين ما فيها من تجربة عاطفية حزينة :

وكنت وإياها على البعد تلتقى
رسائل حب ليس يخبو أوراها
فكنت كأنى وهى منى بعيدة
أرى وصلها يدنو ، ويدنو مزارها
فلما انتهت تلك الرسائل أصبحت
إذا رمت لقياها تناءت ديارها
وصارت رسالاتى إليها مدامعا
أرى ليلها يبكى ، ويبكى نهارها
فيا قلب دعها ، ليس لى من وسيلة
إليها فألقاها ، ولا أنا جارها
ويا حبها هب لى سُلُوًّا أريقه
على كبدى الحرى ، فتبرد نارها

* *

وقيدنى حبى لها واسترقنى
فصرت لها عبدا وقد كنت سيدا
وكانت على قلبى نشيدا مرنما
فصارت على قلبى نشيجا مرددا
وكانت لقلبى فرحة أبدية
فصارت لهذا القلب حزنا مخلدا

وكنت سعيدا حين كانت مقيمة
على عهدها .. ترعى الفؤاد المقيدا
فلما أضاعت عهدها وتغيرت
تغير قلبى فى الهوى وتمردا
وقلت لها إن كنت أشركتِ فى الهوى
فشيمة حبى أن يكون موحدا
وإن كان شيء قد بدا لك فانطوت
أمانيك فى حبى ، فأنت ومابدا
ظلمتِ الهوى ما أنت أهل لناره
ونار الهوى أسمى من النور محتدا
وأسرفتِ فى لومى بريئا وإنما
أحق بهذا اللوم من جار واعتدى
وأنت التى غنى فؤادى بحبها
وناح .. فلم تحفل بما ناح أو شدا
وأنت التى أغريتِ بى السهد والأسى
فهأنذا أحيا حزينا مسهدا
وأشقيت أحلامى وكانت سعيدة
وحيرت أيامى وكانت على هدى
وجئت إلى زهر الهوى وهو ناضر
فأذويته بالهجر حتى تبددا
وكانت حياتى فى يديك وديعة
تمنيتها تبقى ، فضيعتها سدى
فيا محنتى . يا سر يأسى وغربتى
عن الناس ، يا حزنا بقلبى توقدا

ويا ألما كم رعته بتجلدي
فمازال بي حتى عدمت التجلدا
لقد آن أن أحيا كطير مرفرف
يرى بهجة الدنيا فيمضي مغردا
سأوليك مهما عشت هجرا وسلوة
وقد كنت لا أوليك إلا تعبدا
غدا ينتهي الحب الذي كان بيننا
فليس له ظل بقلبي ولا صدى
فلا تعجلي أن تصبحي اليوم فتنة
لغيري ، وصبرا .. إن موعدنا غدا
وأقسم إني أوثر الموت طائعا
إذا كان لا يُنسي هواكِ سوى الردى

* *

غدا سوف أنساك فيمن نسيت
وأطوي غرامك فيما انطوى
وأنسى الهوى كله صارخا
كفاني عذابا بهذا الهوى
غدا ، غير أن غدا طائر ...
هنالك في وكره قد ثوى
سيبعثه الغيب من وكره
ويرجعه بعد طول النوى
وشجو السهاد ونار الجوى
فياليتني حين يأتي غد
أكون انتهيت .. كغصن ذوى

لقد حرصت أن أنقل هنا هذه القصيدة بأكملها ، لأن الشاعر كتبها فى قلب أزمته العاطفية ، والقصيدة تحكى قصة هذه الأزمة ، بل تحكى القصة الكاملة لهذا الحب الذى كان بين إبراهيم نجا وفدوى طوقان ، ولست أشك فى أن إبراهيم نجا كان صادقا كل الصدق فى هذه القصيدة التى تصور حالته النفسية بدون الافتعال وخيالات الغـرور العاطفى التى مـلأت قصيدتـه السابقة « صارحينى . . » ، وهذه القصيدة التى يصور لنـا فيها عـواطفه وأحزانه أقرب إلى نفسية الشاعر الحقيقية من أى شعر آخر قائم على الادعاء النفسى والغرور العاطفى ، فقد كان الشاعر إنسانا بسيطا طيبـا صادق الـطبع ، وكـان مخلصا فى كـل شىء ، حتى فى هـذه العواطف التى كان يقيمها على الوهم والخيال ، أما الـ« الدون جوانية » و « الغرور العاطفى » وغير ذلك مما نجده فى شعره أحيانا فهى كلها نوع من التعويض وأحلام اليقظة .

وقد حرصت من ناحية أخرى على نقل هذه القصيـدة بأكملهـا لسبب فنى آخر ؛ فلعل هذه القصيدة أن تلفت النظر من جديد إلى هذا الشاعر الذى كان رومانسيا فى عصر احتضار الرومانسية ، والذى جرفته موجة التجديد الشعرى فى أدبنا الحديث فلم يلحق بها ، ولكن موهبته الفنية مع هذا التيار المتدفق من الصدق العـاطفى فى شعره يستحقان منا أن نلتفت اليه ونقف أمامه لحظة ، ونعطيه بعض ما فاته من حقوق النجاح الأدبى .

نعود بعد ذلك إلى قصة الرسائل المتبادلة بين إبراهيم نجا وفدوى طوقان ، وكان إبراهيم قد أطلعنى على هذه الرسائل كما نقلها قبل أن يعيد أصولها إلى فدوى عندما طلبت منه ذلك .

قالى لى إبراهيم إن علاقته بفدوى قد بدأت حوالى سنة ١٩٤٨ وانتهت سنة ١٩٥١ تقريبا ، وخلال فترة علاقته بفدوى لم يرها على الإطلاق ولم يلتق بها أبدا ، وإنما اقتصرت علاقتهما على الرسائل المتبادلة ، وكان إبراهيم وفدوى يعبران عن عواطفهما فى هذه الرسائل ، وفى القصائد المختلفة التى كتبها إبراهيم وفدوى ، وقد سألت إبراهيم عن سر عدم تفكيرهما فى الزواج رغم أن العلاقة بينهما قد بدأت قبل أن يتزوج إبراهيم ، فقال لى : إن أسرة الشاعرة ـ كما فهم من فدوى نفسها ـ جعلت من تقاليدها ألا تتزوج الفتاة إلا من الأسرة نفسها ، وإذا لم تتزوج من الأسرة فمن الضرورى أن تتزوج من بلدها نفسه : فلسطين ، ومن أسرة ذات مستوى اجتماعى مشابه لأسرة الفتاة ، وإذا لم يكن الزوج من الأسرة أو من البلد أو من نفس المستوى الاجتماعى فعلى الفتاة أن تظل حبيسة بيتها بلا زواج إلى الأبد .

ولست أدرى إذا كان التفسير الذى قدمه إبراهيم لعدم زواجه من فدوى صحيحا على هذه الصورة أم لا[1] ، ولكن الذى لا شك فيه أن هناك قيودا اجتماعية عنيفة داخل أسرة الشاعرة ، وهى أسرة كبيرة وقديمة وذات تقاليد خاصة ، ولم تستطع فدوى رغم ذكائها وثقافتها وموهبتها النادرة أن تقهر الظروف الاجتماعية والتقاليد الموروثة ، خاصة أنها كانت منذ البداية فتاة حساسة مطبوعة على الحياء والخوف من المجتمع والحياة .

---

(١) بعد قراءة السيرة الذاتية الرائعة التى كتبتها فدوى طوقان عن نفسها تحت عنوان « حياة جبلية .. حياة صعبة » أصبح من المؤكد أن هذا التفسير لعجز فدوى عن الزواج من خارج أسرتها وطبقتها الاجتماعية صحيح بصورة كاملة .

ولو كانت فدوى ذات طبع جرىء مقتحم متمرد لاستطاعت أن تغير هذه التقاليد وأن تفلت منها ، ولكن فدوى اكتفت بأن تعبر عن شخصيتها الحقيقية ومشاعرها الطبيعية فى شعرها ، وفى نفس الوقت حبست شخصيتها الاجتماعية فى إطار التقاليد القديمة الموروثة ، لقد انقسمت شخصية فدوى إلى شخصيتين : شخصية حقيقية عبرت عنها وعن آلامها وأحلامها فى شعرها ، هذه الشخصية باصطلاحات علم النفس هى « الأنا » ، وشخصية أخرى كانت رقيبا على الشخصية الأخرى ومصدرا للضغط عليها ، وهذه الشخصية هى « الأنا الأعلى » ، وقد استسلمت فدوى فى شعرها للشخصية الأولى واستسلمت فى حياتها الاجتماعية وسلوكها للشخصية الثانية ، وقد ظل هذا الانقسام قائما فى حياة فدوى حتى اليوم كما أتصور ، وقد استطاعت فدوى أن تحول الانقسام فى شخصيتها إلى ازدواج رضيت به وعاشت فى إطاره ولم تخرج منه ، فهى تتحرر عاطفيا عندما تكتب شعرها الجميل الصادق وتتقيد اجتماعيا عندما تتصرف مع الناس أو تواجه الحياة الواقعية .

على أن فدوى طوقان قد حاولت فى زيارتها الأولى لمصر أن تزور إبراهيم نجا ـ كما روى لى رحمه الله ـ ولكنها ذهبت إليه فى المدرسة التى كان يعمل بها ، وكان قد انتقل منها فلم تعرف فدوى عنوانه الجديد . وفشلت المحاولة وخاب الأمل فى اللقاء ، ولعل هذا الفشل العملى كان تعبيرا عن رغبة نفسية عميقة خافية فى أعماق فدوى ، فإنها لم تكن تريد أبدا أن تخرج بعواطفها من عالم الخيال والمثال الى عالم التجسيد والواقع ؛ لأنها لا تريد أن تخوض معركة تعرف أنها لا تملك أدواتها وأنها سوف تنهزم فيها . ويشير « إبراهيم نجا » إلى هذه الواقعة فى قصيدة له بعنوان « بلا أمل » نشرها فى ديوانه الأول « أيام من

عمرى » وهو الديوان الذى سجل فيه كل القصائد التى كتبها فى تجربته العاطفية « الأفلاطونية » مع فدوى طوقان . . فى قصيدة « بلا أمل » يشير إلى المحاولة التى فشلت فى اللقاء بينه وبين فدوى ، ثم عودة العلاقة بين الحبيبين لتصبح مجرد مجموعة من الرسائل المتبادلة التى تحولت إلى وسيلة وحيدة للقاء فى عالم الوهم والخيال .

يقول إبراهيم فى قصيدته « بلا أمل » :

ولست بناس إذ بعثت رسالة
إلى بأمر من وصالك عاجل
فجن خيالى باللقاء وسحره
وصور لى أنى سأحظى بنائل
وأنك قد وافيتنى فى خميلة
عليها نسيج من ضياء الأصائل
فأمسكت كفى بين كفيك ساعة
فأسكر روحينا عناق الأنامل
وغنيتنى شعر الهوى ، فكأننى
ذهلت عن الدنيا ولست بذاهل
وأنا أقمنا وحدنا طول عمرنا
فأصبحت لى وحدى برغم الحوائل
ولكن حظى كان حظى فأخطأت
خطاك مقامى بين تلك المنازل
وعشنا على الأوهام تجمع شملنا
رسائل حب يالها من رسائل
وما فى يدينا غير أوهام موعد

وأحـلام لقيا كـالـورود الـذوابـل
فـلا تحسبى أنى سـأنسـاك لحـظة
فـإنـك شغـلى دون كـل الشـواغـل
سأحيـا على حبيـك ما دمـت باقيـا
وإن كنـت أدرى أن حبـك قاتـلى

وهكذا يرسم الشاعر صورة اللقاء الفاشل ، وصـورة لعواطفـه الرومانسية المثالية الحالمة ، فقد حاولت حبيبته أن تلقاه ولكنها فشلت لأنها أخطأت العنوان ، وكان الشاعر يحلم بهذا اللقاء ، ويحلم بأن هـذا اللقاء ـ ويـاللأوهـام البعيـدة عن أى حس واقعى ـ سيتم فى « خميلة عليها نسيج من ضياء الأصائل » ، وأخذ الشـاعر يتصـور ماذا سيحدث عندما يلتقى بحبيبته ، وهنا تتضح لنا سطوة الخيال الرومانسى المسيطر على الشاعر ، فهو عندما يلتقى بحبيبته ، هذا اللقاء الذى يتمناه ويحلم به ، فإنه سوف يقرأ لهذه الحبيبة شعره وتقرأ لـه شعـرهـا ، وسـوف تمسك كفـه بكفهـا « فيسكـره » « عنـاق الأنامل » . . . هذا هو أقصى ما يفكر فيه الشاعر عندما يحقق حلمه الكبير ويلتقى بحبيبته ، وهذه الصورة هى تجسيد فنى صادق للحب الرومانسى الذى يهيم فى عالم الخيال النقى ويبتعد كل البعد عن دنيا الواقع الملموس ، وما أشبه هذه الصورة التى يرسمها إبراهيم نجا لنفسه مع حبيبته بصورة « روميو وجولييت » فى مسـرحية شكسبـير المعروفة عندما كانا يلتقيان فى المساء ويتناجيان على البعد بكلمات الحب والغزل الشفاف الرقيق ، بل لقد كان « روميو وجولييت » أكثر واقعية ؛ لأنهما كان يرى كلاهما الآخر فى ضـوء القمر : روميـو فى الـطريق وجولييت فى النـافذة ، وكـانـا يسمعـان صـوت بعضهـما البعض ، أما هنا عند إبراهيم نجا وفدوى طوقان فكل شىء خيال فى خيال .

نعود بعد ذلك إلى رسائل فدوى التى كتبتها لإبراهيم نجا ، والتى أتيح لى لحسن الحظ أن أقرأها وأطلع عليها ، فماذا تقول هذه الرسائل ؟

فى إحدى هذه الرسائل تقول فدوى لإبراهيم وقد كان ذلك فى بداية العلاقة بينهما :

« لله ما أسعدنى هذا المساء ! لله ما أسعدنى لقد استمعت إليك وأنت تلقى قصيدتيك الرائعتين « العابد المثالى » و « البعث » . كان لصوتك المفعم بالحنان تأثير بعيد المدى فى قلبى ، ولا أدرى كيف أصف هذه النبرات الملائكية الحزينة التى كانت تتغلغل فى أعماق حسى ، لا أدرى كيف ألهمت هذا المساء الخروج من مكان عزلتى ، من غرفتى المنزوية ، فأجلس مع الأهل وما أقل ما أفعل ذاك ، وما هى إلا هنيهة حتى كان المذيع المصرى يقرأ برامج المساء ، وإذا باسمك العزيز ينفض قلبى فجأة ويهزه هزا عنيفا ، يالها من مصادفة رائعة حبيبة . . . ثم لم أزل أنتظر على شوق ولهفة إلى أن حانت اللحظة السعيدة ، والتصقت بالمذياع وأسندت رأسى إليه وحبست أنفاسى ، وانطلق صوتك مسلسلا رقراقا حنونا ، فعانقته روحى ، وانطلقت معه إلى بعيد بعيد . . . إلى عوالم كلها أحلام وأشواق ورؤى وظلال ، آه ما كان أسعدنى هذا المساء »

وبعد فترة قصيرة من الزمن بدأت هذه العلاقة العاطفية بين فدوى وإبراهيم تتعرض لأزمة كان من الطبيعى أن تحدث ، فظروف فدوى لم تكن تسمح لها بالاستمرار فى مثل هذه العلاقة ولا فى أى علاقة أخرى . وفى رسالة ثانية تكتب فدوى طوقان إلى إبراهيم ردا على عتاب منه بعد أن قطعت رسائلها عنه لفترة من الوقت :

« أنـا ما أسـأت بك الـظن ، لا ولا أنكـرت شيئـا ممـا قلتـه فى رسالتك ، وماذا عساى أن أنكر ؟ أأنكر عطف روحك على روحى ؟ أو حديثك الصادر من أعماق قلبك ؟ . . . لا وربك ، ولكنها القيود تكبل روحى ، والتقاليد تكسر جناحى ، والسدود تعترض دروبى ، وهذه كلها تضيق على ، وتحول بينى وبين أن أتخذ لنفسى نجيا أفزع إليه من قسوة الحياة ، وأستضىء بضيائه فى هذا الظلام الذى يكتنف نفسى ، ولا يد لى ولا حيلة ، وأنت حين نـادتنى روحك ونـاجانى قلبك ، لم تكن تدرى أنك تدعو كسيحة أسيـرة مهيضة الجنـاح ، وكنت أظن فى سكوتى الخير لى ولك » .

ثم تشير فدوى فى هذه الرسالة نفسها إلى واقعة تتصل بعلاقتها السابقة مع الشاعر المصرى الآخر الذى كان على اتصال بفدوى قبل إبراهيم ، تقول فدوى فى هذا الجزء من رسالتها :

« . . إننى ما زلت أتلوى من الألم كلما ذكرت ذاك اليـوم الذى تنكرت فيه النفوس ، وعبست الوجوه من أجل رسالة تلقيتهـا من شاعر مصرى . اتصلت بينه وبينى أسباب الأخوة ، فتراسلنا حينا من الزمن إلى أن كانت تلك الرسالة البريئة ، وإذا أنا يحظر على أن أتخذ لآمالى وأحلامى نجيا كائنـا من كان . . . لقـد كتبت على الـوحدة والعـزلة ، وإننى لأفنى شيئـا فشيئـا ، وإن أعصـابى لتتحـطم تحت ضربات هذه الحياة القـاسية ، فمتى يـدنو يـوم الراحـة الكبرى ، متى . . . » .

وهـذه الفقرة الأخيـرة من رسالـة فدوى عـلى غايـة من الأهمية والقيمة ؛ لأنها تكشف بوضوح وقوة ومن خلال واقعة محـددة عن المدى الذى وصلت إليه قسوة التقاليد والقيود فى حياة فدوى ، وهى

تفسر لنا ما نحسه فى شعرها من ألم وحزن واغتراب ، ولا شك أن هذه الواقعة التى تذكرها فدوى طوقان هى مجرد نموذج لوقائع أخرى من نوعها تعرضت لها فدوى فى حياتها الواقعية ، ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم بوضوح كامل تلك الآلام والهموم التى عانتها هذه الفنانة الكبيرة الحساسة ، والتى هى فى آخر الأمر نموذج حى لبنات جيلها فى كثير من البيئات العربية الأخرى ، ولست أشك فى أن فدوى قد ضحت بالكثير من سعادتها فى سبيل الصدق والأمانة مع نفسها وفنها ، وأنها صمدت فى وجه المصاعب التى واجهتها فرفضت أن تستجيب لما يفرضه عليها مجتمعها ، وقبلت فى آخر الأمر أن تضحى بحياتها وتسلك طريق العزلة ورفض الزواج ما دام الطريق الوحيد للزواج والارتباط العاطفى هو طريق التقاليد الاجتماعية المرفوضة ، ضحت فدوى ورفضت كل ما تلقيه التقاليد فى طريقها احتراما لإنسانيتها ، ولعل ذلك اليوم الذى تصبح الفتاة العربية حرة من كل القيود المفتعلة يكون قريبا ، وتكون فدوى بذلك قد ضحت تضحية مثمرة وكافحت من أجل هدف أمكن تحقيقه ، وهو مع الأسف هدف لم يتحقق حتى الآن بصورة مثالية كاملة إلا فى بيئات عربية محدودة .

وفى رسالة ثالثة من فدوى طوقان إلى إبراهيم نجا تقول فدوى :

« ماذا أقول ؟ أنا خائفة ، إن قلبى يكاد ينفجر فى صدرى مما يملؤه ، أنا لا أستطيع أن أقوم بكل هذا العبء ، فخذ أنت بيدى ناشدتك الله ، وأعنى على مقاومة هذه العواطف الجامحة ، أتوسل إليك أن تقطع رسائلك عنى . . . لا ، لا أريد أن تكتب إلى بعد اليوم ، كن عونى على هذا البلاء العظيم ، إننى أضيق به ولا أطيق له احتمالا ، فوداعا ، برغم قلبى أقولها ، إنها كلمة أجد فيها مذاق

الموت ، سأذكرك ما عشت . سيحن إليك قلبى ما دام فى قلبى نسمة حياة » .

هذه هى الفقرات التى احتفظت بها من رسائل فدوى طوقان إلى إبراهيم نجا عندما أطلعنى إبراهيم عليها . وها هى رسالة أنور المعداوى إلى فدوى تكشف لنا أن فدوى قد استردت رسائلها وبذلك انتهت تلك العلاقة ، وقد عبر الإبراهيم نجا فى شعره عن همومه وأحزانه بسبب انتهاء هذه العلاقة كما يبدو فى قصيدته « رسائل ضائعة » التى نقلناها فى الصفحات السابقة بأكملها ، على أننا نجد فى قصائد أخرى للشاعر إشارات مباشرة إلى تجربته العاطفية الرومانسية الحزينة مع فدوى طوقان ، حيث يقول فى إحدى قصائده شاكيا أنه يعيش بعيدا عن هواه :

يا من أحن إليها وهى نائية
ومن ترفرف روحى حول مغناها
قضى الزمان على روحى بغربتها
عن مهد حبى فأبكانى وأبكاها

وهو يشكو من أن حبه لا يقوم إلا على مجموعة من الأوراق والرسائل المتبادلة بينه وبين حبيبته :

وما التقينا سوى روحين رفرفتا
على رسائل حب كم بعثناها
تذكرى كلمات فى رسائلنا
يمضى الزمان ، ولا يمضى بمعناها
تذكرى كم سهرنا الليل نكتبها
ونسكب القلب دمعا فى ثناياها

تلك الـرسـائـل مـا زالت تـعـذبنى
لأنها وحـى أيـام أضـعـنـاهـا

وهكذا عاشت هذه العلاقة العاطفية بين فدوى طوقان وإبراهيم نجا فى مشاكل متعددة ، وكانت تنتقل من فشل إلى فشل ، ومن حزن إلى حـزن ، ولم تثمر إلا بعض الشعـر الجميـل وبعض الـرسـائـل الجميلة ، ولكن التجربة ستظل على الدوام رمزا لعـذاب الإنسان العربى الحساس وهو يحاول أن يتخلص من قيوده وأغلاله فى عصر الـرومانسيـة الذى بـدأ يذوى ويتـلاشى فى المجتمـع العـربى منـذ الخمسينات . إن هذه القصة بين فدوى وإبراهيم هى نموذج لمحنة العاطفة المثـالية العفيفـة التى تريـد أن تحقق آمالهـا على جنـاح من الخيالات والأوهام فتسقط مهشمة على أرض الواقع المـلىء بالقيـود والتقاليد .

التعليق الثالث

على الرسالة السادسة

قصة الأديبة السورية هجران شوقى

يشير المعداوى فى رسالته إلى قصة « هجران شوقى » ، أو الأديبة السورية التى لا وجود لها فى واقع الحياة ، والتى كانت اسما مستعارا لشاعر سورى اختفى وراءه هذا الشاعر لفترة من الوقت ، وقصة « هجران شوقى » هى ـ فى الحقيقة ـ قصة مثيرة وطريفة من قصص حياتنا الأدبية جرت فصولها على صفحات مجلة « الرسالة » سنة ١٩٥٠ . وقد بدأت القصة عندما نشرت مجلة « الرسالة » فى عددها رقم ٨٨٥ الصادر فى ١٩ يونيه سنة ١٩٥٠ قصيدة بعنوان « الشاعر » للأستاذ يوسف حداد وكتبت « الرسالة » فى مقدمة القصيدة كلمة قالت فيها :

« . . . اقترحت زميلتنا « العصبة الأندلسية »[1] على الشعراء أن

(١) مجلة عربية أدبية كانت تصدر فى أمريكا ويحررها أدباء المهجر .

ينظموا فى موضوع « الشاعر » وأرصدت للاقتراح جائزتين ماليتين للفائزين الأول والثانى ، فجاءها تسع عشرة قصيدة تخيرت منها لجنة التحكيم ثلاثا جعلت الجائزة الأولى لاثنتين مناصفة وهما للشاعرين يوسف حداد وشبلى ملاط ، والجائزة الثانية للقصيدة الثالثة كاملة وهى للشاعر أنور العطار ، وهذه هى القصيدة الأولى . . . »

وبعد أن نشرت « الرسالة » قصيدة يوسف حداد ، علق عليها أنور المعداوى فى العدد التالى من « الرسالة » وهو العدد رقم ٨٨٦ الصادر بتاريخ ٢٦ يونيو سنة ١٩٥٠ ، وقال المعداوى فى هذا التعليق :

« قلت لنفسى بعد أن فرغت من قراءة القصيدة المنشورة فى العدد الماضى من الرسالة : هذا شعر . . وعندما نقول إن قصيدة الأستاذ يوسف حداد شعر ، فإنما نعنى تلك الومضات النادرة من « الأداء النفسى » الذى شرحنا لك بالأمس القريب أصوله وقواعده . ولا نريد بهذه الكلمة أن نطبق مذهب الأداء النفسى على قصيدة الأستاذ حداد ، ولكننا نريد أن نقدم إليه خالص التهنئة وأصدق الإعجاب ، على الرغم من بعض المآخذ التى لم تخل منها قصيدته المحلقة . إن جناح هذا الشاعر ليعد فى رأينا من الأجنحة النفيسة فى أفق الشعر العربى الحديث . . ومن عجب أن هذه القصيدة التى نشرتها الرسالة هى أول أثر فنى نطالعه للأستاذ حداد ، وأعجب من هذا أننا لا نعرف فى أى قطر من أقطار العروبة يصدح بشعره : أهو من لبنان أم من سورية أم من العراق . . . أم تراه من شعراء المهجر ؟ سؤال لم نعثر له على جواب ، لأن قصيدته المنشورة لم تشر إلى موطنه حيث يقيم .

إننا نشعر بكثير من الاسف لأننا لم نقرأ شعرا آخر للأستاذ حداد من قبل ، ونشعر أيضا بكثير من الحرج حين يدور فى خلدنا أن بعض القراء قد يعرفونه حق المعرفة ، فى الوقت الذى لم تتح لنا الظروف أن نعرفه بعض المعرفة . . مهما يكن من أمر فإنه ليسعدنا كل الإسعاد أن يطلع الأستاذ الشاعر على هذه الكلمة ، وأن يبعث إلينا بقطوف من شعره لنقضى معه لحظات أخرى معطرة بأرج المتعة الروحية الخالصة !

وللذين يوافوننا ببعض ما يعرفون عن الأستاذ حداد - إذا لم يقدر له أن يطلع على هذه الكلمة - تحية ملؤها الشكر العميق » .

وبعد أن كتب المعداوى هذه الكلمة بشهر تقريبا نشر رسالة وصلته من سوريا بتوقيع « هجران شوقى » تعلق على رأيه فى قصيدة يوسف حداد ، وقد نشر المعداوى رسالة « هجران » وعلق عليها فى العدد ٨٩٠ من الرسالة وهو العدد الصادر فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٥٠ ، وتقول « هجران شوقى » فى رسالتها إلى المعداوى :

« يا كاتب الأداء النفسى

تحية من صبا بردى أرق

قرأت فى تعقيباتك المنشورة فى العدد « ٨٨٦ » من الرسالة بتاريخ ٢٦ يونيو ، أنه يسعدك الإسعاد كله أن يوافيك قراء الرسالة بكلمة عن الأستاذ يوسف حداد صاحب قصيدة « الشاعر » المنشورة فى العدد « ٨٨٥ » من الرسالة . وساءنى أن تشعر بكثير من الحرج حين يدور فى خلدك أن بعض القراء قد يعرفونه حق المعرفة فى الوقت الذى لم تتح لك الظروف أن تعرفه بعض المعرفة .

هون عليك يا أنور فإن الخطب يسير ، وهاهى ذى قارئة من قارئات الرسالة توافيك ببعض ما تريد . . بين يدى مجلة « العصبة الأندلسية » التى نقلت عنها الرسالة القصيدة ، تشير فى ختامها إلى أن الأستاذ « حداد » من لبنان ـ البقاع ـ تل زنوب . وقد لمع فى ذهنى أن أعيرك العدد رجاء أن تعيده إلى حرصا على مجموعتى ، لأنى أريد أن أستمع إلى رأيك فى هذه المباراة الشعرية الفريدة التى اقترحتها العصبة الاندلسية فى موضوع « الشاعر » على شعراء العالم العربى ، ولا أكتمك أنى قرأت القصائد الثلاث فانتهيت إلى حكم مناقض لحكم العصبة ، ووددت لو أن اللجنة المحكمة عكست الأمر لكان ذلك أقرب إلى الحق وأدنى إلى الصواب » .

واستمرت الكاتبة « هجران شوقى » فى رسالتها بعد ذلك ، وأخذت تقارن بين القصائد الثلاث الفائزة فى المسابقة ، وانتهت إلى رأى محدد هو أن قصيدة الشاعر أنور العطار « التى فازت بالجائزة الثانية » هى الجديرة بأن تفوز بالجائزة الأولى ، وأن القصيدتين الفائزتين بالجائزة الأولى ـ مناصفة ـ وهما قصيدة يوسف حداد وقصيدة شبلى ملاط لا تستحقان أكثر من اقتسام الجائزة الثانية . . . وقد ناقشت « هجران شوقى » فى رسالتها المطولة القصائد الثلاث بالتفصيل مفضلة قصيدة أنور العطار تفضيلا كاملا على قصيدتى حداد وملاط ، وقالت « هجران » فى الجزء الأخير من رسالتها :

« . . لا أدرى ما الذى أخذ بقلمى للدفاع عن أنور العطار ، وإلى إنزاله هذه المنزلة وإلى الإعجاب بقصيدته الذى أعلنه دون تورع ، ألأنه ينظم الشعر بروح شوقى الخالد ، أم لأنه يكتب بهذه اللغة الساحرة الشاعرة التى عنت لأستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات ، هذا

الأديب العظيم الذى يتحدث كما يتحدث النبع الشادى فى خلوة الوادى ؟

وبعد ، فيا كاتب الأداء النفسى . . يامن أتحدث إليه دون كلفة ولا مشقة كما يتحدث القلم إلى الورق ، ما أريد منك إلا أن تعقب على هذه المباراة الشعرية ، وأن تنشر القصيدتين الفائزتين فى الرسالة ، وأن نرهف إليك أفكارنا لنسمع فصل الخطاب فى هذه المباراة .

احتفظ يا أنور بنسختى من مجلة العصبة الأندلسية واذكر أنها عارية يجب أن ترد ، لأن ذلك يشجعنى على أن أعيرك طائفة من كتبى الغالية على ، فأنت من الآن قسيمى فى الفكر ورفيقى فى الأدب ، نتلاقى فى الرسالة على تنائى الدار وشط المزار واختلاف الجنس وائتلاف الحس . ولك تحياتى وإعجابى »

ورد أنور المعداوى فى نفس العدد من « الرسالة » على « هجران شوقى » فقال فى مقدمة رده :

« كنت قد طلبت إلى قراء الرسالة أن يوافونى ببعض ما يعرفون عن الشاعر يوسف حداد . . عن موطنه ، عن شعره ، عن حياته الشخصية والأدبية . وهاهى ذى الأديبة السورية هجران شوقى تتطوع فتبعث إلى بهذه الرسالة المطولة لا لتطلعنى على علمها بشخصية الأستاذ حداد بل لتطالعنى برأيها « الخاص » فى شعره ! ومن العجيب أن الأديبة الفاضلة قد بدأت رسالتها بنقد الشعراء الثلاثة ومن بينهم الشاعر الذى أسأل عنه ، ثم ختمت هذه الرسالة برغبتها الخالصة فى أن تسمع منى فصل الخطاب فى هذه المباراة . . وكأنها تريد أن توحى إلى ببعض أشياء بغية أن تؤثر فى حكومتى الأدبية .

معذرة يا آنستى اذا قلت لك إننى لم أكن محتاجا إلى رأيك فى الشاعر يوسف حداد وإنما كنت محتاجا إلى علمك به . . ومعذرة مرة أخرى إذا قلت لك إن رأيى اليوم فى قصيدته هو رأيى الذى أعلنته بالأمس على صفحات الرسالة ، ولن يغير من هذا الرأى ما بدا فى رسالتك من تحامل مقصود لا يستند إلى دعامة أصيلة من دعائم النقد الأدبى الذى أؤمن به .

لقد كنت أنتظر وقد رجعت إلى تسألينى المقارنة والموازنة ، أن ترجعى إلى موازينى الخاصة فى نقد الشعر عندما تحدثت عن شعر الأستاذ على محمود طه منذ شهور ، لا أن ترجعى إلى موازين القرن الرابع الهجرى يوم أن كان النقاد يزنون الشعراء بأخطائهم اللغوية والنحوية ، فإذا أرادوا أن يثبتوا « فنيتهم » فى النقد لم يجدوا أمامهم غير العبارة الخالدة : « شاعر متين السبك قوى الحبك مشرق الديباجة » كما تعبرين أنت فى رسالتك . . أو كما كانوا يقولون « شاعر أتى بما أخجل زهر النجوم فى السماء وأزرى بزهر الربيع فى الأرض » وشبيه بهذا نقدك عندما تقولين عن شعر الأستاذ العطار إنه من الجنة ، أو عندما تقولين « والشعر العربى حريص على التجديد فى الأفكار ولكنه لا يغتفر لأحد أن يجدد فى الأساليب » . . ترى كم علامة من علامات التعجب تكفينى لأضعها فى ذيل هذه العبارة ؟ معنى هذا يا آنستى أن الشعر العربى لن يغتفر لشعرائنا المحدثين أن يخرجوا على طريقة التعبير عند الشعراء الجاهليين أو من يماثلهم من الشعراء الأمويين . . ولا بأس من أن يعبر أبو ماضى مثلا على طريقة جرير :

وابن اللبون إذا ما لز فى قعـــس
لم يستطع صولة البزل القناعيـــس !

بقى أن تطبقى هذا الرأى الجديد فى نقد الشعر على النثر العربى الحديث . . وإياك أن تغفرى لصاحب هذا القلم أنه لا يكتب بأسلوب القاضى الفاضل » .

ثم يقول المعداوى فى ختام رده على « هجران شوقى » : « أتريدين فصل الخطاب فى هذه المباراة ؟ إننى أقول لك فى كلمات : إن قصيدة شبلى الملاط فى ميزان « الأداء النفسى » هابطة ، وإن قصيدة أنور العطار متوسطة ، وإن قصيدة يوسف حداد متفوقة . . ولست فى حكمى على الشعراء الثلاثة إلا منصفا لشعرهم الذى بين يدى ، دون أى اعتبار لجائزة أولى أو ثانية تقدم لهذا أو لذاك » .

وأخيرا يسجل المعداوى فى تعليقه على رسالة الأدبية السورية هذه الملاحظة :

« ومعذرة إن كنت قد قسوت ، لأننى أشك كثيرا فى شخصيتك الأنثوية ، ويخيل إلى أن اسمك يا « آنسة » ماهو إلا قناع يختفى وراءه وجه أديب من الأدباء السوريين وأغلب الظن أنه صديق للأستاذ أنور العطار !

مهما يكن من أمر شخصيتك فإنه لا يسعنى إلا أن أقدم إليك أخلص الشكر على جميل رأيك وحسن ظنك . . أما « العصبة الأندلسية » فلا بأس من ردها إليك إذا كان لك فى دمشق عنوان ، ولا داعى لأن تشغلى نفسك بإعارتى بعض كتبك الغالية لأن لدى كتبا كثيرة فى انتظار القراءة » . . وهكذا يكشف أنور المعداوى منذ اللحظة الأولى أنه يشك فى شخصية « هجران شوقى » ويرى أن هذا الاسم إنما هو توقيع مستعار لأديب سورى .

وتعـود « هجران شـوقى » فتكتب رسالـة ثانيـة إلى المعداوى ، وينشرها المعداوى مع تعليق له فى العدد ٨٩٥ من « الرسالة » وهو العدد الصادر فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥٠ ، وفى هذه الرسالة نكتشف أن « هجران شوقى » شاعرة ، وهذا هو نص رسالة « هجران » الثانية :

« يا كاتب الأداء النفسى
تحية خالصة ومودة دائمة

ما أحب أن أعلق على تعقيباتك الأخيرة فى العدد ٨٩٠ من مجلة الرسالة حول « ثلاثة شعراء فى الميزان » فلكل رأيه ومذهبه ، والأدب جمال ، والجمال مقياسه الذوق ، والناس يتفاوتون فيه ، ولكن الذى لفتنى فى كلمتك الممتعة أن تشك فى شخصيتى الأنثوية ، وأن يخيل إليـك أن اسمى إن هـو إلا قنـاع يختفى وراءه وجـه أديب من الأدبـاء السوريين ! ما هذا الاستنتاج الغريب ؟ والأغرب منه أن تكتب إليك فتاة تعلن رأيها فى كثير من الصدق والشجاعة ، وتمهر كلمتها باسمها الصريح فتظنها فتى وتحسبها أديبا من الأدباء ، فما أعجب ما يطالعنا بـه الدهـر ، ومـا أشـد مـا يلقى الإنسـان من أخيـه الإنسـان ، ولكن الزمن وحده يحل العقدة ويكشف الطوية ، ولله ما أصدق القائل : « الله أكبر حل العقدةَ الزمنُ » ولقد عزمت أن أزور القاهرة خلال انعقـاد المؤتمـر الثقـافى الثـانى فى الإسكنـدريـة فى أعقـاب أغسـطس ، وسنلتقى فى إدارة مجلة الرسالة فى ظل أمير النثر الأديب العظيم أحمد حسن الـزيات ، وسـأثير منـاقشة القصـائد الثـلاث فى حمى سيـد الأدب ، وسيحكم بيننا وستعتذر أن كنت قاسيا فى نقدك ، وأن كان حكمك على عجيبا غريبا ، حين أبادلك رأيا برأى وحين ترى إلى فتاة تحسن النقاش وتملك مقاد الكلام ، وتعيش فى جو خالص من الحقيقة والخير والجمال ، وتطمع أن تحببه إلى الآخرين ، وما تدرى ، لعل

هذه الرسائل المتبادلة بيننا تدخر لنا لقاء قريبا فى كتاب مشترك نطلع به على الناس . أما أنا فلقد حرصت على أن أراك حرصك على أن ترانى ، وأعجبنى منــك أنـك وفىّ فى زمن مــات فيــه الــوفــاء أو كــاد ، ولقد تجلى لى وفاؤك فى هذه الفصول الرائعة التى عقدتها متحدثا عن شاعر الصدق والجمال والحب : على محمود طه .

مع هذه الرسالة قصيدتى « القمر » وهى لون جديد من ألوان مزج الغزل بالطبيعة ، أحب أن تنشر فى الرسالة دليلا على أدب الفتـاة السورية الحديثة وطمعا فى محو ما ساورك من شك ، وما خالجك من ريب ، ولك تحيتى مشفوعة بإعجابى ، وإلى الغد القريب » .

ويرد أنور المعداوى على هذه الرسالة ردا موجزا بعد مقدمة يشكر فيها الأديبة السورية فيقول :

« بعد هذا أقول للآنسة إننى إذا كنت قد لقيتها بشىء من القسوة أو أشياء من العنف ، فمرجع ذلك إلى ما وقع فى الظن من أنها أديب من الأدباء السوريين يخاطبنى من وراء قناع ، وعذرى فى هذا الظن أننى لم أقرأ للآنسة شيئا أستطيع عـلى هديـه أن أطمئن لشخصيتها الأنثوية ، أعنى أن اسمها لم تقع عليه عيناى فى صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات ، على كثرة ما أعرف عن طريق هذه وتلك من أسماء الأدباء والأديبات . . من هنا خـطر لى أن الذى يتحـدث إلىّ فتى لا فتاة ، لأننى لم أصدق أن هناك أديبة تكتب بمثل هذا الأسلوب الذى يتميز بالنضج والأصالة ، ثم لا تعرفها الصحف الأدبية ولا يصـل صرير قلمها إلى منافذ الأسماع ! لتعذرنى الآنسة إذن حين أشرح لها حقيقة هذا الظن الذى أثارته رسالتها الأولى وتحت ظلاله رسـالتها

الثانية وعدت من بعده كما يعود الخيال من رحلة طويلة ينفض بعدها يديه من خداع الأوهام ويلقى عصاه !!»

وهكذا يعلن أنور المعداوى أنه كان يشك فى البداية فى شخصية « هجران شوقى » ، وأنه الآن وبعد رسالتها الثانية لم يعد يشك . والحقيقة أن المعداوى كان لا يزال على شكه كما سيتضح لنا بعد قليل ، ولكنه آثر أن يتيح للقصة فرصة أطول حتى يعرف ماذا وراء هذه القصة وماذا يمكن أن تنتهى إليه هذه « الأدبية المزيفة » التى لا وجود لها فى واقع الحياة .

وبعد الرسالة الثانية لـ « هجران شوقى » بعدة أسابيع ينشر المعداوى رسالة جديدة من « هجران » تعتذر فيها عن عدم زيارتها لمصر أثناء انعقاد المؤتمر الثقافى الثانى - كما وعدت من قبل - بسبب المرض ، ثم تقول :

« أسفت أشد الأسف أن حالت الحوائل دون زيارة الإسكندرية والقاهرة خلال انعقاد المؤتمر الثقافى الثانى ، ويسرنى أن تعلم أن رؤيتك ، ورؤية الأستاذ الزيات تعدلان عندى هذا المؤتمر الثقافى الذى لا يعدو أن يكون مؤتمر كلام وطعام دون أن يكون مؤتمر تنفيذ وأفعال . . . »

« . . على أنى آملة من الله أن يكتب لنا لقاء قريبا فى أعقاب الخريف فأزور القاهرة وألقاك وألقى الأستاذ الزيات فى دار الرسالة ، ونبحث طويلا فى شئون الأدب والأدباء ومشكلة الكتب وأزمة القراء . . ولعلها أحب الأحاديث إلى نفسى وأشهاها إلى خاطرى » .

ثم تقول « هجران » فى آخر رسالتها :

« مع هذه الرسالة قصيدتى « قصة قلب » وهى لون جديد من ألوان الشعر العاطفى يلخص قصة القلب الإنسانى ويتحدث عن الحب حديثا جديدا ، أحب أن تعلق عليها وعلى أختها « القمر » فى فصل من فصولك الرائعة . . »

ويرد المعداوى على هذه الرسالة بكلمة مجاملة يقول فيها :

« أعمق الشكر يا آنسة ، وأخلص الأسف أن حالت الظروف بينك وبين الحضور وبيننا وبين رؤيتك . ولئن عاقك اليوم المشهود عن هذه الأمنية فأرجو ألا يعوقك الغد المرتقب ، وسواء صافحت روحك أنسام هذه الأرض الطيبة فى أعقاب الخريف أم فى أوائل الشتاء ، فإننى أقول لك كما قلت بالأمس مرحبا بك ضيفة كريمة تلقى فى ديارنا أهلا غير الأهل ووطنا غير الوطن » .

ثم تكتب « هجران شوقى » إلى المعداوى رسالة رابعة تناقش فيها بعض قضايا الأدب ، وترسل إليه قصيدة جديدة من شعرها عنوانها « غناء » ، ثم ترسل إليه رسالة خامسة مطولة تناقش فيها عديدا من القضايا الأخرى ، وتقول « هجران شوقى » فى فقرة من فقرات رسالتها الخامسة :

« . . أرأيت يا أخى أنور إلى هذه الأزمة المستعصية ، أزمة الفتاة ، وإلى غمتها التى ما تنجلى ، وإلى إسارها الذى لا يطاق ، وإلى حياتها التى تضج بالحرمان والعذاب ، من مهد الصبا والشباب إلى مهد البلى والتراب ؟ ألا تفوق هذه الأزمة أزمة القراء ومشكلة الكتب ؟ وهل

مثل هذه الغمة غمة يجدر بالأقلام أن تتساند على كشفها وتتساعد فى جلائها ؟ فهلم يا كاتب الأداء النفسى وثر على هذا العصر واصرخ فى وجه هذا المجتمع وزحزح ناسه المحافظين الناقمين على المرأة أن تستنشق هواء الحرية ، وأن تتذوق معنى الحياة ، وأن تخلص من أشواك العرف والعادة والوهم وإسار القلب والدار » .

وتقول « هجران شوقى » فى آخر رسالتها الخامسة :

« . . ما أنا إلا إحدى الحبيسات الشهيدات ، والله يتولاك برعايته كفاء دفاعك عنا وإحسانك إلينا » .

ويعقب أنور المعداوى على هذه الرسالة فيقول :

« أعتقد أن الشاعرة السورية المطبوعة الآنسة هجران شوقى توافقنى على إرجاء التعقيب إلى الأسبوع المقبل ، لأن رسالتها المطولة قد طغت على الصفحات الأربع المخصصة للتعقيبات » . على أن المعداوى لا يرد على هذه الرسالة فى العدد التالى ولا فى العدد الذى يليه من مجلة الرسالة ، وإنما يكتب بعد ثلاثة أسابيع وفى العدد ٩١١ من « الرسالة » ، وهو العدد الصادر فى ١٨ ديسمبر ١٩٥٠ ، مقالا بعنوان « قصة أدبية سورية » يقول فيه :

« لا أخفى أن شخصية « الآنسة » هجران شوقى كانت موضع شك لدى فريق من الأدباء ، ولولا أن أديبا واحدا بقى على شكه ويريد أن يسبقنى إلى الكتابة حول هذا الموضوع لما تناولت القلم لأحدث قراء الرسالة عن هذه الشخصية الأنثوية التى لم أشأ أن أغلق فى وجهها الباب حتى اليوم . . لغرض مقصود !

هذا الأديب الصديق يريد أن يقول للقراء : إن الآنسة هجران شوقى ماهى إلا أديب سورى يخاطبنى بلسان فتاة ، يريد أن يقول هذا ويكتفى به ، لأنه لا يملك دلائل الإثبات . . حسبه أنه مطمئن إلى هذا الظن ، مقتنع به ، عازم على أن يذكره على صفحات الرسالة ، معربا عن عجبه من أن أسمح لذكائى المتواضع بأن يتقبل الخديعة . وقلت للأديب الصديق : إنك لا تستطيع أن تثبت صحة هذه الظنون ، ومع ذلك فاننى أقدر ذكاءك . . ذكاءك الذى صمد حيث لم يصمد ذكاء الآخرين وأعنى بهم هؤلاء الذين قرأوا رسالة هجران الأخيرة ، فتبخرت شكوكهم حين لفحتهم لوعة الشعو من خلال السطور ، لوعة الشعور الأنثوى الصادق من وطأة القيد وظلمة السجن وقسوة السجان . . لقد آمنوا بأن الصرخة صادقة كل الصدق ، بريئة كل البراءة ، وأن من ورائها حقا شهيدة المجتمع وحبيسة الدار !

إننى أهنئك يا صديقى على هذا الذكاء ، وأؤكد كذلك أن ذكائى المتواضع لم يتقبل الخديعة فى يوم من الأيام . . هذه حقيقة أفضيت بها إلى بعض الناس منذ أشهر ، كما أفضيت بها إلى هؤلاء الذين تبخرت شكوكهم بعد أن قرأوا رسالة هجران الأخيرة . . كل ما دفعنى إلى أن أظهر بمظهر المخدوع أمام الكثيرين ، وأمامها « هى » بوجه أخص ، هو أننى كنت أريد ألا أغلق فى وجهها الباب لغرض مقصود ، هذا الغرض هو أن يخونها الذكاء يوما فتطل من فرجة الباب بوجهها الحقيقى الذى لم تغيره الألوان والمساحيق ، ولم يخب ظنى ، فقد أقبل اليوم المنتظر ، اليوم الذى خانها فيه الذكاء أو خانتها الذاكرة ، فنسيت أن تضع على وجهها قليلا من الطلاء قبل أن تطل برأسها من فرجة الباب المفتوح ! »

ثم يتحدث المعداوى بعد ذلك عن الدليل الأول الذى يكشف هذه الشخصية ويؤكد أنها شخصية مزيفة فيقول :

« . . هذا البرهان الذى كان يمكن أن تضع عليه يدك فى رسالة هجران الأخيرة وهى تشكو وطأة القيد وظلمة السجن وقسوة السجان ! عد إلى رسائلها الأولى ثم قف طويلا عند هذه الرسالة الأخيرة ، وقارن بين بعض الظواهر هنا وبعض الظواهر هناك ، وأنا واثق من أنك ستجد المفتاح الضخم الذى يمكنك أن تضعه فى ثقب الباب لينفتح ، ويكشف لك عما وراءه من حجرات يسطع فيها الضياء . . بعد هذا دعنى أقدم عددا من المفاتيح بدلا من مفتاح واحد ، ولك أنت أن تضع النقط فوق الحروف كما يقول الصحفيون .

لقد قلت فى ردى على أول رسالة من « الآنسة » هجران إننى أعتقد أنها أديب سورى يخاطبنى من وراء قناع . . وحين تلقيت رسالتها الثانية التى ظهرت فيها بمظهر الغاضبة والعاتبة على هذا الاعتقاد الذى لا أساس له من الصحة كما تعبر البلاغات الرسمية رحت أعتذر لها عن هذا الاعتقاد « الخاطىء » الذى كان مصدره إننى لم أقرأ لها شيئا من قبل فى الصحف والمجلات . . قلت هذا وأنا باق على يقينى الأول ، لم يشغلنى عنه أنها عازمة على الحضور إلى مصر فى المؤتمر الثقافى لتثبت لى شخصيتها الأنثوية ، ولا أنها بعثت إلى بعنوانها فى دمشق كوسيلة من وسائل هذا الإثبات . . قلته وأنا واثق من أنها لن تحضر ، ولم أحاول أن أكتب إليها على ذلك العنوان لثقتى مرة أخرى من أنه عنوان لا وجود له ، وقد أثبتت الأيام فى الحالين صدق اليقين !

وقالت الأديبة السورية المعروفة السيدة وداد سكاكيني وهى تزورنى فى وزارة المعارف عقب انتهاء المؤتمر الثقافى : أود أن أقول لك إن شخصية « الآنسة » هجران شوقى شخصية خيالية . . وقلت لها ردا على اللفتة البارعة : وأود أن أوكد لك أنها كذلك ! وارتسمت على وجهها صور من الدهشة وهى تقول مرة ثانية : ولماذا إذن تنشر لها قصائدها ورسائلها مادمت تعتقد أنها شخصية مستعارة ؟! وأجبت وقد علت شفتى ابتسامة ذات معان : لسببين . . الأول لأننى لا أريد أن أغلق فى وجهها الباب لتبرهن « هى » على أن شخصيتها الأنثوية تحتاج إلى إثبات ، وقد برهنت على ذلك حتى الآن بتخلفها عن الحضور فى المؤتمر الثقافى ! أما السبب الأخير فهو أننى راض عن إنتاجها الأدبى فهو من هذه الناحية جدير بالنشر حرى بالتشجيع ، وأنا لا أهتم بمن قال قدر اهتمامى بما يقال . . وانقضت بعد ذلك أيام وأشرت إلى هذا الحديث إشارة ذات مغزى على صفحات الرسالة ، حين قلت للآنسة هجران إن السيدة وداد سكاكينى قد سألتنى عنك ، وأرجو أن تحملى إليها خالص التحية !

وحدث بعد ذلك أن عاد الصديق الأديب الأستاذ حبيب الزحلاوى من رحلته الموفقة إلى سوريا ولبنان لينقل إلى بعض ما سمعه هناك ، وليطالعنى بمثل ما طالعتنى به السيدة الفاضلة وداد سكاكينى . وقلت للاستاذ حبيب فى معرض الحديث الذى وافقته فيه على صدق ظنونه ، هون عليك يا صديقى ، فسأكتب يوما عن هذا الموضوع !

ولعل قارئا يسألنى : على أية دعامة من الدعائم أقمت يقينك الأول بأن « الآنسة هجران شوقى » ما هى إلا أديب يخاطبك من

وراء قناع ؟ والجواب عن هذا السؤال هو أن أسأله : أتظن أن هناك أديبة تملك كل هذا النضج فى تعبيرها النثرى ، وكل هذه الأصالة فى صياغتها الشعرية ، ثم لا تحاول مرة واحدة أن تظهر فى ميدان الأدب ، لولا هذه المناسبة العابرة التى دفعتها إلى الظهور ، يوم أن تحدثت عن قصيدة الشاعر يوسف حداد ، ثم هل تظن مرة أخرى أن هناك من يزهد فى المجد الأدبى كل هذا الزهد ، وهو يعلم أن كلا من شعره ونثره يمكن أن يطرق الأبواب فى كثير من الثقة والاطمئنان ؟!.. ضع النقط فوق الحروف كما يقول الصحفيون !»

ثم يخاطب المعداوى بعد ذلك فى مقاله الآنسة هجران شوقى فيقول :

« .. لو أنك تذكرت ما جاء برسائلك الماضية من أنك حرة طليقة تملكين من هذه الحرية التى لا تحد ما يهىء لك الحضور إلى القاهرة لتجلسى إلى هذا وتتحدثى إلى ذاك ، وتغشى المجتمعات الأدبية فى بلد غريب لتشاركى فى أمور الأدب والفن ، لو تذكرت هذا كله لما شكوت فى رسالتك الأخيرة من ظلم المجتمع وقسوة التقاليد ، ذلك المجتمع الذى فرض عليك أن تكونى شهيدة القيد ، وهذه التقاليد التى ضربت من حولك نطاقا من الأسر جعلك حبيسة الدار رهينة الجدران ، أى منطق هذا الذى يؤكد لنا اليوم أنك سجينة مقيدة ، بعد أن أكد لنا بالأمس أنك حرة طليقة ؟ إنها هفوة من هفوات الذكاء .. الذكاء الخائن فى أحرج الأوقات ! » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك :

« ورب سائل يسألنى وقد تجمعت بين يدى شتى الخيوط التى تنسج أثواب اليقين : لقد كنت تعتقد أن عنوانها الذى بعثت به إليك منذ

أشهر ليس له وجود فى دمشق ، فلماذا بعثت إليها آخر الأمر بتلك الرسالة الخاصة التى أشرت إليها منذ قريب فى « التعَقيبات » ؟ لقد أقدمت على ذلك لألقى بآخر سهم فى أعبة الاعتقاد ، الاعتقاد الراسخ بأن الذى يكتب إلى فتى لا فتاة . . وكنت واثقا كل الثقة من أن رسالتى الخاصة سترد إلى مرة أخرى وعليها إشارة مصلحة البريد فى دمشق بأن هذا العنوان لا وجود له ، وقد كان ! . . وبقى هناك غرض مقصود من وراء هذه الرسالة التى كنت أتوقع أن ترد إلى وهو أن أقدم الدليل المادى القاطع لمن يهمهم أن يطلعوا عليه ومن بينهم الآنسة « هجران شوقى إذا حاولت أن تكتب إلى غاضبة عاتبة » .

ثم يقول المعداوى فى آخر مقاله :

« ومع ذلك فأنا أود أن أقول « للآنسة » الفاضلة وللكثيرين إننى لا أهتم بمن قال قدر اهتمامى بما قال . . وكل ما أرجوه هو أن تعتقد الآنسة « هجران بأننى حتى هذه اللحظة صديق ، وليس عليها من بأس إذا هى كشفت للقراء عن اسمها الآخر ، اسمها الصريح . . اسمها الذى أعتقد أننى أعرفه ، والذى تحدثت عنه إلى عدد من الأصدقاء » .

كانت هذه الكلمة التى كتبها المعداوى فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، وبعدها تسكت هجران شوقى ، فلا تبعث إلى مجلة « الرسالة » بقصائدها بعد أن نشرت لها المجلة عددا من القصائد هى « قمرية تموت » و « القمر » و « غناء » و « قصة قلب » ، كما سكتت هجران شوقى أيضا فلم تعد تكتب رسائلها إلى المعداوى . وأصبح من الواضح أن الموضوع قد انتهى ، واكتشف الجميع أن هجران

شوقى ما هى إلا اسم مستعار لأديب سورى ، وكان من الواضح أن هذا الأديب السورى هو الشاعر أنور العطار ، وقد أشار المعداوى إشارات مختلفة تدل على أنه يرى أن هجران هى أنور العطار ولكنه لم يصرح بذلك أبدا .

ويمر عام كامل ينطوى فيه اسم هجران وينسى الناس قصتها ، وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ يخرج المعداوى على القراء بمقال جدي فى تعقيباته بمجلة الرسالة تحت عنوان : « ذكرى شاعرة سورية » ، وسوف أنقل هنا نص المقال ؛ لأنه يحسم قضية « هجران شوقى » حسما نهائيا ويقطع بأن أنور العطار هو صاحب هذا الاسم المستعار . . يقول المعداوى فى مقاله : « هل تذكرون تلك الفتاة الأنيقة الرشيقة . . الآنسة هجران شوقى ؟ وهل تذكرون ذلك اليوم الذى رفعت فيه القناع عن الوجه المزيف والحديث الكاذب والشعور المصنوع ؟! لقد استطاع ذلك الشاعر السورى المعروف أن يلقانى بوجه امرأة ، وأن يتحدث إلى بصوت امرأة ولكنه نسى شيئا واحدا لم يفطن إليه . . وهو أن يتزود بدهاء النساء ، نسى مع الأسف الشديد هذا السلاح الخالد من أسلحة حواء . . ومن هنا انكشف أمره وانتهت المعركة !

أقسم أنى كنت أعرفه ، أعنى الأستاذ « هجران » . . وأنى ذكرت اسمه لكثير من أهل الأدب حين سئلت عنه ، بعد تلك الكلمة التى وجهتها إليه على صفحات الرسالة ورجوته فيها أن يفصح عن اسمه وإلا أفصحت عنه ! . . رجوته فخيب الرجاء ، ولج فى الهجر ، وأمعن فى الدلال ، شأن ربات الجمال ، ومن هنا خانني الصبر فبحت باسم الأستاذ الشاعر فى مجالس الأدب فصدق أناس

وتردد آخرون . . ترددوا على الرغم من الأدلة المادية المقنعة التى تقوم على المقارنة بين شعره وشعر « الأنسة » ، وبين النماذج الخطية لكتابتها وكتابته وهى موجودة بدار الرسالة ، فضلا عن السبب الأصيل الذى من أجله بدل من قسمات الوجه وغير من نبرات الصوت . . وهو دفاعه الصادق المخلص عن شاعر بعينه فى مسابقة شعرية أقامتها مجلة « العصبة » المهجرية !!

تلك الفئة المترددة فى التصديق كانت قليلة على كل حال ، وعذرها فى ذلك مقبول حين نضع نصب أعيننا هذه الحقيقة وهى أن الشاعر الذى وضع على وجهه نقاب امرأة شاعر معروف تعرفه صفحات « الرسالة » منذ خمسة عشر عاما على وجه التقريب ، وتبعا لهذا « الشرف » يعرفه القراء فى مصر والبلاد العربية . . ومن هنا عز على بعض العقول أن تصدق تلك « الفعلة » التى لا يقدم عليها غير الأدباء الناشئين أو غير الصبية المراهقين !!

وأترك تلك الفئة المترددة وأخاطب القراء ، مقدما إلى أذواقهم هذه الأبيات التى أقتطفها من قصيدة ألقاها الشاعر الذى أعنيه فى حفلة تكريم أقيمت للشاعر المهجرى جورج صيدى بدمشق ، ونشرتها مجلة « الأديب » اللبنانية فى عدد ديسمبر عام ١٩٥١ . . قال الأستاذ الشاعر وهو يتحدث عن نكبة فلسطين بصوت « الرجال » محييا الشاعر المهجرى الذى نذر لها ديوانه « النوافل » هبة شعر وشعور ، قال حفظ الله له وجهه الحقيقى بغير نقاب :

عليك سلام العرب يندى مواجعا
ويشرب دمع العين غربا إلى غرب

ولم رحت لا تلوين إلاّ على النوى
أمن أمل رحب إلى أمل نهب
ديار الهوى لازلت مخضرة المنى
ترف على مغناك فينانة العشب
خيالك فى عينى وذكراك فى فمى
وبى منك ما يغرى المحب وما يصبى
وما غبت عن طرفى وإن بعد المدى
ولكننا فى الحب جنبا إلى جنب
وما ذكرتك النفس إلا تولهت
وهيمها برح نبات بلا لب !
يهيج جواها الشوق والشوق عاصف
كأن على أنفاسه زفرة النّحب !
دهتك من الدنيا كوارث جمة
وألقت بك الويلات فى مسلك صعب
فقد ينجلى الليل الطويل عن السنا
وتزدهر الأعواد فى المهمة الجدب
إذا دهمته الداهمات تلجلجت
به النفس وانهارت تقول له حسبى
وطوف رباع الخلد تطواف عاشق
حسير الأمانى وابك بالمدمع السكب
إليك أؤدى بعض ما تستحقه
رفيفا من التحنان والنغم العذب
وأنت جدير بالدرارى فليتنى
أصوغ بيانى من سنا الأنجم الشهب

هذه هى الأبيات ، ومعذرة لضياع الوحدة النفسية فيها وكذلك الوحدة الفنية ، لأن هناك بيتا مقتطعا من هنا وبيتا مقتطعا من هناك ، تبعا لحرصى على جمع « الاكليشيهات اللفظية » التى سأترك لك المقارنة بينها وبين « اكليشيهات أخرى » مماثلة ، هناك قصيدة قديمة وجهتها الآنسة هجران شوقى إلى الشاعر عزيز أباظة ، فى العدد ٩٠١ من الرسالة وهو العدد الصادر فى ٩ أكتوبر عام ١٩٥٠ ! قالت الآنسة الشاعرة التى نسيت أننى أقرأ مجلة « الأديب » ومازلت أذكر شعرها الحبيب :

وأنت سماوى القصيد قبسته
من اللاعج المشبوب والمدمع السكب
ولما تزل سؤل النفوس وقصدها
وشغل الليالى الزهر والأنجم الشهب
فيالك من شعر رقيق منغم
يرف رفيف الطل فى ناضر العشب
ترقرق بالشكوى وضمخ بالأسى
فجاد بما يغرى وجاش بما يصبى
وأشربته نجوى تذوب رهافة
وتخضل بالتذكار والأمل النهب
تخلده الأحقاب فى الطير شاديا
فإما شدا بات المحب بلا لب
وفى الغائب النائى الذى لفه الردى
ففاض حنانا وهو فى زفرة النحب
غريب حريب لا يقر قراره
إلى أن نرى فى الخلد جنبا إلى جنب

فـما الشعـر إلا ابن المـدامـع والأسى
تجـود بـه الأجفـان غـربـا إلى غـرب
إذا خـاطـب الأرواح رفت بـشـاشـة
ولـو أنها فى وحشـة المهمـه الجـدب
يـظل حـداء الـركب تـرمى بـه النـوى
فينسيـه مـا يلقـاه من مسلك صعب
نـشـاوى ومـاملوا غـنـاء ولا سـرى
ولا تعبـوا أو قـال قـائلهم حسبى
فيـالـك صـداحـا ويـالـك شـاعـرا
تغـرد بـالتحنـان والنغـم العـذب

أرأيت إلى هذه « الاكليشيهات اللفظية » المكررة فى هذه القصيدة وفى القصيدة السابقة ؟! . . إنها « اكليشيهات » تطالعك كثيرا فى شعر هذا الشاعر . وهى من لـوازم التعبير التى تكشف لـك عن شخصيـة الأديب أو الشاعـر ولـو حجبت تلك الشخصيـة وراء الأستار ! . . « المدمع السكب » . والدمع الذى تجود به **الأجفان** (غـربـا إلى غـرب) . و(الأنجم الشهب) و(المسلك الصعب) و(المهمه الجدب) و(زفرة النحب) و« بات بلا لب » . و« الأمل النهب » . وفى الحب أو فى الخلد « جنبا إلى جنب » وتلك أو الذى « يقول له حسبى » وذلك « التحنان والنغم العـذب » . . إلى آخر تلك الاكليشيهات المحفوظة على طريقة تـلاميذ المـدارس . والتى يمكنك أن تجد الكثير منها فى قصيدة أخرى نشرت للآنسة هجران على صفحات الرسالة . وهى القصيدة التى رثت بها « أختها » الشاعرة المصرية الراحلة الآنسة ناهد طه رحمها الله !

عيب الأستاذ الشاعر أنه ضعيف الذاكرة ، ولو لم يكن ضعيف الذاكرة لما نسى أن وظيفتى الفنية هى النقد . وأن النقد من عادته أن يرفع الستر عن الأشياء الدفينة . . لقد سطا الأستاذ فى جرأة بالغة على شعر الآنسة هجران . ولم يتحرج بأن يحيى الشاعر جورج صيدح بهذا الشعر المسروق !

ليصدقنى القراء أننى لم أكن أنتظر أن يسطو هذا الشاعر المعروف على شعر هذه الشاعرة الناشئة . . قد يدافع عن نفسه فيقول لنا بصوته الطبيعى الذى لا تشوبه رقة الغانيات : هذا اتهام جائر لأن الشعر شعرى هنا وهناك . سواء نظمته من وراء الأستار أم نظمته فى وضح النهار . . عندئذ لا يسعنا إلا أن نعتذر للأستاذ أنور شوقى أو للآنسة هجران العطار » .

وهكذا ينهى أنور المعداوى قصة « هجران شوقى » ويثبت بصورة قاطعة أن « هجران شوقى » ماهى إلا اسم مستعار للشاعر السورى أنور العطار وقد كان من الواضح أن أنور العطار يريد أن يحصل على اعتراف من المعداوى بقيمة شعر هجران شوقى ، ثم يكشف للناس بعد ذلك أن شعر هجران هو شعر العطار ، وأن المعداوى قد قبل شعر هجران وأثنى عليه بعد أن رفض شعر العطار وأنكره ، ولكن المعداوى للحق لم يقع أبدا فى هذا الفخ الأدبى الذى نصبه له أنور العطار ، وكان يشير منذ اللحظة الأولى إلى أنه يشك فى شخصية هجران الأنثوية ، كما أشار بوضوح إلى أوجه الشبه الفنى بين شعر هجران وشعر العطار ، ثم كشف القناع كله عن الوجه الأنثوى المستعار عندما كشف عن الشبه الواضح بين قصيدة « هجران » فى الشاعر « عزيز أباظة » ، وقصيدة أنور العطار فى الشاعر « جورج صيدح » .

ولكن هذه القصة قد انتهت دون أن تجيب عن سؤال آخر هو : من هو الشاعر يوسف حداد الذى كان أساسا للمشكلة كلها عندما فاز بقصيدته « الشاعر » فى مسابقة مجلة العصبة الأندلسية ونال الجائزة الأولى ، بينما نال أنور العطار الجائزة الثانية ، وجاء المعداوى فأثنى على يوسف حداد وفضله على أنور العطار ، مما أغضب العطار ؟.. . إن أحدا لم يقرأ اسم يوسف حداد قبل هذه القصيدة ، وها هى الأيام تمضى حتى تربو على ربع قرن كامل من الزمان دون أن يظهر اسم يوسف حداد مرة أخرى ودون أن يشير إليه كاتب أو أديب ، مما يثير الشبهة فى أن اسم يوسف حداد هو الآخر اسم مستعار ، وهذا ما أشارت إليه « هجران شوقى » حيث تقول فى آخر رسالة كتبتها إلى المعداوى :

« وأغلب الظن أن يوسف حداد إن هو إلا شاعر من شعراء « العصبة الأندلسية » فى المهجر ، شاعر يختفى وراء هذا القناع لتظل جائزة الشعر وقفا عليه تنطلق منه إليه » .

هذا ما قالته « هجران شوقى » ، ويبدو لى أنه قول صحيح ، وما دامت « هجران » نفسها ما هى إلا قناع لشاعر آخر ، فهى أقدر ولاشك على أن تحس بمن هم مثلها أقنعة لأسماء تختفى وراءها وتحتجب .

وأخيرا أود أن أثبت هنا قصيدة كاملة لهذا الاسم المستعار « هجران شوقى » بعد أن استعرضنا قصتها من خلال رسائلها إلى المعداوى . وهذا النص الشعرى سوف يساهم فى استكمال خطوط الصورة وملامحها ، والقصيدة التى اخترت إثباتها هنا اسمها « القمر » ، وقد حاولت فيها « هجران شوقى » ، التى هى فى

حقيقتها الشاعر السورى أنور العطار ، أن تلبس ثياب الأنثى الحقيقية وأن تستعير مشاعرها وأحاسيسها المختلفة ؛ وذلك كله إمعانا فى التخفى ووضع الأصباغ والألوان على الوجه ؛ حتى تبدو الصورة أقرب إلى الحقيقة وحتى يبدو القناع وكأنه وجه أصلى لا تزوير فيه ولا مساحيق ولا أصباغ .

وقصيدة « القمر » نشرتها مجلة « الرسالة » فى عددها رقم ٩١٠ وهو العدد الصادر فى ١١ ديسمبر ١٩٥٠ ، وقد قدمتها « هجران » بسطور نثرية تشرح فيها فكرة القصيدة فتقول :

« فى قصيدة القمر أقباس من الهوى العفيف ، وتوله بالطبيعة عبادة لها واندماج بها وفناء فيها » .

وهذه القصيدة تقدم لنا نموذجا جيدا من القصائد التى نشرتها « هجران شوقى » ، ويستطيع من يشاء أن يقارن بين هذه القصيدة وبين شعر أنور العطار ، وسوف يتضح بكل البراهين الفنية أن شعر « هجران » هو شعر أنور العطار رغم محاولات التخفى والاحتجاب .

تقول « هجران » فى قصيدتها « القمر » :

وفى ليلة قمراء ممشوقة القد
أطل على البدر وهنا على عمد
وكان فراشى لا يقر من الضنى
أقلب فيه الطرف سهدا على سهد
أدارى فؤادا شفه لاعج الأسى
وأورده ليل النوى أشأم الورد
ومن كان مثلى فى اكتئاب ووحدة
تمنى لوَ ان النوم يسرى على مهدى

فقلت لـه ـ لما تـرامى شعاعـه :
سلام على من كنت منه على وعد
تعال ! أيا ملك الليالى وسحرها
ويا طيفها المغرى ويا حلمها الوردى
تعال إلى قلبى فأنت نجيه
وأنت أحاديثى إذا هاجنى وجدى
وقد قر عينا واستراح إلى الهوى
وأقبل فى ثوب المحبة والود
فغنيته حتى استلان إلى الكرى
وأفرشته صدرى ووسدته زندى
ونام بإحدى مقلتيه طماعة
وحام على ثغرى وطاف على خدى
وكانت نثارات من النور رخصة
تراكض ما بين الترائب والنهد
وسامرنى من بت أهوى وصاله
ومن وصله أحلى من العيشة الرغد

* * *

تساءل قلبى وهو فى نشوة الهوى
أأطمع أن ألقى الذى أشتهى عندى
فتانك عيناه وذلك جيده
وتلك يدى تنساب فى شعره الجعد
أضم أليف الروح فى غمرة الجوى
وأشربه دمعى وأطعمه كبدى
وأرجع للنفس اللجوج ألومها
أما كنت فى همى وفى ليلتى وحدى ؟!

التعليق الرابع
على الرسالة السادسة
حول المتنبى وشعره

يعلق المعداوى فى رسالته السادسة إلى فدوى على بيت المتنبى الذى يقول فيه :

أتراها لكثرة العشاق
تحسب الدمع خلقة فى المآقى

يقول المعداوى فى تعليقه :

« .. هذا المتنبى ولو أنه فى رأيى شاعر مصنوع يشبه الفتاة « البلدى » التى تكثر من استعمال المساحيق حتى ليبدو جمالها وهو جمال « التواليت » ، هذا المتنبى ولو أنه كذلك إلا أن له أحيانا « فلتات » شعرية تستحق الإعجاب ، ومنها هذا البيت الذى يطالعنى بلون من الجمال الطبيعى الذى يرتاح له الذوق والشعور » .

وهذا الرأى الذى يراه المعداوى فى المتنبى له جذور فى آرائه النقدية المتعددة التى نشرها فى مقالاته قبل أن يكتب هذه الرسالة إلى فدوى ، ففى مقال له بعنوان مشكلة « الأداء النفسى فى الشعر العربى » يقول :

« . . إذا قلت لك أن الشعر العربى القديم كان فى جملته شعر « السطوح الخارجية » للنفس والحياة ، فلا تحمل هذا القول على التعصب للحديث والوقوف إلى جانبه ، إن أمامك هذا الشعر فراجع فيه نفسك ، واستشر فى حقيقته ذوقك وحسك ، إنه شعر يشعرك بفراغ « الوجود الداخلى » عند قائليه لأنهم كانوا يعيشون خارج « الحدود النفسية » فى الكثير الغالب من الأحيان » .

ويرد المعداوى فى مقال على أحد الكتاب الذين اعترضوا على رأيه فى الشعر العربى القديم فيقول :

« أنا يا صديقى لا أنكر أن فى الشعر العربى القديم لوامع رائعة من الأداء النفسى ولكنها كما قلت لوامع تطغى عليها تيارات الأداء اللفظى ، ذلك الأداء الذى يعنى بمادية التعبير أكثر مما يعنى بظلاله النفسية . . إن الأداء النفسى موجود فى شعر ابن الرومى والبحترى وأبى تمام وما شئت من كبار الشعراء ، ولكن أى وجود ؟ إنه وجود لا يملأ سمع المتذوق لهذا النوع من الأداء ، ولا يحيط بمنطقة الشعور تلك الإحاطة الكاملة التى نلتمسها فى الإثارة التى تنبثق من ثنايا الذهن لا من شغاف القلب ، وتنطلق من وراء اللسان لا من حنايا العاطفة . . »

« . . لقد كان الشاعر القديم لا يخلو إلى نفسه إلا فى القليل النادر ، ولقد كان مشغولا عنها بأغراض الحياة ومطالب العيش

ومظاهر الغلبة على الأقران والتشوف إلى الوقوف بباب السلطان ، ولذلك ضرب بجناحيه فى كل أفق وبقى أفق واحد عز أن يحلق فيه ، وهو أفق الخلوة إلى النفس والتحدث إليها والتعبير عما يجيش بداخلها من شتى الانفعالات والخلجات . . لو خلص الشعراء القدامى لأنفسهم وخلصت لهم ، وتفرغوا للتأملات الذاتية فى شىء من الاستجابة الصادقة لدعاء الشعور الصادق لبدوا عمالقة فى ميدان لم يطرقوه مرة إلا ارتدوا عنه مرات ولاغترفوا من نبع لم يحوموا حوله لحظة إلا وضلوا عن طريقه لحظات ، جريا وراء السراب ، سراب الصنعة اللفظية والذاتية البيانية !

ومع ذلك يذهب الأديب الفاضل إلى أن المتنبى وابن الرومى ينفذان من نطاق النقد الذى أقمته حول بناء الشعر العربى القديم ، فهل يتفضل بتقديم قصيدة لهذا وأخرى لذاك يتخيرها من روائع الشاعرين ، لنستطيع أن نضعها فوق مشرحة الدراسة النقدية ، مستخدمين مبضع التحليل على ضوء الأصول الفنية التى عرضت لها فى مشكلة الأداء النفسى فى الشعر ؟ إننى على استعداد لأن أثبت لمقدمها فى غير تجن ولا مغالاة أن أية ومضة نفسية يمكن أن تشع فى بيت من الشعر هنا ستقابلها عشرات الومضات اللفظية فى كثير من الأبيات هناك . . وهذا هو الحد الفاصل بينى وبين من يختلفون معى فى الرأى حول الشعر القديم ! »

هذه هى الخطوط العامة لرأى المعداوى فى الشعر العربى القديم عموما ، وفى شعر المتنبى بوجه خاص .

وفى رأيى أن المعداوى قد خلط بين مدرستين فى الشعر العربى ، وهو « خلط » قد وقع فيه الكثير من النقاد المعاصرين ، فنحن نجد فى

الشعر العربى القديم مدرستين واضحتين ، مدرسة أقامت بناءها كله على التقليد ، وأخرى رفضت التقليد واهتمت بأن تخط لنفسها خطة فنية جديدة مستقلة تعبر بها عن تجاربها الخاصة وعن همومها الروحية المتميزة ، وهذه المدرسة الثانية بالذات قد توافر لها ما يدعو إليه المعداوى من الحياة « فى أفق الخلوة إلى النفس والتحدث إليها والتعبير عما يجيش بداخلها من شتى الانفعالات والخلجات » . . . ولعل أقرب نموذج من نماذج المدرسة الثانية فى خلوه إلى نفسه ورفضه للحياة الخارجية هو أبو العلاء المعرى ، ذلك الشاعر الكبير الذى هاجر من العواصم والمدن واعتكف فى بيته البسيط وقريته المتواضعة بقية حياته وعمره .

إن مدرسة التقليد فى الشعر العربى كبيرة وممتدة على مساحة واسعة من تاريخنا الأدبى ، أما مدرسة الأصالة والاستقلال الفنى والوجدانى والفكرى فهى تحتل مساحة أدبية أقل ، ولكنها مدرسة موجودة بوضوح فى الأدب العربى القديم .

وشعر التقليد وحده هو الجدير بالرفض والاستنكار ، أما الشعراء الذين احتفظوا بأصالتهم وتحرروا بقوة الموهبة والاستقلال الفنى والتجربة من سيطرة التقليد الجامد فليس هناك ما يبرر رفضهم واستنكار قيمتهم الفنية والإنسانية .

وقد ساد التقليد فى عصور بأكملها فى الشعر العربى . مثل عصر سيطرة العثمانيين والمماليك على أجزاء من الوطن العربى ، أو على الوطن العربى كله ، وهذه العصور كانت مجدبة فى الشعر خاصة والثقافة عموما وكانت عصور تدهور وظلام .

ولكننا نجد الشعر العربى يرتفع إلى مستوى فنى وإنسانى كبير عندما نلتقى بشاعر قوى الشخصية قوى الموهبة واسع التجربة فى الحياة .

والمتنبى بالذات هو واحد من هؤلاء الشعراء الكبار الذين ارتفعت بهم موهبتهم وتجربتهم وشخصيتهم المستقلة التى رفضت التقاليد الفنية الجامدة وارتفعت عليها .

صحيح أن معظم شعر المتنبى قد قيل فى مناسبات محددة تتركز معظمها فى مدح الملوك والأمراء . وصحيح أنه عاش حياته فى بلاط هؤلاء الملوك والأمراء ، ولكننا إذا جردنا شعر المتنبى من المناسبات والظروف التى قيل فيها ، وتجاوزنا عن جانب المناسبات فى هذا الشعر ، فإننا سوف نجد بين أيدينا شيئا قيما يبقى لنا من هذا الشعر ، بل سيبقى لنا شىء عظيم فيه الكثير من التأمل والعمق والتجربة النفسية والإنسانية الرفيعة .

وإذا أخذنا بالمقياس الذى تحدث عنه المعداوى وهو مقياس « الأداء النفسى » ، والذى يمكننا أن نلخصه ـ فى نوع من التبسيط ـ بأنه تعبير الشاعر عن تجربة نفسية خاصة وصادقة وعميقة تنبع من قلبه ومن أعماق مشاعره وليس مجرد صور فنية تنبع من فكره وعقله وذكائه دون أن يكون لها رصيد حقيقى فى عالم الشعور . . . إذا نظرنا إلى شعر المتنبى بهذا المقياس فسوف نجد أمامنا الكثير من الشعر الذى يدخل فى هذا الإطار بقوة وجدارة .

ويكفى أن نذكر هنا نماذج من قصائده التى لا يستطيع ناقد أن يخرج بها أبدا من مجال التجربة الإنسانية الواسعة إلى مجال التفكير العقلى الجاف المحدود . من هذه النماذج قصيدته فى « الحمى » التى

إصابته عند إقامته بمصر ، فالقصيدة كلها تقوم على التأمل والتداعى النفسى والتعبير عن إحساس عميق بالغربة والألم ، وهذه القصيدة هى التى يقول فيها :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى
تخب بى المطى ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى
يمل لقاءه فى كل عام
قليل عائدى سقم فؤادى
كثير حاسدى صعب مرامى
عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر من غير المدام

والقصيدة كلها تضرب على هذا الوتر . . . وتر الإحساس بالحزن والغربة والألم ، وهى كلها نموذج من الشعر الإنسانى الصادق الذى لا شك فيه .

والنموذج الثانى من شعر المتنبى الذى نود أن نشير إليه هو قصيدته المشهورة فى هجاء كافور التى يقول فى مطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وهى قصيدة معروفة لكل دارسى الأدب العربى ، ولا مجال لأن نقدم منها مقاطع تثبت قيمتها وأهميتها . إنها قصيدة تنبع من إحساس عميق مجروح وتصدر عن قلب ملتاع حزين ، وهى قصيدة « ساخنة » تكاد تلسع من يقرؤها لشدة ما فيها من حرارة ومرارة .

وهناك قصيدتان صغيرتان للمتنبى أود أن أشير إليهما فى هذا المجال . أما القصيدة الأولى فهى أربعة أبيات قالها عندما مر بأرض تسمى باسم « الفراديس » فسمع زئير الأسد أثناء مروره بهذه الأرض ، ومن خلال وحدته وغربته مع زئير الأسود كتب هذه الأبيات الأربعة . وفى هذه الأبيات نبرة إنسانية عميقة ، وإحساس بالوحشة ، وأمل فى « محالفة » الأسود على هموم الحياة ، بعد العجز عن « محالفة » البشر ، وفى هذه الأبيات لمحة من لمحات التصوف العميق الذى ينبع من الإحساس بوحدة الإنسان فى هذا العالم وضآلة شأنه أمام القوى الموجودة فى هذه الدنيا . . . يقول المتنبى فى هذه الأبيات :

أجارك يا أسد « الفراديس » مكرم
فتهدأ نفسى أم مهان فمسلم
ورائى وقدامى عداة كثيرة
أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك فى حلفى على ما أريده
فإنى بأسباب المعيشة أعلم
إذاً لأتاك الخير من كل وجهة
وأثريت مما تغنمين وأغنم

يمكننا ـ ولا شك ـ بأى مقياس فنى أن نضع هذه الأبيات القليلة فى أرقى درجات الشعر الإنسانى ، بما فيها من صدق وحساسية وشعور عميق بالغربة والوحشة فى هذا العالم .

أما القصيدة الأخيرة التى أذكرها فى هذا المجال للمتنبى فهى قصيدة صغيرة أخرى من عشرة أبيات تكشف عن النبع الإنسانى العميق فى قلب

هذا الشاعر الكبير ، وهى أبيات ذات طابع فلسفى ، ولكنها لا تعتمد على تفكير عقلى بارد أو فلسفة جامدة ، بل هى تعبير عن قلب إنسانى حزين عرف التجارب الكبرى والهموم الثقيلة ، يقول المتنبى :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه
وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه
ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر
حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن
نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا
كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولوَ ان الحياة تبقى لحى
لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جبانا
كل ما لم يكن من الصعب فى الأنفس
سهل فيها إذا هو كانا

فالمتنبى إذن يملك من الشاعرية الصادقة والموهبة العالية والتجربة الإنسانية الواسعة ما يجعل منه شاعرا كبيرا بكل المقاييس الفنية والإنسانية . صحيح أن ظروف العصر قد فرضت نفسها على هذا الشاعر الكبير فاضطر إلى أن يعيش حول القصور والأمراء ، يمدح ويرثى ويهجو ؛ مما أخضع هذا الشاعر فى جانب من شعره إلى لون من الصنعة الفنية المفتعلة ، تلك الصنعة التى كانت تصدر عن قدرة عقلية لا مجال فيها لنبض القلب أوهزات الشعور ، ولكن المتنبى كان يكسر هذه القيود فى جانب كبير من شعره وينطلق الى التعبير عن القلب الإنسانى فى أعظم همومه وأكبرها ، والغريب أن البيت الذى أشار إليه المعداوى فى رسالته إلى فدوى والذى يقول فيه المتنبى :

أتراها لكثرة العشاق
تحسب الدمع خلقة فى المآقى ؟

هذا البيت الذى أعجب المعداوى يبدو لى بيتا تفوح منه رائحة الذكاء والفكر الجاف والمهارة الفنية والصنعة البلاغية ، أكثر مما تفوح منه رائحة العاطفة والإحساس الحقيقى الصادق ، ولست أدرى كيف رأى فيه المعداوى نموذجا من نماذج الشعر الإنسانى الرفيع ، أو شعر الأداء النفسى كما كان يسميه ، وهو فى الحق - نموذج لشعر المهارة والصنعة والقدرة العقلية والصورة الذكية البعيدة كل البعد عن القلب والإحساس ؟ .

ذلك خلاف فى الرأى حول المتنبى بين المعداوى وبينى ، وقد كان من الضرورى تسجيل هذا الخلاف ؛ لأن رأى المعداوى فى المتنبى لم يكن رأيا عابرا وإنما هو أحد آرائه الرئيسية التى عبر عنها فى كتاباته النقدية المختلفة ، وهذا الرأى - كما أشرت - هو جزء من رأيه فى الشعر

العربى القديم كله ، وهو رأى يصدق ولا شك على شعر التقليد الذى يسيطر على جانب كبير من الشعر العربى ، ولا يصدق على شعر الشخصية الإنسانية الذى نلتقى به فى كثير من قصائد المتنبى والمعرى وابن الرومى والشريف الرضى وعدد آخر من شعراء الغزل والتصوف .

الرسالة السابعة

فدوى العزيزة :

مرة أخرى أين أنت ؟ لقد كتبت إليك منذ شهر على وجه التقريب ، وحتى الآن لم أتلق منك ما يطمئننى على أن رسالتى قد وقعت بين يديك . . لقد بعثت بها إليك ردا على رسالتك الأخيرة ، تلك الرسالة التى تلقيت معها قصيدتك « فى سفح عيبال » ترى هل تلقيت رسالتى وهل كتبت إلى ؟ أخشى أن تكون إحدى الرسالتين قد فقدت كما حدث ذلك من قبل وعندئذ أسأل الله أن يجزى مصلحة البريد « خير » الجزاء ، سواء أكانت فى نابلس أم كانت فى القاهرة ! !

وأعود فأسأل عنك وأقول : كيف حالك ؟ وقد تسألين عن حالى فأقول لك : إننى منذ أسبوعين وأنا مشغول بأمر ديوانك . . قرأت خبرا فى مجلة « الأديب » يحمل بشرى جميلة ، هى أن الديوان قد بات قريب الصدور عن لجنة النشر للجامعيين ، وذلك بفضل جهودى المتواضعة ! قرأت هذا الخبر فأسرعت إلى المطبعة ومعى ديوانك

الحبيب . . وبدأت الطبع ! لقد كنت أريد كما أخبرتك فى رسالتى الماضية ، أن أرجىء طبعه بعض الوقت حتى أفرغ من هذا الكتاب الذى بين يدى ، بغية أنْ يطبع ديوانك وكتابى فى يوم واحد ، ويدفع بهما إلى أيدى القراء فى يوم واحد ، ولكن . . ولكنك أسرعت بالخبر إلى « الأديب » فلم أجد بدا من أن أسرع بديوانك إلى المطبعة !!

لا يهمنى أن يصدر كتابى فى أى وقت ، بقدر ما يهمنى أن يصدر ديوانك فى وقت قريب . . حسبى أن تكونى أنت راضية ، وأن أكون عند حسن ظنك وظن الذين طالعوا الخبر على صفحات « الأديب » !

ولقد أشرت يا فدوى إلى جهودى المتواضعة ، ولكم كنت أرجو أن ينشر الخبر وهو خال من تلك الإشارة لأننى ـ أقسم لك ـ لا أشعر أبدا بأن لى جهودا تستحق أن يشار إليها حين تذكر الجهود !!

أمامى الآن وأنا أكتب « الملزمة » الرابعة من الديوان وقد فرغت من مراجعتها وتصحيحها منذ دقائق . . إننى لا أكتفى بمراجعة المصححين فى المطبعة حرصا على تجنب ما قد يغفلون عنه من أخطاء مطبعية ، ولقد تخيرت الورق الذى سيطبع عليه الديوان بنفسى ، وأشرفت وما أزال أشرف على إخراجه الفنى من جميع نواحيه ، حتى يظهر فى ثوب جميل يرضى عشاق الطباعة الأنيقة . . وتستطيعين أن تتصلى بالأستاذ ألبير أديب ، لينشر لك إعلانا فى العدد القادم من مجلته يشير فيه إلى صدور الديوان ! إن أمامنا شهرا واحدا ليكون ديوانك بين أيدى القراء ، فإذا ظهر العدد الشهرى من « الأديب » فى أول يونيه القادم وهو يحمل الإعلان المنشود ، وافق موعد ظهوره موعد ظهور الديوان حيث أكون أنا فى نفس الوقت قد نشرت لك إعلانا مماثلا على صفحات « الرسالة » . . ما رأيك فى هذا الاقتراح ؟

وسنرسل اليك مائة نسخة على عنوانك بنابلس لتهدى منها إلى من تشائين من الأدباء والأصدقاء . . ترى هـل يكفى هذا العـدد من الإهداءات أم نرسل إليك كمية أخرى من النسخ ؟ أنا فى انتـظار رأيك !

ومرة أخرى أعود فأسأل : هل أرسل إليك صديقى إبراهيم نجا أشياءك التى وعدنى بإرسالها كما قلت لك فى رسالتى الماضية ؟ أرجو أن يكون قد فعل ، وإلا اضطررت إلى السفر إليه لآخذها منه بنفسى وأوافيك بها فى الغد القريب !

مهما يكن من شىء فستصلك هذه الأشياء يا فدوى لأن إبراهيم لا يعصى لى أمرا وأنا أعنى ما أقول !

ماذا تصنعين الآن ؟ هل تكتبين قصيدة جديدة ؟ إن قصيدتـك الأخيرة التى بعثت بها إلى والتى نشرت فى الأديب قد ضمت إلى شعر الديوان . . ولا تنسى أن اسم الديوان هو « وحدى مع الأيام » ، ولا تنسى أيضا أن تهدى نسخة منه إلى سعيد تقى الدين !! أما هذا الكتاب الذى بين يدى : « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » فقد أوشكت أن أنتهى منـه . . لقد أرهقنى هـذا الكتاب يـا فـدوى ، أرهقنى حتى لأشعر أننى بذلت فيه من الجهد ما يبذله غيرى فى عشرة كتب . . إن الناس هنا لا يذكرون فى أدب التراجم غير كتـابين : « ابن الرومى « للعقاد ، و« جبران » لميخائيل نعيمه ، لقـد قررت بينى وبين نفسى أن أقنع الناس بأن هناك كتابا واحدا يجب أن يذكروه لأن فيه فصلا واحدا يتحرج من التطلع إليه هذا الكتاب الذى ألفه نعيمه أو ذلك الكتاب الذى ألفه العقاد . . وسأنشر هذا الفصل فى الرسالة قبل صدور الكتاب ، وستحكمين ويحكم القراء !!

ومعذرة إذا اختصرت الحـديث لأن المطبعـة فى انتظارى ومعهـا بعض الصفحات الجديدة التى تم طبعها من الديوان . . لكم كنت أود أن تكونى معى وأنا ذاهب إلى هناك ، لأطمئن إلى أنك راضية عن هذا الجهد الضئيل . . الجهد الذى يسعدنى أن أبذله فى سبيل الفن الجميل .

ودمت للذى يذكرك ويقدرك

٢٦ / ٤ / ١٩٥٢

أنـور المعـداوى

تعليق على الرسالة السابعة

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة « فدوى » : فى « سفح عيال » ، وقد نشرت هذه القصيدة فى ديوان « .. وحدى مع الأيام » وهو ديوان فدوى الأول الذى أشرف المعداوى على إصداره ، وتقول فدوى فى مطلع هذه القصيدة :

ها أنا وحدى فى ثنايا الجبل
كأننى أسطورة تائهه
تهمسها الريح بأذن السفوح
وأنت فى قلبى وعينى روح
يومىء لى نحو غد أخضر
يغفو الشذا فى دربه المزهر

وتقول فدوى فى مقطع آخر من القصيدة :

وتعتريني نفضة من شعور
بغبطة تملأ أحنائيه

كـأنها لحن مـضىء الـنـغـم
فـأنثنى أحفـر فـوق الصـخـور
اسـمـك فى نشـوة إحـسـاسيـه
وأشبـع الأحـرف لـثـمـا وشـم
والـفـرح الـكـبـير يـا حـبـى
تهـدر مـوسـيـقـاه فى قـلـبـى

ترى هل يكون فى هذه القصيدة شىء من التلميح بميلاد عاطفة جديدة فى قلب فدوى نحو المعداوى ؟ لقد كتبت فدوى تلك القصيدة على أثر الرسائل الأولى التى تلقتها من المعداوى ، وهى ـ كما رأينا ـ رسائل مليئة بالحماس لها ولفنها كما أنها مليئة بنوع من اللهفة والحنان على فدوى ، وهى مشاعر من النوع الذى يمكن أن يؤثر فى فدوى ويفتح أبواب قلبها لعاطفة الحب المثالى الرومانسى الذى تعودت عليه ، وهذا ما حدث بالنسبة لفدوى ، فقد أحبت المعداوى هذا النوع من الحب بعد ما قدمه إليها من عواطف الاهتمام والحنان والرعاية ، ولكن السؤال هنا هو : هل كانت قصيدة « فى سفح عيبال » هى بداية هذا الحب ؟ . . . ربما كانت القصيدة بما فيها من نبض التفاؤل والأمل ، وهو ما لم نتعوده فى شعر فدوى ، حيث الحزن والأسى والشجن ، هذه القصيدة يمكن أن تكون حقا تعبيرا عن فرحتها بعلاقتها الجديدة مع المعداوى ، تلك العلاقة التى حاول المعداوى فيها منذ البداية أن يكون فارسا مخلصا متحمسا فياض الشعور نحو فدوى بالود والحنان والاهتمام العميق . ولكننا لا نستطيع أن نقطع بأن هذه القصيدة كانت هى البداية من جانب فدوى ، والمعداوى نفسه لم يلتفت إلى شىء من هذا المعنى فى القصيدة ولو بالتلميح فى رسالته . وربما كانت القصيدة صدى لعاطفة

قديمة ما تزال بقاياها تعيش فى نفس فدوى ، خاصة أن فى القصيدة مقطعا يشير إلى إنسان معين مر يوما بسفح جبل « عيبال » فى فلسطين . . . ولعل هذا « الإنسان » هو الشاعر المصرى الذى عرفته فدوى خلال حرب فلسطين ونشأت بينهما علاقة عاطفية مثالية رومانسية على طريقة فدوى . والمقطع الذى يمكن أن يشير إلى هذا الشاعر هو المقطع الذى تقول فيه فدوى :

وأرسل « الأوف » غناء حنون
يسيل من روحى وأوصالى
فتنتشى بالأوف حتى السفوح
لحن هوى ، مرتعش بالحنين
سمعته يوما « بعيبال »
إذ أنت فى السفح غريب الجروح

فالبيت الذى تقول فيه فدوى عن إنسانها المحبوب :

« . . إذ أنت فى السفح غريب الجروح » ، هذا البيت يشير إلى انسان معين مر « بسفح عيبال » فى فلسطين ، ومن المعروف أن الشاعر المصرى الذى أحب فدوى وأحبته قد مر ببعض مناطق فلسطين أثناء حرب ١٩٤٨ ، وأنه قد أصيب فى هذه الحرب ببعض الجروح ، وهكذا فقد تكون هذه القصيدة من وحى الشاعر المصرى الذى اشترك فى حرب فلسطين ، وقد يكون هذا المقطع صادرا عن خيال الشاعرة ولا أساس له من الواقع ، وتكون القصيدة فى هذه الحالة تعبيرا عن نبضة الفرح والأمل فى قلب فدوى طوقان من وحى البداية فى علاقتها بالمعداوى .

يشير المعداوى فى رسالته بعد ذلك إلى الإعلان الذى كان ينوى نشره فى مجلة « الرسالة » عن ديوان فدوى الأول ، وقد ظهر هذا الإعلان بالفعل ، وهو إعلان طريف ، ومن هنا حرصت على الإشارة إليه ، فالمعداوى قد اعتبر فدوى ـ منذ أن بدأت بينهما العلاقة عن طريق الرسائل ـ شاعرة من شعراء « الأداء النفسى » ، والأداء النفسى ـ كما سبق أن أشرنا ـ هو المنهج الذى اختاره المعداوى لنفسه فى النقد وسماه بهذا الاسم فى مقابل « الأداء اللفظى » الذى يرفضه ويستنكره ، ولذلك اختار المعداوى صيغة معينة للإعلان عن ديوان فدوى ، ونشر هذا الإعلان فعلا فى العدد ٩٩٢ من مجلة « الرسالة » وهو العدد الصادر فى ٧ يوليو سنة ١٩٥٢ وهذا هو نص الإعلان الطريف :

« لجنة النشر للجامعيين تقدم ، فى ثوب أنيق وطباعة ممتازة ، ديوانا من شعر الأداء النفسى ، وحدى مع الأيام ، للشاعرة المبدعة فدوى طوقان » .

وهكذا حرص المعداوى على أن يربط بينه وبين فدوى برباط علنى وثيق أمام الرأى العام الأدبى حين أشار فى الإعلان إلى أن « . . وحدى مع الأيام » هو « ديوان من شعر الأداء النفسى » ، ذلك المنهج النقدى الذى يدعو إليه المعداوى ، ويعتبره نظرية ومذهبا فى النقد الأدبى .

ويتساءل أنور المعداوى بعد ذلك فى رسالته إلى فدوى عما إذا كان الشاعر « إبراهيم نجا » قد رد إلى فدوى رسائلها إليه . وما أعلمه حول هذا الموضوع أن إبراهيم نجا قد رد رسائل فدوى إليها ، وحين أطلعنى على هذه الرسائل سنة ١٩٦٢ كان قد نقلها فى كراسة صغيرة ، وهذه الكراسة هى التى قرأت فيها الرسائل التى كتبتها

فدوى إلى ابراهيم وهى الرسائل التى أشرت إليها فى الصفحات السابقة .

أما حديث المعداوى عن كتابه « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » فقد شاء القدر أن يلعب دورا غريبا بالنسبة لهذا الكتاب ، ذلك أن مجلة « الرسالة » قد أغلقت أبوابها فى أول عام ١٩٥٣ ، فلم ينشر المعداوى الفصل الذى أشار إليه فى رسالته إلى فدوى حيث يقول :

« إن الناس هنا لا يذكرون فى أدب التراجم غير كتابين . . « ابن الرومى » للعقاد ، و« جبران » لميخائيل نعيمه ، ولقد قررت بينى وبين نفسى أن أقنع الناس بأن هناك كتابا واحدا يجب أن يذكروه ، لأن فيه فصلا واحدا يتحرج من التطلع إليه هذا الكتاب الذى ألفه نعيمه أو ذلك الكتاب الذى ألفه العقاد . . وسأنشر هذا الفصل فى « الرسالة » قبيل صدور الكتاب ، وستحكمين ويحكم القراء !! » .

إن هذا الفصل الذى أشار إليه المعداوى لم ينشر فى الرسالة ؛ لأن الرسالة أغلقت أبوابها قبل أن يكتب المعداوى هذا الفصل ، وقبل أن يظهر كتابه عن « على محمود طه » . ويبدو لى أن الفصل الذى يشير إليه المعداوى باعتزاز هو فصل « المرأة عند على طه » وكان المعداوى فخورا بهذا الفصل أشد الفخر ، وقد نشره ـ فيما أذكر ـ فى مجلة « الآداب » البيروتية التى صدرت سنة ١٩٥٣ بعد إغلاق مجلة « الرسالة » بقليل .

أما الكتاب نفسه ، كتاب « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » ، فيشاء القدر ألا يظهر إلا بعد كتابة هذه الرسالة بثلاث عشرة سنة ، أى حوالى سنة ١٩٦٥ ، ذلك أن أزمة المعداوى الأدبية

والنفسية والصحية قد بدأت فى أوائل ١٩٥٣ ، أى بعد كتابة هذه الرسالة إلى فدوى بشهور ، ثم استمرت وتضاعفت حتى قضت عليه سنة ١٩٦٥ ، وقد صدر كتاب المعداوى عن « على طه » ـ كما أشرت من قبل ـ فى بغداد وقبل وفاة المعداوى بشهور ، وكان عنوانه الذى صدر به هو « على محمود طه الشاعر والإنسان » ، ولم يقدر لهذا الكتاب أن يحتل المكانة الأدبية التى كان المعداوى يحلم بها وينتظرها ويتمناها ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن هذا الكتاب لم يحظ بأى اهتمام فى الحياة الأدبية العربية ، وإذا كان المعداوى قد بالغ فى تقدير كتابه فى هذه الرسالة التى كتبها إلى فدوى ، فالحقيقة أيضا أن هذا الكتاب يستحق من الاهتمام أكثر مما لقى بكثير ، ولعل المصير الذى لقيه هذا الكتاب يعود ـ فى جانب من جوانبه ـ إلى أن الحياة الأدبية العربية قد انصرفت فى الخمسينات والستينات عن الاهتمام بعلى محمود طه نفسه وبسائر الشعراء الرومانسيين ، وإن كانت حياتنا الأدبية قد عادت فى السبعينات إلى الاهتمام بهؤلاء الشعراء . أما أن كتاب المعداوى ـ كما يقول هو نفسه ـ كان أفضل كتاب فى أدب التراجم عرفته المكتبة العربية الحديثة ، وأن فصلا واحدا فيه سوف يجعل القراء والأدباء يتوقفون عنده ولا يشيرون إلى كتاب سواه ، فذلك كله كان من أوهام « الغرور الأبيض » الذى كان فى شخصية المعداوى علامة واضحة ، وهو نوع من الغرور كان يزداد وضوحا فى شخصية المعداوى عندما كان يتحدث إلى أحد محبيه ؛ لأنه كان يحس أن محبيه لا ينكرون عليه هذا الغرور ولا يضيقون به ، لأنهم معجبون بأدبه مصدقون لما يقول ، وقد كان أنور يتحدث إلى فدوى بهذه الوضوح ، فهو يدرك أن فدوى معجبة به ؛ ولذلك لم يتحرج من أن يستعرض أمامها « غروره الأبيض » على نطاق واسع ، فهو لم يكن يفكر لحظة فى أن هذه الرسائل سوف تنشر على الناس .

ولكن ما تمناه أنور لنفسه ، وما تمناه له محبوه لم يتحقق ، فقد كان كتاب « على محمود طه » دراسة أدبية ممتازة ، تتسم بالجهد والذكاء والذوق المرهف ، ولكنها لم تلفت الانتباه عندما نشرت سنة ١٩٦٥ ؛ وذلك لأن مناهج النقد الأدبى كان قد طرأ عليها تغيير ، كما أن الأذواق الأدبية كانت قد اختلفت عما كان عليه الأمر عند تأليف هذا الكتاب ، فلقد ألف المعداوى كتابه فى أوائل الخمسينات ، وكانت هذه الفترة هى الوهج الأخير « للرومانسية » ؛ ولذلك كان الكتاب فى هذا الجو مقبولا ومحبوبا ومنظورا إليه كعمل فريد عندما كان المعداوى ينشره فى مقالات مسلسلة فى مجلة « الرسالة » ، ولكن موجة أدبية جديدة كانت قد ظهرت وجرفت الكثير مما كان أمامها فى الأدب والنقد ، هذه الموجة هى الموجة الواقعية ، كما أن حركة الشعر الجديد كانت قد ولدت وازدهرت واحتلت مكانا بارزا فى الحياة الأدبية ، وعندما ظهر كتاب المعداوى بعد ثلاث عشرة سنة من كتابته لم يعد له بريقه القديم ، وظل كتاب « ابن الرومى » للعقاد و« جبران » لميخائيل نعيمه أهم من كتاب المعداوى ، وإن بقى لنا فى كتاب المعداوى ما ينبغى أن نذكره ، ففى الكتاب أسلوب جميل وذوق مرهف وحماس أدبى كبير لشاعر المعداوى المفضل : على محمود طه .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسالة الثامنة

فدوى العزيزة :

عدت من المطبعة منذ لحظات فوجدت رسالتك الحبيبة فى انتظارى . . أتدرين لماذا ذهبت إلى المطبعة ؟ لقد كانت هناك مشكلة بسبب الديوان ، مشكلة فنية لم أكن أتوقعها وإن كنت قد وجدت لها الحل المنشود . . خلاصة المشكلة يا عزيزتى هى أننى كما سبق أن قلت لك قد دفعت إلى لجنة النشر بالقسم الأول من الديوان وهو القسم الخاص بالشعر العاطفى أو الوجدانى ، رغبة منى فى المحافظة على الوحدة النفسية والفنية ، هذه الوحدة التى يشير إليها هذا العنوان « وحدى مع الأيام » ، فعلت هذا وكنت أقدر أن تلك المجموعة الشعرية ستشغل مائة وخمسين صفحة هى الحجم المناسب لديوان من الشعر . . وحين اتصلت بى اللجنة لتقول لى إن آخر ملزمة من الديوان قد تم طبعها علمت أن عدد الصفحات لم يتجاوز العاشرة بعد المائة ! عندئذ لم أجد بدا من الذهاب إلى المطبعة لأطلع على الأمر بنفسى ولأدفع الشك باليقين . . خيل إلى أن بعض القصائد فقدت أثناء الطبع ولكن الواقع قد قضى على الخيال !

ماذا أفعل أمام هذه المشكلة ؟ لابد أن يخرج الديوان فى مائة وخمسين صفحة كما قدرت له . . واذن فلا مناص من أن استنجد ببعض القصائد من القسم الأخير وهو شعر المناسبات ، ومن أن أعود إلى بيتى لأتخير تلك القصائد التى يكتمل بها عدد من الصفحات ، وقد فعلت . . ضممت إلى شعر الديوان : « يتيم وأم » و« على القبر » و« رقية » و« الروض المستباح » و« اليقظة » و« بعد الكارثة » و« مع لاجئة فى العيد » . . وهى القصيدة التى أعزها لأنها كانت واسطة التقارب بين روحين !

انتهت المشكلة بهذا الحل الذى لم يكن منه ـ كما قلت لك ـ مناص لأننى كنت أوثر أن تظهر هذه القصائد الأخيرة فى ديوان آخر ، وأن يقتصر الديوان الأول على مثل هذا اللون من الشعر الوجدانى الخالص !

بعد هذا أعود إلى رسالتك الأخيرة ، تلك الرسالة التى طمأنتنى على أن رسالتى الماضية قد وقعت بين يديك . . أتظنين يا فدوى أننى لم أكن أعلم تلك القصة الأخرى التى بدأت بها رسالتك ؟ اننى أعرف عنها الكثير ! وعلى الرغم من هذا الكثير الذى أعلمه فقد قلت لك يوما إن صورتك عندى لن تنال من بهائها الأيام . . إنها لا تزال فى الإطار الذى ضمها والذى أكرر القول بأننى سأضن به على كثير من صور الناس ! لا داعى إذن للخوف ولا مبرر للإشفاق ، لأننى أقدر كل التقدير طبيعتك النفسية وأدرك كل الإدراك أى جو هذا الذى تعيشين فيه . . قولى كل ما عندك سواء كنت أعلمه أم لا أعلمه ، ولا تشكى لحظة فى أنه سيحل ضيفا عزيزا مكرما على القلب والشعور ! ألست أنا الذى دعوتك إلى أن تنقضى بين يدى آلامك

وأحزانك عسى أن أخفف من بعض هذه الآلام والأحزان بكلمة قد تحمل إليك شيئا من الشفاء أو شيئا من العزاء ؟ !

ولقد استجبت لى ووثقت بى ورفعت عن نفسك قناع التهيب والتحرج ، وقلت لى كل ما يمكن أن يقال ، وحسبك هذا لتكونى فى رؤية العين والقلب تلك الإنسانة التى أحتفظ لها بأطيب الذكريات .

لقد تحدثت إلى عن ذلك الشاعر الآخر ثم سألتنى إن كنت أعرفه ، وكيف لا أعرفه يا فدوى وهو واحد من الذين يزدحم بهم بيتى ومكتبى فى كل حين ؟! إننى أعرفه أكثر مما يعرف نفسه ، وأكثر مما تعرفينه أنت على التحقيق . . ألا تذكرين أنك أشرت إليه مرة فى احدى رسائلك ، وأننى قد آثرت أن تمر تلك الإشارة دون أن أعقب عليها بكلمة واحدة ؟ الحق إننى أشفقت عليك من التعقيب ، لأننى فى مثل هذه المواقف أوثر الصمت حين يكون الكلام غير مرغوب فيه . . لقد ورد ذكر اسمه فى تلك الرسالة من رسائلك بعد أن ظهرت له قصيدة على صفحات « الرسالة » ، أليس كذلك يا فدوى ؟ ألا فاعلمى أن نشر تلك القصيدة كاد أن يفسد العلاقة بينى وبين الزيات من صلات الود والصداقة . . لا يريد الزيات أن ينشر له شيئا وأريد أنا أن أنشر له ، ويصر الزيات على رأيه وأصر أنا على رأيى ، وكلما دفعت بإحدى قصائده إلى المطبعة رفعها الزيات فى اللحظة الأخيرة ، حتى جاء يوم سافر فيه إلى المنصورة ، فانتهزت الفرصة ونشرت القصيدة التى قرأتها فى يوم من الأيام ، نشرتها دون علمه فثار على وثرت عليه ، وكانت نقطة الخلاف بيننا تنحصر فى أنه ينظر إلى « من » قال وأننى أنظر إلى « ما » قال ، أى أنه ينظر إلى شخصية هذا الشاعر بينما أنظر أنا إلى شعره . . ولا تلومى الزيات يا فدوى ، لأن كل أصحاب الصحف

هنا يلقون صاحبنا مثل هذا اللقاء ، لأنهم يزنون شخصيته قبل أن يزنوا شعره ، ومن هنا أوصدت فى وجه هذا الشاعر شتى الأبواب !

ولقد نشرت « الرسالة » قصيدة أخرى لشاعر آخر بين اسمه واسم صاحبنا شبه قريب ، فحضر هذا الشاعر إلى يوما ومعه كلمة « للبريد الأدبى » يعلن فيها أنه ليس ذلك الشاعر الآخر حتى يفطن إلى ذلك القراء ، وأخذت منه الكلمة وبعثت بها إلى الزيات رجاء النشر ، ومع ذلك لم ينشرها الزيات . . إن الزيات يلومنى على عطفى عليه ويشاركه فى هذا اللوم كثير من أصدقائى ، ولكنهم ينسون أننى لا أستطيع أن أجرد نفسى من الشعور بالإنسانية ! يقولون إنه ضحل الثقافة وهذا حق ، ويقولون إنه لا يحمل شيئا من المؤهلات العلمية وهذا حق ، ويقولون إن قواه العقلية لا تخلو من الاهتزاز وهذا حق أيضا ، ولعل هذا الجانب الأخير هو سر عطفى عليه وسر نفورهم منه . . ولكنه رغم هذا كله شاعر يرضينى شعره فى كثير من الأحيان ، ولهذا أشعر شعورا عميقا أنه مظلوم وبخاصة حين يلجأ إلى ليشكو الحياة والناس !

أشهد أننى لم أضق به إلا فى موقف واحد ومع ذلك فلم أغلق فى وجهه بابى كما فعل غيرى من الذين يعرفونه . . جاء إلى يوما ليأخذ رأيى فى مسألة تتعلق بحياته ، وهى أنه يريد أن يختار لنفسه شريكة حياة ، فما كان منى إلا أن باركت منه هذا الاتجاه ليستقر فى حياته المضطربة ويستريح ، وبخاصة حين ذكر اسم العائلة . . صحيح أنها ليست على شىء من الثراء ولكنها على شىء كثير من الخلق وحسن السمعة ، ولهذا باركت منه هذا الاتجاه ورجوت له الخير فى حياة جديدة !

ومضى صاحبنا إلى غايته واتفق مع أهل الفتاة ، وأصبحت الفتاة خطيبته أمام الله والناس . . وفجأة ، وبلا سبب ، وبلا منطق ، وبلا مقدمات ، ترك صاحبنا العائلة الأولى والفتاة الأولى إلى عائلة أخرى وفتاة أخرى أصبحت اليوم زوجته الأثيرة ! هل كانت فتاة اليوم خيرا من فتاة الأمس ؟ كلا ! لم تكن خيرا منها بحال من الأحوال ، لا من الناحية المادية ولا من الناحية المعنوية ، وإن كانت أقدر منها على إغوائه واللعب بعقله الذى لا يفترق فى بعض الأحيان عن عقول الأطفال ! !

ترى هل تعرفين عنه كل هذه الحقائق يا فدوى أم أنك تسمعين بها لأول مرة ؟ لقد اشترك يوما فى حرب فلسطين وجرح هناك ، وأغلب الظن أن ما شهده من معارك قد أثر بعض التأثير فى قواه العقلية ! !

هذه هى بعض الحقائق التى أخفيتها عنك يوم أن أشرت إليه فى إحدى رسائلك . . ومع ذلك فأنا أحب أن أسمع منك القصة مصحوبة برأيك اليوم فى صاحبها بعد أن كان لك فيه رأى بالأمس ، وأقسم ما دفعنى إلى الكشف عن هذه الحقائق إلا قولك بأن القصة لا تزال لها فى حياتك بقية .

وأترك هذا كله لأقول لك إن إبراهيم كان عندى منذ يومين حيث حضر ليتسلم قيمة الجائزة التى ظفر بها فى مسابقة المجمع ، وليترك لى المائة والخمسين جنيها لأنفقها على طبع ديوانه « حياتى ظلال » . . وقبل أن أقص عليك قصة فوزه بالجائزة الأولى لتضحكى ما شاء لك الضحك ، قبل هذا أود أن أقول لك إنه أخبرنى بأنه قد أرسل إليك أشياءك منذ أمد قريب ، ثم شفع هذا الخبر بهذا القسم : وهو أنه ما خضع وأذعن إلا لأننى قد أمرته ، وأنه ما كان ليعرف أمام غيرى معنى الخضوع والإذعان !

لقد ضحكت لهذا القسم ، ثم أغرقت فى الضحك وأنا أقدم إليه « ملزمة » من ديوانك ، وآمره مرة أخرى بأن يقوم بمراجعة « البروفات » ، ولقد فعل والله يا فدوى ، ولكنه فى هذا الموقف لم يكن مرغما كما كان من قبل ، بل أقدم على المراجعة عن طيب خاطر واعدا بتدريس شعرك لتلميذاته فى مدرسة الفنون الطرزية بعد أن يظهر الديوان ، وفى هذا ما يطلعك على أنه إنسان طيب القلب إلى حد بعيد . .

وتسألينى هل سأكتب له المقدمة ؟ بالطبع سأكتبها يا فدوى . . إننى أحب إبراهيم وأحب شعره ، وقد بذلت غاية جهدى ليفوز ديوانه بالجائزة الأولى ، وإنه ليستحقها كما تعلمين . . كيف كان ذلك ؟ هذه هى القصة :

قلت لك مرة إن دور النشر هنا مضربة عن طبع الدواوين الشعرية إلا إذا كانت على نفقة أصحابها ولو كان أصحابها من طراز فيكتور هيجو وفرلين . . ومن هنا لا يعلم إنسان مثلا أن ديوانك قد طبع على نفقة لجنة النشر وإلا كان ذلك سابقة خطيرة يشيب لهولها الولدان !

إن اللجنة ترد على كل من يسألها ـ وما أكثر المتسائلين ـ بأن ديوانك مطبوع على نفقتك الخاصة . . خوفا من خروج الشعراء فى مظاهرات شعبية صاخبة يهتفون فيها ضد هذا الاستثناء ، وبخاصة فى هذا الوقت الذى قضت فيه الوزارة المصرية الحاضرة على الاستثناءات . . وفى ضوء هذه الحقيقة المرة جاءنى إبراهيم يوما لأبحث له عن وسيلة يستطيع أن يطبع بها ديوانه ، وفكرت طويلا ثم قلت : تقدم بشعرك لمسابقة المجمع وأنا كفيل بأن تظفر بالجائزة الأولى ، فإذا ما ظفرت بها فقد استقرت فى جيبك مائة وخمسون جنيها كافية لطبع الديوان . .

وارتسمت علامات اليأس وخيبة الأمل على وجهه وهو يقول : إن المجمع لا يمنح جوائزه إلا للشعر السخيف ، وهذا بشهادتك أنت ، فكيف تنتظر من تلك الأذواق الفاسدة أن تمنح شعرى جائزة ؟ وهنا قلت له وأنا أعنى ما أقول : اسمع يا هذا . . إن الذى سيحكم على الشعر فى مسابقة هذا العام هو الأستاذ العقاد ، أتفهمنى ؟ عليك أن تنظم ثلاث قصائد فى كل قصيدة « فكرة منظومة » ، وإياك أن تسمح لشعورك بأن يطل برأسه من خلال هذه القصائد . . أعنى أنه يجب أن تفكر ولا تشعر . . ثم ضع هذه القصائد الثلاث فى أول الديوان ، سيقرأ العقاد القصيدة الأولى وبها سيعجب ، وسيقرأ العقاد القصيدة الثانية ولها سيطرب ، وسيقرأ الثالثة وعندئذ يبلغ الطرب مداه والإعجاب منتهاه . . وبعد ذلك لن يقرأ شيئا بإذن الله ، لأنه سيظن أن البضاعة كلها من هذا الطراز !

ونفذ إبراهيم ما أشرت عليه به . . وأقبل اليوم الموعود وذهبنا معا إلى المجمع . . وعندما أعلن العقاد فوز إبراهيم بالجائزة الأولى كدت أطلق ضحكة رنانة تهتز لوقعها الجدران . . وهكذا يا فدوى ضمنت له نفقات طبع الديوان .

وأعود مرة ثانية أو ثالثة إلى بعض ما جاء برسالتك لأقول : إننى أشكر الظروف التى دفعت الأستاذ الناعورى إلى إرسال الخبر لمجلة « الأديب» لأن ذلك قد عجل بطبع الديوان . . ولا عليك من ناحية كتابى لأننى قد انتهيت منه والحمد لله ، كل ما يشغلنى الآن هو هذا الحرج الذى يسببه لى أن لجنة النشر تريد أن تطبعه وأن دار المعارف تريد أن تطبعه ، وما أشبهنى بزوج الاثنتين : إذا رضيت هذه غضبت تلك ، ولكننى سأضطر إلى طبعه عند لجنة النشر لأنها لم تتأخر عن

الاستجابة لرغبتى بخصوص طبع ديوانك ، وهذا موقف لا أستطيع أن أنساه .

ولقد رغبت إلى يا فدوى فى أن أحدثك عن ناهد رحمها الله . . إنها يا فدوى قصة طويلة معقدة التفاصيل ، قصة أود أن أكتبها قريبا فى « الرسالة » مع تغيير طفيف فى نهايتها حتى لا يكتشف القراء حقيقة البطلة التى استشهدت فى سبيل واقع نفسى يختلف عن الواقع الذى ألفه الناس . . أريد أن أكتبها لأنها كانت تمثل جزءا من حياتى ظل حتى اليوم وهو بقية من ماض مجهول . مهما يكن من شىء فسأحدثك عن مأساتها النفسية فى رسالة مقبلة ، وأما الحديث عن مكانى من القصة فسأرجئه إلى أن تقرأيها كاملة فى يوم من الأيام .

هل قرأت العدد الماضى من مجلة « الأديب » ؟ هل وقفت عند تلك الإشارة العابرة التى خصنى بها الأستاذ أبير؟ تلك الإشارة التى قال فيها إن أحد الناشئين العراقيين أرسل إليه بعض القصص التافهة فلم ينشرها فلجأ إلى أحد الكتاب المصريين المحترمين فى القاهرة فشنها هذا علينا حربا لا هوادة فيها فى مجلة الرسالة اتهمنا فيها بأننا لا ننشر فى الأديب إلا للذين يدفعون . . لست أدرى يا فدوى ما الذى جعله يعود إلى هذا الموضوع الذى حدثتك عنه فى رسالة سابقة ؟ هل أنا حقا شننت عليه حربا لا هوادة فيها كما يقول ، أم وقفت موقف القاضى العادل الذى ترك حرية الكلام لكل من الطرفين المتخاصمين ، ثم لم يحاول أن يصدر حكما وإنما ترك هذا الحكم للقراء ؟ ترى هل يظن ألبير أديب أن قلمى قد صمت فانتهزها فرصة ليتكلم ؟ هل يريد هذا الرجل أن أقول إنه لولا كلمة منى لما طبع كتابه فى دار المعارف ولما قدر له أن يرى النور ؟ هل يريد أن أقول له إن المشرفين على تلك الدار لم يطبعوا كتابه إلا ونصب أعينهم عامل واحد

هو الشفقة على حالته المادية ، أما رأيهم فى الكتاب وفى صاحبه فمعروف ؟ صدقيني يا فدوى لقد كنت على وشك أن أتناول قلمى لارد عليه فى الرسالة لولا أننى رأيت أن فى ذلك إحراجا لبعض الناس ، وأقصد بهم المشرفين على تلك الدار .

وعلى ذكر ذلك العدد من مجلة الأديب هل قرأت ذلك المقال الذى كتبته نازك الملائكة ؟ لقد قرأته هنا فى البيت وكان معى الشاعر محمود حسن إسماعيل . . إن نازك معجبة بشعر محمود كل الإعجاب ، ولا تفتأ تبدى إعجابها بهذا الشعر فى شتى المناسبات ، وتبعا لهذا دار بينى وبينه عنها حديث طويل ، حديث اضطر فى نهايته إلى أن يخضع لوجهة نظر النقد وهى أن نازك الملائكة لا يمكن أن تقارن بفدوى طوقان . . كان أمامى فى تلك اللحظة ديوانها « شظايا ورماد » وهو لا يزال أمامى وأنا أكتب إليك هذه السطور ، وكان أمامى فى تلك اللحظة أيضا بعض الملازم التى أراجعها من ديوانك ، وقلت لمحمود وأنا أتخير بعض القصائد من شعرها وشعرك : تعال يا حضرة الشاعر لنقارن بين شعر وشعر ! ! . ما هو الميزان الذى تريد أن تزن به ؟ فقال على الفور : الأداء النفسى طبعا ، وهنا بدأت عملية التطبيق . وانتهت العملية بأن آمن محمود إيمانا صادقا بأن نازك لا يمكن أن تقارن بفدوى . . وحين قال إن قصيدتك « إلى صورة » ، تعادل فى قيمتها الفنية كل ما حواه « شظايا ورماد » من شعر ، نظرت اليه مبتسما وأنا أقول : الآن فقط عرفت إنك تتذوق الشعر الممتاز . وحين هم محمود بأن يعترض على هذه الدعابة الخبيثة قلت له : طبعا يا أخى . . لأنك كنت بالأمس تتذوق مثل هذا الشعر الذى تقول فيه نازك :

ومضى عامان « ممطوطان » مرا فى شحوب
كان عمرى خربة يصبغها لون الغروب

أتعجبك كلمة « ممطوطان » هذه حين ترد فى النثر ولا أقول فى الشعر ؟ أشهد لو وردت مثل هذه الكلمة فى شعر فدوى لسخطت عليها إلى يوم يبعثون ! ثم هل تعجبك مرة أخرى « قعر روحى » عندما تقول :

وأحسست فى قعر روحى جنونا
وشوقا عميقا كبحر عميق

أقسم لو نطقت فدوى بـ « قعر روحى » هذه لهبطت شاعريتها فى رأيى إلى مستوى شاعرية الدكتور زكى أبو شادى عليه رحمة الله . . . زكى أبو شادى الذى يقول فى وصف البحر :

يتكسر الموج المشعشع فوقه
كتكسر البيض الكبير الحجم !

معذرة يا فدوى فقد انتهى السطر قبل أن أضع عشرين ألف علامة من علامات التعجب والتهكم وما شئت من مترادفات . . لقد كان بعض الخلفاء يهتف إذا سمع بيتا جميلا من الشعر وهو يشير إلى الشاعر : احشوا فمه جوهرا . ترى لو قدر للدكتور أبو شادى أن يعيش فى عصر أولئك الخلفاء ونطق أمام أحدهم بهذا البيت ، فبأى شىء يا فدوى كان سيحشى فمه ؟ أنا فى انتظار جوابك فى الرسالة القادمة وآمل أن أسمع هذا الجواب .

أما صورتى المتواضعة التى كرمتها كل هذا التكريم فلست أدرى كيف أشكر لك هذا الشعور النبيل ، وأما إحساسك نحوى ، هذا الإحساس الذى تحارين فى تشخيصه كما تقولين فأود أن أخرجك من هذه الحيرة بأن أقول إنه إحساس الأخوة ، وإحساس الأخت العزيزة

نحو أخ يود من أعماق قلبه أن يملأ بعض الفراغ الذى تركه أخوك وأخى . . إبراهيم طوقان .

وبقى قولك انك لا تحتاجين من نسخ الديوان إلا خمسين نسخة ، وتريدين مع ذلك أن تدفعى ثمنها للجنة النشر للجامعيين . . ما أظرفك يا فدوى . أتعلمين أن اللجنة قد قررت أن ترسل إليك ما شئت من النسخ كهدية بلا مقابل ، تقديرا وتحية ؟ أما هديتى لك فهو جهد متواضع بذلته فى إخراج الديوان حتى غدا وهو تحفة فنية . . والهدية الثانية جهد آخر متواضع يوم أن أكتب عنه على صفحات « الرسالة » . ودمت لمن سيظل دائما يذكرك .

أنور المعداوى



التعليق الأول
على الرسالة الثامنة

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى « الشاعر الآخر » فى حياة فدوى طوقان ، أما الشاعر الأول ، فقد سبق الحديث عنه وعن علاقته بفدوى ، وهو الشاعر الراحل إبراهيم نجا ، الذى كان مثالا عاليا لطيبة النفس والإخلاص والعواطف النبيلة ، والذى كان شاعرا موهوبا وأن كان لم يستطع أن يحتل مكانة بارزة فى الشعر المعاصر ؛ لضعف ثقافته الأجنبية وقلة تجربته فى الحياة ، ولأنه كان شاعرا رومانسيا فى الخمسينات والستينات من هذا القرن حين كانت الرومانسية تذوى وتذبل وتتراجع عن مكانتها الأدبية . هذا هو الشاعر الأول فى حياة فدوى طوقان ، أما الشاعر الآخر فهو الشاعر المصرى « ك . أ » ، وقد كنت أود أن أذكر اسمه كاملا ، لولا أن المعداوى قد أشار فى رسالته إلى حياته العائلية بما قد يسىء إليه وإلى عائلته مما يمنعنى من ذكر اسمه الصريح . هذا الشاعر الآخر ما زال يعيش بيننا ، وما زال يكتب وينشر إنتاجه الشعرى الغزير ، وهو شاعر ذو نفس شعرى كلاسيكى ، وهو فى هذا الإطار شاعر جيد

يتميز بصياغته الشعرية القوية السهلة ، وباندفاعه العاطفى العنيف ، وقد عجز الشاعر رغم موهبته عن تحقيق شىء له قيمة فى الشعر العربى المعاصر ، لضعف ثقافته ، وبعده ، فى موضوعاته ونظرته للحياة والناس ، عن روح العصر ، حيث نحس ونحن نقرأ له بأنه شاعر من العصر الجاهلى يعيش بيننا ، والنتيجة أنه أصبح شخصية فنية غير مقنعة ، فلا هو شاعر جاهلى نقرأ شعره كما نقرأ الشعراء العباسيين مقدرين لهم ظروفهم وظروف عصرهم ، ولا هو شاعر معاصر يحس بالتجارب الإنسانية والتجارب الفنية الجديدة التى يعيشها الناس فى هذا العصر ، فليس من المألوف ولا من المقبول بالنسبة للذوق العصرى ـ على سبيل المثال ـ أن يفخر الشاعر بنفسه على طريقة المتنبى ، ومع ذلك فنحن نجد لهذا « الشاعر الآخر » شعرا كثيرا فى الفخر والنظر إلى نفسه على أنه أهم شخص فى العالم وإلى شعره على أنه أرقى شعر عرفه هذا العصر . . ذلك كله شىء بعيد كل البعد عما يمكن أن يقبله الذوق فى عصرنا أو تقبله مقاييس الأدب أو مقاييس الأخلاق ، وهذا كله قد أبعد الشاعر عن أن يحتل مكانة لها قيمة فى عالم الشعر العربى الحديث .

ومن المعروف أن هذا الشاعر الآخر قد التقى بفدوى طوقان عندما شارك ـ متطوعا ـ فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، ويبدو أنه قد جرح هناك ، وهو ما يشير إليه المعداوى فى رسالته بقوله « . . لقد اشترك يوما فى حرب فلسطين وجرح هناك ، وأغلب الظن أن ما شهده من معارك قد أثر بعض التأثير فى قواه العقلية » ، وهذا الذى يقوله أنور يتردد كثيرا حول شخصية الشاعر الذى لم تساعدنى الظروف على التعرف إليه بصورة مباشرة .

يتحدث أنور المعداوى فى رسالته بعد ذلك عن « إبراهيم نجا »

ويشير إلى أنه أعاد رسائل فدوى اليها بعد تدخل منه ، وفى ظنى أنه كان سيقوم بإعادة هذه الرسائل إلى فدوى حتى لو لم يتدخل المعداوى ؛ فقد كان إبراهيم نجا إنسانا طيبا لا يفكر ولا يستطيع أن يفكر فى إيذاء مشاعر الآخرين .

والقصة التى يرويها المعداوى بعد ذلك عن فوز « إبراهيم نجا » بجائزة المجمع اللغوى سنة ١٩٥٢ قصة طريفة حقا ، ولكنها تكشف لنا - إلى جانب طرافتها - عن رأى المعداوى فى شعر العقاد ومفهومه للشعر معا ، ورأى المعداوى هنا صحيح تماما ، فقصائد العقاد فى غالبيتها العظمى هى « أفكار منظومة » ، وحسبنا أن نقرأ على سبيل المثال قصيدته « أمام قفص الجيبون فى حديقة الحيوان » ، وهى قصيدة نموذجية فى هذا المجال ، فقد كتب لها العقاد مقدمة نثرية تشرح فكرته عن موضوع القصيدة ، ثم كتب القصيدة بعد ذلك نظما للفكرة ، يقول العقاد فى المقدمة النثرية للقصيدة :

« القرود العليا هى الشمبانزى والأرانج أتانغ والغورلا والجيبون وهو نوع وحده فى رأى الكثيرين من النشوئيين ، لأنه صغير الحجم مختلف التركيب بعض الاختلاف . ومن هذه القرود العليا ما يصلح - من الوجهة الشعرية - أبا للفلاسفة والحكماء وهو « الشمبانزى » لتأمله وسكونه واشمئزازه من الحياة ، ومنها ما يصلح أبا لرجال المطامع والوقائع وهو « الغورلا » لبطشه وهياجه وقوة عضله ، ولكن « الجيبون » وحده هو الذى يصلح من الوجهة الشعرية أبا للفنانين والراقصين لأنه لعوب طروب ، رشيق الحركة خفيف الوثوب ، يقضى الكثير من أوقاته فى الرقص والمناوشة ، ويحب أن يعرض للناس ألاعيبه وبدواته ، وإذا صعد أو هبط فى مثل لمح البصر

فإنما يصعد ويهبط فى حركات موزونة متعادلة كأنما يوقعها على أنغام موسيقية لا تخطىء فى مساواة الوقت ومضاهاة المسافة ، فإذا شهدته فاسأل نفسك : ما بال هذا القافز الماهر قد وقف حيث هو فى « سلم الرقى » ولم يأت إلى أعلى درجات السلم كلها صعودا ووثبا فى بضعة ملايين من السنين ؟ .

هذا سؤال ، سؤال آخر تعود فتسأله : ماذا يفيد من الصعود إن كان قد صعد ، الطعام المطبوخ ؟ هو يأكل طعامه الآن نيئا وذلك أنفع أو يأكله مطبوخا على يد غيره وذلك أدنى إلى الراحة !

أو يفيد العلم ؟ قصاراه إذن أن يقول « لست أدرى » كما يقول الإنسان كلما واجه معضلات الحياة » .

ثم يكتب العقاد بعد ذلك قصيدته فلا يفعل شيئا إلا أن ينظم ما عبر عنه من « أفكار » كانت تبدو فى مقدمة العقاد النثرية أفضل بكثير مما هى عليه فى قصيدته ، يقول العقاد فى القصيدة مخاطبا « الجيبون » :

انتظر يا صديق شيئا فشيئا
تطبخ القوت كله بيديكا
غير أنى أخال ما كان نيئا
منه أجدى فى الحالتين عليكا
انتظر يا صديق مليون عام
أو ملايين ، لست والله أدرى
إن تدانيت بعدها من مقامى
فقصارى المطاف أن لست تدرى

فهذه الأبيات هى « أفكار منظومة » حول نظرية النشوء والارتقاء ورأى العقاد فيها من خلال تأملاته حول « الجيبون » ، وهذا هو شعر العقاد فى معظمه ، فهو شعر العقل الجاف والأفكار المنظومة ، وليس شعر القلب الحار والتجارب الإنسانية الواسعة ، ومن هنا تبدو فكرة المعداوى حول شعر العقاد سليمة .

ولعل الشاعر ابراهيم نجا قد أخذ بنصيحة المعداوى الذكية الطريفة فكتب عدة قصائد تقوم على أساس الأفكار المنظومة ، وهذه القصائد أعجبت العقاد فمنحه جائزة المجمع اللغوى للشعر عن عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ . إلا أن هذا الديوان لم يصدر إلا سنة ١٩٦٢ ، ولم يكتب له المعداوى مقدمة نقدية ؛ فقد كان المعداوى أيامها غارقا فى أزمته النفسية العنيفة ، وكانت هذه السنة والسنوات الثلاث التالية حتى وفاته من أقل سنواته عملا وإنتاجا ومن أكثرها حزنا وابتعادا عن الحياة والناس .

يتحدث المعداوى فى رسالته الثامنة ـ من جديد ـ عن الشاعرة المصرية ناهد طه عبد البر دون أن يضيف شيئا الى ما كتبه عن هذه الشاعرة وما أشرنا اليه فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، كما أن المعداوى لم يكتب شيئا آخر عن هذه الشاعرة كما وعد فى هذه الرسالة بعد ذلك الفصل الذى كتبه فى مجلة « الرسالة » بمناسبة وفاة الشاعرة الشابة سنة ١٩٥٠ ، ثم عاد فنشره فى كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » .

فى هذه الرسالة أيضا إشارة جديدة إلى ألبير أديب ومجلته « الأديب » وإلى كتابه « لمن » الذى نشرته دار المعارف فى مصر ، وقد أشرنا إلى مشكلة مجلة « الأديب » وموقف المعداوى من هذه المشكلة فى

الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، ومن الواضح أن المعداوى كان شديد الحساسية لكل ما يقال عنه وخاصة فى الوطن العربى ، وهذه ميزة هامة فى أنور المعداوى ، فقد كان يعتبر نفسه كاتبا عربيا لا كاتبا مصريا ، وكان يحاول بقوة أن يتابع الحياة الأدبية والثقافية فى الوطن العربى ، وكان يدعم هذه المتابعة بصلات شخصية قوية مع الكثيرين من أدباء الوطن العربى خارج مصر ، والحق أننى لم أعرف أديبا مصريا فى جيل المعداوى كان حريصا على الاتصال بالأدباء العرب خارج مصر مثلما كان المعداوى حريصا على صلته بهؤلاء الأدباء .

وكان حرص المعداوى على صلته بالأدباء العرب خارج مصر يأخذ صورة المتابعة لإنتاج هؤلاء الأدباء ونقده وتقديمه للقراء ، وصورة المساعدة على نشر هذا الإنتاج ، حيث كانت مصر فى الأربعينات وأوائل الخمسينات هى القائدة والرائدة فى ميدان النشر والثقافة فى الوطن العربى كله ، وقد تعرضت مكانة مصر الثقافية بعد ذلك للاضطراب ؛ مما جعل طه حسين يقول قولته المشهورة « . . لقد انتقلت عاصمة الثقافة العربية من القاهرة إلى بيروت » . وقد بلغ من حرص المعداوى على صلته بالأدباء العرب أنه كان يساعدهم مساعدات شخصية خارج نطاق الأدب ، فكان بعضهم يرسل إليه أوراق أولاده لتقديمها إلى المعاهد والجامعات والمدارس فى مصر ، وكان بعضهم يعتمد عليه فى دخول المستشفيات والتماس العلاج فى مصر . . . كان المعداوى عربى النزعة والميول والثقافة ، وكان من أكثر الكتاب إحساسا بعروبة مصر ، وبأن مصر لها مكان الأم فى الوطن العربى كله ، وكان المعداوى يحس فى ذلك كله بسعادة حقيقة لا افتعال فيها ، وكان يتصرف فى هذا المجال بإيمان كامل وعظيم . ولعلنا من خلال رسائل المعداوى نلاحظ بسهولة أنه كان شديد

الحماس لفدوى طوقان ، وقد كان لهذا الحماس ـ ولا شك ـ جانب شخصى خاص ، ولكنه كان من ناحية أخرى جزءا من إيمانه بالعروبة وبدور مصر الرائد فى الوطن العربى والثقافة العربية .

وأذكر أننى عندما جئت إلى القاهرة من قريتى فى ريف المنصورة لأول مرة سنة ١٩٥١ ، والتقيت بالمعداوى ، وتوثقت بينه وبينى الصلات . . . منذ تلك الأيام ، كنت أجده ، كلما التقيت به محاطا بالعديد من الأدباء العرب الوافدين إلى القاهرة من شتى العواصم العربية ، كنت أجد هؤلاء الأدباء محيطين به فى مكتبه بوزارة المعارف ، وفى ندوته بمقهى عبد الله بالجيزة ، ثم فى ندوته التى انتقل إليها بعد هدم مقهى عبد الله وهى ندوة مقهى أنديانا بالدقى ، وبقيت جلساته وندواته عامرة على الدوام بالأدباء العرب حتى مرضه الأخير ووفاته سنة ١٩٦٥ .

فى هذه الرسالة إشارة إلى قصيدة فدوى « مع لاجئة فى العيد » حيث يقول المعداوى عن هذه القصيدة : « . . إنها القصيدة التى أعزها لأنها كانت واسطة التقارب بين روحين »

والمعداوى يقصد بذلك أن أول اتصال بين فدوى وبينه كان عن طريق هذه القصيدة ، فقد نشرت فدوى هذه القصيدة فى مجلة الرسالة وأهدتها للمعداوى ، وعلق المعداوى على القصيدة فى الرسالة ، وبعد هذا التعليق بدأت بينهما صلة شخصية خاصة عن طريق الرسائل ، ومن هنا يقول المعداوى عن هذه القصيدة إنها « كانت واسطة التقارب بين روحين » .



التعليق الثانى
على الرسالة الثامنة
حول شعر نازك الملائكة وآرائها النقدية

تتضمن هذه الرسالة مقارنة بين شعر فدوى طوقان وشعر نازك الملائكة ، وقبل التعليق على هذه المقارنة يجب أن نسجل عدة ملاحظات .

أولا : هذا الحديث النقدى جاء فى رسالة خاصة إلى فدوى ، ولا شك أن المعداوى لم يكن يقدر أن هذه الرسالة ستنشر فى يوم من الأيام، والفرق بين « رأى » يظهر فى مقال ينشره صاحبه على الناس و« رأى » يقوله صاحبه فى رسالة خاصة هو فرق كبير . . وعلينا أن نضع فى اعتبارنا هذه الملاحظة ونحن نناقش رأى المعداوى فى نازك الملائكة .

ثانيا : لا شك أن المعداوى قد انساق إلى هذه المقارنة ليس بداة من رأيه الخاص فقط ، ولكن بدافع من المجاملة لفدوى ؛ ذلك

فدوى ونازك هما أكبر شاعرتين فى الوطن العربى ، والمقارنة بينهما يمكن أن تخطر دائما على البال بالنسبة للنقاد والباحثين ، وربما كان المعداوى يريد أن يثبت لفدوى ـ عن طريق المقارنة الأدبية ـ مزيدا من وده وتقديره ، وفى اعتقادى أن فدوى نفسها لم تكن توافق المعداوى على رأيه فى نازك ، وأذكر أننى قرأت لفدوى قصيدة نشرتها فى مجلة « الرسالة » وأعادت نشرها فى ديوانها الأول ، وهى قصيدة « قلب يتعذب » وقد قدمت فدوى هذه القصيدة عند نشرها فى مجلة الرسالة بهذا الاهداء :

« هدية إلى صديقتى الشاعرة الرفيعة نازك الملائكة » ، ولا شك أن مثل هذا الإهداء يؤيد إحساسى بأن فدوى لم تكن توافق المعداوى على رأيه فى الحط من شاعرية نازك وفى محاسبة شعرها كله على أساس أبيات ضعيفة نجد مثلها عند أى شاعر مهما كان وزنه ومقامه بين كبار الشعراء .

ثالثا : ليس من شك عندى مع ذلك ـ خارج جميع الاعتبارات السابقة ـ أن المعداوى لو كان يكتب مقالا نقديا يريد نشره على الرأى العام الأدبى لكان قد فضل شعر فدوى على شعر نازك كما فعل فى هذه الرسالة ، والسبب واضح ، وهو أن المعداوى بطبيعته العاطفية كان يفضل دائما ذلك الشعر الذى يكون غنيا بما فيه من جنوح إلى الوجدان والعاطفة أكثر من الشعر الذى يجنح إلى الفكر والصور العقلية . . وشعر فدوى ينبع فى أكثره من العاطفة والوجدان بينما ينبع شعر نازك فى معظمه من العقل والتأمل والمراقبة والتفكير والثقافة الواسعة العميقة . . إن الوجدان فى شعر فدوى أقوى ، والفكر فى شعر نازك أقوى ، والاختيار الأقرب إلى طبع المعداوى هو أن يجد نفسه وذوقه وعواطفه فى شعر فدوى أكثر مما يجد ذلك كله فى شعر نازك .

بعد هذه الملاحظات الثلاث نقف عند قول المعداوى بأن نازك « معجبة بشعر محمود حسن إسماعيل كل الاعجاب » . . وهذا القول صحيح فى مجمله ، ولكن نازك ليست شاعرة كبيرة وحسب ، ولكنها ناقدة كبيرة أيضا ، لها أفكارها وآراؤها النقدية الهامة والأصيلة ؛ ولذلك فنحن نجد ان إعجابها بشعر محمود حسن إسماعيل لم يكن إعجابا مطلقا بلا قيود ، بل لقد كانت نازك تنتقد « محمود » فى بعض الأحيان نقدا دقيقا ذكيا رغم إعجابها به ومحبتها لشعره .

وإذا راجعنا كتاب نازك الهام « قضايا الشعر المعاصر » الذى يضع نازك فى الصف الأول بين كبار نقاد الشعر العربى ، فإننا نجد أنها ذكرت محمود حسن إسماعيل أكثر من مرة بالإعجاب والتقدير ، وذكرته أكثر من مرة بالنقد وسجلت عليه بعض المآخذ الفنية ، ففى مجال الإعجاب والتقدير كتبت نازك فى أحد فصول الكتاب وهو فصل عنوانه « أساليب التكرار فى الشعر » تتحدث عن أسلوب من أساليب التكرار وهو « تكرار كلمة واحدة فى أول كل بيت من مجموعة أبيات متتالية فى قصيدة ، تقول نازك « ص ٢٣٠ ـ الطبعة الأولى من الكتاب » :

« ومن النماذج المبتكرة تكرار كلمة « نسيت » فى قصيدة « نهر النسيان » لمحمود حسن اسماعيل ، فهذا تكرار يتعلق تعلقا مباشرا ببناء القصيدة العام ، وهو أحد الأسباب التى تجعلنا نعده تكرارا ناجحا غير لفظى ، كما نعد القصيدة نفسها واحدة من أجمل ما كتب شعراؤنا المعاصرون ، ولعل من المناسب أن أقتطف نموذجا منها ليلاحظ القارىء العناية الكبيرة التى صبها الشاعر على ما يلى لفظة « نسيت » وهو سر جمال التكرار ونجاحه :

ونسيت الأنسام تنقل فى المرج صلاة الطيور للغدران
ونسيت النجوم وهى على الأفق نشيد مبعثر الأوزان
ونسيت الربيع وهو نديم الشعر والطير والهوى والأمانى
ونسيت الظلام وهو أسى الأرض وتابوت شجوها الحيران
ونسيت الأكواخ وهى قلوب داميات تلفعت بالدخان
ونسيت القصور وهى قبور ضاحكات البلى من البهتان

هذا نموذج يتوفر فيه الشرطان ، فاللفظ المكرر متين الارتباط بالسياق ، وما بعده قد لقى عناية الشاعر الكاملة » .

وهكذا تسجل نازك إعجابها بشعر محمود إسماعيل ولكننا نجد فى الكتاب نفسه وفى الفصل نفسه نموذجا آخر تنتقد فيه نازك محمود حسن إسماعيل وتسجل عليه بعض الملاحظات حيث تقول « ص ٢٣٦ » إنها ستقف لحظة عند قضية اختتام القصائد بتكرار مقاطع سابقة منها وهو أسلوب غير نادر فى شعرنا اليوم ، « فى الواقع أن كثيرا من هذه الخواتيم تجىء غاية فى الرداءة ، والسبب أن بعض الشعراء الضعفاء يلجأون إلى التكرار تهربا من اختتام القصيدة اختتاما طبيعيا ، ومن طبيعة التكرار أنه يوحى بانتهاء القصيدة وبذلك يستطيع أن يخدع القارىء العادى . على أن العيب الفنى لا يفوت على قارىء متذوق يتحسس جمال التكرار ويدرك سر البلاغة فيه . وسأختار لهذا التكرار المضلل نموذجا لشاعر نؤمن بشاعريته ، فلا خير فى أمثلة نقتطفها من شعراء لا قيمة لهم ، قصيدة « الكوخ » من ديوان « أغانى الكوخ » الصادر سنة ١٩٣٤ لمحمود حسن إسماعيل ، وهى قصيدة طويلة ، ضغطت فيها القافية الموحدة على الشاعر حتى أبرمته وجعلته يتهرب من الخاتمة فأجهز على القصيدة بتكرار المطلع الذى كان لسوء الحظ مطلعا رديئا :

بعثر عليه الدمع ما صفقت
فى قلبك الألحان يا شاعر
واحرق له الأجفان ما مسها
برح الأسى والحزن يا ساهر »

ونحن نجد فى كتاب نازك ملاحظات نقدية أخرى سجلت فيها عددا من المآخذ الفنية على شعر محمود حسن اسماعيل ، وهكذا نجد أن نازك تحمل فى نفسها إعجابا واعيا بشعر محمود حسن إسماعيل ، وهو إعجاب لا يغفل أبدا عن تسجيل العيوب ونقدها فى شعر الشاعر .

يقول المعداوى بعد ذلك على لسان محمود حسن إسماعيل :

« إن قصيدة فدوى « إلى صورة » تعادل كل ما حواه ديوان « شظايا ورماد » لنازك من شعر » .

ترى هل أعلن محمود حسن إسماعيل هذا الرأى مجاملة للمعداوى الذى لا يخفى إعزازه وحماسه لفدوى طوقان وشعرها أم قاله تعبيرا عن رأى أدبى كامل ومدروس ؟ . . فى ظنى أن هذا الرأى كان مصدره المجاملة ولم يكن مصدره الرأى الأدبى الذى يعبر عن اقتناع حقيقى .

على أننا لو عدنا إلى قصيدة فدوى « إلى صورة » وهى القصيدة المنشورة فى ديوانها الأول « . . وحدى مع الأيام » لوجدنا أن هذه القصيدة هى فى الحقيقة عمل فنى رائع ، إنها قصيدة من أجمل قصائد فدوى ومن اجمل قصائد الشعر العربى على الإطلاق ، وسوف أنقل القصيدة هنا بأكملها لروعتها وتماسكها ووحدتها الفنية وصعوبة فصل أبياتها عن بعضها البعض :

اذهبى واعبرى الصحارى إليه
فإذا ما احتواك بين يديه
ولمحت الأشواق فى مقلتيه
مائجات أشعة وظلالا
مفعمات ضراعة وابتهالا
فاحذرى ، لا تعبرى ، لا تبوحى
لا تبينى تأثرا وانفعالا
واكتمى عنه ما يزلزل روحى
منه ، واطوى هواى عن عينيه
هو لى فتنة ، ولكن دعيه
مستفزا ، يشك فى حبيبه
ليس يدرى بما يؤج بصدرى
من حريق مدمر مستطير
وامثلى أنت صورة بكماء
وجهها خامد .. بلا تعبير
ميت القلب والهوى والشعور
فإذا الليل سف منه الجناح
ومضت فى انسراحها الأرواح
تتلاقى على مهاد الأثير
عبر آفاق عالم مسحور
عالم الحلم ، مسبح اللا شعور
فاسبقى أنت كل حلم إليه
واستقرى هناك فى جفنيه
عانقى روحه ، ورفى عليه
أنشديه شعرى وغنى لحونى

في هواه ، بثيه كل شجوني
صوري لهفتي له وحنيني
حدثيه عن صبوتي وجنوني
حدثيه .. حتى يلوح الصباح
فإذا قبّل السنى عينيه
وصحا ، لم يجد هناك لديه
غير لا شيء ماثلا في يديه
وارجعي أنت صورة بكماء
وجهها خامد بلا تعبير
ميت القلب والهوى والشعور
هكذا ، وليظل حبي سرا
غامضا ، إن للغموض لسحرا
آسرا يجذب النفوس إليه
حيث تبقى مشدودة في يديه
ليس تقوى على الفكاك فكوني
أنت مثلي لديه عمقا وغورا
هكذا ، وليظل نهب الظنون
تائها بين شكه واليقين !

تلك هي قصيدة فدوى الرائعة التي تستحق أن تكون من روائع الشعر العربي المعاصر ؛ لبساطتها وصدقها وعمق التجربة النفسية التي تصورها وتعبر عنها . لقد جمعت هذه القصيدة بين دقة البناء الفني وروعة التعبير عن العاطفة الأنثوية الرقيقة الصادقة التي تعيش في جو من الحياء والكبرياء ، والتردد بين الإفضاء والكتمان .

إنها بحق قصيدة رائعة .

ولكن هل تجيز لنا مقاييس النقد الصحيح أن نقول إن هذه القصيدة تعادل فى قيمتها الفنية كل ما حواه ديوان نازك « شظايا ورماد » من الشعر ؟ ذلك موقف نقدى فيه الكثير من الشطط ، بل فيه الكثير من الظلم والتجنى ، وهو فى آخر الأمر رأى خاطىء وغير صحيح ، وفى رأيى أنه لا ضرورة أصلا للمقارنة بين الشاعرتين ؛ فكل منهما تمثل مدرسة شعرية مختلفة عن الأخرى ، ففدوى - كما أشرت من قبل - شاعرة عاطفية حساسة تعتمد فى شعرها على الانفعال بعواطفها المختلفة نحو الحياة والناس ، بينما نجد نازك شاعرة تفكر بعقلها كثيرا ، فهى تختار فكرة قصيدتها وتحللها وتضيف إليها من ثقافتها الواسعة ، وتحرص كل الحرص على بناء قصيدتها بناء فنيا مدروسا ، وهذا لون من الشعر تعلو فيه قيمة الفكر والعقل على الوجدان والعاطفة ؛ ولذلك فنحن نجد عالم فدوى الشعرى مختلفا كل الاختلاف عن عالم نازك الشعرى بحيث تصبح المقارنة بينهما غير مجدية وغير ضرورية .

وينقد المعداوى قول نازك :

ومضى عامان « ممطوطان » مرا فى شحوب
كان عمرى خربة يصبغها لون الغروب

وفى نقد المعداوى لهذا البيت نجده على حق تماما عندما يقول : « . . أتعجبك كلمة « ممطوطان » حين ترد فى النثر ولا أقول فى الشعر » . . . ثم يعترض المعداوى بحق مرة أخرى على بيت آخر لنازك أو على تعبير آخر لها فيقول : « . . . ثم هل تعجبك مرة أخرى « قعر روحى » عندما تقول :

وأحـــســـت فى قـعـــر روحــى جـنــونــا
وشـــوقــا عـمـيـقــا كـبــحــر عـمـــيـق

ويعلق المعداوى تعليقا طريفا على هذا البيت عندما يقول : « أقسم لو نطقت فدوى بقعر روحى هذه لهبطت شاعريتها فى رأيى إلى مستوى شاعرية الدكتور زكى أبو شادى عليه رحمة الله . . زكى أبو شادى الذى يقول :

يتكسر المـوج المشمشع حوله
كتكسر البيض الكبيـر الحجم ! »

إن المعداوى محق تماما فى نقده لبيتى نازك ، ومحق تماما فى نقده لبيت « أبـو شادى » وسخـريته من هـذا البيت ، ولكن إذا كـانت شاعرية « أبو شادى » فى كثير من الاحوال فى مستوى بيته عن « البحر » ، فإن شاعرية نازك أرقى بكثير مما فى البيتين اللذين انتقدهما المعداوى ، ورغم أننا نصادف أحيانا عند نازك بعض الألفاظ والعبارات التى تخلو من روح الشعر وتميل ميلا واضحا إلى « النثرية » العادية ، وهو أمر شائع فى الشعر الجـديـد كله ـ رغم هـذا فـإننـا نجـد فى شعـر نازك الكـثـير من القيم الفنية والفكرية العالية ، ومن الظلم أن نقيس إنتاج شاعرة كبيرة غزيرة الانتاج عميقة التأثير فى شعرنا المعاصر بمقياس بيتين أو ثلاثة أبيات أو مائة بيت ، حتى لو كانت هذه الأبيات كلها خالية من الشاعرية خالية من الجمال .



الرسالة التاسعة

فدوى العزيزة :

الآن فقط أستطيع أن أمسك بالقلم لأكتب إليك .. أما قبل ذلك . . قبل ذلك بشهر قصير جدا فى حساب الزمن ولكنه طويل جدا فى حساب الشعور . فلم أكن أستطيع أن أمسك بالقلم لأكتب إليك ! شهر كامل وأنا طريح الفراش مشلول الحركة وحيد بلا صديق أو حبيب ، وما أكثر الأصدقاء والأحباء . . تعرضت لحالة مرضية قال عنها الطبيب إنها تقتضى عملية جراحية ، وقبل أن أستسلم لمبضع الجراح قلت لنفسى : لماذا تزعج أصدقاءك وأحبابك ؟ قل لهم إنك ذاهب لتصطاف ولو كنت ذاهبا لتموت . . ألا يكفى أن الحياة تزعجهم فى كل لحظة حتى تجىء أنت فتزيدهم قلقا على قلق ؟! وهكذا قررت يا فدوى ومضيت فى طريقى إلى مبضع الجراح . . أما أنت فلم أشأ أن أقول لك شيئا ، لم أشأ أن أحملك فوق آلامك آلام إنسان آخر ، هو هذا الذى يكتب إليك . . ومع ذلك فقد كنت أحس دائما أنك إلى جانبى ، وكنت أقول لطيفك

الحبيب كلما مر بالخيال طيف العدم : يا صديقى أسمعنى رثاءك ! ويبتسم طيفك الحبيب وهو يقول لى فى صوت يقطر من نبراته الأمل : أوهام . وحين تنقضى ، سأكون أنا الذى أسمع رأيك فى « وحدى مع الأيام » ! كان طيفك هو الذى يؤنسنى فى وحدتى . ويحمل إلى الدواء ، ويضمد الجراح . . وحين غادرت سرير المرض إلى فضاء الله ، واستروح الجسد المضنى بعد عوادى السقم أنسام العافية ، كان هو ـ أقصد طيفك ـ أول صديق يصافح النفس ويعانق الروح . . وكانت المصافحة فى كتاب وكان العناق فى رسالة ، ولن أنسى له ما حييت هذا الوفاء !

تلقيت رسالتك الأخيرة إذن وتلقيت ديوانك ، وارتسمت على شفتى ابتسامة عابرة وأنا أقرأ سطورك وأقف عند تساؤلك عن سر انقطاعى عن الكتابة إليك . . يا عجبا لتوارد الخواطر بينك وبين الأصدقاء الذين ظنوا كما ظننت أننى كنت أصطاف ! قلت لهم ذلك ولم أقل لك ، ومع هذا فقد تواردت الخواطر أو تواردت الظنون فى نسق عجيب . . من هنا يا فدوى ارتسمت على شفتى ابتسامة عابرة ، ودعوت الله من قلبى ألا يكتب على أحد من عباده أن يصطاف بين جدران مستشفى وتحت رعاية طبيب !

حسبى هذا ردا على تساؤلك لأعود إلى رسالتك وأشكر لك هديتك ، لقد خرجت من كلماتك بأن طبع الديوان قد أثار إعجابك كما أثار إعجاب الكثيرين عندكم إلى حد بعيد ! أنا سعيد يا فدوى بهذا النبأ الذى أشعرنى بأنى قد بذلت « شيئا » من أجلك ، هو هذا الجهد المتواضع الذى كان حديث الناس هنا كما كان حديثهم هناك . . أقول هذا لأن الذين رأوا الديوان فى مصر قد أخجلوا تواضعى بثنائهم على إخراجه الفنى وبخاصة على لوحة الغلاف ، حتى لقد اقترح أحد

الأدباء الظرفاء أن أترك الاشتغال بفن الأدب لأشتغل بفن الطباعة ! ترى هل توافقينه على هذا الرأى ؟! أخشى أن يدفعنى ثناؤك وثناء الناس إلى حد تنفيذ هذا الاقتراح الطريف ، كما قلت للسيدة وداد سكاكينى وأنا أهدى إليها نسخة من ديوانك حين بهرها إخراجه فلم يكن لها غيره من حديث ، ومعذرة اذا قلت « غيره » لأن حديثها عن شعرك قد سجلته من قبل على صفحات « الرسالة » ومن هنا اقتصر تعليقها على طبع الديوان ! ومرة أخرى ترتسم على شفتى ابتسامة عابرة حين تطلبين إلى بمناسبة إعجابك بلوحة الغلاف ، أن أبلغ صاحب تلك الريشة المبدعة آيات تقديرك وثنائك . . يؤسفنى يا فدوى ألا أستطيع تلبية رغبتك لأن الفنان الذى رسم تلك اللوحة ليس من مصر ولا من الشرق أولا ، ولأنه ثانيا قد انتقل إلى رحمة الله ! إن لتلك اللوحة الفاتنة قصة ، وهى أننى أملك مجموعة كاملة من لوحات متحف « اللوفر » بألوانها الطبيعية ، وعددا من المجموعات الأخرى من المتاحف العالمية . . أعنى أن اللوحات التى عندى منقولة نقلا أمينا عن الأصل الموجود فى تلك المتاحف ومنها اللوحة التى تخيرتها لغلاف ديوانك ، هذه اللوحة التى يوجد أصلها فى متحف واشنطن تحت هذا العنوان « صلاة . . فى محراب الأمل » !

كنت مفتونا بهذه اللوحة ، بظلالها ، بألوانها ، بفكرتها الرائعة . . وعندما بدأت طبع ديوانك قررت بينى وبين نفسى أن تكون هى لا غيرها صورة الغلاف ، ومن هنا اقترحت يوما أن تغيرى اسم الديوان وأن تجعليه « وحدى مع الأيام » بدلا من « أشواق الحياة » لأن فكرة اللوحة تتفق من الناحية الإيحائية مع العنوان الأول ، ولا تتفق مع العنوان الأخير ، وإن كنت قد أخفيت عنك هذه الحقيقة وقلت لك إن التسمية المقترحة تناسب من ناحية ظلالها

النفسية شعر الديوان . . وقد فعلت ذلك حتى أطالعك يوما بهـذه المفاجأة الفنية التى أحدثت فى نفسك أثرها الجميل !

هذه يا فدوى هى القصة . . أما فكرة اللوحة فهى كما قلت تماما أشبه بقصيدة ، قصيدة ملونة تستمد قيمتها الفنية مما تزخر به من قوة إيحائية . . هذه الفتاة التى تشع من نظراتها كل معانى اللهفة والضراعة والابتهال ، تمثل لحظة من لحظات الصلاة هى لحظة السجود ، إنها تتـطلع إلى « الغـد الأخضـر » ، هـذا الغـد الـذى تمثله الشجـرة المورقة . . إنها تتطلع إليه ، أو قولى إنها تصلى له وتبتهل وتتضرع . . أما هذه الطبقات الأربع من الضباب الكثيف فتمثل فى مجموعها ظلمة الأيام ، أو تجهم الزمن ، أو قتام الحياة ، وكلها إيحاء باليأس . . ومن خلال هذا اليـأس وضبابـه تبرز صـورة من صور الأمـل هى تلك الشجرة المورقة . أو ذلك الغد الأخضر الذى اتجهت إليه العينان فى حديث طويل وسجد فى محرابه الروح والجسد !!

كل هذه المعانى قد شرحتها للسيدة وداد سكاكينى حـين راحت تسألنى عن عنوان اللوحة وفكرتهـا الفنية . . ولقـد كان من تـوارد الخواطر بينى وبينك أن تهدى إلى بمناسبة العيد لوحة « فابيولا » وكأنك كنت تشعرين شعورا خفيا بأننى قد أهديت إليك لوحة « صلاة فى محراب الأمل » . . وسبحان من ربط بذلك الخيط الشعورى بـين روحين ! إن لوحة « فابيولا » عندى يا فدوى ، ولكن النسخة التى تلقيتها منك ولو أنها طبق الأصل ، إلا أنها قد بدت لعينى أكثر جمالا من الأخرى وأوفر فتنة لأن روحك قد جملتها بظلال الوفاء !

وبمناسبة الحديث عن ديوانك أقول لك إنه قد ظهر عنه إعلانان على صفحات الرسالة ، وحين اتصلت بهم فى المجلة بشأن الإعلان

الثالث أبلغت أن هناك مقالا عن الديوان سيظهر فى القريب ، وهو للأستاذ كامل السوافيرى ، وقد ظهر المقال بالفعل فى عدد الرسالة الذى صدر منذ يومين . . أما الإعلانات الأخرى فقد نشرت جريدة « المصرى » اليومية سبعة منها فى سبعة أيام ، وكان ذلك عن طريق لجنة النشر للجامعيين !

ولقد قلت لك فى آخر رسالة بعثت بها إليك إننى سأقوم باهداء بعض النسخ إلى رجال الصحافة والأدب فى مصر ، وقد فعلت . . أما السيدة وداد سكاكينى فقد أصبح لديها نسخة منك ونسخة منى ، وكذلك الأستاذ الزيات ، لأننى قد أهديت إلى كل منهما نسخة عقب صدور الديوان . . وأما ذلك الصديق الشاعر الذى قلت لى إنك بعثت إليه بديوانك ردا للدين الذى عليك فلا اعتراض لى على ما فعلت ، ما دام مصدر الإهداء هو الناحية الذوقية لا الناحية الشعورية ! وبهذه المناسبة أود أن أعبر لك عن خالص شكرى لهذه الروح الطيبة التى تقبلت بها رسالتى الأخيرة وما حفلت به من نصائح وتوجيهات . . الحق يا فدوى أننى كنت أخشى أن تغضبك صراحتى أو أن تثيرك قسوتى ، ولكنك كنت عند حسن الظن حين تلقيت كلماتى على أنها صادرة من أخ لا يفترق حبه لك عن حبه لشقيقاته وقد يزيد عليه !

ولقد خرجت من رسالتيك الأخيرتين بأن كلمتى قد أحدثت فى نفسك أثرها المنشود ، حين أكدت لى أن تحولا ملموسا قد طرأ على نظرتك إلى الحياة والناس . . أنا أقدر هذه المعركة الداخلية التى تحتدم فى أعماقك نتيجة لهذا التحول الجديد ، إن أعظم المعارك يا فدوى وأجلها وأخطرها شأنا هى تلك التى ننتصر فيها على أنفسنا . . لأن الانتصار على النفس شىء عظيم !!

لماذا لم يرد فى رسالتك أى ذكر لاسم سعيد تقى الدين وأنت تحدثيننى عن الأسماء التى أهديت إليها ديوانك ؟ أظن أننى أوصيتك يوما بأن تهدى إليه أول نسخة ، ومازلت مصرا على أن تعملى بتلك الوصية لأنك تدركين المعنى الذى أهدف إليه . . أما أنا فأكتب إليك هذه الرسالة قبل أن أودع القاهرة إلى الريف ، وسأمكث هناك شهرا آخر بين أهلى طلبا للراحة والاستجمام ، حيث أعود إلى القاهرة مرة أخرى عقب عطلة عيد الأضحى إن شاء الله . . ويوم أن تقدر لى هذه العودة سأشرع فى طبع كتابى الجديد لأن المرض قد حال بينى وبين هذه الأمنية ، ثم أطالع القراء برأيى المتواضع فى ديوانك الحبيب ، ولا أدرى إن كان ذلك سيتم على صفحات « الرسالة » أم على صفحات « مجلتى » التى سيصدرها قريبا الأستاذ أحمد الصاوى محمد الذى طلب إلى الإشراف على تحريرها ، أم على صفحات مجلة لبنانية جديدة ستصدرها « دار العلم للملايين » ببيروت وقد كتب إلى أصحاب الدار عارضين على أن أكون عضوا فى الهيئة التأسيسية المشرفة على إصدارها وتحريرها . . . مهما يكن من شىء أدع ذلك لتطورات الغد القريب . . ولك أيتها العزيزة الغالية أعمق مشاعر الأخوة وأصدق آيات المودة من المخلص :

٦ / ٨ / ١٩٥٢

أنور المعداوى

تعليق على الرسالة التاسعة

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى « المرض الأول » الذى تعرض له ، وهذا المرض هو مرض « الكلى » وكان المعداوى يشكو من « حصوة » تسبب له آلاما حادة ، ولم يكن هناك من علاج لحالة المعداوى بالذات إلا عن طريق عملية جراحية كانت فى تلك الأيام - ١٩٥٢ - خطيرة ، وقد كان المعداوى يعانى من هذا المرض معاناة شديدة ، كان الألم الحاد يهاجمه فى الليل فيوقظه ويؤرقه ويدفعه إلى الصراخ العنيف ، وكان يحدثنى عن هذه الليالى القاسية فيقول : إن هذه الليالى كانت من أكثر لحظات العمر تجديدا لإيمانى بالله وتأكيدا لهذا الإيمان ، ففى لحظات الألم العنيف يشعر الإنسان أنه وحيد فى هذا العالم ، ولا يخفف من هذه الوحدة المرة إلا شعور كبير يولد فى أعماق الإنسان بأن الله موجود فى قلب الصمت والوحدة وعذاب الإنسان مع الالم الكبير . وكان يقول لى أيضا : إن لحظات الالم التى تهاجمه بقسوة وعنف فى ظلام الليل تجعله يحس بنوع من الحاجة إلى الآخرين ، وتجعله يدرك معنى الزواج وأهميته ، خاصة إذا كان زواجا

موفقا ناجحا يلتقى فيه قلبان على الحب والوفاء قبل أن يلتقيا على لذة الجسد ومصلحة العيش . وكان يقول لى أيضا : يا خوفى من أن أموت وحيدا فى الظلام ، فبين الألم الذى أعانيه وبين الموت خيط رفيع لا أكاد أراه . . فى قبضة هذا الألم يبدو لى أننى مع الله والموت والظلام فى حجرة مغلقة بلا أبواب ، هنا تبدو الأهمية الكبرى لأن يكون إلى جوارك قلب يؤنسك وتقول بين يديه : آه ، ثم يكون شاهدا على موتك ، حتى لا يموت الإنسان وحيدا بهذه الصورة المحزنة .

تلك هى المعانى التى كان يحدثنى عنها أنور المعداوى وهو يصور لى الأزمات العنيفة التى كانت تسببها له آلام « المغص الكلوى » وهى آلام بالغة القسوة .

كانت العملية الجراحية التى أنبأه الأطباء بضرورة إجرائها خطيرة ، ومع ذلك وافق على إجراء هذه العملية خلاصا من الألم ، وقد قال لى المعداوى إنه عندما قرر إجراء هذه العملية طلب من الاطباء أن يخدروه تخديرا نصفيا لا تخديرا كاملا وأصر على ذلك ، وكانت فلسفته فى ذلك أنه يريد أن يموت وهو مستيقظ واع ولا يريد أن يموت وهو نائم ومخدر إذا كان من المقدر له أن يموت فى هذه العملية الجراحية الخطيرة .

ومع ذلك يبدو لى أن المعداوى لم يكن قد أجرى العملية الجراحية عند كتابة هذه الرسالة وإنما هى فحوص طبية أجراها تمهيدا للعملية ؛ يدلنى على ذلك أن الرسالة ما تزال مليئة بالمرح والتفاؤل والإقبال على الحياة ، بينما كانت فترة إجرائه للعملية فترة حزينة مقبضة فى حياته ، وهذا اللون الحزين اليائس من المشاعر سوف نحس به منعكسا على رسائله التالية التى بدأت فيها نغمة الحزن تعلو على كل

النغمات فى حياة المعداوى ، وأصبح فيها « الأسى » هو « المايسترو » الكبير فى هذه الحياة .

فى هذه الرسالة نتوقف أمام اهتمام المعداوى بفن الرسم ، وقد كان المعداوى فى الحقيقة يحب إلى جانب الادب فنين كبيرين ، الأول هو فن الرسم والثانى هو فن الموسيقى ، كان يعشق الأدب والرسم والموسيقى ، وكان يحاول دائما أن يقتنى فى بيتـه البسيط بالجيـزة ثم بالدقى بعد ذلك عددا من اللوحات العالمية المنقولة نقلا جيدا عن أصولها فى متاحف العالم ، كما أنه كان يحرص على الاستماع لروائع الموسيقى العالميـة كلما أتيحت له فـرصة ، وقـد انعكس اهتمامـه بـالرسم والموسيقى فى أدبـه عـلى عنـايتـه البـالغـة بـالأسلوب من جانبين : الجانب الأول هو عنايته بأن يرسم صورا للناس والأشياء بقلمه ، وما أكثر الصور واللوحات التى كان يرسمها فى كتابته والتى نستطيع أن نلمسهـا بوضـوح من خلال رسـائله المنشورة فى هـذا الكتاب ، ويكفى أن نشير إلى الصورة التى رسمها فى هذه الرسالة لذلك اللقـاء بينه وبـين طيف فدوى كـما كان يتخيله ، أو نتـوقف لحظات عند تحليله للوحة غلاف الديوان الأول لفدوى الذى أشرف على طبعه واختار له لوحة الغلاف بذوقه الفنى الخاص . . أما الجانب الثانى الذى نحسه فى كتابات المعداوى إلى جانب التصوير والتجسيد فهو جانب « الموسيقى » ، فقد كان يعنى عناية واضحة بالإيقاع فى كتابته . كان يحرص على موسيقى اللفظ وموسيقى اللفظ وموسيقى الجملة والعبارة ، وهذا ما نستطيع أيضا أن نلاحظه بسهولة ويسر فى رسائله إلى فدوى طوقان . إن أسلوب المعداوى من ألمع الأساليب « الموسيقية » ـ إذا صح التعبير ـ فى أدبنـا المعاصـر ، إنه أسلوب موسيقى جذاب يفيض بالشاعرية والجمال وحسن الإيقاع .

على أن المعداوى - على اهتمامه البالغ بالرسم والموسيقى - لم يكتب كثيرا عن هذين الفنين ، وإنما استفاد منهما فى أدبه أكثر مما استفاد منهما كموضوعات لهذا الأدب .

والحقيقة أن المعداوى قد ترك فى ذهنى انطباعا رئيسيا من خلال قراءتى له ومن خلال صداقتى معه وتلمذتى الطويلة على يديه ، وهذا الانطباع الذى تركه المعداوى فى ذهنى هو أنه كاتب أرستقراطى الذوق ، رغم أنه كان يعيش حياة بسيطة بسبب إمكانياته المادية المحدودة والتى لم يسع أبدا إلى زيادتها بدافع من تعففه وحرصه على كرامته ، وقد كان قادرا على أن يزيد دخله زيادة كبيرة ، لو سمح لنفسه بأن يطرق أبواب الصحافة ودور النشر والإذاعة والتليفزيون . كان المعداوى أرستقراطى الذوق رغم شعبية حياته ، وكان متأثرا أشد التأثر بالجو الأدبى فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ، حيث انتشرت الصالونات الأدبية ، وامتلأت باريس بمباهج الأرستقراطية الفنية داخل هذه الصالونات ، عندما كان الحديث يدور عن أحدث اللوحات وأحدث الألحان وأحدث الروايات والمسرحيات والقصائد ، وكان هذه الجو مليئا بالأناقة و « الشياكة » فى الملبس والحديث وأساليب السلوك والتعامل ، وكان مليئا أيضا بالمغامرات العاطفية والمؤامرات والدسائس السياسية ، وقد كان المعداوى مغرما بهذا العصر وبالقراءة عنه وعن أبطاله من الفنانين ، ولكن المعداوى لم يأخذ من هذا الجو الذى أحبه وقرأ عنه كثيرا إلا أرستقراطية الذوق الفنى رغم بساطة إمكانياته وشعبية حياته الشخصية ، وقد كان المعداوى كثيرا ما يروى لى تلك القصة المعروفة عن الروائى الفرنسى العظيم بلزاك ، وهو أحد أبطال المجتمع الباريسى فى القرن التاسع عشر وأحد نجومه ، كان بلزاك يكتب على جدران منزله الفارغ من الأثاث : هنا لوحة لدافنشى وهنا لوحة

لرافاييل . . إلخ . . وكان يستعيض بهذا الخيال الفنى عن الحقيقة التى كان يتمناها لبيته ونفسه وحياته ، حيث كان يود أن يغرق فى عالم من الرخاء الفنى الملىء باللوحات الرائعة والموسيقى العظيمة . وإن لم تكن إمكانياته المادية تسعفه بسبب إسرافه وكثرة ديونه .

كان المعداوى يروى لى هذه القصة وكأنه ـ دون أن يدرى ـ يعنى بها نفسه ، فلم يكن يملك من الإمكانات المادية ما يساعده على اقتناء لوحات ثمينة وكبيرة ، ولكنه كان يتخيل هذا الرخاء الفنى ويحلم به ويقرأ كثيرا عن « باريس » القرن التاسع عشر ، ويركب على جناح خياله إلى باريس بلزاك وهوجو ولامرتين وشاتوبريان وفرانز ليست ، ويتصور نفسه دائما جزءا من هذه الأرستقراطية الفنية البديعة بكل ما فيها من فن وسحر ، بعيدا عما فيها من دسائس ومؤامرات .

من هنا كان المعداوى حريصا على أناقته الشخصية ، حريصا على أن تكون لديه لوحات جميلة من الفن الرومانسى العظيم ، حريصا على أن يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية ، وبشكل عام فإنه كان حريصا على أن يكون هذا الفتى الرومانسى الباريسى ابن القرن التاسع عشر ، وإن كانت هذه الروح الرومانسية الباريسية الأرستقراطية قد حلت فى فتى عربى موهوب محدود الإمكانيات من الناحية المادية هو أنور المعداوى ، ولعل ذلك كان أحد أسرار أزمة المعداوى ومحنته فى حياته ، فما كان العصر يقبل هذا النموذج ، ولم يكن ليقيم وزنا لمثل هذه الروح ؛ مما جعله بعيدا عن عصره غريبا عنه غير قادر على التلاؤم مع روحه الواقعية التى لا يستطيع فيها أن يتفرغ لأناقة الحياة أو أناقة الفن .

بقيت فى رسالة المعداوى عدة إشارات تحتاج إلى توضيح :

١ ـ يقول المعداوى « . . وأما ذلك الصديق الشاعر الذى قلت لى إنك قد بعثت إليه بديوانك ردا للدين الذى عليك له فلا اعتراض على ما فعلت » .

وفى ظنى أن الشاعر الذى يشير إليه المعداوى هو الشاعر المصرى « ك . أ » الذى تحدث عنه المعداوى فى الرسالة السابقة ، والذى كان بينه وبين فدوى علاقة عاطفية بعد أن عرفته فى فلسطين متطوعا فى الحرب ضد اليهود سنة ١٩٤٨ ، أما الدين الذى له على فدوى فهو على الأغلب أنه أهدى لها ديوانه الشعرى الأول فردت هذا الدين بإهداء ديوانها الأول إليه .

٢ ـ يتساءل المعداوى « لماذا لم يرد فى رسالتك أى ذكر لاسم سعيد تقى الدين وأنت تحدثينى عن الأسماء التى أهديت إليها ديوانك ؟ أظن أننى أوصيتك يوما بأن تهدى إليه أول نسخة ، وما زلت مصرا على أن تعملى بتلك الوصية لأنك تدركين المعنى الذى أهدف إليه . . . » .

والمعداوى يشير إلى أن الأديب اللبنانى الكبير سعيد تقى الدين كان قد وعد بإصدار ديوان فدوى طوقان الأول وأخذ منها القصائد لتحقيق هذا الوعد فلم يفعل شيئا . . وكان المعداوى يقترح على فدوى أن ترسل إلى الأديب اللبنانى أول نسخة من ديوانها تأنيبا له وعتابا عليه !

٣ ـ يقول المعداوى إنه بعد أن يعود من الاستجمام فى قريته « . . سأشرع فى طبع كتابى الجديد لأن المرض قد حال بينى وبين تحقيق هذه الأمنية ، ثم أطالع القراء برأيى المتواضع فى ديوانك الحبيب » .

أما الكتاب الذى يشير إليه المعداوى فهو كتاب « على محمود شاعر

الأداء النفسى » ، والحقيقة أن هذا الكتاب لم يطبع بعد عودة المعداوى من قريته فى صيف ١٩٥٢ ، وإنما طبع - كما أشرنا من قبل - بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة وقبيل وفاة المعداوى سنة ١٩٦٥ ، وقد ظهر هذا الكتاب باسم « على محمود طه الشاعر والإنسان » وقد طبعته وزارة الثقافة العراقية ، وكان ذلك - كما أشرنا من قبل أيضا - بسعى من الأديب العراقى محى الدين إسماعيل ، أما مقال المعداوى عن فدوى طوقان فلم يكتبه المعداوى على الإطلاق ، وتوفى دون أن يكتب المقال أو يحقق هذا الوعد الذى كان من أعز وعوده على نفسه .



الرسالة العاشرة

فدوى العزيزة . .

منذ يومين اثنين عدت إلى القاهرة ، وعندما ذهبت إلى مكتبى بوزارة المعارف ، وجدت فى انتظارى كثيرا من الأصدقاء أنت فى طليعتهم ممثلة فى رسالتك الحبيبة ! ما كان أعجب هذا اللقاء وما كان أروعه ، لأنه تخير المناسبة التى تترك أثرها فى النفس والشعور . . ماذا أقول لك ؟ أشهد لقد شغلنى هذا الزائر الأثير عن بقية الزائرين لحظات ، لأنه من دونهم جميعا قد استلهم قلبه فأحس أننى قد عدت ، فجاء يستقبلنى بالفكر والروح وكأننا كنا على ميعاد . . لقد كنت أنت ممثلة فى رسالتك ، هذا الزائر الأثير ! جئت تستقبليننى وتسألين عنى ، وكان قلبك هو الذى يسأل فى لهفة صامتة أنطقتها الكلمات . هذاالقلب الذى ابتهل فى محراب الأمل من أجلى ، أنا أقدره ، ولا أدرى كيف أشكره !

أنا عاجز عن شكرك يا أختاه ، لأننى أمام فيض من العاطفة الأخوية التى تعجز القلم حين ينشد التعبير وتعقد اللسان . . أرأيت إلى الذى يهزه موقف من مواقف الفرح الغامر والنشوة الجارفة ، حين يريد أن يبتسم من قلبه فيتحول الابتسام فى عينيه إلى دموع ؟ كذلك حال الذى يهزه موقف من مواقف الوفاء الصادق والعاطفة الخالصة حين يريد أن يتحدث من أعماقه فيتحول الحديث على لسانه إلى صمت ، أنا يا فدوى هذا الإنسان الأخير !

معذرة إذا ما عجزت عن شكرك ، أما الجواب عن سؤالك فقد عدت موفور الصحة مكتمل العافية ، والفضل كل الفضل لطول البقاء فى الريف . . هناك أيضا كنت إلى جانبى ، طال الشوق إليك فرأيتك تسعين إلىَّ من وراء الآماد والأبعاد ، وكأننى كنت أناديك وكأنك كنت تلبين النداء . . ذات يوم أدرت مفتاح الراديو وأنا لا أعلم ما سوف يحمله إلىَّ الأثير ، كنت أريد أن أستمع إلى أى شىء يبدد من حولى ضجيج السكون ، هذا الضجيج الذى تحسه النفس عندما يكون الإنسان منفردا فى ربوع الريف . . وإذا بى أسمع صوتا خيل لى أنه صوتك ، لانه كان يردد شعرا أعرف أنه شعرك ، وكان الشعر فى « سفح عيبال »[1] ، وعندما انتهت المذيعة من تلاوة القصيدة أدركت أن الصوت ات من محطة الشرق الأدنى ، ولكنه واأسفاه لم يكن الصوت الذى أريد !

أرأيت كيف كنت إلى جانبى فى القاهرة وكيف كنت إلى جانبى فى الريف ، فى ضيافة المرض وفى رحاب العافية ، أنت يا أجمل نموذج من نماذج النبل ويا أروع صورة من صور الوفاء ؟!

(١) قصيدة لفدوى طوقان بهذا الاسم سبقت الإشارة إليها و « عيبال » اسم جبل فى فلسطين .

وبعد ذلك تشكين فى أن منزلتك عندى هى منزلة تلك الإنسانة الأخرى التى ودعت الحياة يوما وذهبت إلى لقاء الله ؟ لشد ما تظلمينني يا فدوى وتظلمين فىّ هذا القلب الذى لم يتسع لإنسانة كما اتسع لك عندما طرقت أبوابه فى يوم من الأيام . . « قديسة » لأنها لم تقل فى الحب شعرا وأنت « مذنبة » لأنك طفت بشعرك حول هذا الحب وكانت أبياتك فى معبده صلوات شعور ؟! من يصدق هذا الكلام ومن يتقبل هذا المنطق ؟ لا يافدوى . . إن الحب عاطفة مقدسة ، وإذا كنت قد اعترضت يوما على حبك فهو اعتراض على أسلوب هذا الحب ، على أن صلوات شعورك قد رتلت يوما فى معبد لا تعى جدرانه حرارة الدعاء !

أنت قديسة لأنك عرفت الحب على حقيقته المثلى ، وهو مناجاة بريئة ، وهو سبحات نقية ، وهو عاطفة مقدسة ، وهو دعاء تحول فى قيثارة الشعر إلى غناء . . ومن قال لك إن الإنسانة الأخرى لم تعرف الحب ولم تسجد بشعرها وشعورها فى محرابه ؟ !

لقد كانت ظروفها قاسية ، ولولا الظروف لنفذ صوت قلبها إلى آذان الناس ، ولتضوع أرج عاطفتها من صفحات ديوان . . لم تستطع هى أن تقول شيئا وسأقول أنا كل شىء ، يوم أن أكتب قصتها و « قصته » ، وأهديها إلى كل إنسان يسأل الأقدار ولا جواب ، ويلقى الله دائما وملء عينيه نظرة فيها الأسى وفيها العتاب . قديسة ، كلمة قلتها لها وهى فى رحاب العدم وأقولها لك وأنت فى رحاب الحياة !

ترى هل أنت معى يا فدوى وأنا أغترف من نبع الشعور هذه الكلمات ؟ لماذا إذن تتحدثين عن الموت وتشيرين إلى الرثاء ؟ بالله لا

تزعجى الخاطر منى ولا تعصفى بسكينة الوجدان ، وحسبى أننى سمعت يوما هذه النبوءة من إنسانة أخرى ذهبت إلى لقاء الله . . فى المرة الأولى كان قلبى يحدثنى بأن النبوءة ستصدق ، وستتحقق ، أما فى هذه المرة فيحدثني قلبى حديثا آخر كله أمل وكله رجاء ، وما تعود قلبى أن يكذب على كلما فزعت إليه أطلب الأمان من الغد المجهول . . دعيك إذن من هذه الخواطر السود ، فما كانت الحياة تستحق أن نلقاها وفوق أعيننا منظار أسود ! يا طالما سألت نفسى كلما تجهم لى وجه الحياة . كم تساوى الحياة ، ويا طالما لقيتها وعلى شفتى بسمة عريضة كلما سمعت الجواب . . كم أحب لك أن تفلسفى الحياة كما أفلسفها أنا هذه الفلسفة التى تتصل بالواقع ولا تقترن بالخيال ! كم تساوى الحياة ؟ واجهى نفسك بهذا السؤال دائما كلما لاحت فى الأفق غمامة سوداء ، وعندئذ ينقشع السواد من أفق النفس وتتبدد الغيوم ، هذه كلمات كنت أود أن أقولها لك منذ أمد بعيد ، وهأنذا أقولها اليوم وأكرر ما قلت ، وآمل أن تعلقى فوق جدار الفكر هذه اللوحة الغالية : « كم تساوى الحياة » ؟!

ستقولين إننى الذى بدأت بحديث الموت والرثاء . . نعم يا فدوى إننى الذى بدأت ، ولكنها كانت أوهام مريض ، مريض لم يتخل حتى وهو فى قبضة الجراح عن فلسفته : كم تساوى الحياة . . ولولا هذه الفلسفة لما استطاع أن يكون شجاعا وهو يواجه معركة يتقرر فيها المصير ، ثم هكذا أنا كلما تجهم لى وجه الحياة وما أكثر ما تجهم ، وحسبك أن أقول لك فى صراحة قد تذهلك : إننى إنسان يعيش دون أن يكون له فى الحياة أمل فى غد أخضر . . ومع ذلك يقول عنه كل الناس ما أسعده ، لأنهم يرونه دائما وعلى شفتيه بسمة عريضة ، بسمة لو أدركوا سرها لانتهى إليهم السر فى هذه الكلمات : كم تساوى الحياة ؟!

قد تقولين لى : وماذا أفعل إذا كنت قد خلقت بهذا الشعور ؟ قد تقولين لى هذا فأقول لك : ولماذا نتلقى نحن الحياة بشعورنا وحده ثم لا نسمح لصوت العقل بأن يرتفع ولمشعل الفكر بأن يرسل أضواءه كلما تكاثف الظلام ؟ إن منطق الشعور يا فدوى قد يكون بعيد الأثر فى النفس قوى الأصداء ، ولكنه لا يقوى على الصمود أمام منطق العقل حين نحتكم إليه ونتيح له الفرصة ليأخذ مكانه من منصة القضاء . . ترى هل تقنعك هذه الكلمات أم يحتاج الأمر إلى أن أحضر بنفسى إلى نابلس ، لأقنعك بضجيج اللسان إذا ما عجز عن الإقناع صرير القلم ؟!

بعد هذا كله أعود إلى رسالتك لأتحدث عن ديوانك . . إن الديوان قد لقى رواجا منقطع النظير ، ولهذا أهنىء نفسى وأهنئك ! ليس الرواج مقصورا على مصر ، لأن كثيرا من المكتبات فى البلاد العربية قد أرسلت إلى لجنة النشر تطلب كميات مناسبة ، وقد قامت اللجنة بتوريد الكميات المطلوبة . . أما أنا فكنت واثقا كل الثقة من هذه النتيجة ، لأنى قد خبرت طويلا سوق الأدب وأذواق القراء ، ومن هنا أقدمت على طبع الديوان وأنا مطمئن وتحملت أمام اللجنة كل التبعات ، ومنها إصرارى على أن يطبع هذه الطباعة الأنيفة مهما بلغت التكاليف !

ولقد قوبل الديوان من الأدباء والنقاد هنا بكثير من الإعجاب والإطراء ، حتى ليتسابق بعض شبان الأدب من الملتفين حولى والمخلصين لى ، إلى الكتابة عنه هنا وهناك . . كتب منهم الأستاذ كامل السوافيرى فى « الرسالة » ، والأستاذان الشاعران كمال نشأت وفوزى العنتيل فى « الثقافة » ، ولعلك قد اطلعت على المقالات الثلاث ! ولا تكلفى نفسك عناء التفكير فى إهداء نسخ إليهم لأنهم

كتبوا بعد أن تلقوا منى نسخا مهداة . . ولقد أعطيتهم مطلق الحرية فى أن يكتبوا عن الديوان ما يشاءون حتى لا يظن بعض الناس هنا تبعا لما بينى وبين هؤلاء الذين كتبوا من صلات ، أننى قد وجهتهم توجيها خاصا فيما أبدوا حول شعرك من آراء ! ترى ما هو رأيك فى هذه المقالات الثلاث ؟ أود أن أسمع هذا الرأى .

أما عن الأستاذ « صارو » الذى تسألين عن عنوانه فهو واحد من أولئك المحيطين بى أيضا ، وقد أهديت إليه نسخة من الديوان عقب ظهوره ، وإذن فلا داعى إلى التفكير فى إهداء منك . . ولا أعرف عنوان الأستاذ الشارونى حتى أوافيك به ، ومهما يكن من شىء فانى لا أوافقك على هذا الكرم « الحاتمى » الذى يدفعك إلى إهداء (كتاب) لكل من أهدى إليك قصيدة أو قصة !

بقى أن أقول لك إننى لم أتلق كتابى الأستاذ الناعورى ولا رسالته ، وأرجو أن تنقل إليه هذه الحقيقة المؤسفة . . إننى ما تعودت يا فدوى أن أهمل الرد على الرسائل الخاصة ، ولقد رددت على مئات الرسائل التى كانت تصلنى من شتى الأقطار العربية يوم أن كنت أكتب فى « الرسالة » ، لأن المسألة عندى تتعلق بالذوق قبل أى شىء آخر ، فكيف يظن الأستاذ الناعورى أننى أهملت الرد عليه ؟! يؤسفنى هذا ، ويؤسفنى أيضا أننى لا أستطيع أن ألبى رغبته فى أن أشترك بقلمى فى تحرير مجلته ، لأننى آليت على نفسى ألا أكتب إلا فى مجلة يكتب فيها أدباء ممتازون . . ممتازون بأفكارهم لا بأسمائهم ! من هنا تركت « الرسالة » رغم إلحاح الأستاذ الزيات على بأن أعود ، وتركت « الكتاب » رغم أننى كنت قد اتفقت مع رئيس تحريرها على أن أواصل الكتابة . هناك أمل واحد يتركز فى تلك المجلة المنتظرة التى حدثتك عنها من قبل ، وهى مجلة (الآداب) التى ستصدرها فى

بيروت (دار العلم للملايـين) ولقد اتفقت معهم بعـد أن تلقيت منهم ـ أقصد من أصحاب الدار ـ ثلاث رسائل يلحون فيها أن أكون ضمن هيئة التحرير الدائمة التى ستتكون من ثلاثة كتاب من كل قطر عربى ، حيث وقع اختيارهم فى مصر على طه حسين وتوفيق الحكيم وأنور المعداوى . . إن هذه المجلة ستكون مجله ضخمة يا فدوى ، لأن أصحـابها سينفقـون عليها بسخـاء ، ولأن أهدافهم مثـالية ، جوهرها بعث الأدب العربى الحديث بعثا واعيا ، وسد الفراغ الهائل الذى تحسه الحياة الأدبية فى كل قطر عربى من ناحية عدم وجود مجلة أدبية ممتازة !

لهذا كله آثرت أن أمتنع عن الكتابة فى أى مجلة حتى تصدر مجلة « الآداب » فى أول يناير سنة ١٩٥٣ ولكنى ـ إكراما لك ـ سأعود إلى « الرسالة » مرة واحدة لأكتب عن ديوانك ، وسأرجىء الكتابة بعض الوقت حتى يفرغ كل النقاد من مقالاتهم ، لأنه قد يخطر لى أن أعقب على بعض آرائهم إذا ما كانت هذه الآراء مخالفة لأصول النقد ، ولهذا أكـون شاكـرا لو بعثت إلىّ بعـدد من المجلة التى يصدرهـا الأستاذ الناعورى وهو العدد الذى ظهر فيه مقاله عن ديوانك ، كما أرجو أن تبعثى إلى أيضا بأى مقال آخر يكون قد كتب عندكم عن الديوان . . سأعود إلى « الرسالة » مرة واحدة كما قلت إكراما لك ، لأننى فى هذه الأيام أكتفى من مطالعة (الرسالة) بقراءة فهرس المقـالات ! لقد انحدرت (الرسالة) يا فدوى انحدارا مؤسفا حتى بلغ الأمر بالأستاذ الزيات أن يأتى بأديب ناشىء لا يحمل شيئا من المؤهلات الثقافية أو الدراسية هو أنور الجندى ليحل محل الأستاذ خضر . . إن الأستاذ خضر قد ترك الرسالة بعد أن تركتهـا أنا حيث أرسـل إلى الأستاذ الزيات يقول له : من بقى فى « الرسالة » بعد المعداوى حتى أكتب فيها ؟ معذرة إذا انقطعت عن الكتابة !

أما من جهتى فقد فعلت المستحيل يا فدوى فى سبيل النهوض بالرسالة ، وحين اقترحت على الأستاذ الزيات أن يستكتب بعض الأدباء المحترمين بصفة دائمة ، اعتذر بأن « الرسالة » لا تستطيع أن تدفع لهم أجورا دائمة ! لم أجد بدا من ترك « الرسالة » لأننى لا أستطيع أن أتحمل أكثر مما تحملت ، وهو أن أواصل الكتابة وسط هذا السيل المنهمر من المقالات التافهة والكتاب الفارغين ! هذا شىء ، وهناك شىء آخر ، وهو أن كثيرا من الناس هنا كانوا يعتقدون أننى أشرف على « الرسالة » إشرافا كاملا ، ولهذا كانوا يؤاخذوننى فى كثير من الأحيان على هبوط مستوى التحرير ، وكنت أشعر بكثير من الحرج حين أصارحهم بالحقيقة ، وهى أن الأستاذ الزيات هو المسئول . . كنت أصارحهم بهذه الحقيقة وأنا أتألم ، لأن دفع التهمة عن نفسى معناه أن تلصق بالزيات وهو صديق . وما تعودت يوما أن أطعن الأصدقاء من ناحية تقديرهم لقيم الأدب وفهمهم لرسالته !

أما عن مرض « بغض الأهل » فقد أصبت به يوما يا أختاه ، وعانيت منه ما عانيت أنت وإن اختلفت الدوافع وتنوعت الأسباب ، وإذن فلا تخشى أن ألقاك بشىء من اللوم أو بشىء من الإنكار ! وأما عن عبارة الإهداء التى وجهتها إلى ذلك الشاعر الصديق فقد كانت قاسية وموجعة ومع ذلك فقد أعجبت بصياغتها الفنية كل الإعجاب . . ويبقى حديثك عن أخويك نمر ورحمى ، أما الأول فقد خرجت من كلماتك عنه بأنه فتى ذو مزاج « أمريكى » ! كيف يستبيح لنفسه أن يقضى أعواما لا يرى فيها أسرته الحبيبة ، ثم يسافر إلى ذلك البلد النائى دون أن يودعكم يا فدوى ؟! هذا مسلك لا يرضينى . . وإذا قلت إنه لا يرضينى فلا يأخذك العجب من هذا الحكم حين أقول لك بأنه يخالف طبيعتى النفسية ، طبيعتى التى تفرض على دائما أن

أقضى كل عطلة صيفية بين والدتى وشقيقاتى ، دون أن أسمح لنفسى بأن أضيع يوما واحدا من هذه العطلة بعيدا عنهن . . ماذا أفعل يا فدوى وأنا الإنسان الوحيد لهن بعد الله ؟ لقد عرضت على وزارة المعارف أكثر من مرة أن توفدنى إلى السوربون لنيل الدكتوراه ، ومع ذلك فقد رفضت العرض الجميل لسبب واحد هو أن والدتى وشقيقاتى لا يطيق شعورهن أن أكون بعيدا عنهن عامين أو ثلاثة ، هناك فى بلد يعز عليهن أن يذهبن إليه مسرعات إذا تعرضت لمفاجأة من مفاجآت القدر .

منطق لا أوافق عليه بالعقل ولكنى أوافق عليه بالشعور ، لأنى أضع نصب عينى حقيقة قلوب ضعيفة لا تقوى على الصمود أمام عواصف الأوهام ! ومع ذلك فأنا لا أملك إلا أن أصفح عن سلوك نمر ما دامت فدوى تحمل له كل هذا الحب والإعجاب . . ثم كيف حال أخيك الآخر ، وكيف حال « حنان » ؟ أنا أعلم أن لك أختا بهذا الاسم وأود أن أعرفكم جميعا وأطمئن عليكم من خلال السطور والكلمات . . ترى هل تهوى أختك الأدب والشعر أم أنها فى واد آخر غير واديك ؟ ختاما أبعث إليك بأخلص آيات المودة وأصدق مشاعر الأخوة ، ودمت لمن يذكرك :

أنور المعداوى



تعليق على الرسالة العاشرة

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة « فى سفح عيبال » وهى إحدى قصائد ديوان فدوى الأول « . . وحدى مع الأيام » ، وقد أشرت إلى هذه القصيدة فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، ويشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى « تلك الإنسانة الأخرى التى ودعت الحياة يوما وذهبت إلى لقاء الله » ، وهذه الإنسانة التى يتحدث عنها المعداوى هى الشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » ، ومن الواضح أن فدوى قد تحدثت فى إحدى رسائلها إلى المعداوى عن هذه الشاعرة ، ويمكننا أن نفهم من رسالة المعداوى أن فدوى تقول إنها لا تحتل فى قلب المعداوى مكانة ناهد ، وتعتب على المعداوى بسبب هذا الموقف الشعورى ، ثم تقول له : هل لأن ناهد لم تقل فى الحب شعرا أصبحت قديسة ، أما أنا فلأنى أقول شعرا فى الحب فقد أصبحت عندك مذنبة ؟! . . وهذه الإشارة من جانب فدوى تعنى أن الشاعرة المصرية لم تكتب عن الحب فى شعرها ، وهذا صحيح ـ فيما اطلعت عليه من شعر ناهد المنشور ـ فقد كانت تتحدث فى شعرها عن الفن

وعن السعادة والشقاء والأمل واليأس ، أى أن شعرها كان نوعا من التأملات الفلسفية فى مشاكل النفس وفى مشاكل الحياة الإنسانية ، بينما يفيض شعر فدوى بالحديث عن الحب والتجربة العاطفية أكثر مما يتوقف عند التأملات الفلسفية فى مصير الإنسان .

ويشير المعداوى إلى أنه سوف يكتب قصتها وقصته فى يوم من الأيام ، وهو يعنى فى هذه الكلمات أنه سوف يكتب قصة الشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » مع « المعداوى » نفسه ، والحقيقة أنه لم يكتب شيئا فى هذا المجال ، بعد المقال الذى نشره فى مجلة الرسالة ثم نشره بعد ذلك فى كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » .

ويشير المعداوى كذلك إلى أن « ناهد » كانت تتنبأ بأنها ستموت ، وهو ما حدث بالفعل . حيث ماتت فى فجر شبابها سنة ١٩٥٠ ، ويشير المعداوى إلى أن فدوى هى الأخرى تتنبأ لنفسها بالموت وتعليقا على هذا التنبؤ يقول « . . . أما فى هذه المرة فيحدثنى قلبى حديثا آخر كله أمل وكله رجاء ، وما تعود قلبى أن يكذب علىّ كلما فزعت إليه أطلب الأمان من الغد المجهول . . دعيك إذن من هذه الخواطر السود ، فما كانت الحياة يوما تستحق أن نلقاها وفوق أعيننا منظار أسود . . ».

وفى هذه الرسالة نحس أن العلاقة بين فدوى والمعداوى قد بدأت تتجاوز حدود الصداقة إلى حافة الحب ، وإن كان من الواضح أن فدوى كانت تحوم منذ البداية بأسئلتها حول قلب المعداوى وعلاقاته بالمرأة ، ولكن رسالة المعداوى العاشرة ، والتى هى موضوع هذا التعليق ، تنبئنا بأن فدوى قد تجاوزت التلميح إلى التصريح ، وأنها الآن إنما تشعر بحب صريح نحو المعداوى ، وأنها تتساءل : لماذا لم

يتحرك قلب المعداوى لها ولم يتجاوب معها حتى الآن ؟، وأخذت تحاول أن تجد تفسيرا لذلك فى تعلقه بالشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » . ونلاحظ فى هذه الرسالة أن المعداوى يرد فى لباقة على فدوى دون أن يعلن تجاوبه العاطفى الصريح معها ، وهو التجاوب الذى سوف نجده قويا وصريحا من جانب المعداوى فى الرسائل التالية لهذه الرسالة . . . لقد سقطت جميع التحفظات فى رسائل المعداوى الأخيرة فأعلن لفدوى حبه وهواه بعد فترة من المراوغة ومحاولة التأكيد على معانى « الأخوة » بينه وبين فدوى . وفى ظنى أن المعداوى كان يريد من فدوى أن تبدأ بالكلمة الأولى فى « الحب » ، كان يشجعها على ذلك بقوة ولكن بطريقة غير مباشرة ، وكان يغريها بحماسه لها ولفنها ، وكان ينقد بقوة وذكاء الشاعرين المصريين اللذين تجاوبت معهما فدوى قبل أن تعرفه ، وكأنه بذلك كان يزيل بقايا الماضى من طريقه يوما بعد يوم ، ولكن فى صبر وأناة .

وشخصية فدوى كما يكشف عنها شعرها ذات طبيعة بسيطة غير معقدة ولا ملتوية ، إنها طبيعة صريحة صادقة عاطفية تبحث دائما عن شخص جدير بها تثق به وتعتمد عليه وتلقى برأسها على كتفيه ؛ ولذلك فقد سبقت أنور المعداوى وأعلنت عواطفها له وبدأت تتخلص من كل الماضى وتنساه . وإنسانه مثل فدوى لابد أن تتأثر بالموقف العملى للمعداوى ، فلقد تحمس لديوانها الأول وسهر على نشره ، وأخذ يحرس اسمها فى الحياة الأدبية ويرعاه ، وعندما صدر ديوانها اعتبره عملا خاصا به ، وأخذ يهديه إلى الأدباء وينتظر كلمتهم فيه ويدعوهم إلى الكتابة عنه ، لقد « توحد » مع فدوى توحدا كاملا ، وإذا كان يحاول أن يتحفظ فى رسائله فإنه لم يكن يتحفظ فى سلوكه وتصرفاته ، وإذا كان يؤكد فى رسائله حتى الآن على معانى

الأخوة فهو يؤكد فى كل خطوة عملية له على معنى واحد هو : الحب ، والحب بأوسع معانيه وأعمقها وأشدها حرارة وقوة .

ولعلنى أكون قد فسرت شيئا من هذا الموقف فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، فالمعداوى يريد بكل قوته أن يحب ، ولكنه يخشى من هذا الحب للأسباب التى حاولت أن أشرحها فى الفصل الأول .

على أننا نجد فى هذه الرسالة ما يثير ملحوظة ثانوية ولكنها ذات دلالة ، فالمعداوى يقول لفدوى « . . وحسبك أن أقول لك فى صراحة قد تذهلك : أننى إنسان يعيش دون أن يكون له فى الحياة أمل فى غد أخضر . . . ».

وكان المعداوى فى أول هذه الرسالة قد أشار إلى قصيدة فدوى « فى سفح عيبال » ، وهذه القصيدة كتبتها فدوى فى البدايات الأولى لعلاقتها بالمعداوى ، وإذا قرأنا المقطع الأول من القصيدة وجدنا فيه عبارة « الغد الأخضر » بنصها ، وفى ظنى أن استخدام المعداوى فى رسالته لعبارة الغد الأخضر ، إنما هو إشارة واضحة إلى قصيدة فدوى التى تقول فيها :

ها أنا وحدى فى ثنايا الجبل
كأننى أسطورة تائهه
تهمسها الريح بأذن السفوح
ها أنا والفضاء حولى غزل
والكون عشق ورؤى والهه
وأنت فى قلبى وعينى روح
يومىء لى نحو غد أخضر
يغفو الشذا فى دربه المزهر

وهكذا نجد أن المعداوى كان يغرى فدوى بتصرفاته المتحمسة المتعاطفة بأن تتقدم بعواطفها نحوه خطوات وخطوات ، بينما كان يحاول فى رسائله أحيانا أن يصدها عن هذا التقدم ويمنعها من الوقوع فى أسر العاطفة ، ولا شك أن المعداوى كان يدرك أن هذه المحاولة فى صد فدوى عاطفيا لن يكون لها بالتأكيد إلا تأثير عكسى ، هنا تشعر الأنثى الطبيعية أن سرا ما فى قلب فتاها يجب قهره والتغلب عليه ، وقد ظنت فدوى أن السر هو تعلق المعداوى عاطفيا بالشاعرة المصرية الراحلة « ناهد » ، وكان هذا التصور عند فدوى حافزا لها على مزيد من التعلق العاطفى بالمعداوى لعلها تستطيع أن تنزع من قلبه أثر هواه القديم .

على أننا نلمح فى هذه الرسالة لمسة خفيفة من لمسات « الغيرة » فى قلب المعداوى عندما يقول لفدوى : « . . . ومهما يكن من شىء فإنى لا أوافقك على هذا الكرم « الحاتمى » الذى يدفعك إلى إهداء « كتاب » لكل من أهدى إليك قصيدة أو قصة » .

بقيت فى هذه الرسالة إشارة إلى أسماء بعض الأدباء وهم : الأستاذ يوسف الشارونى القصاص والناقد المصرى ، والأستاذ عباس خضر الكاتب والناقد المصرى الذى كان يكتب بابا أسبوعيا فى مجلة « الرسالة » بعنوان « الأدب والفن فى أسبوع » ، والأستاذ عيسى الناعورى وهو أديب وكاتب أردنى . وهذه كلها أسماء معروفة للقارىء العربى المتابع لحركة أدبنا الحديث .

أود أن أتوقف لحظة عند اسم من الأسماء التى أشار إليها المعداوى فى رسالته وهو « الأستاذ صارو » . . . إنه أديب مصرى قرأت له بعض القصائد والمقالات فى مجلة « الرسالة » فى أواخر عهدها ، واسمه الكامل

« عثمان عبد الرحيم صارو » ، ولعله كان واحدا من رجال التربية والتعليم فى مصر ، وكان يعيش فى الصعيد بحكم عمله أو بحكم نشأته ، واهتمام فدوى طوقان به وسؤالها عنه يعود إلى أنها كانت قد جاءت إلى مصر فى زيارة لها سنة ١٩٥٠ ، وكتبت عن هذه الزيارة قصيدة جميلة بعنوان « فى مصر » نشرتها فى مجلة « الرسالة » ثم ديوانها الأول « . . وحدى مع الأيام » ، وفى هذه القصيدة تقول وأنا أنقلها هنا بنصها :

يا مصر ، حلم ساحر الألوان ، رافق كل عمرى
كم داعبت روحى رؤاه فرف روحى خلف صدرى
حلم كظل الواحة الخضراء فى صحراء قفر
أن أجتلى هذا الحمى ، وأضمه قلبا وعين
واليوم ، فى حلم أنا ، أم يقظة أم بين بين
صدحت بقلبى إذ وطئت ثراك أنغام سواحر
فكأنما فى قلبى المأخوذ غنى ألف طائر
وغرقت فى أمواج إحساس بعيد الغور فائر
أأنا هنا ؟ أأنا هنا فى مصر فى الوادى النبيل ؟!
أأنا هنا فى النيل، فى الأهرام، فى ظل النخيل؟
وتلفتت عيناى فى دهش ، وفى لهف غريب
ماذا ؟ هنا الدنيا الخلوب تثير أهواء القلوب
ماذا ؟ هنا نار الحياة تؤج صارخة اللهيب
فى كل مجلى فتنة، رقصت وسحر مد ظله
ماذا ؟ أمصر أم رؤى أسطورة من ألف ليله
كيف اتجهت تجاوب وصدى لموسيقى الوجود
فى النيل يعزف لحنه الأبدى للشط السعيد

فى وشوشات النسمة المعطار ، فى النخل الميود
حتى النجوم هنا أحس لهن ألحانا شجيه
حتى السحاب إخاله تحدوه موسيقى خفيه
يا مصر ، بى عطش إلى فرح الحياة إلى الصفاء
يا مصر ، نحن هناك أموات بمقبرة الشقاء
لا يطمئن بنا قرار .. لا يعانقنا رجاء
لا شىء إلا ضحكة الهزء المرير على المباسم
كالضحكة الخرساء قد يبست على فك الجماجم
نفسى مصدعة .. فضمينى لأنسى فيك نفسى
قست الحياة وأترعت بمرارة الآلام كأسى
والظلمة السوداء مطبقة على روحى وحسى
فاحنى على وزوديني من مفاتنك الجميله
هى نهزة لم أدر كيف سخت بها الدنيا البخيله
ياليتنى يا مصر نجم فى سمائك يخفق
يا ليتنى فى نيلك الأزلى موج يدفق
ياليتنى لغز ، أبو الهول احتواه مغلق
تهوى وتنسحق الدهور مواكبا ، وأنا هنا
بعض خفى من كيانك لست أدرك ما أنا
يا مصر ، حلم ساحر الألوان رافق كل عمرى
كم داعبت روحى رؤاه ، فرف روحى خلف صدرى
حلم كظل الواحة الخضراء فى صحراء قفر
أن أجتلى هذا الحمى .. وأضمه قلبا وعين
واليوم فى حلم أنا أم يقظة ؟ أم بين بين

هذه هى قصيدة فدوى « فى مصر » وهى قصيدة رائعة وتكشف

بوضوح معنى الأمل الذى كانت تمثله مصر بالنسبة للعربى الفلسطينى فى تلك الأيام البائسة ـ ١٩٥٠ ـ والتى تلت قيام دولة إسرائيل حيث كان الحزن يسيطر على روح الفلسطينيين ويملؤها بالألم ، ومن ناحية أخرى فقد كانت مصر تمثل بالنسبة لفدوى معنى الحضارة والتقدم والحرية الاجتماعية ، فى مقابل ما كانت تعانيه فى نابلس من حياة اجتماعية مغلقة جامدة ، لا تناسب روح فدوى التى تريد أن تنطلق فى حرية ، وأن تعبر عن نفسها بلا قيود ولا عقبات ، كانت مصر بالنسبة لفدوى ترمز للأمل العام فى التحرر من الصهيونية، وكانت ترمز ـ وهذا هو الأساس الوجدانى والفكرى فى قصيدتها ـ لمعانى التحرر الاجتماعى والإنسانى من قيود التخلف الحضارى الذى كانت تعانى منه فى مجتمعها الضيق المغلق ، وهذا المعنى هو سر هذه الهزة الوجدانية الصادقة التى تعبر عنها فدوى فى قصيدتها الجميلة بعد أن رأت مصر لأول مرة .

بعد أن نشرت فدوى هذه القصيدة بأسابيع نشر الأستاذ « عبد الرحيم عثمان صارو » قصيدة بعنوان « زائرة الحمى » أهداها إلى فدوى طوقان بقوله « إلى شاعرة العواطف النبيلة الآنسة الفاضلة فدوى عبد الفتاح طوقان . . . تحية إعجاب وتكريم » وقد اختار الشاعر عنوان قصيدته « زائرة الحمى » من قول فدوى فى مطلع قصيدتها :

يا مصر ، حلم ساحر الألوان ، رافق كل عمرى

.. ..

.. ..

أن أجتلى هذا الحمى ، وأضمه قلبا وعين

وجاءت قصيدة الأستاذ « صارو » بعد ذلك خماسية ومن البحر نفسه الذى كتبت منه فدوى قصيدتها ، وقصيدة « صارو » قصيدة جميلة رقيقة دافئة مليئة بالصدق والنشوة الروحية ، أنقلها هنا بأكملها لعذوبتها وقيمتها الذاتية من ناحية ، ولما تسجله من صور للحياة الأدبية العربية فى أوائل الخمسينات ، ولما تلقيه من ضوء بسيط على شاعر مصرى مجهول ربما لو ساعدته الظروف الأدبية والواقعية لقدم شيئا للأدب أكثر مما قدمه وهو قليل ومجهول عند الأدباء العرب .

يقول الشاعر عبد الرحيم عثمان صارو الذى كتب قصيدته من مدينة « طهطا » بالصعيد :

أهلا بزائرة الحمى ، أهلا بمقدمك الأغر
بأحب شاعرة تطالع خاطرى بأحب شعر
ينهل من شفق العواطف والخيال المستسر[1]
أنى حللتِ من الحمى ، حيتك جانحة وعين
أهلا بزائرة الحمى ، عفوا فلست من الزوائر
لست الغريبة عن حماى ، وإن تباعدت المخاضر[2]
عفوا فأنت شقيقتى فى الروح ، فى نسب المشاعر
وحماك[3] والهفى عليه من الذئاب ، من الدخيل
هو ما علمت جوى حماى ودمع أهداب النخيل
أختاه . . أية فرحة طافت على وتر القلوب
فترنمت خفقاتها ـ طربا ـ بمقدمك الحبيب

---

(١) (المستسر) أى المختفى.

(٢) المخاضر من الاخضرار أى المنابت والأصول.

(٣) أى فلسطين.

أهوى أعبر عن شعور النيل بالكلم الرغيب
فأرى مقاليد البيان لدى عاصية مدله
فلتعذرينى إن عييت فلم أبن الا أقله
لوددت لو أنى قدمت إليك من جوف الصعيد
أروى النواظر بالتلاقى والخواطر بالنشيد
لكنها بعض القيود ، وبعض أغلال الوجود
وشواغل قصت خطاى ، وزهرتاى الآدمية[1]
أختاه هذى مصر فى حلل الصباحة والرواء
والنيل نشوان الضفاف يتيه من فرح اللقاء
فترشفى كأس الهناء ، ورددى لحن الصفاء
وأنسىْ به شكوى الزمان فقد يؤوب إياب نادم
قدح المقادر لم يزل متنقلا فوق المباسم
لِمَ تشتكين من الزمان وما عدوت حدود أمس ؟
لا تنصتى لليأس ، ما خلق الشباب نديم يأس
من كان مثلك فى يديه معازف الدنيا الجميله
جعل المسرة فى الحياة وفرحة الدنيا سبيله
أختاه ألف تحية لك من قلوب تخفق
لو كان ينبوع البيان على فمى يتدفق
لنظمت ما زخر الفؤاد به وألوى المنطق
إن لم تكن كل المنى ذى ، فلتكن رمز المنى
شتان بين جناحك الضافى وخافيقى[2] أنا
أهلا بزائرة الحمى ، أهلا بمقدمك الأغر

(١) أى ابنتاى .

(٢) الخافية هى الريشة المختفية فى جناح الطائر .

بـأحب شاعـرة تـطالـع خـاطـرى بـأحب شعـر
ينهـل من شفق العـواطف والخيـال المستسـر
أنى حللت من الحمى ، حيتك جـانحـة وعين
وهفت تقبـل خـطوك الحـانى شفـاه الضفتـين

تكشف لنا هذه القصيدة البديعة عن المكانة التى استطاعت فدوى طوقان أن تحتلها بسرعة فى الأوساط الأدبية المصرية سنة ١٩٥٠ ، أى بعد سنوات قليلة من بداية نشر قصائدها على الناس فى القاهرة ، ولم تحتل فدوى مكانتها فقط فى أوساط المثقفين المصريين فى العاصمة ، بل احتلت هـذه المكانـة وكسبت هذه الشعبيـة الأدبية فى أوسـاط الأدباء المصريين المنتشرين فى الأقاليم ، مثل هذا الشاعر الأديب الصعيـدى « صارو » الذى كتب قصيدته تعبيرا عن فرحته بزيارة فدوى لمصر ، والذى كان يتمنى أن يأتى إليها من الصعيد ـ :

لوددت لو أنى قدمت إليك من جوف الصعيد

على أننا نلاحظ على قصيدة الشاعر صارو أنه لم يدرك قضية فدوى تماما ، فالحزن الذى تعانيه فدوى مصدرة مأساة وطنها من ناحية ، ومشكلة بيئتها الاجتماعية من ناحية أخرى . . . ولذلك فالشاعـر يستنكر على فدوى حزنها ويرى فى ذلك تناقضا مع شبابها الذى ينبغى أن ينبض بالفرح ، ويكفيها كما يقول الشاعر أنها فنانة موهوبة تملك قيثارة الشعر الجميل ، إن هذا الشاعر الصعيدى لم يستوعب مشكلة فدوى بصورة كاملة ؛ فجاءت قصيدته مجرد تحية جميلة من قلب طيب برىء ينظر إلى الحيـاة نظرة « ريفيـة » بسيطة ، وهـذا هو فى رأيى مـا أعطى للقصيـدة مسحة لا شـك فيها من الجمـال والعذوبـة ، فالبساطة والبراءة بل السذاجة أحيانا تحمل كلها شيئا من ملامح الفن

الجميل الأصيل ، ويكفينا من هذه القصيدة أنها تحمل ترحيب رجل صعيدى طيب وموهوب وصاحب عاطفة أبوية كريمة بإنسانة وفنانة يعتز بها وبفنها الجميل .

الرسالة الحادية عشرة

فدوى . . يا قطعة من نفسى :

كانت رسالتك الأخيرة أجمل رسائلك جميعا ، أتدرين لماذا ؟ . . لأنها حملت إلى صورة ، ولأن الصورة قد نقلت إلى ابتسامة . . . ابتسامة حلوة مشرقة ، فيها لأول مرة احتفاء بالحياة ، لقد كانت الصورة يا فدوى صورتك ، وكانت البسمة بنت شفتيك . . ولقد نظرت إلى هذه المولودة المرحة وهى تستقبل الحياة على « مهد » ثغرك فراعنى منها أنها ابنة « طبيعية » وليست « متبناة » . .

صدقينى إذا قلت لك إن « مرصد » الشعور ، أمام هذه الابتسامة قد سجل « هزة » عنيفة . . هزة فرح غامر وسعادة جارفة لأنك بهذه الابتسامة الحلوة المشرقة ، قد بدأت تنظرين إلى الحياة من خلال منظار أبيض . . منظار كم أحب للذين أحبهم ألا تكفر به أعينهم فى يوم من الأيام . . لقد كنت يائسا من إقناع عينيك بفائدة هذا المنظار ، وهى أن ترى من خلال عدسته الصافية ، كل مشاهد

الحياة كما رسمتها يد القدر ، بكل ما فيها من أضواء وظلال . . كنت يائسا بالأمس ، أما اليوم ، فإن نسمة رخية عذبة ، بدأت تهب من فجاج الأمل على خبايا الروح . . هذه النسمة قد أثارتها بسمة وليدة استقبلت الحياة منذ أيام ، مرحة على مهد ثغرك .

ماذا أقول لك ؟ إننى سعيد حين أرى هذه الطفلة الحبيبة[1] وقد أنجبتها نصائحى المتواضعة . . وأكون أكثر سعادة لو رأيتها تملأ الدنيا « صياحا » فى الغد القريب ، أعنى يوم أن تتحول البسمة الصامتة إلى ضحكة صاخبة . . هكذا فليكن لقاؤنا للحياة . . نبحث عن المسرات إذا اعترضت طريقنا الهموم ، ونلتمس البسمات إذا اضطربت فى أعيننا الدموع ، ونفتش عن الينابيع إذا لفحتنا فى رحلة الوجود حرارة الصحراء . . إننى حين أطلب إليك أن تبتسمى فى وجه الحياة دائما أكون قد جاوزت الواقع وأسرفت فى طلب المحال . . ذلك لأن الحياة ليست صافية فى كل وقت وليست جميلة فى كل حين ، وإنما الذى أطلبه هو ألا نستسلم للحظات الأسى والشجن ، حتى لا نشغل ونحن أسرى الظلام عن أن الحياة مليئة بالضياء . .

هل أنت معى يا فدوى وأنا أهدى إليك هذه الكلمات ؟ إن الدنيا التى تلوع أحيانا بقسوتها تروع أحيانا ببهجتها ، فإذا ما غفلنا عما فيها من جوانب مضيئة فليس الذنب ذنب الدنيا ولكنه ذنب المنظار الأسود ، المنظار الذى استسلمت له بعض الأيدى وخضعت لأسره بعض العيون .

لقد قلت لك إننى إنسان يعيش دون أن يكون له أمل فى غد

(١) يقصد المعداوى هنا بالطفلة الحبيبة ابتسامة فدوى فى الصورة التى أرسلتها إليه .

أخضر ، ولقد أدهشتك هذه المفاجأة . . لست أدرى لماذا لم يدهشك قولى الآخر ، وهو أننى على الرغم من هذه الحقيقة أعيش وملء فمى ابتسامة عريضة . ابتسامة يحسدنى عليها كثير من الناس ؟! هنا يا فدوى موضع الدهشة وهنا يجب أن تكون ! هل معنى هذا أننى لا أتألم ؟ كلا . . ولكن فلسفتى هى أننى كما أستقبل أحزان الحياة بعمق فيجب أن أستقبل بنفس العمق أفراح الحياة ، بل ويجب أن يكون لهذه الأفراح من حفاوة الشعور أوفى نصيب ! لا أستطيع أن أقول لك إننى هكذا خلقت ، ولكن أقول إننى هكذا تعودت . . عند هذه الكلمة الأخيرة أود أن تقفى وأن تطيلى الوقوف ، لأن كل ما أريده منك هو أن تتعودى رؤية الأشياء من خلال منظار أبيض ، حتى تظفر منك الحياة كما ظفرت فى صورتك الأخيرة بكثير من أمثال تلك البسمة البيضاء .

عندنا يا فدوى مثل عامى يقول « من عاشر القوم ثلاثين يوم بقى منهم » . . إنه مثل صادق فى كثير من الأحيان ، ولست أدرى لمَ لم يصدق عليك هذا المثل مع أنك عاشرت « حنان »[1] المرحة المبتهجة أكثر من ثلاثين يوما ؟! كيف لم تصبك العدوى من « حنان » ؟ عدوى المرح والبهجة والانطلاق ؟ يظهر أن هذه العدوى لكى تصابى بها محتاجة إلى عملية « نقل دم » . . أعنى أن حنان يجب أن تتبرع ببعض دمها لأختها فدوى خدمة للفن والإنسانية ! عندئذ تنتقل العدوى ، وعندئذ أستطيع أن أطمئن على مستقبل هذه الابتسامة الوليدة . . هل تسمحين ـ إذا أمكن ـ أن تنقلى إليها خالص إعجابى بهذه الحفاوة الرائعة التى تستقبل بها الحياة ؟ أقول « إذا أمكن » لأننى لا أعلم إذا

(١) هى حنان طوقان أخت فدوى .

كنت قد أطلعتها على ما دار بيننا من حديث ، ولأننى أريد أن يقتصر إعجابى على هذه الناحية وحدها إشفاقا من لسانها الطويل ، فيما لو طلبت إليك أن تنقلى إليها إعجابا بوجهها الجميل . .

إن وجه « حنان » الفاتن يذكرنى بوجه آخر أكثر فتنة . . وجه غابت عن عينى صاحبته ولم تغب عن فكرى معالمه ! هذه الإنسانة هى بطلة « من الأعماق » . . القصة الوحيدة التى غمست الريشة فى دماء القلب لأكتبها بالمداد الأحمر ! لقد أثرت أنت الذكريات حين أشرت إلى هذه القصة فى رسالتك الأخيرة ، وكنت صادقة الحدس وأنت تطوفين حولها بأفكارك المتسائلة : لماذا أعيش دون أن يكون لى فى الحياة أمل فى غد أخضر ؟! . . إذن فاسمعى بداية القصة أما القصة نفسها فسأقصها عليك كاملة فى رسالتى المقبلة ، إن فى هذه البداية يا فدوى مفاجأة . . مفاجأة قد تذهلك أكثر مما أذهلتك حكاية « الغد الأخضر » ! . فى يوم ما ، وكان ذلك فى أمسية الربيع تحت سماء القاهرة ، وعند أطراف الصحراء فى « مصر الجديدة » . . هناك فى ذلك « الكازينو » الأنيق الذى يقصده الهاربون من الصخب والضجيج كنت أجلس مع « ناهد » رحمها الله . . كنا نسكن فى أقصى الجنوب من القاهرة . هى على الضفة الشرقية من النيل وأنا على الضفة الغربية . ومع ذلك فلم نكن نستطيع أن نلتقى إلا هناك . فى أقصى الشمال . فى مصر الجديدة . . لم تكن تحب أن يراها أحد . ولهذا كانت تفضل هذا المكان البعيد حتى تأمن عيون الرقباء ، وهى القديسة الطاهرة النقية .

فى تلك الأمسية رتب القدر لقاءً عجيبا . . لقاء ملأ قلبى بالأسى وملأ عينيها بالدموع . . تلفتت « ناهد » إلى الخلف مرة ثم لاحظت

بعدها أن شيئا ما قد شغلها عما كنا فيه من حديث ! تلفتت مرة ثانية وثالثة وقد ارتسم على محياها سؤال حائر ينتظر منى الجواب . . ومالت على أذنى هامسة : هناك سيدة تتطلع إلينا فى فضول ، فى فضول عجيب . . تتطلع إلى مرة ، وتتطلع إليك مرات . . وكأنى بها تعرفك حق المعرفة . . إنها جميلة جدا يا أنور . . انظر . . ونظرت إلى الخلف لأرى الوجه الفضولى الجميل الذى شغل ناهد بفضوله وجماله . . والتقت العيون فى نظرة نفاذة ، مرتبكة ، حائرة ، لا تعرف ماذا تقول . . وكانت لحظة رهيبة من تلك اللحظات التى يحتاج المرء فيها إلى قوة خارقة فوق طاقة البشر ، ليتماسك ، ويستقر ، وهو فى مهب عاصفة شعورية مدمرة ! فى تلك اللحظة عجزت طاقتى الإنسانية المحدودة عن المقاومة . ومن هنا شهدت ناهد بوضوح فوق قسمات وجهى آثار العاصفة . . وروعت القديسة العزيزة وهى تتطلع إلى فى ذهول وتسأل ، ولم تنتظر الجواب لأنها راحت تنظر إلى الخلف مرة أخرى فى فضول ، تريد أن تستشف الحقيقة المستترة وراء سر مجهول . . وهالها السر العميق حين ارتدت إلى نظراتها فى لهفة ضارعة ، وضغطت على يدى وهى تهمس فى صوت مبتهل : انظر يا أنور . . إنها تبكى ! وتحاملت على نفسى ، ومرة أخرى نظرت . . وعندما رأيتها تبكى خيل إلى أن الدنيا كلها تبكى . . وفى اللحظة التى نسيت فيها الزمان والمكان وهممت أن أندفع إليها ، ومنديلى فى يدى ، لأجفف به دموع الدنيا كانت هى قد غادرت الكازينو فى صمت مثير !!

وهدأت العاصفة قليلا وبدأت ناهد تسأل من جديد : إن هذه الدموع قد قالت كل شىء . . فمن هى ! وارتسمت على شفتى ابتسامة باهتة وأنا أقول : أيهمك أن تعرفيها يا ناهد ؟ إذن فاستعدى للمفاجأة . . إنها يا ناهد . . إنها بطلة « من الأعماق » !! وتطلعت

إلى يرحمها الله فى شىء من الـذعر ، والهلع ، والشـك الملح العاصف العنيف وهى تهتف قائلة : ماذا تقول . . بطلة « من الأعماق » التى ماتت . . منذ عامين ؟! أنور . . هل قابلت على محمود طه قبل أن تأتى إلى هنا ؟! وقلت وأنا موزع الشعـور بين الضحـك والبكاء : مـا هذا يـا ناهـد . . كيف تظنـين أننى قد مـررت بحانـة « الملاح التائه » ؟! إن الحانة كانت هنا منذ لحظات . . الحانة الوحيدة التى غبت فيها عن الوعى . . إنها لم تمت يا ناهد كما قلت يوما للقراء . . وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين ، فلأنها قد خرجت فى ذلك الحين من حياتى . . وليس الموت فى حقيقته يا عزيزتى الشاعرة ، إلا خروجا من الحياة . . إنه انصراف . . إنه رحيل . . أتحبين أن تعرفى لماذا ماتت فى الإنسانة الفاتنة التى كانت هنا منذ قليل ؟ إذن فاسمعى قصة أضخم تضحية يمكن أن يقدم عليها إنسان . . وحين انتهيت من سرد القصة هتفت ناهد من وراء الدموع : لقد كانت تضحيتها أعظم ، لقـد أرغمت أنت عـلى التضحيـة ، أمـا هى فقـد أقـدمت عليهـا راضية . . آه إن نظراتها كانت تتهمنى ، والآن فقط أدركت سر هذه النظرات . . يا ليتها كانت تعلم . . يا ليت !!

* * *

« هنا صفحتان منزوعتان من هذه الرسالة نـزعتهما فـدوى ، وقد أشارت إلى ذلك فى رسالتها التى تلقيتها منها مع رسائـل المعداوى ، والتى نشرتها بالنص فى مقدمة الكتاب ، تقول فدوى : « سترى أننى حـذفت صفحتـين من الـرسـالـة المؤرخـة فى ٤ / ١١ / ١٩٥٢ ففى هاتين الصفحتين ورد ذكر أسماء وحديث بصدد تلك الأسماء ـ وهم من نابلس ـ أؤثر أن أبقيه مطويا ، وأؤكد لك أن الحديث ذاك لا يغنى

المعرفة ولا يضيف إليها جديدا . . حقا إن فيه دليلا على خفة روح أنور وحس النكتة لديه ولكن أعتقد أنك وأصدقاءه وعارفيه لا يعوزهم مثل هذا الدليل . . » .

انتهى كلام فدوى ، ونعود بعد ذلك إلى رسالة أنور حيث يبدو الجزء التالى غير مرتبط تماما مع ما قبله . . يقول المعداوى :

لقد كان تفسيرك لهذه الظاهرة النفسية هو نفس التفسير الذى انتهيت إليه قبل أن أتلقى رسالتك . . قولى لى : هل اشتغلت يوما بمباحث علم النفس المرضى ؟ لقد سألتنى عما إذا كنت قد نظمت الشعر فى يوم من الأيام ، فلماذا لا أسألك بدورى إذا كنت قد قرأت « فرويد » و « أدلر » فى بحوثهما النفسية ؟! أنا يا فدوى ألقى الحياة دائما بقلب الشاعر ، ولكنى تعودت أن أعاملها بعقل الفيلسوف ، ولهذا السبب وحده طغى ضجيج الضحكات فى حياتى على حديث الدموع . . وسوف لا أتهرب من السؤال المقصود عندما أقول لك : نعم ، لقد نظمت الشعر فى يوم من الأيام ، وكان شعرا جميلا يا فدوى ، ولكننى لم أنشر منه شيئا ولن أنشر . . لماذا ؟ لأننى أصبحت واقعيا مغرقا فى الواقعية ولأن شعرى كان رومانسيا مغرقا فى الرومانسية ه إننى اليوم لا أستسيغ الشعر الرومانسى إلا إذا كان شعرا أنثويا ، لأن الرومانسية هى النزعة الصادقة التى تعبر عن طبيعة المرأة الخالدة . . أضيق بالشعر الرومانسى لو قاله رجل ، ومن هنا أصبحت أضيق بشعر أبى القاسم الشابى ، وأحب الشعر الرومانسى لو قالته امرأة ، ومن هنا أصبحت معجبا بشعر فدوى طوقان . لقد سألنى الزيات يوما هذا السؤال كما وجهه إلىّ الكثيرون ، ولقد أجبتهم بهذا الجواب . . وأصر الزيات ذات مساء على أن يسمع بعض هذا الشعر فتهربت ، مدعيا أننى نسيته فلم أعد أحفظ شيئا ، أما أنت

يا فدوى فسأسمعك بعض هذا يوم أن أحضر إلى نابلس . . وعلى ذكر نابلس ، هل حقا[1] ؟ أم أن المسألة مما ينطبق عليه قول المنولوج الشعبى فى مصر « يا أسامى بلاش فى بلاش . . . معانيها رقيقة وسامية » ؟!

وعلى فكرة أيضا يا فدوى ، هل فى نابلس أوتيلات نوم ومطاعم محترمة ؟! لابد من الجواب بصراحة ، لأنني يوم أن أحضر إلى نابلس فلن أحل ضيفا إلا على قلوبكم فقط . . إن المسألة فى غاية البساطة ، من الممكن جدا إذا لم أجد فى نابلس أوتيلات ومطاعم أن أكون معكم طيلة النهار ثم أعود قبيل المغرب إلى عمان أو بيروت ، وهذا حل موفق لمشكلة النوم ، أما مشكلة الأكل فيمكن التغلب عليها بأن يكون حضورى إليكم فى شهر رمضان . . ما رأيك . . أنا فى انتظار هذا الرأى !

وعلى ذكر هذا اللقاء المنتظر ، أقول لك : يظهر يا فدوى أن بيننا لونا من توارد الأرواح . . لقد ذكرت لى أنك منذ شهرين قد حضرت إلى مصر على جناح الأحلام ، أقسم لك يا فدوى ، أقسم بكل عزيز ، أنك فى أحلامى أنا قد حضرت إلى مصر ، والتقينا ، ودار بيننا حديث طويل كله شوق ، وكله مودة ، وكله إخاء . . وأقسم لك يا فدوى . أقسم بكل عزيز أن ذلك أيضا ، كان منذ شهرين . . ومن يدرى فقد تكون رؤياك ورؤياك قد وقعتا فى ليلة واحدة . . أما أنك قد أفقت من نومك دون أن نلتقى ، فمرجعه إلى تلك الرواسب النفسية التى تتخلف من عالم الأحلام . . إنها رواسب تلك الذكرى القريبة التى كان مسرحها الإسكندرية !

---

(١) هنا كلمة أو كلمات سقطت من المعداوى سهوا فى الرسالة مما يجعل المعنى غامضا .

وماذا بقى أيضا يـا فدوى العـزيزة . . بقيت مسـألتان : الأولى هى تلك القصيدة التى نشرت لك فى العدد الأول من « القلم الجديد » لماذا لم ترسلى إلى هذه القصيدة يوم أن أرسلت إلى شعرك حتى كان يمكن ضمها إلى شعر الديوان ؟ أنا عاتب عليك يا فـدوى . . إنها قصيدة مدهشة تستحقين عليها خالص التهنئة ، وأكتفى بهذا حتى لا يملأ نفسك شىء من الغرور !!

أما المسألة الثانية فهى تلك الرسالة الأخرى التى وصلتنى داخل رسالتك . . مرة أخرى تستحقين خالص التهنئة على هـذا الموقف الحازم الذى انتصرت فيه على نفسك ! ولقد كنت صريحة حين ذكرت لى حكاية الأم التى تخلت عن طفلها . . أنا يـا فدوى خبـير بقلب المرأة ، ولهذا لم تدهشنى هذه الصراحة ! غير أنى أحب أيضا أن أعالج هذا المرض الأخير . . وفى رأيى أن أنجح الطرق فى علاجه هى أن تبعدى عن نفسك عوامل الإثارة ، أقصد العوامل المادية ، أقصـد تلك الرسائل التى تحتفظين بها والتى بعثت منها إلى بواحدة . . هل أمزقها أم أرسلها إليك لتمزقيها أو لترديها إليه كما فعلت ذلك حيال إنسان آخر ؟! أرجو أن تقتنعى بجدوى هذا العلاج . . وعلى ذكر ذلك الإنسان الآخر ، من هى أختك التى كانت قد حضرت معك إلى الإسكندرية ؟ هل هى حنان ؟ وهـل أخوك الـذى كان معكـما هو رحمى ؟ معذرة من هذه الأسئلة الإضافية التى مبعثها أننى أريد أن أتحدث إليك وأطيل الحديث ، ودمت لمن يذكرك دائما :

٤ / ١١ / ١٩٥٢

أنور المعداوى



تعليق على الرسالة الحادية عشرة

يتحدث المعداوى فى هذه الرسالة عن علاقته العاطفية الأولى والأساسية فى حياته ، وهى تلك العلاقة التى كتب عنها قصته أو مقالته الوجدانية التى سماها « من الأعماق » ، وقد حاول المعداوى أن يكتب القصة عدة مرات ، وكانت « من الأعماق » هى قصته الأولى ، كما كتب بعد ذلك قصةقصته أخرى هى « من وراء الأبد » وترجم عددا من القصص القصيرة عن اللغة الفرنسية ، كما كتب أيضا قصة « مدام ريكامييه » التى تعتمد على مادة واقعية من حياة المجتمع الرفنسى فى القرن التاسع عشر والتى اقتبسها من بعض المراجع الرفنسية ، وقد أشرنا إليها فى مقدمة هذا الكتاب . وهذه - فيما أعلم - كل محاولاته فى هذا المجال وأقصد به مجال القصة .

نعود بعد ذلك إلى قصة « من الأعماق » التى يشير المعداوى إلى بطلتها فى هذه الرسالة ، إن هذه القصة - كما قال لى المعداوى مرارا -

تصور حبه الأول والأكبر فى حياته كلها ، ولقد كانت بطلتها كما روى لى فاتنة الجمال[1] ، وقصة « من الأعماق » تكاد تكون نوعا من التصوير الواقعى المباشر لحكاية هذا الحب باستثناء نهاية القصة التى لم تكن واقعية كما قال المعداوى فى رسالته . . ففى القصة كتب المعداوى أن البطلة قد ماتت ، وفى هذه الرسالة يقول إنها لم تمت .

ولابد من الاشارة هنا الى أن « من الأعماق » ليست قصة بالمعنى الفنى المعروف ، بل هى أقرب إلى أن تكون مقالة وجدانية صور فيها الكاتب مشاعره الشخصية من خلال بعض الأحداث التى مرت بحياته .

وقصة « من الأعماق » ليس فيها أحداث كثيرة ، فالمعداوى يتحدث فيها عن البطل بضمير الغائب ، ويتحدث عن البطلة دون أن يسميها ، وتتلخص القصة فى أن البطل الذى يوحى لنا المعداوى بأنه هو الكاتب نفسه قد أحب البطلة وأحبته ، ونستطيع أن نتوقف هنا لنقرأ ـ مقطعا من هذه القصة ـ إذا جاز لنا أن نسميها قصة ـ وهو مقطع يصور لنا الحب بين البطل أى المعداوى وبين البطلة التى لا نعرف اسمها . . يقول المعداوى :

« . . . وفى تلك الدار من ذلك الحى كان هواه . . يذهب إليها مع الصبح . . وحين يقبل الليل ، وكلما هزه الشوق وطال الحنين ، ولن ينسى كيف كانت تستقبله الدار يوم كان يقصد إليها ، ملء يديه

(1) لم يذكر لى أنور المعداوى اسم هذه الحبيبة ، وإن كان قد وعدنى بذلك ، وقد سمعت من أحد الأصدقاء أنها الممثلة « م. ف » ، وكانت فى عصرها من أجمل الجميلات ، وهى من أصل ألمانى ، وليس عندى ما يثبت صحة هذا الكلام أو ينفيه ، وما زالت هذه الممثلة الكبيرة على قيد الحياة .

زهر ، وملء عينيه أمل . . وملء قلبه حب . . وملء نفسه دنيا من الأحلام . . أبدا لن ينسى الوجه الـذى كان يتلقـاه باليـدين حين يقبل ، وبالروح حين يجلس ، وبالدعاء حين ينصرف مودعا إلى لقاء قريب . . ولن ينسى أنها كانت تهوى الأدب ، وتعشق الفن ، ويملك عليها المشاعر كل معنى جميل . . ولن ينسى أن صلته بها كانت عن هذا الطريق الذى جمع بين قلبها وقلبه . . وبين طبعها وطبعه ، وبين شعورها وشعوره . . ومن أجل هذا كله كان يدفع إليها بكل كتاب يقرؤه . . وكل مقال يكتبه . .، وكل أثر من آثار الفن يعلم أنه يلقى من نفسها هوى ورعاية .

لقـد كانت تعجب بـه حـين يتحـدث ، وحـين يقـرأ ، وحـين يكتب . . أما هو ، فيشهد أنه لم يكن يكتب إلا لها ، لها وحدها ، لم يكن يهمه أن يرضى عنه الناس ما دامت هى راضية ، ولم يكن يحفل بأن يتحدث عنه أحد ما دامت هى تتحدث عنـه . . ولقد بلغ بـه الغرور وهو فى غمرة إعجابها به حدا جعله يعتقد أن ليس هناك من يكتب خيرا منه ، ولا من يفهم خيرا منه ، ولا من يتذوق آثار الأدب والفن خيرا منه . . وكان حين يسـألها عن أى المجـلات الأدبية تحب ، وحين يتلقى جوابها مشفوعا بأسباب التفضيل والإيثار ، يبعث إلى هذه المجلة بمقال وإلى تلك بغيره . . لقد كان يود دائما أن يرى نفسه إلى جانبها ، حتى إذا عاتبته يوما على غيابه الذى طال اعتذر لها بأنه كان معها بالفكر والروح وحسبها وحسبه أن يلقاها وتلقاه . . بين السطور والكلمات . . »

فى هذا المقطع يصور لنا المعداوى قصة حبه وقصة علاقته بفتاة ولكنه فى المقطع الأخير للقصة يفاجئنا بهذه النهاية حيث يقول :

« وأبدا لن ينسى يا دار هـواه ، يا من كنت وحى قلمـه ومهبط إلهامه وحديث أمانيه . . . لن ينسى حين غاب عنك أياما ثم ذهب ليرى أهلك فى آخر يوم من رمضان . . ملء يديه كما كان بالأمس زهر ، وملء عينيه أمل ، وملء قلبه حب ، ومـلء نفسه دنيـا من الأحـلام . . لقد كنت يـا دار واجمة ، كئيبـة ، يمرح فى جنبـاتـك الصمت ويطبق السكون . . أين يا دار من كانت تفتح له أبـواب الشعـور بالـدنيا عـلى مصاريعهـا ؟ أين . . أين ؟ لقـد قـالـوا لـه إنها مـريضة . . مـريضة ؟ وهـرع إلى حجرتهـا مسلوب الوعى مـرتاع الخطو ، ملتاع الضمير ، وأخذ مكانه إلى جانبها وتناول يديهـا بين يديه ، وألقى على الوجه الشاحب نظرة سكب فيها من ذوب قلبه كل ما أدخرته له الليالى وحفظته الأيام .

أما هى فلم تنطق بكلمة ، لقد أطبقت شفتيها الذابلتين وشع من عينيها بريق عتاب لونته الدموع . . .

وأطرق برأسه إلى الأرض برهة ، وطوفت نـظراته الـذاهلة هنا وهناك كأنما تبحث عن الألفاظ الحيرى فى ساعة اللقاء الرهيب . . . واستطاع بعد جهد أن يجمع شتات نفسه ليقول لها : لا أدرى كيف أعتـذر إليك . . أحقـا كنت غائبـا وأنت مريضـة . . ؟ كيف بـالله لم يحدثنى قلبى ؟ ألا تغفرين لى ؟ . . .

ويالحظة الغفران كم خففت من وخز ضميره . . وكم حملت من عبء عذابه ، وكم قربت بينه وبين الله .

ومضى يحدثها وتحدثه ، ويا عجبا . . لقد عاد إلى الوجه الشاحب إشراقة الفجر ، وإلى الوجنـة الذابلة نضـارة الورد ، وإلى النـظرة الفاترة صفاء النبع ، وإلى الجسد المنهك تدفق العافية .

وقالت له وهى تستوى فى سريرها جالسة : انظر . . ألا ترى أن العافية قد عادت إلى بعودتك ؟ فأجاب والفرحة الجارفة تهز كل ذرة فى كيانه : لو كنت أعلم لعدتك قبل اليوم ، ولما تركتك نهبا لعوادى السقم . . ومضى يحدثها وتحدثه ، ويقرأ لها وتصغى إليه . . ويبنى لها من قصور الأوهام . . ما شاءت له فنونه وشجونه » .

ثم يختم المعداوى قصته بهذا المقطع :

« . . . ويودعها وتودعه . . وينطلق عائدا إلى بيته على أن يراها فى صباح العيد . . ولم يكن يدرك أن ما رآه من ومضات العافية حين جلس إليها كان أشبه بومضات المصباح قد فرغ زيته ، فهو يرسل أسطع أضوائه قبل أن ينطفىء ، ويترك الحياة من حوله يختنق فيها النور تحت قبضة الظلام .

لقد طوى الموت فى المساء صفحة عمر ، وغيب القبر فى الصباح أحلام عذراء ، ولقد رغبت إليه أن يكتب قصته الأولى ، فإليك يا قبرها يقدم أول قصة وآخر قصة .

وكل حقيقة بعدها وهم ، وكل واقع بعدها خيال ، وكل إيمان بعدها شك ، وكل وجود بعدها عدم . . . وكل معنى من معانى الخير والجمال بعدها هباء . . » .

وقد نشر المعداوى هذه القصة فى العدد ٧٩١ من مجلة « الرسالة » ، وهو العدد الصادر فى ٣٠ أغسطس ١٩٤٨ ولهذا التاريخ مغزى خاص سأشير إليه بعد قليل .

من الواضح فى رسالة المعداوى إلى فدوى أن بطلة « من الأعماق » لم تمت ، وأن الذى حدث هو فراق بينه وبين حبيبته لسبب ما ، فهو

يقول فى رسالته إلى فدوى : « إنها لم تمت كما قلت يوما للقراء ، وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين ، فلانها قد خرجت فى ذلك الحين من حياتى وليس الموت فى حقيقته إلا خروجا من الحياة . . » .

لم يشرح المعداوى سبب فشل علاقته ببطلة « من الأعماق » ، وقد سمعت منه مرارا قوله بأن بطلة « من الأعماق » لم تمت ولكنها خرجت من حياته ، إلا أننى لم أستطع أبدا أن أحصل على تفسير لفشل العلاقة .

وكان المعداوى دائما ينتهز الفرص المختلفة ليتحدث عن بطلة « من الأعماق » ، بل كان أحيانا يفتعل هذه الفرص ، كما نرى فى رسالته إلى فدوى ، حيث انتقل من حديثه عن جمال « حنان » أخت فدوى إلى الحديث عن جمال بطلة من الأعماق التى كانت ـ عنده ـ أكثر جمالا وفتنة .

ويروى المعداوى فى هذه الرسالة واقعة له مع الشاعرة المصرية « ناهد عبد البر » التى أشرنا إليها مرارا فى الصفحات السابقة ، وفى ظنى أن هذه الواقعة لم تحدث ، كما أشرت من قبل ، فقد حدثنى المعداوى عن ناهد كثيرا ، وأكد لى أنه لم يرها على الإطلاق ، وأن كل ما كان بينهما هو أحاديث تليفونية ثم قصائدها التى كانت تبعثها إليه لينشرها فى مجلة « الرسالة » أو فى جريدة « الأهرام » .

وفى اعتقادى أن قصة لقائه بناهد فى « كازينو » مصر الجديدة لم تحدث ، فالقصة التى يرويها فى رسالته إلى فدوى غريبة بعض الشىء . . أن توجد امرأة وحيدة ، ثم تنظر إليه وتبكى ، ثم تخرج مسرعة دون كلام . . . ذلك خيال من خيالات المعداوى البريئة التى كان يبتكرها أحيانا لخدمة غرض من الأغراض ، والغرض هنا هو أن يعرض أمام فدوى علاقاته العاطفية المختلفة . . .

وهناك دليل يجعل الشك فى هذه القصة التى يرويها المعداوى أقرب ما يكون إلى اليقين ، فهو يقول للشاعرة ناهد ، إنها لم تمت يا ناهد كما قلت يوما للقراء . . وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين فلأنها قد خرجت فى ذلك الحين من حياتى . . وليس الموت فى حقيقته يا عزيزتى الشاعرة إلا خروجا من الحياة . . إنه انصراف ، إنه رحيل » .

لقد كتب المعداوى قصته « من الأعماق » فى أغسطس سنة ١٩٤٨ . . . وهو يقول للشاعرة ناهد مشيرا إلى قصة « من الأعماق » « . . . . . وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين . . . إلخ » ، ومعنى ذلك أن لقاء المعداوى مع ناهد كان فى أغسطس سنة ١٩٥٠ أو بعد ذلك ، وإذا علمنا أن الشاعرة ناهد كانت قد ماتت فى أغسطس سنة ١٩٥٠ بعد مرض استمر عدة شهور فإن شيئا ما يكون غير حقيقى فى هذه القصة ، لقد نسى المعداوى تاريخ وفاة ناهد ، فتخيل القصة كما تخيل من قبل وفاة بطلة « من الأعماق» .

من ناحية أخرى تقول الشاعرة ناهد للمعداوى فى هذه القصة التى أراها خيالا فى خيال : « . . . أنور هل قابلت على محمود طه قبل أن تأتى إلى هنا ؟ » . . . ومعنى هذا السؤال الذى توجهه ناهد للمعداوى هو أن المعداوى قد لقى الشاعر على محمود طه وشرب معه خمرا جعلته يتخيل بعض الأشياء . . . وهنا أيضا يلقى لنا المعداوى بدليل آخر غير مقصود على ما فى قصته من خيال ، فاذا كانت هذه القصة قد وقعت بعد نشر « من الأعماق » بسنتين ، فمعنى هذا كما أشرت فى السطور السابقة أن هذا اللقاء مع الشاعرة ناهد قد تم فى أغسطس سنة ١٩٥٠ أو بعد ذلك . . . وفى هذا التاريخ لم تكن ناهد وحدها قد ماتت بل كان على محمود طه أيضا قد مات قبل ذلك وبالتحديد فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، فلا معنى لأن تقول له الشاعرة : هل قابلت على

محمود طه قبل أن تحضر إلى هنا . وهذا كله يقطع بأن قصة لقاء المعداوى مع الشاعرة ناهد كانت خيالا من خيالاته البريئة .

والواقع أنه لا لوم على المعداوى ؛ فقد كان يكتب رسالة خاصة ولم يكن يكتب دراسة يتحرى فيها الحقائق ويلتزم فيها بالدقة التامة ، لقد كان المعداوى يكتب ما كتب بدوافع نفسية خاصة ، وهى دوافع مقبولة وبريئة فى علاقة مثل علاقته بفدوى ، وفى ظنى أنه كان يهدف إلى إثارة فدوى وتحريك عواطفها نحوه بما يروى لها عن علاقاته العاطفية وعن إعجاب ناهد وبطلة « من الأعماق » به : أديبا وانسانا فى الوقت نفسه .

أما قصة بطلة « من الأعماق » فقد تعرضت لها فى مقدمة الكتاب ، وحاولت أن أقدم اجتهادى الخاص فى تفسير الفشل العاطفى الذى كان يتعرض له المعداوى باستمرار .

بقى فى الرسالة ما يشير إليه المعداوى إشارة غير واضحة لنا بسبب الورقتين اللتين حذفتهما فدوى من هذه الرسالة . . يقول المعداوى « . . . لقد كان تفسيرك لهذه الظاهرة النفسية هو نفس التفسير الذى انتهيت إليه قبل أن أتلقى رسالتك » . . .

أية ظاهرة يتحدث عنها المعداوى ؟ فى ظنى أنه يتحدث عن ظاهرة « بغض الأهل » التى أشار إليها فى رسالة سابقة ، ولست أدرى ما التفسير الذى وصلت إليه فدوى ؛ وذلك بالطبع لأن رسائل فدوى غير موجودة بين أيدينا .

تمتلىء هذه الرسالة الجميلة كما هو واضح بروح من الألفة والود وخفة الروح ، وكأن المعداوى قد أصبح جزءا من عائلة فدوى . . .

وهذه دائما كانت طريقة المعداوى فى تعامله مع من يحبهم ، فقد كان طيبا عاطفيا مليئا بروح الدعابة والحنان الصادق والثقة بالنفس ، وخاصة فى الفترة التى كان فيها ما زال قادرا على محاصرة أحزانه والتغلب عليها . ولقد كانت هذه الرسالة بالذات هى آخر رسائل المعداوى المتفائلة ، وبعدها بدأت قصته مع الآلام والهموم التى انتهت بموته .



الرسالة الثانية عشرة

عزيزتى يا فدوى

أنا واثق من أنك لم تنسى هذا الإنسان الذى يكتب إليك لأنه هو نفسه لم يستطع أن ينساك منذ أن قال لك ذات يوم وداعا . وأنا واثق من أنك قد تساءلت بينك وبين نفسك عن سر انقطاعه عن القراء منذ أربعة أشهر ، حيث كان يلقاهم ويلقاك على صفحات « الآداب » . . ألا ما أطولها فترة مرت عليه ، لأنها كانت حافلة بالألم والعذاب . . وما كان أقسى نهايتها بالنسبة إلى الفكر والشعور . لأن هناك عملية جراحية خطيرة تنتظره بعد أيام . . ولم يكن هناك مفر لأنها الأمل الوحيد فى الخلاص من عذابه ، عذاب الجسم والنفس الذى استمر أربعة أشهر وكأنها أربعة قرون طوال . . وعلى الرغم من هذا كله فإنه ما يزال يحتفظ بابتسامته التى تعرفينها عنه ، ولولا هذه الابتسامة لانهار كل شىء ، وفقد الإيمان بكل شىء . . إن من الأشياء العزيزة عليه والتى ظل مؤمنا بها حتى هذه اللحظة ، ما كان بينك وبينه من صلات الروح . . ولهذا فقد آثر أن يكتب إليك قبل

أن يضع مصيره بين يدى الجراح ! لقد كتب إليك من قبل ، يوم تعرض لمثل هذه المحنة ، ولكن بعد أن قدرت له النجاة . . وكم كان يود أن يرجىء هذه الرسالة كما أرجأ تلك حتى لا يزعجك . ولكنه خشى أن يكون فى الغيب المجهول ما لا ينتظره ويتوقعه فيحرم من لقائك . . ولو بين السطور والكلمات . . إنه يعتقد أن دعواتك له لن تذهب هباء لأنها دعوات قلب حزين تركه منذ عام فى نابلس . كما ترك دعوات قلب حزين آخر فى الريف منذ أيام . . إنهما قلب أمه وقلبك . والقلوب الحزينة دائما هى أقرب ما تكون إلى الله ! !

أنا فى انتظار رسالة منك تطمئننى عليك . . تشرحين لى فيها كل شىء عن حياتك منذ أن خرجت يوما من حياتك . . أتذكرين قصيدتك « دوامة الغبار » ؟ لقد بللتها اليوم بدموعى أنا الذى لم أبك يوم أن كتبت « من الأعماق » . . سأحدثك عن وقعها الآن على نفسى فى رسالة مقبلة . وسأحدثك كثيرا عن أشياء كثيرة يوم أن أعود إلى الحياة وسأعود بإذن الله . . سأعود إليك مرة أخرى يافدوى العزيزة . . ولا يهمنى أن أعود إلى الأدب وإلى القراء !

أنا يا فدوى ما زلت أبتسم . . وسوف أشعر أنك بجانبى وأنا تحت مبضع الجراح . ويكفى هذا الشعور لتزداد ابتسامتى إشراقا وستكونين وحدك بجانبى لأننى أخفيت الخبر عن أمى وأخواتى . . وكفاهن ما لقين من أجلى . . لقد قلت لك بالأمس وداعا وأقول لك اليوم : إلى اللقاء .

من المخلص
أنور المعداوى

٢٤ / ١٠ / ١٩٥٣

تعليق على الرسالة الثانية عشرة

يبدو لى أن هناك رسالة مفقودة بين هذه الرسالة والرسالة التى قبلها ، أقول ذلك لأن المعداوى يبدأ هذه الرسالة بقوله « أنا واثق من أنك لم تنسى هذا الإنسان الذى يكتب إليك ، لأنه هو نفسه لم يستطع أن ينساك منذ أن قال لك ذات يوم وداعا . . . » والسؤال هنا هو : متى قال المعداوى لفدوى طوقان وداعا ؟ لابد أن يكون ذلك فى لقاء بينهما أو فى رسالة منه إليها ، ومن المؤكد أن المعداوى لم يلتق بفدوى طوقان ، ولذلك فلابد أن يكون قد قال لها كلمة الوداع فى رسالة ليست بين أيدينا ، ولابد أن تكون هذه الرسالة قد تسببت فى انقطاع الصلة بين المعداوى وفدوى ؛ فالمعداوى يقول فى هذه الرسالة « أنا فى انتظار رسالة منك تطمئننى عليك . . تشرحين لى فيها كل شىء عن حياتك منذ أن خرجت يوما من حياتك . . » ولابد أن يكون هذا الخروج من حياة فدوى قد تم فى الفترة ما بين شهر نوفمبر ١٩٥٢ - وهو تاريخ الرسالة السابقة على هذه الرسالة أو بعدها بقليل - وشهر أكتوبر سنة ١٩٥٣ وهو تاريخ هذه الرسالة التى نعلق عليها .

أغلب الظن أن هناك رسالة أخرى كتبها المعداوى إلى فدوى بعد رسالة شهر نوفمبر ١٩٥٢ بقليل ، وهى الرسالة التى على أثرها وقعت القطيعة بينهما لمدة عام تقريبا .

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى المرض الذى يعانيه والعملية الجراحية التى أصبح من الضرورى أن يجريها له الأطباء . أما المرض فهو ذلك الذى أشرت اليه فى الصفحات السابقة وهو مرض « الكلى » حيث كان المعداوى يشكو من « حصوة » كان لابد لإخراجها من إجراء عملةي جراحية خطيرة . وعندما تعرض للأزمة المرضية فى المرة الأولى تم علاجه منها بدون « عملية » ، أما الآن فقد أصبح من الضرورى أن يجرى « العملية » الخطيرة ؛ مما أشعره أنه على حافة الموت ، وهذا هو ما دفعه إلى أن يكتب لفدوى هذه الرسالة التى لا يكاد المعداوى يخفى فيها حقيقة عواطفه نحو فدوى حتى ولو بستار شفاف . إنه يحب فدوى ويشعر بحاجته إليها فى وقت المحنة ، وفى الأيام السابقة على العملية الجراحية التى أجراها بعد هذه الرسالة بحوالى شهرين .

ويشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة « دوامة الغبار » التى كتبتها فدوى على أثر الأزمة التى تعرضت لها علاقتها بالمعداوى . والتى لا نعرف لها سببا واضحا . وإن كان المعداوى سيحاول فى رسائله الباقية أن يلقى بعض الضوء على هذه القطيعة وأسبابها ، خاصة وقد كان واضحا أنه هو الذى بدأ هذه القطيعة .

وتكشف لنا قصيدة « دوامة الغبار » عن ألم فدوى بسبب هذه القطيعة ، وعن حيرتها وحزنها ولوعتها المرة وحنينها الجارف للعودة إلى هذه الصلة التى كانت تدفىء حياتها وتعطيها الكثير من الحنان والأمل .

وقصيدة « دوامة الغبار » مثل رسالة المعداوى تقطعان بأن العلاقة بين فدوى والمعداوى قد وصلت إلى قمة التجاوب العاطفى على طريقتهما المثالية الرومانسية أى : الحب عن طريق الرسائل والقصائد ، دون أن يزيد الأمر على ذلك خطوة واحدة فى طريق التعارف واللقاء الواقعى .

ونستطيع أن نقرأ قصيدة فدوى كاملة على ضوء ارتباطها بتلك الأزمة التى نشأت بينها وبين المعداوى . وسنرى فيها ـ كما رأينا فى الرسالة التى نعلق عليها للمعداوى ـ حبا حقيقيا لا شك فيه بين القلبين .

تقول فدوى فى « دوامة الغبار » . . حيث تكشف لنا فدوى كل الخطوط الرئيسية لقصتها مع المعداوى :

عام قريب
كانت حياتى قبله
شبحا يدب على جديب
متعثرا بالصخر بالأشواك
بالقدر الرهيب
حتى رآك
روحى تهل على كآبته
فتترعه يداك
فرحا وإشعاعا غريب
عام قصير
سرنا معا فيه على دربى الوعير
جنبا إلى جنب ، وملء عيوننا
دفء الشعور

والعـــاطفه
وإذا الحيـــاة عـــلى صـــدى
خطواتنا المتآلفـه
خضراء تورق فى الصخـــور
عـــــام ومـــــر
ودجا غبـــار حولنـــا
هاجت به ريح القـــدر
وتلمستك يدى وفى عينى ليل معتكر
وارتاع قلبى
رجعت إلى يدى ميبسة الدمـــاء
بثلج رعبى
لا صـــوت منك ولا أثـــر
ووقفت وحـــدى
فى وحشة التوهان . فى يتم الغريب
وقفت وحدى
تصطك روحى فى فراغ الدرب من ذعر وبرد
وعـــلى فمى
إشراقة ماتت ، وفى قلبى
تنبؤ ملهـــم
أنى سأبقى العمر وحدى
لا تبعـــد
وبعثتها من غور يأسى
فى الفضاء المربد
وبقيت أهتف من قرارة وحشتى :
لا تبعـــد

أنا خائفـــــه
قلبي الوحيد يحس ، يسمع
دمدمات العاصـــــفه
خلف الفراغ الأسود
أمســـــك يـــدى
سر بى ، غبار الأرض منعقد على دنيا غدى
يعمى خطاى المجفلات على طريقى الموصد
هـــذا الغبـــار
دوامة دارت بها حولى
أعاصير القفار
تلوى بعمرى المجهد
كيف الهروب ؟
والعاصف الجبار يسفى الدرب وحشى الهبوب
شرس الجناح يسوط أقدامى
على القفر الرهيب
والهـــاويه
تصغى على البعد القريب
إلى صدى أقداميه
بين التواءات الدروب
لا تبعـــــد
وبقيت أصرخ من قرارة وحشتى :
لا تبعـــــد
فتبدد الريح النداء مع الصدى المتبدد
وبقيت وحـــــدى
حيرى ، أدور ، أصارع الدوامة الهوجاء

وحـــــدى
عبر الطريق الموصـــــد

هذه هى القصيدة الجميلة المؤثرة التى كتبتها فدوى عن أزمة العلاقة بينها وبين المعداوى . . والقصيدة ـ على ضوء التجربة الخاصة التى نبعت ـ منها تبدو واضحة وبعيدة عن أى تعقيد . إنها تكشف عن الأزمة النفسية للشاعرة ، وتكشف عن الدور الذى لعبته شخصية المعداوى عن طريق رسائله فى نفس فدوى وقلبها وحياتها العاطفية . لقد كانت العلاقة بينهما صادقة وقوية ، وكان المفروض أن تثمر هذه العلاقة وأن تتطور . ولكنها كانت علاقة قائمة بين طرفين كل منهما مثقل بقيود وعقبات لا يمكن أن تنتهى إلا بالحزن والأسى وانقطاع الأمل فى النجاح العاطفى كلما لاح لهذا الأمل بريق فى الطريق .

الرسالة الثالثة عشر

عزيزتى يا فدوى :

هل تعلمين أننى ـ منذ أن تلقيت رسالتك ـ أجتاز فترة خشع فيها الألم على حد تعبيرك ؟ أنا والله لا أجاملك ولكنها الحقيقة .. الحقيقة العجيبة التى تشبه المعجزة فى عصر أصبح لا يؤمن بالمعجزات ! حتى أعصابى المنهارة التى أثبت الكشف الطبى أنها قد بلغت أقصى درجات التلف . والتى اضطر بسببها الطبيب إلى أن يرجىء العملية الجراحية شهرا بأكمله . حتى أعصابى هذه قد استردت أكثر ما فقدته من حيوية ونشاط ! وقال لى الطبيب لا تقرأ ولا تكتب . ولا تفكر حتى تنقضى هذه الأيام الثلاثون .. ومع ذلك فقد قررت أن أكتب إليك وأقرأ لك ، وأفكر فيك ! .

قررت أن أكتب إليك لأقول لك إن رسالتك قد هزتنى هزا عنيفا .. وأعمق هزة تعرض لها كيانى كله هى إشفاقك من الكتابة

إلى صديقى سهيل إدريس لتسأليه عنى . خشية أن يخبرنى فأذكرك عنده بما لا تحبين ! ماذا أقول لك ؟ أقسم لك بأمى . وهى قسمى المفضل بعد الله . أننى فى زحمة الخواطر السود فى يوم عصيب من أيام مرضى بالريف . كانت لى أمنية واحدة هى أن أصل يوما إلى القاهرة . لماذا ؟ حتى أستطيع أن أمزق كل رسائلك التى بعثت بها إلى ، خشيت أن يطلع عليها إنسان بعدى ! وعندما قدر لى أن أعود تنفست الصعداء . لأن الأيدى التى ستعبث بأوراقى ستجد بينها رسائل كثيرة مماثلة ، ولكنها لن تجد رسائل فدوى . . فدوى التى لا أريد أن يعلم أسرارها المودعة لدى إنسان !

وحتى هذه اللحظة يضطرب فى أعماقى صراع رهيب . . صراع بين شعورين خفيين لا أدرى أيهما أصدق ، شعور يقول لى اليوم وكم ألح على بالأمس : مزق هذه الرسائل لأنك فى يوم قريب ستلقى الله ، وهذه الوديعة لا تتركها للناس . . وشعور آخر يصرخ بأعلى صوته حتى يكاد يقيد كلتا يدى : إنك ستعود ، وستعيش بين هذه الذكريات . . ولن تهون عليك . . أبق عليها إذن ولا تصدق حديث الأوهام ! واستمعت للنداء الأخير يا فدوى حتى أرجع إليك ، ألا ترين أننا مهما صدقناه وملنا إليه فهو نداء المجهول ؟ مهما يكن من شىء فيكفيك أن أصور لك هذا الصراع لتعرفى أى إنسان هذا الذى أشفقت عليه يوما من أن يذكرك بما لا تحبين !

وتتخيلين أننى ظلمتك . . وتودين أن تعتبى على فى يوم من الأيام . . لا مفر إذن من أن أقول لك كل شىء ، وأن أكشف لك عن السر الحقيقى الكامن وراء القطيعة . . ولقد آن أن أتكلم ، وبصراحة ! ومرة أخرى أقسم لك بأمى ، وهى قسمى المفضل بعد

-الله . . أن كل ما سأقوله هنا هو الحقيقة السافرة التى أخفيتها بالأمس وراء قناع !

لماذا كتبت إليك لأقول لك « مرغما » إننا يجب أن نفترق ؟ نعم لقد كنت مرغما يا فدوى . . كنت أشعر شعورا صادقا أن ما بيننا من علاقة كان شيئا فوق الصداقة وفوق الإعجاب ، أو أنه على الأقل قد تخطى هذه المرحلة فى الأيام الأخيرة . . ترى هل أنا مخطىء ؟ لا أظن ! . . وكنت أحس أننا نختفى وراء الألفاظ أو نجبر الألفاظ على أن تتجه اتجاها غير الذى نريد . . يحاول كل قلب أن يفضى بما عنده فلا يستطيع ، فيطل بعاطفته من وراء ستار شفاف صنعته لباقة القلم . . تبرى هل أنا مخطىء مرة أخرى ؟ لا أظن ! وأشفقت يا فدوى من الغد . . الغد الذى سيحمل لكل منا بين طياته معانى العذاب . . إن أبلغ العذاب عندى أن تكون هناك عاطفتان متبادلتان ، ثم لا تستطيع أحداهما أن تقول للأخرى بصوت جهير : إننى أحبك . . لأنها تحس من قرارة نبضها أنه حب بغير أمل .

من هنا قلت لك ذات يوم وداعا ، وكنت أعتمد على الزمن . . الزمن الذى تعود الأحياء أن يلجأوا إليه كلما استعصى عليهم حل مشكلة من المشكلات ، هذا الطبيب الذى يعالج مرضاه دائما بتلك الجرعة الخالدة . . جرعة النسيان ! ولكنك يا فدوى تحديت أوامر الطبيب العظيم ونبذت دواءه . . ثم تناولت جرعة أخرى وقدمت لى منها قطرات فى « دوامة الغبار » . . وكانت مرة المذاق !

بعد هذا كله من الذى يعتب يا فدوى ؟ أنت أم أنا ؟! . . وتقولين إنك كنت على مثل اليقين يوم أن نشرت « دوامة الغبار » من أنها ستصادف من قلبى جدرانا باردة . . لشد ما تظلمين قلبى

يا شاعرة . . . ألا تعلمين أن هذا القلب قد رد على « دوامة الغبار » . . بخفقاته العميقة فى « حيرة الفن والإنسانية »؟! ارجعى إلى ذلك المقال واقرأيه . . لأنك كنت وراء كل سطر من سطوره ، حتى لو كانت بدايته تشير إلى إنسانة أخرى هى صاحبة « من الأعماق » . . ويجب أن تعرفى أن هذا المقال كان معدا للنشر فى عدد « الآداب » الذى تلا قصيدتك ، ولكن ماذا أفعل وصديقى رئيس التحرير يكتب إلى راجيا أن أكتب عن جبران بمناسبة ذكراه ؟ لقد قبلت رجاءه على مضض لأننى لم أكن أحب أن أرجىء « حيرة الفن والإنسانية » إلى عدد آخر . . ولا أكتمك أننى أشفقت يومئذ كل الإشفاق من أن تظنى بى الظنون ، لأننى حملت على « مى » حملة شعواء . . بالله يا فدوى ألم يخطر لك مثلا أننى كنت أعنيك وأنا أتحدث عن مى ؟ صدقينى لقد خشيت أن يكون هذا الوهم الطريف قد دار يوما بخلدك !

وتقولين لى تشجع . . يكفى أن أقول لك يا فدوى إن العملية الجراحية التى تنتظرنى يفر منها أشجع الشجعان ، ومع ذلك سأقدم عليها . . شىء واحد هو الذى يخيفنى هو أن تعيش أمى وحيدة . . أنا لم أحدثك كثيرا عن أمى[1] . . إنها تعيش يا فدوى فى رغد من العيش ، فهى من هذه الناحية لا تحتاج إلى . . بل لعلى أنا الذى احتاج إلى معونتها المادية بسبب إسرافى . . إن وحدتها الشعورية هى التى تخيفنى .

(١) حذفت هنا من هذه الرسالة ثلاثة أسطر فى حديث المداوى عن أمه وجدت أن من المستحيل أن تتحملها حياتنا الفكرية وتأخذها على معناها الطيب البسيط ، وقد تتغير الظروف فأستطيع أن أثبت هذه السطور الثلاثة فى طبعة قادمة من هذا الكتاب .

إننى أكتب إليك الآن من مقهى جميل من مقاهى القاهرة والسماء توشك أن تمطر أو هى تنذر بالمطر ، وليس أحب من المطر إلى قلبى .. إنه يا فدوى يرطب مشاعرى وينعش فى أعماقى هوامد الذكريات . ألا ليتك كنت معى لتتذوقى جمال القاهرة تحت المطر ! ما علينا .. كيف حالك الآن ؟ بل كيف حالكم جميعا ؟ أنا فى انتظار رسالتك التى أرجو أن تكون باسمة .. ولك خالص الشوق وعاطر التحية من المخلص :

أنــور المعــداوى

١٢ / ١١ / ١٩٥٣



تعليق على الرسالة الثالثة عشرة

فى هذه الرسالة يحاول المعداوى أن يبرر القطيعة التى وقعت بينه وبين فدوى بإرادته وبطلب منه ، والسبب كما يقول المعداوى هو أن العلاقة بينهما قد وصلت إلى درجة عالية من الحب العنيف ، وأن هذا الحب سوف يعيش بغير أمل ، وأن هذا كله نوع من العذاب ينبغى تجنبه والقضاء عليه .

وخلال هذه القطيعة كتبت فدوى قصيدتها « دوامة الغبار » ، وكان تأثير هذه القصيدة وما فيها من حزن ولهفة ولوعة كبيرا على المعداوى ، كما لعب المرض دورا فى التأثير عليه ؛ فعاد يكتب إلى فدوى ويتجاوز سائر التحفظات ، ويعلن فى هذه الرسالة إعلانا صريحا صادقا أنه يحب فدوى حبا حقيقيا كبيرا .

وهذه أول رسالة يعلن فيها المعداوى عن حبه بصراحة ، وكانت رسائله السابقة تحوم حول هذا الموضوع دون أن تصرح به ، وفى هذه

الرسالة يشير المعداوى إلى مقالة له عنوانها « حيرة الفن والإنسانية » ، وقد نشر المعداوى هذه المقالة فى مجلة « الآداب » فى عددها الصادر فى يونيو ١٩٥٣ ، وجاء هذا المقال على شكل رد على رسالة من الأديب الفنان محمد أبوالمعاطى أبو النجا ، وهو أحد أصدقاء المعداوى وتلاميذه ، وجوهر هذا المقال هو أن المعداوى يشكو من خلو حياته من المرأة ، ويتحدث عن امرأة معينة فقدها ، ومن يومها فقد طعم الحياة ، وفى هذه الرسالة التى نعلق عليها ، يقول لفدوى إنه كان يعنيها عندما كان يتحدث عن المرأة فى حياته ، وإن كان قد أشار إلى امرأة أخرى هى بطلة « من الأعماق » ، وكان فى الحقيقة يعنى فدوى طوقان فى كل سطر .

يقول المعداوى فى رسالته إلى فدوى مشيرا إلى مقاله « حيرة الفن والإنسانية » : « أرجعى إلى ذلك المقال واقرأيه ، لأنك كنت وراء كل سطر من سطوره ، حتى ولو كانت بدايته تشير إلى إنسانة أخرى هى صاحبة من الأعماق » .

ويقول المعداوى فى مقاله « حيرة الفن والإنسانية » بعد مقدمة يشير فيها إلى بطلة « من الأعماق » التى يقول فى رسالته إنه لم يكن يقصدها وإنما كان يقصد فدوى :

« . . أرأيت يا صديقى إلى تلك الحيرة . . حيرة الأمس التى كانت أشبه بحيرة الفكرة الشريدة المعذبة التى لم تجد دفء خاطر تأوى إليه ؟ أو حيرة الجندى الذى خرج من المعركة وهو معفر الرأس بغبار الهزيمة . . ثم عاد بعد ذلك ليجد أحبابه تحت ركام الأنقاض . . لقد كانت حيرة فيها الشعور بالقلق ، والشعور بالعجز ، والشعور بالضياع ، ومصدر هذه المشاعر المتعددة واحد لا جدال فيه ، هو

فراغ الحياة من امرأة . . امرأة « بعينها » يا ويحنا إذا لم نجدها ، ويا ويلنا إذا وجدناها . . ثم فقدناها . . ثم عشنا من بعدها نفتش عن النموذج ، ونبحث عن المثال !

قبل أن يجدها صاحب هذا القلم كان يعيش فى مثل حيرتك ، هذه الحيرة التى يفقد صاحبها الإيمان بكل شىء : الإيمان بالنفس والإيمان بالدين ، والإيمان بالفن ، والإيمان بكل مثل أعلى يدثر أمجاد الحياة بوشى الطموح ! كان يسير فى طريق الحياة ولا يعرف إلى أين . . لم يكن له هدف يسعى إليه . . ولم تكن له غاية تسدد خطاه ، ولم يكن له أمل ، كل ما يذكره أنه لقى من مرارة السير فى الصحراء ما لم يلقه إنسان . . لقى فيها الشوك ولقى فيها القيظ ، ولقى فيها الصخر ، وذاق ما ذاق من سفى الرمال ولفح السمائم ، وحين وجدها هتف من أعماقه وهو يصور نقلة الشعور من حال إلى حال ؛ ويذكر أنه لمح يوما على البعد واحة ، وأنه وقف مشدوها لا يصدق عينيه وقال لنفسه : سراب ، ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء . . وفجأة ، قالت له قدماه تمهل ، وقالت له عيناه تأمل ، وقالت له نفسه : من هنا يا صاحبى الطريق . . لقد آن للاغب[1] أن يستجم ، وللمجهد أن يستريح وللسفينة الحيرى فى خضم الحياة أن تبلغ الشاطىء .

ونظر إلى السماء نظرة حار فيها دمع واضطرب بريق : واحة فى صحراء . . ونبع يتدفق ماؤه ؟ وزهرة ندية بالعطر فواحة بالأرج ؟ . . كل هذه الأشياء يا رب له ؟ أين كانت وأين كان ؟ . . وابتسم للحياة

---

(١) اللاغب : الإنسان الذى أصابه اللغوب ، واللغوب هو التعب .

من قلبه . . وأضفى عليها من روحه وقبس لها من حبه وألقى بالماضى كله فى مهاوى العدم . . لقد كان يعيش فى حاضره ، حاضره الذى داعبته رؤى من المستقبل الباسم ، ورقصت على حواشيه أطياف من الأمل الوليد ، وانطلقت من أرجائه صيحة العمر الذى بعث . . هناك حيث ينتظره المجد تدفعه إليه يد حانية ، وقلب يخفق ، وبسمة تشرق ، وروح برح بها الشوق إلى لقاء روح . . ويا بعد الدنيا التى كانت فى وهمه والدنيا التى تراءت لعينيه !

قال ذلك قبل أن يلقاها . . وحين لقيها وسكبت فى وجوده أول قطرة من قطرات الإيمان . . وعندما تعاهدا على أن يهب كل منهما للآخر نفسه ، ويومه وغده ، وكل دنياه ، لم يكن يعلم أن هناك يوما فى قبضة المجهول سينزع من كتاب العمر كل صفحة سجلت فترة البعث ، وحددت لحظة الميلاد ، إنه اليوم الذى فقدها فيه . . وفقد معها كل ما أنجبت له من أطفال ، أطفال لا تلد مثلهم الأمهات لأنهم كانوا عباقرة . . كان فيهم طفل يهيم بالجمال ويعشق النغم واسمه الفن ، وكان فيهم طفل يذوب حنانا ويفيض رقة واسمه الحب ، وكان فيهم طفل ترتسم على قسماته مخايل النبوة وبوادر المعجزة واسمه الإلهام ، خرجت أمهم من حياتى فى ليلة عيد ، وخرجوا هم وراءها يشيعونها إلى القبر ، ثم هاموا بعد ذلك على وجوههم فى الطرقات .

أعرفت يا صديقى لماذا فقدت أطفالك . . أو لماذا تعيش بغير أطفال ؟ إن الأطفال العباقرة لا تنجبهم غير أم عبقرية . . امرأة « بعينها » كما قلت لك . . امرأة إذا فقدنا الإيمان بالنفس ، كانت هى اليد الخفية التى تدفعنا بعنف إلى الأمام . . وإذا فقدنا الإيمان بالفن ،

كانت هى الشرارة الفكرية التى تشعل النار فى الرماد . . وإذا فقدنا الإيمان بالدين كانت هى السلم الذى نرتضيه لنصعد قُدما إلى حقيقة الله .

إنها المرأة التى « تلمح » الدمعة وهى تنحدر من حنايا الضلوع إلى أهداب الجفون ، فتجففها قبل أن تنسكب .

إنها المرأة التى « ترصد » البسمة وهى تتدفق من أغوار الشعور إلى أطراف الشفاه ، فتعانقها قبل أن تنطلق .

إنها تلك التى تفرش طريق الحياة بزهر الشوق ، وترش دروب النفس بعطر الأمل ، وإذا شاءت صبت الزهر والعطر فى قارورة الوجدان .

إنها المرأة التى نصطلى دفء هواها ونحن فى شتاء العمر فلا تصطك أيامنا من برد الوحدة ولا ترتجف ليالينا من صقيع الوحشة ، ولا تهتز نوافذ أرواحنا كلما عصفت من حولها رياح الفراغ . إنها تلك التى تغنى مشاعرنا فلا تتسول ، وتؤوى عواطفنا فلا تتشرد ، وتشعرنا ونحن بجوارها أننا لم نكن يوما فقراء . . بلا ثروة . . وغرباء بلا وطن .

هذه المرأة ، إبحث عنها يا صديقى . . فتش عنها فى كل مكان . . وإذا لم تجدها اليوم فعش على الأمل الجميل فى أنك ستجدها غدا ، إن جمال الأمل يتمثل فى قدرته على جعل الخيال واقعا والوهم حقيقة .

وإذا وجدتها يوما ما فهنيئا لك . . عندئذ ستشعر بكبريائك

كمخلوق ، وبعظمتك كخالق[١] . . وعندئذ لن يحار الفن . . ولن تحار الإنسانية . . » .

في هذا المقال يتحدث المعداوى فى حزن ولوعة وشاعرية عن « فدوى طوقان » وعن فترة الانقطاع بينهما ، وذلك ـ بالطبع ـ دون أن يذكر اسمها ، وهو يسجل هنا أنه فقد هذه المرأة التى يحبها ، ويسجل أيضا أن فقدانه لها قد أحدث اضطرابا كبيرا فى حياته الوجدانية بل وفى شتى جوانب حياته الأخرى .

ولكن هذا المقال الرومانسى الجميل لا يكشف لنا عن أسباب فقدانه لحبيبته ، كما أنه لم يكشف لنا عن هذه الأسباب فى هذه الرسالة التى نعلق عليها إلا بقوله : « إنه يخاف من هذا الحب لأنه حب بغير أمل ، فلماذا يرى المعداوى أن حبه لفدوى بغير أمل ، ولماذا حاول أن يقطع ما بينه وبين فدوى ؟ تلك كلها أسئلة تحتاج إلى تفسير ، وقد حاولت أن أفسرها فى مقدمة الكتاب ، وخلاصة رأيى أنه كان هناك شىء مايمنع المعداوى من الزواج ، وأغلب ظنى أنه كان يعانى من مرض أخفاه عن الناس غير مرض الكلى ومرض ضغط الدم ، وأنه عجز عن التغلب على هذا المرض والشفاء منه ، بل إن أغلب الظن أنه لم يصارح به أطباءه حتى يعالجوه منه ؛ لشدة كبريائه واعتزازه برجولته .

يشير المعداوى بعد ذلك إلى مقاله عن « مى » ويقول لفدوى « . . ولا أكتمك أننى أشفقت يومئذ كل الإشفاق من أن تظنى بى الظنون

---

(١) الخالق بمعنى خالق الفن أى الفنان .

لأنى حملت على « مى » حملة شعواء . . باللّه يا فدوى ألم يخطر على بالك مثلا أننى كنت أعنيك وأنا أتحدث عن مى ؟ صدقينى لقد خشيت أن يكون هذا الوهم الطريف قد دار يوما بخلدك . . » .

لقد نشر المعداوى بحثه عن « مى » فى مجلة « الآداب » ثم جمعه بعد ذلك مع مجموعة من الدراسات الأخرى فى كتابه « كلمات فى الأدب » ، وقد أشرنا إلى هذا المقال فى المقدمة ، ومضمون هذا المقال - كما سبق أن قلت - يقوم على اتهام « مى » بأنها معدومة الأنوثة ، وأنها لم تكن شخصية طبيعية فى هذا المجال ، وكان المعداوى يتحدث عن « مى » من خلال رسائلها مع جبران ، على أن فدوى لم تكن مثل « مى » - كما صورها المعداوى - تحاول أن تخفى عواطفها الأنثوية ، ولكن الذى كان يفعل ذلك هو المعداوى ، حيث كان يحاول أن يخفى عواطفه كرجل نحو تلك التى يحبها ويكتب إليها ، وهو الذى حاول أن يهرب من هذا الحب ، بل لقد هرب فعلا وبادر بالقطيعة عدة شهور ، وقال لفدوى وداعا ، وتوقف عن الكتابة إليها ، ثم عاد يكتب من جديد عندما داهمه المرض وأحس بمرارة الوحدة الوجدانية .

ولست أشك فى أن المعداوى ، حتى دون أن يقصد ، كان يضع أمامه صورة فدوى وهو يكتب مقاله عن « مى » . . فقد كان يناقش « مى » من خلال رسائلها مع جبران ، وكان جبران يحب « مى » دون أن يراها أو تراه ، وهى حالة مشابهة من ناحية الإطار العام لحالة فدوى والمعداوى ، حيث قامت بينهما عاطفة من خلال الرسائل دون أن يكون هناك لقاء مباشر . وربما لم يكن المعداوى يقصد فدوى وهو يتحدث عن « مى » ، ولكنه كان على الأقل يحذر فدوى تحذيرا غير مباشر من أن تتعرض لاتهام مثل اتهامه لمى بأنها كانت تعانى - كما يقول - « من الأنوثة المقتولة ، وإذا ما قتلت الأنوثة فى أعماق المرأة فقد قتل

إحساسها بالرجل وانمحت الفوارق الجنسية فى عالم الشعور . . يبدو الرجل فى منظارها وهو لا يختلف عنها فى شىء ، لأنها حرمت حاسة الجنس وسلبت توجيه الغريزة » .

إن اتهام المعداوى لى ليس اتهاما لفدوى ، ولكن كتابة هذا المقال فى فترة القطيعة بين المعداوى وفدوى يعنى بصورة لا شعورية على الأقل أن المعداوى يحاول أن يؤثر فى فدوى ويحذرها من أى موقف متردد من جانبها إزاءه . . . وموقف المعداوى هنا معقد ولا شك ؛ فهو الذى بدأ بالقطيعة ، ومع ذلك فهو الذى يحذر فدوى بطريقة غير مباشرة !! ولا تفسير لهذا الأمر إلا أن المعداوى ، هذا الكاتب الفنان الحساس ، إنما كان يعانى من قلق كبير ويحس بمشكلة من المشاكل القاسية التى لم يستطع أن يتغلب عليها ، وقد حاولت أن أفسر هذا الأمر فى مقدمة الكتاب . . وخلاصة هذا الأمر أنه كان يعانى من مرض يمنعه من الزواج والالتقاء الكامل بالمرأة التى يحبها[1] .

---

(١) أشير هنا مرة أخرى - كما أشرت فى المقدمة - إلى أن هذا المرض ليس بالضرورة مرضا جنسيا صريحا ، ولكنه قد يكون مرضا من الأمراض العضوية التى يعرف صاحبها أن الزواج معها خطر وضرر .

الرسالة الرابعة عشرة

عزيزتى يا فـــدوى

أكتب إليك الآن من المستشفى . . وهذا هو اليوم الرابع عشر يمر على منذ انتهاء العملية الجراحية . . أحى أنا ؟ إننى لا أكاد أصدق ! لا أكاد على الرغم من أننى أستطيع اليوم أن أمسك بالقلم ، دون أن تهتز يدى ، وأكتب إليك !!

هل تعرفين الموت ، إنك لا تعرفينه إلا عن طريق الخيال . . أما أنا فقد عرفته عن طريق الواقع وصاحبته لمدة خمس دقائق . . رأيته رأى العين ، ولقيته لقاء الشعور ، وتجـولت معه لحـظات فى وادى العدم . . . ثم افترقنا أخيرا بمعجزة ، حيث تركته وحيدا وعدت إلى عالم الأحياء ، كيف حـدثت المعجزة ، وكيف بعثت ، علم ذلـك عند الله . . وعند قلبك الذى توجه إليه يوما بالدعاء !!

هل أصف لك ما حدث ؟ إن شعورى الآن لا يقوى على الوصف . . فلنرجىء الحديث إذن إلى الغد القريب ، لأقول لك كل شىء . . لقد كنت أومن بالأمس بقول « تشارلس مورجان » فى إحدى قصصه « كل ما فى الحياة من حقائق : الفن والحب والموت » . . لا يا فدوى ، إن الموت وحده هو كل ما فى الحياة من حقائق .

تسألين عنى ؟ إننى أنا الذى يسأل عنك . . هل سمعت قبل اليوم أن الموتى يسألون عن الأحياء ؟ معجزة أخرى . . وكم فى حياتى من معجزات ! تستطيعين الآن أن تطمئنى . . أما عن وقع رسالتك الأخيرة على نفسى فمعذرة ، إن شعورى الآن لا يقوى مرة أخرى على الوصف ، وليكن موعدنا أيضا ذلك الغد القريب . . لست أدرى كيف أشكرك ، وكيف أصور لك اليوم مكانك من قلبى ودنياى .

لقد أوحت إلى رسالتك الأخيرة أنك قد كتبت لى بعد رسالتى الثانية . . بالله هل تستطيعين أن تعيدى ذلك الذى كتبت ؟ إن تلك الرسالة لم تقع بين يدى ، وإن الأسف على ضياعها ليملأ أرجاء نفسى . . ماذا قلت يا فدوى تعقيبا على تلك النواحى التى كشفت لك عنها فى رسالتى الأخيرة ؟

أنا فى انتظار رسالتك وبين جنبى لهفة الشوق إلى اكتشاف المجهول . . واسلمى لمن سيذكرك ما دام حيا .

٢٨ / ١٢ / ١٩٥٣ — أنور المعداوى

الرسالة الخامسة عشرة

عزيزتى يا فـدوى

رسـالتى الماضيـة كتبتها لـك من هناك .. من المستشفى . أمـا رسالتى الحاضرة فأكتبها إليك من هنا .. من بيتى .. لقد عدت منذ لحظات بعد جولة طويلة بالسيارة فى شوارع القاهرة ، عدت لأكتب إليك لأنك طلبت إلى ألا أتأخر بالكتابة ، ولولا هذه الرغبة الحبيبة . لولاها وحدها لبقيت أسامر القاهرة حتى الصباح .. ترى هل هى القاهرة ؟ لا يا فدوى .. إنها الحياة ، خرجت أستقبلها بعد طـول الفراق ، أفتح لهـا القلب وأمد اليـدين ، وأهتف بالشـوق وأهمس بالحنين ، وأناجيها بحديث طويـل كله عتاب .. وحـين اصطلت كلماتى بدفئها واغترف شعورى من نبعها ، وامتلأت نفسى بجمالها وشبعت عيناى ، رأيت أن أعود إلى هنا لأستقبلك أنت !

تركت حياة واستقبلت حياة .. وأضاءت كلتاهما وجودى وأعادت

إلىّ كل شىء فقدته فى الظلام ، وما كان أثمن أشيائى التى فقدتها فى الظلام . . فتشت نفسى عن صفاتها حتى وجدته ، وبحث فمى عن بسمته حتى لقيها ، وراح قلبى يسأل عن إيمانه حتى عثر عليه . . كنتِ حياة مع الحياة ، وكنتِ نورا مع النور ، ومن خلال هذا المعنى الكبير الذى سطع فى وجودى وتوهج فى دنياى أقبس الآن هذه الكلمات المضيئة .

لقد عدت أؤمن من جديد بقول مورجان : الفن والحب والموت ، كل ما فى الحياة من حقائق . . الحقيقة الأولى سجلتها قصيدتك ، والحقيقة الثانية سجلتها رسالتك ، والحقيقة الثالثة حددتها التجربة المريرة ، تجربتى التى عرفت فيها الوجود والعدم . . ثلاث حقائق يا فدوى ، ولكن يجب أن تؤمنى معى بأن أصدقها وأعمقها وأقواها هو الموت . . تسألينى لماذا ؟ لأن الموت هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يفرق بينى وبينك !!

ترى هل طمأنتك هذه العبارة الأخيرة على أننى لن أقول لك بعد اليوم : وداعا ؟! إنها كلمة قلتها لك بالأمس وشرحت لك دوافعها النفسية ، قلتها ولم أكن أعلم أنها ستحدث كل هذا الأثر فى حياتك . . ولشد ما أتوق اليوم إلى لقائك لأعتذر إليك ، ولأقول لك كما قلت بالأمس : لقد كنت أشفق عليك يا فدوى ، أشفق عليك من حب لا أمل فيه ، حتى هذه الأمنية الصغيرة ، أمنية اللقاء بين إنسان وإنسانة يعيش أحدهما فى القاهرة ويعيش الآخر فى نابلس . . وأقول لك أيضا لقد كنت أحاول أن أجعلها فلسفة بأن أتركك للزمن ليقدم إليك بيديه الحانيتين جرعة النسيان . . ولم أكن أعلم أن لك أنت الأخرى فلسفة حين قلت لى إن أملك من وراء الحب هو الحب

ذاته . . هو أن يجد الإنسان فى هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك ، لأننى سأكون إلى جانبك : بكل خلجة نفس ، وبكل خفقة قلب ، وبكل دفقة من دفقات الشعور . وتسألينني الرأى فى هذه الفلسفة فأقول لك . . اننى مؤمن بها لأننى أومن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح .

لن أشفق عليك إذن يا فدوى العزيزة ، يا شريكة حياتى ولو فصلت بيننا الآماد والأبعاد . . نعم أنت شريكة الحياة طالت أم قصرت ، ابتسمت أم تجهمت ، حكمت بالبعد بين نابلس والقاهرة أم جادت بالقرب وأذنت باللقاء ! لقد أصبحت أؤمن بكل شىء جميل من أجلك . . نفس الإيمان العميق الذى عشت فيه بالأمس البعيد وأحاله الأمس القريب إلى كفر ، هناك حيث بعثر الظلام كل ما أملك وفغر الزمن فاه ليلتهم كل رصيد من الذكريات . . سأعود إلى الفن وأتذوقه ، وسأهب الحب وأتلقاه ، ما دام هناك قلب يخفق ، وبسمة تشرق ، وإنسانة مثلك تحمل بين جنبيها كل هذه العاطفة لإنسان ! !

وماذا أقول لك بعد ذلك يا فدوى ، ترى هل يرضيك هذا النداء ، ويطمئنك على مكانك من قلبى ؟ ! إنك تسألينى أن أصور لك صراعى مع الموت . . ألا توافقيننى على أننا يجب أن نرجىء هذا الحديث ما دمنا نتحدث عن الحياة ؟ ! فلنرجئه إذن يا فدوى ، وأعدك بأن أقص عليك كل شىء فى رسالة مقبلة . . ولا يهمك أمر هؤلاء الذين قد لا ترضيهم « عودة » لأنها لا تحفل بعودة اللاجئين ! ! اتركى لى مهمة الرد عليهم إذا ما خطر لأحدهم أن يتعرض لهذه القصيدة العزيزة بكلمة أو كلمات ، وسأعرف كيف أدافع عن الفن والإنسانية . . ولعلها تكون أول فرصة أعود فيها إلى صفحات

« الآداب » بعد أن اعتذرت أكثر من مرة لرئيس التحريـر الصديق بأننى لن أعود يوما إلى القلم . أصحيح أننى لن أعود إليـه بعد أن عدت إليك ؟ محال ! . . واسلمى لهذا العائد بعد طول الغيـــاب .

١٥ / ١ / ١٩٥٤ أنــور المعــداوى

تعليق على الرسالتين
الرابعة عشرة والخامسة عشرة

يتكرر الحديث فى هاتين الرسالتين عن الموت ، وذلك على أثر العملية الجراحية التى أجراها الأطباء للمعداوى ، وهى عملية إخراج « الحصوة » من إحدى الكليتين ، ولقد كان شعور المعداوى فى تلك الفترة هو حقا شعور المقبل على الموت ، كان لديه تصور بأنه لن ينجو من هذه العملية الجراحية أبدا ، والغريب أن حديث المعداوى عن الموت كان يبدو للكثيرين من أصدقائه وهما من الأوهام ونزعة من نزعاته المتشائمة التى تدفعه إلى الحديث عن الموت حتى ولو لم يكن هناك سبب من الأسباب ، بل لقد كان البعض يتصور أن المعداوى يفتعل قصة مرضه ، حتى فدوى نفسها تصورت فى الفترة الأخيرة من علاقتها بالمعداوى أن المرض الذى يتحدث عنه لم يكن على الصورة التى يصورها المعداوى فى رسائله ، تقول فدوى فى الرسالة التى

تلقيتها منها مع رسائل المعداوى حول هذه النقطة : « فى العامين الأخيرين من مراسلاتنا كنت قد ضقت ذرعا بالتوتر والألم الذى كان يسببه لى أنور بانقطاعه المفاجىء عنى ، ثم عودته من جديد معتذرا بالمرض . وحين تكرر ذلك توهمت أنه كان يحب اللعب بعاطفتى تجاهه . وتسلطت على تبعا لهذا الوهم كبرياء غبية وحمقاء خلقت عندى إحساسا خاطئا بأن قصة مرضه كانت غير حقيقية مائة فى المائة ، لذلك لم أرد على آخر رسالتين بعث بهما إلى وصممت على رفع جدار بينى وبينه . وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت » .

. . هذا الذى تقوله فدوى طوقان ، لا يعبر عن حالها وحدها مع المعداوى ، وإنما يعبر عن حال الكثيرين من أصدقائه ، فقد كان الكثيرون يتصورون أنه يبالغ فى قضية مرضه ، وبالأخص هؤلاء الذين كانوا يرونه ويتصلون به ، حيث كان يبدو أمامهم قوى البنية معافى من الأمراض الظاهرة ، ولذلك فقد أحس الكثيرون من أصدقاء أنور - وأنا منهم - بنفس الندم الذى أحست به فدوى بعد وفاته المفاجئة . إننا لم نكن نصدقه بما فيه الكفاية عندما كان يحدثنا عن المرض أو يحدثنا عن الموت ، بينما كان المعداوى يعانى من شىء حقيقى فى داخله ، وكان يحس أنه يواجه معركة مع الموت ، وقد انتصر عليه الموت أخيرا وهو فى سن الخامسة والأربعين ، وحين كان شبح الموت يبدو لنا بعيدا عن المعداوى كل البعد . إن المعداوى لم يكن يلهو فى حديثه عن الموت بل كان صادقا . فقد كان يعاشر الموت ويصارعه ويحس بأنه معرض له فى أى لحظة بسبب الأمراض التى كان يعانى منها ، وعلى رأسها الكلى وضغط الدم .

حتى عندما سافر إلى قريته قبل وفاته بعدة سنوات وهجر القاهرة وترك العمل فى وزارة التربية والتعليم وترك القراءة والكتابة واعتزل

الدنيا والناس . . . حتى عندما فعل ذلك كنا نتصور موقفه نوعا من الاحتجاج على ما أصابه فى الحياة الأدبية من إهمال وعدم رعاية . وكان يقول لنا إن هذه العزلة مفروضة عليه بسبب المرض الذى يعانيه وهو نوع من ضغط الدم الخبيث الذى يسبب له أرقا وكآبة نفسية . . كنا نتصور أن الكآبة النفسية والرغبة فى الهروب والعزلة لا علاقة لها بالمرض العضوى ، وأنها كلها ناتجة عن سوء معاملة الحياة الأدبية للمعداوى وعدم إتاحة الفرصة له حتى يعبر عن رأيه وفكره .

ولذلك كان موت المعداوى سنة ١٩٦٥ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره مفاجأة وصدمة لكل أصدقائه . رغم ما كان يكرره أمام هؤلاء الأصدقاء منذ سنوات عديدة من أنه يتوقع الموت فى أى لحظة .

ويحدثنا المعداوى فى رسالته الرابعة عشرة عن الموت فقط ؛ ذلك لأنه كان لا يزال فى المستشفى بعد إجراء العملية الجراحية . أما فى الرسالة الخامسة عشرة فيعود إلى ثالوثه المفضل وهو « الفن والحب والموت » ؛ إذ إن آماله فى الحياة كانت قد انتعشت بنجاح العملية الجراحية الخطيرة التى أجريت له . ويستوقفنا فى هذه الرسالة حديثه الذى بلغ أقصى درجات الصراحة عن حبه لفدوى ، حد أن يقول لها فى رسالته « يا شريكة حياتى » ، وهذه العبارة لا تقال عادة إلا للزوجة . ولكننا لا نلمح فى هذه الرسالة أى محاولة من جانب المعداوى لتحويل عبارة « شريكة الحياة » إلى حقيقة واقعية ، فكل الذى يطلبه من فدوى هو أن تكتب إليه ، ولا شىء غير ذلك . . لم يحاول أن يسعى لكى يحقق أى لقاء معها ، ولم يحاول أن يشير إلى إمكانية الزواج منها ، أو ضرورة القيام بمحاولة فى هذا المجال . بل لقد أسعده كل السعادة تعريف فدوى للحب ، وأعلن موافقته على هذا

التعريف وحماسه له . فالهدف من وراء الحب هو الحب ذاته كما تقول فدوى وهو الهدف الذى يتحمس المعداوى له ويردده ويؤكده فيقول : « إن أملك من وراء الحب هو الحب ذاته . هو أن يجد الإنسان فى هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك ؛ لأننى سأكون إلى جانبك ، بكل خلجة نفس ، وبكل خفقة قلب ، وبكل دفقة من دفقات الشعور . . وتسألينى الرأى فى هذا الفلسفة فأقول لك : إننى مؤمن بها لأننى أؤمن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح » .

هذا التعريف للحب الذى يرتضيه المعداوى بل ويتحمس له يعود بنا إلى التساؤل الذى طرحته فى المقدمة والذى أميل إلى الأخذ به ، فقد كان المعداوى يعانى من مرض أخفاه على الناس ، وكان هذا المرض يمنعه من الزواج ، ولست أشك فى أن مثل هذا المرض كان جرحا عميقا يعانى منه المعداوى ، خاصة أنه كان شديد الكبرياء والاعتزاز بنفسه وكرامته ، كما كانت تتوفر له فى الوقت نفسه كل مظاهر الرجولة المكتملة ، بل والجذابة أيضا ، فقد كان المعداوى وسيما مديد القامة شديد الأناقة صاحب ضحكة رنانة عالية ، ولم يكن ليمنعه من الزواج إلا عائق من هذا النوع الذى أتصوره والذى كان شديد الكتمان له ، وإن كنت لا أشك أن مثل هذا المرض قد عرضه لآلام عنيفة وعذاب نفسى كبير ، ومثل هذا المرض هو الذى يمكن أن يدفعه إلى محاولة قطع علاقته بفدوى دون سبب واضح ، وأن يعود إليها بعد أن تعلن له أن هدفها من وراء الحب هو الحب ذاته . . وعندما تسأله رأيه فى هذه الفلسفة يقول لها : « إننى مؤمن بها لأننى أومن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح » . . ثم يقول لفدوى بعد ذلك : « يا شريكة حياتى » دون أن يقوم بأى محاولة لتحقيق هذه

الشركة ، معتبرا أن هذه الشركة تقوم على أساس من العواطف المتبادلة عن طريق الرسائل ، ومعتبرا أن هذه الرسائل تحقق له اكتفاءه العاطفى الكامل دون أن يشعر بأى نقص من أى نوع . وقد رضيت فدوى بهذا الموقف ، وكان المعداوى يخشى أن يزعجها هذا الأمر ؛ فسارع إلى أن يطلب إليها قطع العلاقة بينهما ، ولما اطمأن إلى مفهومها للحب عاد إليها واطمأن قلبه ، وزالت من نفسه كل مظاهر الخوف على مستقبل العلاقة بينهما .

يشير المعداوى فى آخر رسالته الخامسة عشرة إلى قصيدة « العودة » لفدوى ، وكانت فدوى قد كتبت هذه القصيدة بعد عودة العلاقة بينها وبين المعداوى ، ومن الواضح أن فدوى تعرضت بعد نشر هذه القصيدة إلى لوم وجهه إليها البعض لأنها اهتمت « بالعودة » العاطفية دون أن تهتم « بالعودة الوطنية » وهى عودة اللاجئين إلى فلسطين . . وهذا رأى غير مقبول إن كان قد أبداه البعض فعلا تعليقا على هذه القصيدة ، فالقضية العامة لا تستفيد على الإطلاق من قتل العواطف الإنسانية ورفضها حتى لو كانت عواطف فردية وذاتية ، وأذكر هنا ما قاله أفلاطون فى محاوراته من أن : « الحب هو أقدم العواطف جميعها ومن أشدها بأسا ، فهو القوة التى تحيل الشاب العادى بطلا ، فالعاشق يستحى أن يظهر الجبن أمام من يحب . ولو تهيأ لى جيش من العشاق لفتحت به العالم كله » . . والحقيقة أن الحب لا يتناقض مع الوطنية ، فالوطنية فضيلة كبرى . والفضيلة تقوى بالفضائل الأخرى ولا تضعف . والحب فضيلة تغذى الوطنية وتشعلها وتدفعها إلى الأمام ؛ ولذلك فالذين ينتقدون قصيدة « العودة » على أساس أنها قصيدة عاطفية وأن كلمة « العودة » لا يصح أن تستخدم إلا فى معنى واحد هو عودة اللاجئين . . . مثل هؤلاء الناقدين لقصيدة « العودة »

إنما يمثلون نوعا من التزمت الضار الذى لا يفيـد الفن أو الفكر أو الوطنية أو الإحساس الإنسانى السليم .

ونعـود إلى قصيدة « العــودة » التى كتبتهـا فدوى حـين عـادت علاقتها بالمعداوى بعد انقطاع دام ما يقرب من عام كامل ، تقول فدوى :

وأطل وجهك مشرقا من خلف عام
عام طويل ظل فى عمرى يدب كألف عام
عام ظللت أجـره خلفى وأزحف فى الظــلام
وعواصف ثلجية تصطك حولى والطريق
كانت تضيق كأنها أمل يضيق
ويضيع فى تيه القتــام .

***

عام طويل ظل يفصلنا به بحر صموت
بحر دحت أمواجه وتجمدت ، بحر تموت
فيه الحياة وتغرق الخلجات فى برد السكوت
وأنا على شطى الأصم
أنــا والفراغ وليل وهمى
أصغى لعــل صدى يمر
بى ، علَّ شيئا منك ، همس ، نبأة
شــــيئا يمــر
بى منك عبر مدى السكوت
لا شىء ، إلا وطأة ثقلت وصمت مستمر

***

عام ، ودبت بعده فى البحر معجزة الحياه
لم أدر كيف ، هناك رفت بغتة فوق المياه
وهفت حمامـــه
زرقاء فى طهر السماء ، هفت إلى على غمامه
وطوت جناحيها وقرت فى يديه

***

ورنت إليـــه
وتنفست دفئــا وعطـــرا
وشممت فيها منك شيئا هاجنى وجدا وذكرى
فمضيت ألثم ريشها
وجعلت صـــدرى عشـــها
وشعرت أنك عدت ، أنك فى الطريق
واجتاحنى فـــرح الغـــريق
حضنته شـــطآن النجـــاه

***

وأطل وجهك من بعيـــد
حلوا يـــرف على وجـــودى
ورأيت أحزانى تموت على تعانق راحتينا
وأضاء فى فمك ابتســـام
البسمة الجذلى التى أحببتها منذ التقينا
عادت تضىء كأنها قلب النهـــار

وتصب فى نفسى فيشربها دمى
ويعبها قلبى الظمى
ونسيت آلامـــى الكبـــار
ونسيت فى فـــرح اللقـاء عذاب عام
عام طويل ظل فى عمرى يدب كألف عام

هذه هى قصيدة فدوى بنصها ، وهى تحكى قصة القطيعة المفاجئة بين فدوى والمعداوى وأثر هذه القطيعة على نفس الشـاعرة ، ومن الواضح أنه كان أثرا أليما قاسيا ، فقـد ظلت الشاعـرة خلال عـام القطيعة تنتظر شيئا وترجو أن يتغير الموقف الـذى دفعها إلى وحـدة نفسية حـادة :

أنا والفراغ وليل وهمى
أصغى لعل صـــدى يمـــر
بى عل شيئا منك ، همس ، نبـــأة
شــــيئا يمـــر
بى منك عبر مـــدى الســـكوت
لا شىء إلا وطأة ثقلت وصمت مستمر

هذا الفراغ النفسى ، وهـذه الوحشـة المرة التى كـانت تعانيهـا الشاعرة وهذا الوهم الأسود الكئيب . . . تغيرت كلها فجأة عندما تلقت رسـالة المعـداوى التى كتبها إليهـا بعد انقـطاع ، وهى على الأغلب الرسالة الثانية عشرة ، وقد صورت فدوى هذه الرسالة على أنها « حمامة زرقاء » ، واختيار فدوى للون الأزرق يعود فى ظنى إلى أن كل الرسائل التى كتبها المعداوى إلى فـدوى كانت مكتـوبة بخـطه الجميل الأنيق على ورق « أزرق » ، ومن هنـا احتل اللون الأزرق مكانته فى وجدان الشاعرة وفى قصيدتها :

عام ودبت بعده فى البحر معجزة الحياه
لم أدر كيف ، هناك رفت بغتة فوق المياه
وهفت حمامه
زرقاء ، فى طهر السماء ، هفت إلى على غمامه
وطوت جناحيها وقرت فى يديه
ورنت إليـــه
وتنفست دفئا وعطـــرا
وشممت فيها منك شيئا هاجنى وجدا وذكرى
فمضيت ألثم ريشها
وجعلت صــدرى عشها

وتواصل الشاعرة تعبيـرها الجميـل الصادق عن فـرحتها بعـودة حبيبها :

وشعرت أنك عدت ، أنك فى الطريق
واجتاحنى فرح الغريق
حضنته شـــطآن النجـــاه

ونستطيع أن نلاحظ أخيرا ما تكشفه لنا هذه القصيدة البديعة بوضوح من مثالية عـاطفية لا تمت للحيـاة الواقعيـة بصلة ، وكأن هـذا الحب فى حياة فدوى وأنور هو الحب الأول فى حياة صبية وصبى صغيرين بريئين لا يعرفان من أمور العاطفة شيئا سوى اللهفة والحنين ، ويكفى أن نقرأ هذا البيت من قصيدة فدوى لنجد أمامنا تجسيدا لهذه المثاليـة العاطفية المتطرفة ، تقول فدوى :

ورأيت أحزانى تموت على تعانق راحتينا

لقد اطمأن قلب الشاعرة وهدأت عواطفها وماتت أحزانها لمجرد العناق بين يدها ويد حبيبها . . وياليته كان عناقا حقيقيا . لقد كان عناقا بين اليدين فى الخيال .



الرسالة السادسة عشرة

عزيزتى يا فـــدوى

لعلك سألت نفسك ألف مرة ، لماذا انقطعت عن الكتابة إليك ؟ أما أنا فقد حاولت مرارا أن أكتب إليك ولكننى أشفقت . . أشفقت عليك من مثل هذا الذى أكتبه إليك الآن مرغما على كتابته . . إننى منذ ثلاثة أشهر وأنا منقطع عن الناس ، أعيش وحدى ، بكل ما فى الوحدة من معان نفسية لا مـادية ، ومنـذ ثلاثـة أشهر وأنـا أترقب لحظة ، لحظة واحدة أتخلص فيها من نفسى لأخلو فيها إلى نفسى ، التى هى أنت ، فلا أكاد أظفر بهذه الأمنية التى أصبحت اليوم أجمل ما فى الحياة من أمنيات .

فى مثل هذا الجو القاتم الذى أحال الحياة فى عينى ظلاما قررت أن أكتب إليك ، ولكم ترددت حتى لا أضيف إلى أفق حياتك ضبابا فوق ضباب ، ولكننى رأيت أن صمتى سيثير فى سماء نفسك سحبا داكنة

من الشكوك والأوهام . . أمران أحلاهما مر ، ولشد ما يحزننى أن أضطر اضطرارا إلى أن أعكس على حياة الآخرين ، وخاصة هؤلاء الذين أحبهم ، ظلال نفسى وهى تلتقط صور التعبير فى الظلام !

لست أدرى يا فدوى ماذا حدث لى . . كل مشهد من مشاهد الوجود فى عينى قد تغير ، وكل طعم للحياة فى فمى وكل مذاق ! . الشاب المرح الضحوك المتفائل قد تحول إلى إنسان آخر ، إنسان أوشك أن يفقد إيمانه بكل شىء حتى بنفسه ، وسبحان من يضمخ ليل شعوره الطويل بعطر النهار . . أيكون القدر قد ضاق بشبابه المتدفق فأحب أن يذيقه طعم الكهولة ؟ وما طعمها يا فدوى إذا لم يكن هو البسمة التى تغيض حتى لتنسى سحرها الشفاه ، والأمل الذى يَضيع حتى لتتنكر أثره المشاعر ، والنار التى تنطفىء حتى لتضيق برمادها القلوب ، والنور الذى يولى حتى لتكفر العيون بأن فى الدنيا ضياء ؟!

أهذا هو القلم الذى كان يكتب إليك بالأمس وأفراح الوجود تقطر من مداده ، وتتراقص بين سطوره ، وتلقى دروس الرجاء على جموع البائسين من الحياة ، المشفقين من الغد ، الهاربين من المصير ؟ معذرة يا فدوى ، فأنا اليوم كما قلت لك إنسان آخر . . إنسان أراد مخلصا أن يعود إلى سابق أيامه فعبست فى وجهه الأيام ، وتجهم له القدر ، ورحل عن وجوده الأمل كضيف عابر أبى أن يقيم . . أبى ويا طالما لقى فى رحابى من حفاوة الروح ما لم يلقه فى رحاب الناس .

لم يكن بودى أن أكتب إليك كلمة واحدة مما كتبت ، ولكننى كرهت يا فدوى أن أكذب عليك فى مثل هذه اللحظات التى لا يجدى فيها التستر على الواقع بكلمات قد تبدو مضيئة ، بينما تتخبط فى

دروبها الحقيقة وهى معصوبة العينين . . الحقيقة السافرة التى تقول لك إن حالتى الصحية قد عادت إلى ما كانت عليه ، لأن العملية الجراحية السابقة لم تكن حاسمة . . ويصر الأطباء على إجراء عملية أخرى وإلا قضيت بقية عمرى فى كهولة جسدية . . وتقول أمى : محال . . وتحضر إلى القاهرة لتلازمنى حتى لا أقدم على المخاطرة الثانية ، وكفى ما حدث فى المخاطرة الأولى ولم تعلم به إلا بعد حين . . ولشد ما يعذبنى الآن منطق هذه الأمومة ، منطقها الذى يؤثر رؤية الكهولة إشفاقا من رؤية العدم .

هذا هو الوضع الشاذ الذى انتهيت إليه ، ولست أدرى ماذا أفعل ، إننى ما تعودت قط أن أغضب هذه الأم العزيزة فى يوم من الأيام ، ولهذا يخوننى العزم كلما فكرت فى طريقة معينة لإبعادها عن القاهرة حتى أنفذ رغبة الأطباء . ويضنينى شعور آخر ويؤرقنى ويعرضنى لمزيد من العذاب حين أتخيل موقفا آخر أصل فيه إلى ما أريد ، ثم يحدث مثلا أن يصيبنى شىء ما كانت تشفق منه وتخشاه . . ماذا يكون حالها ؟ ماذا يكون ؟

ألا تعذريننى يا فدوى على أننى لم أكن أستطيع أن أكتب إليك طيلة هذه الفترة الماضية ، حتى لا أطالعك بمثل هذه القصة الحزينة ؟ . . أقسم لك ما نسيتك يوما ، وما طغى ضجيج ألمى على صوت وجودك فى قلبى ، كما طغى على أصوات الآخرين ، ومن يدرى . . فقد تعود البسمة إلى شفتى غدا أو بعد غد ، ويعود إليك قلمى كما كان بالأمس وأفراح الوجود تقطر من مداده ، وتتراقص بين سطوره ، لتلقى دروس الرجاء على جموع اليائسين من الحياة ! ألا يحدثك قلبك بشىء من هذا كله ؟ أنا فى انتظار هذا الحديث !

وكيف حالك أنت ؟ إننى منذ حين لم أقرأ لك شيئا ، وكم طال ترقبى لقصيدتك التى حدثتنى عنها فى آخر رسائلك . . أيكون انقطاعى عنك هو الذى شغلك عن الفن وعن الناس ؟ أنا مقدر لشعورك ولظنونك إن كان قد خطر ببالك بعض الظنون ! وإننى لعاجز عن شكرك على هديتك التى لم يقدر لى حتى الآن أن أراها بسبب ظروفى التى شرحتها لك ، والتى أبعدتنى عن القاهرة فترة طويلة قضيتها فى الريف . . ترى ماذا حدث بشأنها وماذا كتب إليك عنها العزيز وائل ؟ ألف شكر لك وله على كل حال . وسلمت لمن يبتهل إلى الله أن يعيده إليك كما أعاده بالأمس .

١٢ / ٥ / ١٩٥٤ — أنور المعداوى

تعليق على الرسالة السادسة عشرة

هذه إحدى الرسالتين اللتين تحدثت عنهما فدوى فى رسالتها التى كتبتها لى حيث تقول « . . فى العامين الأخيرين من مراسلاتنا كنت قد ضقت ذرعا بالتوتر والألم الذى كان يسببه لى أنور بانقطاعه المفاجىء عنى ثم عودته من جديد معتذرا بالمرض . وحين تكرر ذلك توهمت أنه كان يحب اللعب بعاطفتى تجاهه ، وتسلطت على تبعا لهذا الوهم كبرياء غبية وحمقاء خلقت عندى إحساسا خاطئا بأن قصة مرضه كانت غير حقيقية مائة فى المائة ، لذلك لم أرد على آخر رسالتين بعث بهما إلى وصممت على رفع جدار بينى وبينه ، وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت » .

وتكشف لنا رسالة المعداوى عن روح اليأس التى عادت إليه ، فسيطرت عليه من خلالها كآبة كبيرة شاملة ، والسبب الرئيسى لهذه الحالة هو مرضه الجسدى ، وفشل العملية الجراحية ، وإن كنت

للحق لم أسمع منه شيئا عن هذا الموضوع على الإطلاق ، ومع ذلك فلا يمكن أن أنسى أنه بالفعل كان متألما وحزينا فى تلك الفترة ، ولكن ذلك كله كان يعود فيما بدا لنا إلى أن الحياة الأدبية لم تعد تعامله كما كانت تعامله قبل سنوات قليلة ، فقد كانت مجلة « الرسالة » فى تلك الفترة - منتصف سنة ١٩٥٤ - قد أغلقت أبوابها منذ أكثر من عام ، وكانت هذه المجلة هى التى عاش فيها أجمل أيام مجده الأدبى ، والتى كان صوته فيها مسموعا وكانت كلمته الأدبية عالية ومدوية ، ولكن الحياة الأدبية بدأت تتغير الآن ، وبدأ المعداوى يبحث عن مكانه فى هذه الحياة دون أن يجد إلا أصداء لمجده القديم ، وكان هذا الوضع هو الذى يبدو لنا سببا رئيسيا من أسباب تعاسته وشقاء نفسه .

ولكن المعداوى يكشف لنا فى هذه الرسالة عن قصة أخرى ، هى قصة فشل العملية الجراحية التى أجريت له ، هل كان فشل هذه العملية حقيقة أم أنه كان محاولة من المعداوى لتغطية مرض آخر كان يشقيه ولكنه يريد إخفاءه ؟ لست أدرى . ولكن الذى لا شك فيه أنه كان يعانى ألما كبيرا ، وأن حالته النفسية التى عبر عنها فى هذه الرسالة كانت حالة حقيقية ولم تكن وهما من الأوهام ، ولقد كان من سوء حظ المعداوى - ولا شك - أن فدوى لم تعد تصدقه ، وأنها أخذت منه هذا الموقف القاسى فلم تعد تكتب إليه ولم تعد ترد على رسائله ؛ فقد كان المعداوى يجد سعادة حقيقية فى رسائل فدوى إليه ، وكان ينظر إلى هذه الرسائل كنوع من أنواع العلاج لروحه ونفسه . . . كانت هذه الرسائل دواء له وشفاء ؛ ولذلك كان انقطاعها عنه سببا من أسباب ازدياد تعاسته وإحساسه بالوحدة . . . ورغم أن المعداوى كان شديد الكتمان لآلامه وكان شجاعا فى تحمله لهذه الآلام ، وكان حريصا على أن يواجه أحزان الدنيا بكبرياء حقيقية لا تتزعزع . . . رغم هذا كله

فإن السنوات التى تلت عام ١٩٥٤ كانت فى حياته سنوات ألم وحزن ولم تكن سنوات نشوة وفرح ، وكان القريبون منه ـ وأنا أحدهم ـ يشعرون بذلك دون أن يفهموا بالضبط أسباب هذا الشعور القاتم الذى بدأ يداهمه منذ تلك السنوات ولم يفارقه حتى وفاته .

صحيح أنه كان يمر بين الحين والحين بلحظة من لحظات الفرح والنشوة ، عندما تظهر له مقالة فى إحدى المجلات ويجد لها صدى فى الأوساط الأدبية ، أو عندما يلتقى فى ندوته بمقهى « عبد الله » أو مقهى « أنديانا » بأديب عربى جاء يسعى إليه ويحمل إليه صدى من أصداء مجده القديم أيام « الرسالة » ، أو عندما تعرض عليه مجلة أدبية جديدة أن يشارك فى تحريرها ، أو ما إلى ذلك من دواعى الفرح التى كان ينتفض لها قلبه بين الحين والحين ، وما كان أيسر الأسباب التى كانت تمنحه النشوة والفرح ، ومع ذلك فلم تكن الحياة الأدبية بما كان يستحقه من الاهتمام والرعاية ، ولم يكن هو يسعى إلى شىء أو إلى أحد ، كان ينتظر دائما أن يأتى إليه الناس أو تأتى الأشياء ، ولكن الناس والأشياء قليلا ما كانوا يجيئون .

ولهذا تحالفت عليه أسباب الحزن واليأس . . سبب داخلى من مرضه الذى يعانيه ، والذى كان فيه ـ على ما أعتقد ـ جانب يخفيه عن الناس وهو ذلك الجانب الذى كان يمنعه من الزواج أو الارتباط بمن يحب ، وسبب خارجى يأتيه من المجتمع الأدبى الذى أساء معاملة المعداوى منذ سنة ١٩٥٤ أو قبلها بقليل بعد أن كان قد أحسن استقباله ما بين سنوات ١٩٤٨ و١٩٥٢ ، وتلك هى مأساة المعداوى التى حاولنا أن نشرحها ونلقى عليها الضوء فى مقدمة هذا الكتاب .



الرسالة السابعة عشرة

عزيزتى فدوى

كلما سمحت طاقتى النفسية بأن أتناول القلم لأكتب رسالة إلى عزيز ، فثقى أن هذا العزيز هو أنت . . ومع ذلك فإن هذا العزيز الأثير لم يرد على آخر رسالة بعثت بها إليه ، لماذا ؟ حتى الآن لا أدرى ، لقد كانت رسالة قاتمة ، تعثرت كلماتها فى الظلام وهى تتلمس طريقها إلى قلبك . . معذرة لهذا القلب إذا ضاق يوما برؤية ماض حبيب أطل على وجوده ، من خلال ثوب أسود ! أنا « الآن » واحد ممن يكرهون السواد فى كل شىء ، حتى فى لون هذا المداد الذى أكتب به إليك . . ولكم أتمنى أن يتحول تحت يدى إلى مداد أبيض ، عصرته الأحلام من أوراق زنبقة ، ليهب منه على روحك وعينيك . . عطر مضىء !

أتعرفين هذا المداد ؟ أنا أذكر أننى ضمخت به إليك أكثر من رسالة ، وأريد أن أضمخ به منذ الآن كل رسائلى المقبلة ، حتى تحتفظ

هى الأخرى بكل ما فيها من صفاء العطور والأضواء . . إن أجمل الأشياء يا فدوى هو ما يحمل إلى نفوسنا لونا ورائحة ، ولهذا كانت قصيدتك الأخيرة فى « الآداب » بالنسبة إلى مقاييسى الشعورية ، من أجمل الزهور فى حديقة الشعر كله .

إن طلائع النور التى زحفت إلى أرجاء نفسى منذ فترة قريبة ، هى التى تضىء الطريق اليوم لكلمات كانت بالأمس عمياء ، فـإذا بها الآن ترتد مبصرة . . لقد كنت دائما انتظرك يا فدوى ، ولكنه كان انتظارا فى الظلام ، عند ذلك الجسر الكبير الذى طلبت الى أن أمضى نحوه . . يا طالما ذهبت إليه وانتظرتك هناك ، ولكن آه من ذلـك الظلام الرهيب الذى كان يسلبنى الرؤية ، رؤية كل شىء .

كم ألـح عـلى الشـوق ، وكم عـدت للمـاضى ، وكم عشت فى الذكرى » وكم وكم وكم . . ولكننى كنت محتاجا إلى من يحمل إلى مصباحا ولو صغيرا ، لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك .

كان ذلك بالأمس ، أما اليوم . . لم تعد حياتى « مقفرة منك » . . إنك الآن ملء هذه الحياة إحساسا ورؤية ، كل مـا ينقصنى هو أن أنتـظرك « حقيقـة » عنـد الجسـر الكبـير ، وهـذه هى مشكلتنـا الوحيدة . . أنا أشعر أن كلينا ولو أنه يعيش فى وطنه ، محتاج إلى وطن كبـير ، إلى ذلك الـوطن الذى ينسى فيـه غربـة الـروح ، الـوطن الشعورى الذى يتحول فيه كل اثنين إلى واحد ، ويصبح هذا الواحد هو كل الناس . . أليس كذلك يا فدوى ، يا وطنى الـذى أريد أن أرحل اليه ؟

إننى فى الوقت الذى أعود فيه إليك ، أعود إلى عزيز آخـر وهو الأدب . ما كان أطول هذه الفترة التى فرقت بينى وبين أعز حبيبين ،

حتى لقد خيل إلى يوما أن الصدأ قد غلف القلب والقلم ، وياله من خيال . أما عن عودتى إليك فقد عرفت حقيقتها من خلال هذه السطور . . أما عن عودتى إلى الأدب فتتلخص فى أمرين : أولهما أن جريدة القاهرة المصرية المسائية قد دعتنى إلى المشاركة فى تحرير صفحتها الأدبية التى ستصدر ابتداء من الأربعاء المقبل ، أعنى بعد غد . . وقد قررت أن أقصر عليها جهودى . ومن جهة أخرى فقد أعلنت الجهات المسئولة هنا عن جوائز الدولة للأدب والعلم والقانون لعام ١٩٥٤ ، حيث خصصت جائزة الأدب وقدرها ألف جنيه للنقد الأدبى . . ولهذا فقد قررت أن أتقدم للمسابقة بكتابى عن « الأداء النفسى » مطبقا على شعر على محمود طه ، وسأبادر بطبع هذا الكتاب بعد مراجعته مرة أخرى وكلى أمل فى الظفر بالجائزة . . إنها عودة إلى الحب والفن وهما الآن يا فدوى بالنسبة إلىّ كل ما فى الحياة من حقائق . . أتذكرين ؟

كيف حالك الآن ؟ سؤال يهمنى أن أعرف جوابه . . ثم ، أراضية عنى يا فدوى ؟ إياك والمجاملة العاطفية عندما تجيبين عن هذا السؤال الأخير . . كونى صريحة وانقلى إلى كل ما يمكن أن يكون فى نفسك من رواسب ، إن هذا وحده يريحنى . قد تسألينى عن سر هذا التساؤل فأقول لك : إنه قصيدتك الأخيرة فى « الآداب » . . كان فيها يا فدوى شىء من المرارة ، مرارة الشك على الأقل فى أن المنادى قد لا يلفح بحرارة النداء . لقد أحسست هذا المعنى وأنا وحدى الذى يستطيع أن يحسه . وأنا وحدى الذى يشعر بمرارة ظنونك ، ومرارة المشكلة الضخمة التى يثيرها دائما أن كلينا يعيش بعيدا عن الآخر . . أنا واثق من أننا لو كنا معا فى مكان واحد ولو ليوم واحد لحلت المشكلة ، لأن نظرة من العين أو همسة من الشفة أو ضغطة من اليد

كانت تغنى عن فراق أعوام ، لأنها الرصيد المادى الذى تعيش عليه النفس وهى آمنة من شكوك الغد المجهول . . صدقينى إذا قلت لك إننى أفكر كثيرا فى أن أترك عملى هنا اذا ما قدر لى أن أجد عملا مناسبا فى أى بلد يقربنى منك ، وأكون أسعد إنسان إذا كان هذا البلد مثلا هو نابلس . . يقولون هنا يا فدوى عن كل مصرى يعمل بعيدا عن وطنه إنه يسعى وراء الرزق . . ولهذا رفضت عدة عروض مغرية فى أقطار عربية بعيدة ، بعيدة عنك . . لو كان من بينها قطر واحد يجاور المكان الذى أنت فيه ، لرحلت إليه دون أن أشفق من كلام الناس ، سيكون عذرى عندهم أننى لا أسعى وراء الرزق ، وإنما أسعى وراء وطن . . وطنى الشعورى عند ذلك الجسر الكبير .

أنا أحلم بهذا اليوم . . عندئذ تستطيعين أن تقدمى للناس ديوانا آخر ليس عنوانه « وحدى مع الأيام » لأن عنوانه سيكون كما أقترح وأحب سيكون « لست وحدى » .

وأظنك بعد هذا تحبين أن تعرفى شيئا عن واقع حياتى فى هذه الأيام ؛ اسمعى يا فدوى : إن حالتى الصحية الآن جيدة ، وهذا هو كل ما أطلبه من الحياة ، لاننى بذلك أكون راضيا عن كل شىء . وحتى عن ذلك الوضع السخيف الذى وضعتنى فيه وزارة المعارف المصرية . . لقد أقصيت عن عملى القديم عدة مرات فنقلت من مكان إلى مكان . . ، ولا هدف من وراء ذلك إلا تعمد المضايقة . . والسبب هو أننى إنسان متعب فعلا للرؤساء ، وكل ما يتعب الرؤساء هنا أننى أعاملهم على قدر منصبى الثقافى ، وأنهم يحبون أن يعاملونى على قدر مناصبهم الحكومية ! من هنا حدثت عدة مصادمات تبعتها عدة تنقلات ، كان آخرها منذ يومين حيث صدر قرار جديد بنقلى إلى مكان لا يمكن أن يطيقه إنسان مثلى ، ولهذا أضربت عن التنفيذ . .

وأنا الآن فى بيتى مشغول بشىء واحد ، هو هذه الرسالة التى أكتبها إليك .

اسمعى مرة أخرى يا فدوى . . ما دامت صحتى جيدة فليحدث كل شىء . . وما دمت أنت باقية ، فليذهب كل شىء . . ومع ذلك فاطمئنى لأن هناك حنينا ينازعنى إلى الاشتغال بالصحافة . . وعلى المسئولين أن يتفضلوا مشكورين بإصدار قرار جديد يريحنى من رق الوظائف الرسمية[1] .

ترى هل تصل إليكم جريدة « القاهرة » حتى أطمئن إلى أنك ستلاقيننى فيها كلقائى لك على صفحات « الآداب » ؟ إننى أفضل يا فدوى أن يكتب الأدب فى الصحف اليومية على أن يكتب فى المجلات الأدبية ، ذلك لأنه هناك مضمون الرواج لدى القراء من شتى الطبقات ، أما هنا - أعنى حين يكتب فى مجلة خاصة - فهو مقصور على طبقة معينة من الجمهور القارىء محدودة العدد ، ومن الخير للأدب فى هذه الايام أن يكون متاحا لكل الناس .

ماذا بقى لأقوله لك ؟ بقيت أشياء كثيرة أدعو الله من قلبى أن يجمع بيننا يوما لأقولها لك عند ذلك الجسر الكبير ونحن نمشى :

نمشى وقد طال الطريق بنا
فنود لو نمشى إلى الأبد
ونود لو خلت الحياة لنا

(١) يقصد المعداوى بهذه العبارة أن على المسئولين أن يصدروا قرارا بفصله من العمل .

كـطريـقـنـا وغـدت بـلا أحـد

وسلام عليك ، وعلى نابلس ، وعلى الجسر الكبير ، وعلى الوفاء . . ودمت لمن يذكرك حتى فى صمته .

١٣ - ٩ - ١٩٥٤ أنور المعداوى

تعليق على الرسالة السابعة عشرة

هذه هى آخر رسالة كتبها المعداوى الى فدوى طوقان ولم ترد عليها فدوى وصممت ـ كما تقول ـ على رفع جدار بينها وبين المعداوى « وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت » . . والسبب ـ كما أشرت فى الصفحات السابقة ـ هو شك فدوى فى قصة مرضه وفى انقطاعه المفاجىء عنها ثم عودته المفاجئة إليها ؛ مما أوهمها بأنه « كان يحب اللعب بعاطفتها تجاهه » .

والحقيقة كانت غير ما تصورته فدوى ، فلقد كان المعداوى فى هذه الفترة بالذات أحوج ما يكون إليها ؛ ذلك لأنه وقع فى مشكلة أخرى غير مشكلة مرضه وهى مشكلته فى عمله .

وهذه المشكلة العملية لها قصة أشرنا إليها فى المقدمة ؛ فقد كان المعداوى يعمل بالإدارة العامة للثقافة فى وزارة التربية والتعليم التى كان اسمها وزارة المعارف آنذاك ، وكانت هذه الإدارة تقوم ـ على

نطاق ضيق ـ بوظيفة وزارة الثقافة التى لم تكن قد أنشئت فى مصر ولا فى أى مكان آخر من الوطن العربى فى ذلك الحين ، وكانت مهمة المعداوى بالذات هى كتابة تقارير عن الكتب الأدبية والثقافية المختلفة وترشيح ما يصلح منها لكى تشترى وزارة المعارف كميات من هذه الكتب تضمها إلى مكتبات المدارس .

وإدارة الثقافة هى التى كان يتولاها عدد كبير من أدبائنا المعروفين ، فقد تولاها طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى وغيرهم من كبار الأدباء ، وكان المعداوى سعيدا فى عمله بهذه الإدارة ؛ حيث كان العمل يناسب طبيعته وميوله واهتماماته الادبية والثقافية ، ولم يكن عليه فى هذا العمل مشقة كبيرة ، بل كان يجد فى هذا العمل راحة حقيقية كاملة ، وكان يجد فرصة لتحويل مكتبه إلى ندوة ثقافية دائمة يستقبل فيها أصدقاءه وتلاميذه من الأدباء والمثقفين .

وقد بدأت مشكلة المعداوى فى هذا العمل ـ كما أشرنا فى المقدمة ـ عندما تولى الدكتور سليمان حزين منصب المدير العام لإدارة الثقافة ، فقد حدث صدام عنيف بين الدكتور حزين والمعداوى . . وكان سبب الصدام أن الدكتور حزين اعترض على بعض تقارير المعداوى وحاول أن يجرى فيها تعديلا بحجة وجود بعض الأخطاء اللغوية والتعبيرية فيها . وهنا ثار المعداوى ثورة عنيفة فى وجه رئيسه وأفهمه أنه لا يملك أن يقوم بتعديل ما يكتبه المعداوى فالمعداوى أديب كبير ، وإذا كان هناك من يخطىء فى اللغة والتعبير فهو الدكتور حزين وليس أنور المعداوى .

وكتم الدكتور حزين سخطه مؤقتا ، وبعد فترة انتقل الدكتور حزين من منصبه كمدير لإدارة الثقافة إلى وكيل لوزارة المعارف

وأصبح مسئولا عن كل موظفى وزارة المعارف ، وبينهم موظفو الإدارة العامة للثقافة التى كان المعداوى لا يزال موظفا فيها ، وهنا جاء العقاب ، فقد أصدر الدكتور حزين قرارا بنقل المعداوى من وظيفته إلى وظيفة مدرس للغة العربية بمدرسة « خليل أغا » الثانوية بالقاهرة ، وكان هذا القرار صدمة كبرى وقاسية لأنور المعداوى ، فليس من المعقول بعد أن بذل المعداوى ما بذله من جهد فى الحياة الأدبية أن يتحول فجأة إلى الالتزام اليومى بالذهاب إلى مدرسة ثانوية يقوم فيها بتدريس النحو والإنشاء والمحفوظات للتلاميذ ، ثم كيف يقوم هذا الناقد الثائر المتمرد بتدريس نصوص أدبية له فيها رأيه الخاص ، الذى قد يتعارض مع الرأى السائد بين المسئولين عن التعليم ؟

هل يقول للتلاميذ إن هذه القصائد مثلا من الأدب الجيد وهو لا يؤمن بذلك ؟ . . مستحيل . . إنها مهنة لا تناسبه على الإطلاق ولا تصلح له ولا تليق به ، ولم يكن هناك مبرر لمثل هذا الإجراء الذى اتخذه الدكتور سليمان حزين ضد أنور المعداوى . . إن الدكتور حزين رجل فاضل وهو من علمائنا الكبار ، ولكن هذا لا يمنعنا من القول : إن قراره ضد المعداوى كان قرارا قاسيا أشد القسوة ، وكان قرارا فيه ظلم كبير لهذا الأديب ، ولست أبالغ ـ وأنا أعرف المعداوى عن قرب ـ إذا قلت إن هذا القرار قد ضاعف مرض المعداوى وحطم حياته النفسية وأسرع بموته .

لقد امتنع المعداوى عن تنفيذ القرار فى البداية ، وكان يأمل أن يكون هناك حل لهذه المشكلة ، وأن تتراجع وزارة المعارف عن موقفها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ولم يكن المعداوى يعيش فى

رخاء يمكنه من الاستغناء عن الوظيفة ، فاضطر آخر الأمر إلى تنفيذ القرار . وكانت حالته المعنوية فى تلك الفترة فى أقسى درجات التدهور والهبوط ، ولكنه كان يحاول أن يتماسك وأن يتحمل ويصبر فى لون من ألوان الكبرياء المجروحة المتألمة .

ومن هنا - فى رأيى - كانت رغبة المعداوى صادقة فى الرحيل خارج مصر ولو وجد فرصة فلا شك أنه كان سوف يرحل ، ولكنه لم يتعود على أن يطلب شيئا من أحد ، ولم تحاول فدوى من جانبها أن تيسر له عملا فى نابلس ، ربما لأنها كانت قد اتخذت قرارا بمقاطعة المعداوى ، وربما لأن نابلس لم يكن فيها عمل يناسب المعداوى .

على أن المعداوى لم يستمر فى عمله كمدرس ، بل انقطع بعد فترة عن الذهاب إلى المدرسة ، وصدر قرار بفصله من وزارة المعارف ، وبقى فترة أخرى بلا عمل ، كان يقضى معظمها فى قريته ، وبعضها كان يقضيه فى القاهرة ، إلى أن أنتهى بـه الأمر إلى تعيينـه موظفـا بالمكافأة ، أى موظفا غير مثبت على درجة من الدرجات الحكومية فى وزارة الثقافة بعد إنشاء هذه الوزارة ، وقد ظل فى هذا العمل حتى وفاته سنة ١٩٦٥ .

كلما تذكرت هذه السنوات التى امتدت فى حياة أنور المعداوى من سنة ١٩٥٤ حتى ١٩٦٥ شعرت بحزن حقيقى كبير ؛ ذلك لأن الحياة الأدبية كانت قاسية أشد القسوة على هذا الأديب الناقد الحساس الموهوب ، وكأن الحياة الأدبية كانت تعاقبه على جرأته وصراحته ، وكأنها كانت تنتقم منه انتقاما مرا فيه الكثير من العمد والقصد والتدبير . والذى يمكننا أن نخرج به من محنة المعداوى هو : أن الناقد فى مجتمعاتنا المتخلفة التى لم تتعود على احترام حرية الرأى لابد أن

يتعرض للأذى الشديد ، خاصة اذا كان هذا الناقد صريحا وجريئا وبعيدا عن الانتهاء إلى تجمع له نفوذ ، فالصراحة والجرأة فى النقد جريمة لابد أن يتلقى صاحبها العقاب عليها ويدفع الثمن .

وقد دفع المعداوى الثمن ودفعه آخرون من النقاد الذين تعودوا أن يلتزموا بضميرهم الأدبى كلما واجهوا عملا فنيا أو قضية من قضايا الفكر والثقافة ، وكانوا على الدوام معتزين بأنفسهم وبكرامتهم الأدبية .

ولقد حاول المعداوى أن يخرج من الحصار المضروب حوله وذلك عندما اتفق مع جريدة « القاهرة » المسائية للعمل بها . ولكن الجريدة ـ مع الأسف ـ ولدت ضعيفة ماديا وأدبيا ، ولم يقدر للمعداوى أن يكتب فيها سوى عدد قليل من المقالات ، وأذكر أن المقال الأول الذى فى هذه الجريدة قد ضاعف متاعب المعداوى ولم يخفف منها ، وكان سببا من الأسباب التى عرضته لمزيد من المتاعب حتى آخر يوم فى حياته ، كان هذا المقال هجوما عنيفا قاسيا على أدب يوسف السباعى ، ولم يكن المعداوى يعلم أن هذا المقال الجرىء سوف يكون لعنة عليه حتى يوم وفاته ، فيوسف السباعى لم يغفر للمعداوى هذا المقال على الإطلاق . . . وبذلك ازدادت متاعب المعداوى بعمله فى صحيفة « القاهرة » ولم يكن هذا العمل حلا لأزمته بل كان من عوامل زيادة الأزمة .

على أن جريدة « القاهرة » لم تعش طويلا فقد أغلقت أبوابها ، وتوقف المعداوى عن الكتابة فيها منذ البداية ، ولكن مقاله عن السباعى قد أثار عليه متاعب قاسية .

ويهمنا هنا ـ من باب التسجيل التاريخى ـ أن ننقل نص مقال

المعداوى فى جريدة « القاهرة » . فهذا المقال يكشف لنا عن العنف الذى كان يتسم به نقد المعداوى ، وعن الحدة التى كان يخوض بها معاركه فى سبيل ما يؤمن أنه الحق ، كما أن هذا المقال كان سببا من الاسباب القوية للمعاناة التى تعرض لها فى الحياة الادبية ومن هنا يصبح المقال وثيقة أدبية لها أهميتها وقيمتها .

وقد نشر المعداوى هذا المقال فى عدد جريدة « القاهرة » الصادر فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ، وكان عنوان المقال هو « خمارات أدب ومعربدون وسكارى » وهذا هو نص مقال المعداوى :

« فى حياتنا الأدبية اليوم ظاهرة عجيبة . . ليست هى على كل حال ظاهرة الركود الذى يعانيه الأدب منذ حين ، لأن هذا الركود عارض مؤقت سيزول حتما إذا ما زالت أسبابه ودواعيه ، وليست هى ظاهرة اختفاء الاقلام الرصينة لتحل محلها الأقلام الهزيلة ، لان هذا الوضع مطابق تماما للنظرية الاقتصادية التى تقول لك : إن العملة الرديئة تطرد العملة النظيفة من السوق . . ليست هذه ولا تلك ، وإنما هى ظاهرة الاستهتار المدمر الذى تحولت معه بعض المجلات التى تتحدث عن الأدب إلى خمارات ، وتحول معه بعض الكتاب إلى مجموعة من السكارى والمعربدين !

هذا السكر فى الأدب ، السكر الذى ينتج عنه مثل هذه العربدة ، ما هى مقدماته عند هذا الفريق من الكتاب ؟

مقدماته أنهم يعرفون تماما قيمة الأشربة . . يعرفون أن هناك شرابا لا طاقة لهم به ، لانه يكلفهم الوقت وليس لديهم وقت ، ويكلفهم الجهد وليس لديهم جهد ، ويكلفهم العناء الذى لا تحتمله أعصابهم الرقيقة . . هذا الشراب المرتفع الثمن اسمه علم ،

وثقافة ، ومعرفة . ولهذا نبذوه ! وكان طبيعيا بعد ذلك أن يتجهوا الى الشراب الآخر ، الى الخمرة الرخيصة ، خمرة الفراغ المعتق فى دنان الخمر الرخيص . . ومن هنا تخرج الالفاظ من أفواههم وهى تترنح ، وتنطلق الافكار من رءوسهم وهى تعربد ؟

أشنع أنواع العربدة الفكرية هى أن يتحلل الكاتب من كل القيود التى تحدد صفات الأديب . . ثم يسلك نفسه بعد ذلك فى عداد الأدباء فينتج ، ثم فى عداد الموجهين فيوجه ، متخيلا أنه « صاحب رسالة جديدة » يريد أن يفرضها على الناس . . إن الكاتب الذى نعنيه من وراء هذه الكلمات قصاص شاب ، لم يتقيد فى كتابة القصة بأى قيد من القيود الفنية التى يعرفها النقد ، ومع ذلك فهو أكثر قصاصينا الشبان قراء وأضخمهم إنتاجا . . لانه يكتب القصة بنفس البساطة التى تدخن بها أنت سيجارتك . ويمسك القلم كما تمسك أنت بعود الثقاب ، ويبدأ عملية الكتابة كما تبدأ أنت عملية التدخين ، ويملأ الصفحات كلاما كما تملأ أنت الجو دخاناً ، وتنتهى القصة من بين يديه ، كما تنتهى السيجارة بين شفتيك ، أعنى أن كلتيهما تتحول الى « عقب » . . وكل الفارق بينكما أنك تقذف بأعقاب سجائرك إلى الأرض وهو يقذف بأعقاب قصته إلى المطبعة ! يكتب القصة ببساطة لأن مفهومها فى ذهنه مفهوم بسيط . . . حكاية مسلية ولا شىء غير الحكاية المسلية وكفى الله القصاصين من أمثاله شر القيود . . وإذا كنت ممن يعرفون عدد طلاب التسلية من أنصاف المتعلمين فى مصر ـ هؤلاء المولعين بجمع أعقاب القصص ـ فستدرك على الفور لماذا كان صاحبنا أكثر كتابنا القصصين الشبان قراء !

لقد ألغى قيود الفن فى كتابة القصة لأنه يجهل تلك القيود ، وحين بقى أمامه قيد واحد خاص بمشكلة التعبير وهو قيد اللغة ، راح

يطالب بإلغائه أيضا لأنه يجهله . . كل أديب يستحق أن نطلق عليه صفة الأديب يحاول أن يعوض جانب النقص فيه بالاطلاع والدراسة ، لتكمل بين يديه الأدوات . . وهذا هو منطق الأدباء الواعين ، أما صاحبنا فهو من طراز عجيب . . منطقه أن كل شيء يجهله لا يصح أن يعالج بالعلم وإنما يعالج بالإلغاء . . وهو منطق نعرفه عند فريق من الناس ، فريق كلما اعترضته مشكلة صعبة من مشكلات الحياة لجأ إلى الحل المريح ، والحل المريح هنا هو أن يقصد إلى أقرب خمارة ليلغى عقله ، وبهذا العلاج تلغى المشكلة . . إنه منطق السكارى والمعربدين !

هذا الكاتب مريض ، ومن حقه على النقد أن يعالجه ، وعلاجه هو أن يبصره بقيمة القيود . . القيود الفنية التى يلتزمها القصاص ليستطيع أن يكتب القصة ، وهى تلك التى ألغاها بالأمس ، والقيود اللغوية التى يجب أن يلتزمها الكاتب ليستطيع أن يلتقى مع الأدباء ، وهى هذه التى يطالب بإلغائها اليوم . . وإننا لنرجو أن يقتنع ، فيلغى إنتاجه القديم مثلا وكذلك أفكاره الجديدة ، واسمع يا حضرة الأستاذ :

إن الفن فى كل صورة من صوره ما هو إلا عملية اختيار . . والقصة كصورة من صور الفن لابد أن تخضع لهذا المقياس ، لابد مثلا أن تختار لحظة « ممتازة » أو موقفا « ممتازا » من الواقع الذى نعيش فيه . . ونقول لحظة ممتازة أو موقفا ممتازا لأن الواقع فى جوهره ما هو إلا مجموعة ضخمة من اللحظات والمواقف ، تترابط وتتشابك ، وتتعقد ليكون منها المضمون المادى للحياة . أمام هذه الزحمة التى تختلط فيها الماديات بالمعنويات ، تبدأ أول تجربة فنية واعية لتواجه كاتب القصة . . عليه أن « يختار » من خلال هذه الزحمة اللحظة

الموحية أو الموقف المضىء . عليه أن يقتطع أجزاء خاصة من جسم الواقع ، ليقدم إلينا هـذا الواقـع من خلال أكـثر أجزائـه إشعاعـا وإضاءة . . وحتى هذه اللحظات المختارة ، يفضل فيها من جهة الفن أن تكون لحظات إيجابية لا سلبية ، ذلك لأن هناك فرقا بين عمل يقدم إلينا « قصة » وبين عمل آخر يقدم إلينا « صورة » ، والفارق بين لحظة من الطراز الأول وبين لحظة من الطراز الأخير هو الـذى يؤدى إلى امتياز القصة على الصورة . . إن مصدر امتياز القصة على الصورة هو أن الايجابية هناك ناتجة عن تصوير « مشكلة » وإن السلبية هنا ناتجة عن تصوير « حادثة » . . وهذه هى المرحلة التطويرية فى عملية الاختيار .

بعد هذا تبقى التجربة الثانية ، ونعنى بها الناحية « التكنيكية » فى كتابة القصة . . إنها العملية التى تتمثل فى وضع « التصميم الفنى » وما يشتمل عليه هذا التصميم من خطوط ، أولها خط الاتجاه المادى الذى يعبر عن الواقع الخارجى للمشكلة ، ثم خط الاتجاه النفسى الذى يصور انعكاس هذا الواقع على الوجود الداخلى للشخصية ، حين يتحول هذا الانعكاس إلى مجموعة من السلوك تبـرز الناحيـة الإيجابية فى القصة . ثم هذا الخط الأخير ونعنى به خط اللمسات الموحية ، تلك نفسية ![1]

بهذه المقاييس أو بهذه القيود ، تكون القصة قصة . . وحين تلغى هذه المقاييس ، أو هذه القيود ، تكون القصة حكاية مسلية ، تكتب

---

(١) هذه الجملة وما قبلها مضطرب فى النص الذى نشرته الجريدة ، وعلينا أن نفهم ما يقصده الكاتب من خلال السياق ، وهو أن تكون اللمسات الموحية لمسات نفسية .

ببساطة مستهترة . . تماما كهذه الكلمات التى كتبت بهذا اللون من البساطة بقلم هذا الكاتب حول قيود اللغة ، فى أول صفحة من المجلة الوحيدة التى يقال إنها تحمل لواء الأدب فى مصر . . ودعنى أقدم إليك نموذجا من تلك الألفاظ المترنحة والأفكار المعربدة .

« فمازلت ألحن حتى الآن . . وما زلت أسمع اللحن فأقبله ببساطة « لاحظ كلمة البساطة هنا » دون أن تترك فى أذنى أقل ضيق أو تبرم . وأنا لم أضق يوما بنقد وجه إلى فى النحو ، رغم أن موجهى النقد أنفسهم ضاقوا بى واعتبروا هذا الخطأ فى النحو وصمة يجب أن أمحوها . فقد أنبنى عمى على هذا الخطأ ، ثم أنبتنى الزميلة ابنة الشاطىء فى نقدها لأحد كتبى لأنها وجدت به ما يربو على المائة غلطة ، ثم أنبنى عديلى عباس حسن أستاذ اللغة العربية بدار العلوم لأنى أخطأت فى حديث لى بالإذاعة سبعا وعشرين غلطة ! لماذا كل هذا التعب « لاحظ مرة أخرى أن الكاتب لا يريد أن يتعب » . . ألأن العرب منذ ألف سنة رفعوا هذه ونصبوا تلك ؟ ليكن . . لنحافظ على تراثهم كما هو ، على أن نحلل لغتنا من أثقاله وقيوده « لاحظ مرة ثالثة أنه يضيق بالقيود » . . وننقولها بأبسط الطرق . . لنسكن آخر الكلمة ، ولنبطل التنوين ، ولنقل الجمع بالياء فقط ، ولتكن الصفة العددية مطابقة للموصوف مهما كان العدد ، ولنحرم أدوات الجزم والنصب من سلطانها فى الجزم والنصب والحذف ، لنتحلل من كل هذا ولنعرف المنوعات من الصرف ، ولنتحدث بلغتنا دون خوف من لحن أو خطأ ، يجب أن يزول احتكار اللغة بقيودها وقواعدها ونحوها وصرفها . . وأنا واثق أنه لن يأسف على ذلك إلا جيل الشيوخ من أدبائنا ، محترفو اللغة العربية فى وزارة المعارف والأزهر والجامعة ، ولا أظننا ـ من أجل هؤلاء ـ يجب أن نظل راسفين فى تلك الأغلال الملعونة ؟ ! » .

يريد الكاتب من وراء هذه « الرسالة » الجديدة التي يحملها إلى الأدباء ، أن يقنعهم بترك هذه اللغة التي يكتب بها وتزخر بكل هذه القيود ، لماذا ؟ لأنه هو « شخصيا » لا يجيد الكتابة بمثل هذه اللغة ، ترى هل تستطيع البساطة المستهترة أن تفهم القيمة من هذه القيود ، حين نتحدث عن تلك القيمة فى كلمات واضحة وموجزة ؟

اسمع مرة أخرى ياحضرة الأستاذ :

إن اللغة التى تريدها وتريد للأدباء أن يكتبوا بها هى اللغة العامية ، أو هى اللغة التى ستنتهى بنا حتما الى أن نكتب الأدب بلغة العوام . . إلى هنا ونقف قليلا لنحقق لك كل ما تطمع فيه من خيال ، وهو أن كل المثقفين فى مصر سيستجيبون لدعوتك ويكتبون بلغتك ، أقصد باللغة التى تريد . . إذا حدث هذا فليس من شك فى أنه سيكون حلا موفقا للمشكلة ، أعنى مشكلتك الشخصية المعقدة . . ولكن ماذا نفعل إذا كان ثمن التغلب على هذه المشكلة الفردية ، هو قيام مشكلة أخرى أكثر تعقيدا لأنها مشكلة جماعية ؟

ترى هل تدرك حقيقة هذه المشكلة الأخيرة ؟ إنها تتلخص فى أن اللغة العامية تختلف فى مصر عنها فى بقية أقطار العروبة ، ومعنى هذا أن أدبنا الذى سيكتب بلغتك سيحجز هنا ولن يتخطى الحدود . . لن يقبله لبنان مثلا لأنه لن يفهمه ، وكذلك لن يقبله العراق ولن تقبله سوريا وتونس ومراكش وكل بلد عربى يعجز عن أن يتفاهم مع هذا الأدب . . والنتيجة واحدة فيما لو استجاب العراقيون أو اللبنانيون مثلا لدعوة محلية مماثلة ، وكتبوا الأدب بلغتهم العامية ثم حاولوا القيام بتصديره إلى مصر !

أعتقد بعد هذه الكلمات أننا لا نستطيع أن نضحى بمشكلة

الجماعة فى سبيل مشكلة فرد . . فرد عاجز عن أن يكتب باللغة الوحيدة التى لا يمكن بغيرها أن تتفاهم كل هذه الأقطار . . من هنا يجب أن يدرك هذا الفرد أن تلك القيود التى يدعو إلى إلغائها ببساطة هى أساس البناء التعبيرى لتلك اللغة التى يحرص على بقائها غيره من الأدباء ، لأنها الأداة الأولى لتكوين وحدة فكرية كاملة بين البلاد العربية !

وإلى أن نكتب عن بقية السكارى والمعربدين فى المقالات القادمة ، أود أن أطمئن صاحب الدعوة الجريئة إلى أننى لست واحدا من محترفى اللغة العربية فى وزارة المعارف والأزهر والجامعة . . وإنما أنا واحد من الأدباء ! »

هذا هو مقال المعداوى ضد يوسف السباعى ، ويمكننا أن نأخذ عليه أنه ناقش رأى السباعى فى اللغة العربية ، ولم يناقش أدبه مناقشة تطبيقية ، أى أن المعداوى لم يقدم نماذج لما يعترض عليه فى أدب السباعى ، واكتفى المعداوى بالهجوم العام على السباعى وأدبه ، أما بالنسبة لقضية اللغة العربية فإن موقف المعداوى واضح ومفهوم ، فقد اختار فقرات من مقال للسباعى نشره فى مجلة « الرسالة الجديدة » التى كانت تصدر فى القاهرة سنة ١٩٥٤ وكان السباعى رئيسا لتحريرها ، وبذلك كانت مناقشة المعداوى لآراء السباعى فى اللغة العربية مقنعة ، خاصة أن رأى المعداوى صحيح ورأى السباعى خاطىء لا يمكن الموافقة عليه .

ولقد كان من الضرورى بالنسبة للمعداوى أن يدعم رأيه فى أدب السباعى ـ وهو أدب سطحى فى مجمله ـ بنماذج وشواهد تجعله أكثر إقناعا ووضوحا كما فعل فى مناقشته لموضوع اللغة .

وبعد أن ظهرت مقالة المعداوى فى جريدة « القاهرة » نشر السباعى فى مجلة « الرسالة الجديدة » - كرد غير مباشر على هجوم المعداوى - مقالا قديما كان المعداوى قد نشره سنة ١٩٤٦ وكان فى هذا المقال يمدح يوسف السباعى .

وقد أعيد نشر هذا المقال الذى مدح فيه المعداوى يوسف السباعى فى كتاب صدر أخيرا بعنوان « الفكر والفن فى أدب يوسف السباعى » وهذا الكتاب موجود فى الأسواق وبين أيدى القراء .

وقد عقب المعداوى على إعادة نشر مقاله القديم فى مدح يوسف السباعى بمقال فى جريدة « القاهرة » أيضا تحت عنوان « قصة مقال فى مجلة أدبية » ، وهذا المقال الثانى نشرته جريدة « القاهرة » فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وفيما يلى نص هذا المقال :

« شكرا لتلك المجلة التى يقال إنها تحمل لواء الأدب فى مصر . . شكرا لأنها تفضلت فنشرت لى مقالا قديما سبق نشره ولأنها قد وضعت المقال فى إطار جميل « ملون » يدل على عناية خاصة ، ولأنها - وهذا هو الأهم - لم توضح للقراء لماذا كتب هذا المقال ، وأين نشر من قبل ، ومتى ! لباقة ما فى ذلك شك . . لأن المحرر اللبق قد حاول أن يخدع القراء فيوهمهم بأن المقال جديد ، وأننى قد أرسلته إليه منذ شهر مثلا أو شهرين فلما تأخر نشره هاجمته على صفحات « القاهرة » وبذلك يصفق القراء لهذا التناقض الخطير بين رأيى الأول فى أدبه الخالد ، وبين رأيى الأخير الذى أعلنته هنا منذ أسبوعين . . لباقة مدهشة ، ولكن عيب هذه اللباقة أنها تخدش جسم الحقيقة ، الحقيقة التى تبتسم ساخرة لتقول لك : إن هذا المقال قد نشر منذ ثمانية أعوام ، وفى مجلة اسمها « العالم العربى » وأنه ما كتب إلا لغرض

واحد هو تشجيع قصاص مصرى ناشىء كان يخطو فى ذلك الحين خطوته الأولى وهو مستند إلى أذرع النقاد .

منذ ثمانية أعوام تبدأ قصة هذا المقال ، أو قصة الشاب الذى أخرج أول كتاب ليقدمه إلى ناقد ، طالبا إليه فى أدب جم ورجاء صادق ، أن يساعده بكلمة يستطيع بها وبكلمة أخرى من غيره ، أن يشق طريقه .

ذلك الشاب هو محرر المجلة التى يقال إنها تحمل لواء الأدب فى مصر ، وهذا الناقد هو كاتب هذه السطور ، ولم يتردد هذا الناقد فى أن يأخذ بيد القصاص الناشىء لسببين : أولهما أن كتابه الأول كان يبشر بموهبة يمكن أن تثمر لو وجهت التوجيه الفنى الصحيح ، وثانيهما أن كلمة تشجيع لو طبعت بطابع التساهل يمكن أن يكون لها فعل السحر فى تحويل خطوة الناشىء المتعثرة إلى خطوات زاحفة . . من هنا كتبت تلك الكلمة ورجوت بعض الأصدقاء أن يشجعوه بكلمات مماثلة ، ثم رحنا جميعا نرقب الخطوات المنتظرة للقصاص الشاب فإذا هى خطوات زاحفة فعلا . . ولكن إلى الوراء .

هذه هى قصة المقال القديم الذى نشر منذ ثمانية أعوام ثم أعيد نشره منذ خمسة أيام . . المقال الذى لم يخل من عبارة تحذير بعد كل عبارتين من عبارات التشجيع وهو لون من ألوان « التحفظ » الذى لابد منه للناقد وهو يتحدث عن الإنتاج الأول لكل كاتب ، وإليك بعض النماذج التعبيرية المتحفظة كما نشرت فى تلك المجلة الأدبية : « لو قدر لهذه القصة أن تعالج فى شىء من الأناة والاحتشاد وسعة الوقت ، لكان من الممكن أن تحتل مكانها فى الصدارة من هذا اللون القصصى الطريف الذى لا نلمسه كثيرا إلا فى القصة الغربية ، ولكن

المؤلف ليس لديه من الوقت ما يحتشد فيه لفنه الاحتشاد الذى يرضيني كناقد قبل أن يرضيني كقارىء ، فهو قصاص مكثر ، مكثر إلى حد لا يطاق ، وأخشى أن يدفعه الإكثار إلى أن يكرر نفسه ، حين تستنفد طاقته الفنية فى هذه الخطة التى تجنى على مواهبه . . لقد كنت ألمس وأنا أقرأ « نائب عزرائيل » أثر هذه الخطة واضحا فى بعض فصول القصة ، وكنت أشعر أنه لا يكاد يلتقط أنفاسه من السرعة ، السرعة التى كانت تدفعه فى بعض الأحيان إلى شىء من « الكلفتة » ، إن السـرعة فى رأيى جنـاية عـلى الفن والفنان ، وإن هـذه الخطة التى ارتضاها لنفسه تكاد تدفع بإعجابى إلى أن يكون سخطا » .

ما الذى كان يريده منى بعد كل هذا التحذير ؟ لقد حذف من المقال بعض العبارات التى تفسر قولى عنه إنه قصاص مكثر لغرض مقصود ، هو أن يخفى أسماء الصحف التى كان ينشر فيها قصصه قبل أن يـطبع كتـابه الأول ، وهى صحف تـوقفت عن الصـدور منـذ سنوات . . لماذا ؟ ليوهم القراء بأن الإكثار الذى أعنيه كان متعلقا بكتب أخـرى قبل هـذا الكتاب ، وبـذلك يـوهمهم مرة أخـرى بـأن المقـال لم يكتب عنه وهو أديب نـاشىء وإنما كتب عنـه وهو أستـاذ كبير . . ما الذى كان يريده منى كما قلت ؟ أكان يريد أن أسكت عنه وهـو يعبث بمفهوم القصة حتى أفسد هذا المفهوم فى أذهان القراء ؟ أم كان يريد أن أؤيده فى دعوته الجريئة إلى الغاء قيـود اللغة لأسـاعده فى حـل مشكلته المعقدة ؟ لقد أفهمته أنها مشكلة جماعة لا مشكلة فرد ولكنه لم يستـطع أن يفهم . . أو لعله فهم ولكنه أنـانى عـاجـز يبحث عن مصلحته ولو على حساب مجموعة من الأقطار لا يمكنها إذا أرضينـا أنانيته وعجزه ، أن تتفاهـم فكريا وهى تكتب الأدب بلغة العوام » .

وبذلك ينتهى مقال المعداوى الثانى فى جريدة « القاهرة » ، وقد كان

هذا المقال هو أيضا مقال المعداوى الأخير فى هذه الجريدة التى بنى على العمل فيها أحلاما كبيرة ، ولكن هذه الأحلام ذهبت كلها مع الريح ، وكل ما جاء فى هذا المقال الثانى للمعداوى حق وصدق وتبرير قوى لموقف المعداوى ولمقاله القديم فى تشجيع يوسف السباعى عندما كان يخطو خطواته الأولى فى الحياة الأدبية .

نعود بعد ذلك إلى رسالة المعداوى الأخيرة إلى فدوى ، لنجد أنه كان فى هذه الرسالة يحلم حلما آخر بأن ينال جائزة الدولة الأدبية عن كتابه « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » . . وقد تحقق هذا الحلم فعلا ولكن بطريقة مأساوية غريبة .

كان المعداوى يحلم بأن ينال هذه الجائزة عام ١٩٥٥ ، ولكن دوامة الهموم التى حاصرت حياته وملأتها بالمشاغل والمشاكل لم تتح له أن يطبع كتابه فى ذلك الوقت ، وبالتالى فإنه لم يتقدم به لنيل الجائزة ، ولو أنه طبع هذا الكتاب فى ذلك العام وتقدم إلى الجائزة لما استطاع أن ينالها بحال من الأحوال . .

اذ كيف تفكر الأجهزة الثقافية فى تكريم المعداوى ، وهى التى لم تفكر فى الدفاع عنه ضد قرار نقله الى العمل بالتدريس ، ولم تفكر فى توفير عمل له عندما تعرض للبطالة الكاملة ؟ !

كان ذلك وهما من أوهام المعداوى . . وقد كانت الأوهام فى بعض الأحيان من المسكنات التى كان يلجأ إليها طلبا للهدوء والراحة المؤقتة من الضنى والعذاب .

وتشاء الأقدار ألا يصدر كتاب المعداوى عن « على محمود طه » إلا فى بغداد وفى سنة ١٩٦٥ ، وقبل وفاته بشهور ، ثم تشاء الأقدار أن

يكون موته المفاجىء سببا فى أن يهتز ضمير الحياة الأدبية خلال الشهور التى تلت هذه الوفاة المفاجئة . وتحت ضغط هذا الضمير الذى اهتز أخيرا وبعد فوات الأوان تقرر منح أنور المعداوى جائزة الدولة عن كتابه « على محمود طه » .

وهكذا تحقق حلم المعداوى ، ولكن بعد أن مات ، ولم ينل هو الجائزة بل نالها ورثته ، وكان فى الأمر شىء أضحك المحبين للمعداوى والحزانى عليه ، أضحكهم وهم فى شدة أساهم على وفاته .

هذا الأمر هو أن الجائزة التى نالها المعداوى هى « جائزة الدولة التشجيعية » ! ، وقد تساءلنا يومها - وهذا سر الضحك الذى هو كالبكا - على أى شىء يشجعون المعداوى ؟ ! ، هل يشجعونه بعد أن مات ؟ ! ، أم أنهم يشجعونه على الموت نفسه ؟ أم أنهم يكافئونه لأنه رحل عن الدنيا وأراح الناس من قلمه الصريح الجرىء ؟

وبعيدا عن الضحك والبكاء فإن العبرة فى هذا الموقف واضحة :

يظل الأديب الحر يعانى فى حياته أشد المعاناة ولا يجد من يمد إليه يديه ، وبعد أن يموت تسعى مواكب التكريم إليه كجزء مكمل لجنازته ، وهو تكريم محدود لا يدوم وإنما هى أيام أو أسابيع أو شهور ، ثم يعود النسيان ليسدل ستاره من جديد على الاديب الراحل .

وهذا ما حدث للمعداوى .

نال الجائزة بعد الوقت الذى كان يتمنى أن ينالها فيه بعشر

سنوات ، ونال هذه الجائزة بعد أن مات ، وقد كان أشد ما يكون حاجة إليها ـ مهنويا وماديا ـ فى حياته لا بعد موته .

ونالها ثم سكتت الحياة الأدبية عن ذكراه سكوت القبر ، وبقى اسمه منسيا وإنتاجه ضائعا أو شبه ضائع إلى اليوم ! .

ماذا بقى فى رسالة المعداوى الأخيرة إلى فدوى ؟

بقيت إشاراته إلى بعض قصائد فدوى .

يقول المعداوى : « . . ولكننى كنت محتاجا إلى من يحمل إلىّ مصباحا ولو صغيرا ، لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك » ويقول أيضا : « لقد كنت دائما أنتظرك يا فدوى ، ولكنه كان انتظارا فى الظلام عند ذلك الجسر الكبير الذى طلبت إلى أن أمضى نحوه . . يا طالما ذهبت إليه وانتظرتك هناك ، ولكن آه من ذلك الظلام الرهيب الذى كان يسلبنى الرؤية ، رؤية كل شىء » .

فى هذه الكلمات يشير المعداوى إلى قصيدة لفدوى كتبتها من وحى علاقتها العاطفية بالمعداوى ، وهى قصيدة « انتظرنى » ، وفى هذه القصيدة تشير إلى « الجسر الكبير » ، ولعل هذا الجسر هو الجسر الذى يربط الضفة الغربية بالضفة الشرقية لنهر الأردن ، لعله كذلك ، أو لعله جسر خيالى وهمى صنعته أحلام الحب التى تعيش فيها الشاعرة وتنسج منها كل ما تريد من أشياء ومواقف .

تقول فدوى فى هذه القصيدة :

حين تبدو الحياة فى يومك المقفر
مـنى كئيبـة مملولـة

ويلح الشوق اللجوج فتدعون
ودونى مجاهل وبرارى
وأمامى شوامخ الاسوار
فأمض نحو الجسر الكبير مع الذكرى
ورعشاتها العذاب الجميله
ستراك هناك أمشى إلى جنبك
أنت استغراقى وابتهالى
وأنا كنزك الذى تحتويه
بيدىْ باخِل وحرص ضنين
وتواريه عن فُضول العيون
والأصيل الملون الحلو يطوينا -
حبيبين ناسجى آمال
وسنمضى معا إلى الضفة الأخرى
بعيدا عن اصطخاب المدينه
فى الطريق الممدود نمشى ..
وللصمت خشوع يلف جو هوانا
ليس إلا النجوى ووقع خطانا
وطمأنينة تكلل روحينا
وأمن وراحة وسكينة
وسنمشى ونحن نجهل من يدفعنا
فى المدى وما سنلاقى
وسنمشى معا بعيدا ولا ندرى
متى ينتهى الطريق الوثير
أو إلى أين سوف يفضى المسير
ونداء المجهول صوت خفىّ

هاتف من قرارة الأعماقِ
وسنبقى هناك نمشى ولا نعلم إلا
شيئا يحسه قلبانا
هو إيماننا المقدس بالحب
ثوى فى أغوارنا المجهوله
وحَدانا على الدروب الطويله
وزكا شعلة يضىء بعينينا
فنمضى على سناها كلانا

ويقول المعداوى فى رسالته :

« كم ألح على الشوق ، وكم عدت للماضى وكم عشت فى الذكرى ، وكم وكم وكم . . ولكننى كنت محتاجا إلى من يحمل إلى مصباحا ولو صغيرا ، لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك » .

فى هذه الكلمات التى يكتبها المعداوى فى رسالته اشارة الى المقطع الأخير من قصيدة « انتظرنى » الذى تقول فيه فدوى :

هكذا كلما ألح عليك الشوق
عد للماضى ، وعش فى الذكرى
واحى أيامنا ونحن على النهر
ونيسان ضاحك فى الضفاف
راقص الظل رائع الأطياف
وانتظرنى ، غدا سيجمعنا الحب
شتيتين فى حماه استقرا

أما البيتان اللذان ختم بهما المعداوى رسالته الأخيرة وهما :

نمشى وقد طال الطريق بنا ... فنود لو نمشى إلى الأبد
ونود لو خلت الحياة لنا ... كطريقنا وغدت بلا أحد

.. هذان البيتان الجميلان هما من شعر الشاعر الكبير إبراهيم ناجى ، وقد كان المعداوى يرددهما كثيرا .



اخر كلمات المعداوى

فى أوائل ١٩٦٤ عاد المعداوى من قريته بعد فترة طويلة قضاها هناك أسيرا للمرض الذى كان يعاوده بين الحين والحين ، والذى زاد هذه المرأة فلم يعد مرض « الكلى » فقط ، ولكنه أصبح بالإضافة إلى ذلك نوعا من « ضغط الدم الخبيث » الذى يستعصى على الدواء المألوف لضغط الدم ، وعندما عاد المعداوى من قريته أسرعت إليه وسجلت معه حديثا طويلا نشرته فى جريدة الجمهورية حيث كنت أعمل فى ذلك الحين محررا أدبيا لها ، وقد كان هذا الحديث هو آخر كلمات المعداوى ؛ لأنه مات بعد ذلك بعام وبعض عام ، وقد قضى العام الأخير من حياته متعبا حزينا لا يفكر فى كتابة أو إنتاج . وقد كان فى هذا الحديث تصوير لكثير من جوانب فكره ونفسه ، ولذلك فإنى أقدمه هنا دون أن أقدم الأسئلة التى وجهتها اليه ، فإن هذه الأسئلة تتضح من إجابته عليها ، وفى هذه الكلمات ما يساعدنا على

استكمال صورة المعداوى وصورة مرحلة من حياتنا الأدبية ما زلنا نعيش إلى اليوم فى بعض نتائجها وأصدائها المختلفة .

وهذه هى كلمات المعداوى التى حرصت على تسجيلها بنصها تقريبا . . . يقول المعداوى :

■ ١ ■

وأنا مريض كان هناك معنى يعذبنى أكثر مما يعذبنى المرض ، وهذا المعنى هو أننى هارب من الحياة أو رافض للحياة . ومما عذبنى أكثر أننى لم أكن أستطيع أن أحمل قلمى فى تلك الفترة لأقول للأصدقاء الذين كتبوا عنى ورددوا هذا المعنى ووجهوا نفس الاتهام فى مودة وحب وإشفاق . . لم أكن أستطيع أن أقول لهم جميعا : إنى أومن - وما زلت - أن الحياة تستحق أن تعاش ، وأننى طوال عمرى أحب الحياة حبا عميقا ، وألقاها دائما بقلبى قبل فكرى ، وأكن لها مودة عميقة مهما ملأت قلبى بالفرح أو ملأت عينى بالدموع . إن فى الحياة قيما كثيرة يستحق أن يعيش من أجلها الإنسان ، والإنسان المفكر بوجه خاص ، ليؤمن بها ويدافع عنها ويقف فى وجه من يعطل سيرها أو يعوق حركتها . . وهذا فى رأيى هو واجب الكاتب ومسئولية الفنان ، ومن هنا مكثت عشرة أشهر أقاوم بكل ما أملك من قوة عوامل المرض ودوافع الهزيمة وشبح الموت ، وكان أشد ما أخشاه أن أهزم فى هذه المعركة ويصدق الناس أننى هربت من الحياة ورفضت الحياة ، وحتى اليوم ما تزال المقاومة مستمرة والنضال محتدما ، ويهمنى أن أقول ذلك وأؤكد لكل الذين كتبوا إلى مشفقين جزعين من أن تكون حياتى قد توجت فى أثناء المحنة بهذا الشعار ، شعار « الهروب

من الحياة » الذى أطلقه على أصدقائى ممن هزتهم أزمتى فتناولوا أقلامهم فى شرف ونبل يحدوهم فى ذلك إشفاق على مصيرى . وما دام دافعهم الحب والمودة فإننى بقدر ما أذكر لهم - هؤلاء الشرفاء - أنهم عذبونى باتهامهم ، فإنى أذكر لهم أيضا أنهم أشعرونى أن الدنيا لا تزال بخير وأن الحياة تستحق أن تعاش .

■ ٢ ■

لقد عاهدت نفسى طوال عمرى أن احترم ضميرى أكثر مما أحترم الشهرة والمجد والتصفيق والتكالب على المادة . ولهذا قل إنتاجى - كما قلت لى وأنت صادق - فى الأعوام الأخيرة بعد أن كان إنتاجى فى الأعوام التى سبقتها يصافح أيدى القراء كل أسبوع .

كنت فى تلك الأعوام السابقة أود لو أتيحت لى الفرصة لكى أكتب كل يوم وليس كل أسبوع ، كانت الحياة الأدبية فى ذلك الحين نظيفة ، على رغم تخلف الإنتاج الأدبى فى كثير من نواحيه : ناحية التطور مثلا فى شكله ومضمونه ، ناحية الاتصال الواسع بالأدب العالمى ، ناحية الكم العددى بالنسبة إلى الأقلام الجادة .

رغم هذا كله فإن الحياة الأدبية كانت نظيفة ، وأنا أقصد بكلمة نظيفة أن المجاملات التى تهدد القيم وتهرب من كلمة المسئولية وتعبث بالأصول والتقاليد خاصة فى ميدان النقد الأدبى . . هذه المجاملات لم تكن بهذه الكثرة المخيفة التى نطالعها فى الأعوام الأخيرة ، من هنا لجأت فى كثير من الأحيان إلى الصمت ، وأنا أعتبر الصمت - على عكس ما يظن الكثيرون - لونا عميقا من إبداء الرأى ، فأنا حين أصمت فمعنى ذلك أننى أقول كلمتى ، وكلمتى التى أعنيها هى أن

ما أراه من إنتاج لا يستطيع أن يدفعني إلى أن أتكلم ، والصمت مرة أخرى لون من الاحتجاج والقرف ، ومع ذلك كله فقد كان هناك إنتاج يرغمني على أن أنبذ عزلتي لأقدمه إلى القراء ؛ لأن الصمت هنا يعتبر جريمة .

وبهذه المناسبة أحب أن أقول لك إنني شاهدت بعض المسرحيات التي صفق لها كثير من النقاد في مجالسهم الخاصة وعلى صفحات الصحف مع أنها لا تستحق شيئا من هذا الضجيج ، ولو كان هناك ضمير أدبي وخشي هؤلاء النقاد أن تسوء علاقات الصداقة بينهم وبين صاحب هذه المسرحية أو تلك فقد كان يجب على الأقل أن يصمتوا .

لقد اضطررت أخيرا إلى أن أقاطع أكثر ما يعرض على المسرح من أعمال فنية ، وفقدت تبعا لذلك كثيرا من الصداقات . إنني أعتقد اعتقادا راسخا أن القارىء مسئول منا نحن النقاد ، وأننا مسئولون عنه أكثر مما نحن مسئولون عن كتاب المسرح ؛ لأننا إذا جاملنا كاتبا مسرحيا صديقا ، فإننا نجامله على حساب ألوف القراء ، وإذا احتفظنا عن طريق المجاملة بصداقة كاتب واحد واحترامه ، فقد خسرنا في مقابل ذلك صداقة هذه الألوف من القراء واحترامهم لنا ، ونكون بذلك قد ارتكبنا جريمة .

■ ٣ ■

في تلك الفترة التي صمت فيها عن التعليق على تلك الأعمال المسرحية كتبت دراسة عن « المسرح الاتجاهي بين سارتر وتشيكوف[1] » كانت نفسي تنازعني إلى أن أكتب عن مسرح

(١) هذه الدراسة منشورة في كتاب المعداوي « كلمات في الأدب » وكلمة « الاتجاهي » هنا هي ترجمة المعداوي الخاصة لكلمة « ايديولوجي » .

الأساتذة فى الخارج حتى يستفيد « مسرح التلاميذ » فى الداخل .

وكانت هناك أشياء ـ كما قلت لك ـ ترغمنى على أن أتكلم ، فقد أرغمتنى مثلا ثلاثية نجيب محفوظ على أن أكتب دراستين طويلتين عنها ، كما أرغمتنى رواية « اللص والكلاب[1] » لنجيب محفوظ أيضا على أن أكتب عنها دراسة نقدية .

وفى رأيى أننا كنقاد يجب أن نقول كلمة الحق ، ومن الأكرم لنا أن نصمت إذا كنا محرجين ، وأنا فى الواقع إذا صمت فإنما أصمت احتجاجا على النقاد أكثر مما أحتج على الإنتاج الهابط نفسه ، وبدلا من أن أكتب عن هذا الإنتاج الهابط وأتحدث عن عيوبه ومآخذه ، فمن الأجدى عندى أن أكتب دراسات توجه أصحاب هذا الإنتاج دون أن أهاجمهم حتى لا يقال ـ كما قيل أكثر من مرة ـ إننى أثبط من عزائمهم أو أضع الصخور فى طريقهم .

وقد يحتج البعض بأنى لم أكتب عن قصاص ممتاز مثل يوسف إدريس ، والذى عاقنى حتى اليوم عن الكتابة عنه هو أنه ككاتب قصة قصيرة مر بمراحل عديدة ومتطورة ، ومن واجب الناقد أن يكتب عن كل هذه المراحل ويساير فيها خطوط التطور ومنهج الكاتب ، وهذا ما عاقنى مؤقتا عن الكتابة حتى أستطيع أن أكتب بصوره متكاملة ، فلا يكفى أن يكتب الناقد دراسة عن قصة قصيرة أو مجموعة قصصية واحدة لكاتب مثل يوسف إدريس .

---

(١) هاتان الدراستان عن ثلاثية نجيب محفوظ ، والدراسة الثالثة عن « اللص والكلاب » منشورة كلها فى كتاب « كلمات فى الأدب » للمعداوى .

■ ٤ ■

أنت بالذات كصديق قديم تتابع كل اتجاهاتى الفكرية ، تعرف أننى أرفض أدب اللامعقول ، إننى أرفضه بكل إصرار واقتناع ؛ ذلك لأننى أومن أن رسالة الفن ـ فى أصل من أصولها ـ هى أن يفهم القارىء أولا عن الكاتب أو الفنان ، فإذا لم يستطع الكاتب أن يوصل إلى القارىء مضمون أفكاره ، وأن يوضح له ما يريد أن يقول ، وأن يقوده فى وضوح تام عبر الدروب ، فهو لم يؤد من واجبه شيئا .

أنا أعترف أن الحياة تبدو فى كثير من جوانبها غير منطقية وغير معقولة ، فهل من مهمة الفن أن يزيد من كثافة اللامعقول وأن يعقد ما فى الحياة من لا منطقية ؟ ! ، العكس فى رأيى هو الصحيح . إننا يجب أن نقدم الحياة للناس وهى معقولة ومنطقية ؛ على الأقل حتى يكون دور الفن هو أن يحبب الناس فى الحياة ، وأن يقدمها إليهم فى صورة تخلو من التعقيد وتجسيد ما فيها من بشاعة .

إن رسالة الفن هى أن يقدم الحياة وهى منطقية معقولة ؛ حتى لا تشيع فى أرجائها كثافة الظلام الذى يمكن أن ينعكس بدوره على الجانب النفسى للجماهير . ومن هنا كان النقد مثلا يعيب على كاتب القصة أن يبنى أحداثه على المصادفات ، مع أن الحياة ـ والفن يعبر عنها ـ فى كثير من اتجاهاتها مليئة بالمصادفات . . لماذا ؟ ، لأن الفن يريد أن يخلق منطقا للحياة ويريد أن يعطيها صفة المعقولية ، يريد أن يقدمها فى الإطار الذى لا غرابة فيه ولا شذوذ ولا بعد عن المعقولية .

أنا أكره أدب الظلام ، الأدب الذى لا يقود القارىء إلى النور ،

وأكره كذلك أدب اليأس ، أنا أكره كافكا وأكره ألبير كامى وأكره بيكيت ، ولا يمنع هذا من اعترافى بعبقريتهم الفنية .

■ ٥ ■

إن الذين يتهمون الشعر الجديد بأنه لم يأت بجديد مخطئون . فهذا الشعر قد نقل الشعر العربى من شكل إلى شكل . نقله من نظام الأشطر البيتية المتساوية التى كانت تحد من قدرة الانطلاق الصياغى للشاعر إلى نظام التفاعيل الحرة التى تتيح لقدرة الشاعر التعبيرية أن تنطلق إلى أقصى الحدود . وليس معنى التفاعيل الحرة أنه غير موزون . فهو موزون بالتأكيد ويساير الأصول العروضية ولا يخالفها . . لا يخالفها إلا فى نظام التفاعيل فقط .

ومن ناحية المضمون نستطيع أن نقول إن هذا الشعر قد أتى أيضا بجديد . هذا الجديد فى رأيى هو « القالب الملحمى » الذى يميز هذا الشعر ، وبخاصة عند قلة من شعرائنا المثقفين ، فقد استخدمت الأسطورة بطريقة ملحمية عند بعض هؤلاء الشعراء ، وهو ما لم يكن له وجود عند الشاعر القديم أو الشاعر المعاصر .

إلا أن الشعر الجديد له عيوب خطيرة ، والعيوب ليس مصدرها هذا الشعر نفسه ولكن مصدرها الشعراء أنفسهم ، فلقد أصبح الكثيرون منهم نسخا مكررة من الأقلية التى كان لها فضل البداية ، وتبعا لذلك فقدت الشخصية الشعرية أصالتها عند أكثرهم ، يضاف إلى هذا تلك القوالب النثرية التى يصبون فيها مضامينهم الفكرية ، هذه النثرية ـ وهى ما نسميه بلغة الأداء الركيك ـ يجب أن تكون فى المستوى اللائق بكل مضمون شعرى رفيع ؛ لأن الأداء الركيك

لا يستطيع أن يوصل مضمونا شعريا جيدا إلى وجدان القارىء ، وفقدان الشخصية الشعرية له ضرره البالغ على الشعراء أنفسهم ؛ لأنهم ـ هؤلاء المقلدين ـ يفقدون وجوههم الخاصة فى زحمة الوجوه الفنية الكثيرة .

نريد من كل شاعر أن يكون له طعمه الخاص ووجهه المتميز وإلا فإن وجها واحدا يستطيع أن يغنينا عن كل الوجوه .

■ ٦ ■

لقد كتبت عن نجيب محفوظ قبل أن أعرفه ، وبعد ذلك توطدت صداقتنا . وما أقوله لك عن نجيب محفوظ أقوله لك عن على محمود طه . فإعجابى بهما وتقديرى لهما قد سبقا ما بينى وبينهما من صداقة . وأحب أن أؤكد لك أننى أبذل مودتى ووفائى للفن أولا ، بمعنى أن هناك من الكتاب والفنانين من تربطنى بهم صداقة قد تكون أقوى من صداقتى لشاعر مثل على محمود طه أو كاتب مثل نجيب محفوظ ، ومع ذلك فلم أكتب عنهم يوما من الأيام كلمة واحدة ، ذلك لأننى أفرق بطريقة صارمة بين صداقتى لكاتب من الكتاب ـ أقصد صداقتى الشخصية ـ وصداقتى لفنه ، فقد يحدث فى كثير من الأحيان أن تكون بينى وبين فنان معين مودة عميقة لفنه ثم لا تكون هناك أى مودة بينى وبين شخصه ، والعكس صحيح أيضا .

من هنا يتبين لك أن الأساس عندى هو المودة بينى وبين العمل نفسه ، وأنت تعلم أننى حريص كل الحرص على ألا أجامل أحدا ـ مهما كان صديقا ـ على حساب الفن . وإذا كان تقديرى لعلى محمود طه قد يبلغ حد الإسراف فهو رأيى الشخصى الذى يقوم على تقييمى

الخاص لفنه ، وقد يختلف معى نقاد آخرون فى هذا التقييم ، ولكن رأيى فى الشاعر لا يقوم أبدا على أساس من المجاملة ؛ لأن تقديرى له قبل أن أعرفه هو نفسه تقديرى له بعد أن عرفته . وكذلك الأمر فيما يختص بكاتب مثل نجيب محفوظ ، هذا الكاتب الذى يتهمنى البعض أيضا أننى أسرف فى تقديره .

إننى أقول كلمتى وأمشى ولكنها كلمة الحق . . أو ما أعتقد أنه الحق .

لقد كانت صداقتى لعلى محمود طه عاملا هاما فى معرفتى لكل الجوانب الخاصة فى حياته الذاتية . وساعدتنى هذه المعرفة على أن أدرس شعره على ضوء حياته ؛ لأن الكاتب الباحث فى حاجة ملحة إلى معرفة كل الاتجاهات فى حياة من يكتب عنهم حتى يستطيع أن يربط ربطا حيويا فعالا بين الفنان وبين إنتاجه ، وأن يفسر على ضوء هذه العملية مختلف الاتجاهات الفنية والنفسية فى حياة الفنان ، وأعتقد أن هذا هو ما قمت به فى كتابى عن على محمود طه الذى سوف يصدر قريبا .

■ ٧ ■

الالتزام فى الأدب هو أن يعيش الفنان تجربة عصره . أو بمعنى آخر يعيش تجربة الجموع ، وفى سبيل هذه الجموع يجب أن يكرس فنه ، أو بمعنى ثالث يجب أن يجعل فنه فى خدمة قضية الإنسان ، فإذا نادينا بهذا الأدب فإننا نكون قد أردنا أن نشهر سلاحا جديدا فى وجه أعداء الإنسان . وإذا كان هناك كتاب أو شعراء قد لبسوا أقنعة مستعارة أو لطخوا وجوههم بالمساحيق المزيفة ليظهروا فى نظر القراء بمظهر تقدمى أو التزامى فالذنب فى رأيى ليس ذنب الالتزام وإنما هو ذنب الذين

يؤمنون به إيمانا خارجيا ، ويسيرون تحت لوائه طمعا فى شهرة عارضة أو تصفيق رخيص ، والنتيجة هى تلك النماذج الرديئة التى ملأت حياتنا الأدبية وخاصة فى ميدان الشعر والقصة ، وقد تطفو قطع الفلين فوق السطح ولكنها ستظل دائما قطعا من الفلين .

■ ٨ ■

مذهبى فى الحياة هو :

أولا : مادام هناك غد فلا يأس .

ثانيا : حرية الإنسان وكرامته هما أرفع ما فى الحياة من قيم .

■ ٩ ■

أود أن أؤكد لك أننى أحترم المرأة وأقدر دورها فى بناء الأسرة والمجتمع ، وبخاصة المرأة العاملة والمثقفة ، فليس إضرابى عن الزواج ناتجا عن عدم تقديرى للمرأة أو للدور الذى تقوم به فى حياتنا ، ولكنه يرجع إلى سبب آخر أقوله لك بمنتهى الصراحة :

لقد تعودت أن أعيش شجاعا ومرفوع الرأس ، والزواج بمسئولياته ومشكلاته قد يرغم إنسانا مثلى على أن يتخلى عن شجاعته وهو يواجه الحياة من أجل مستقبله ومستقبل أولاده ، وأنا لا أريد أن أكون هذا الرجل . وقد يرغمه أيضا ـ فى سبيل ذلك ـ على أن يحنى رأسه لمطالب العيش وضغط الحاجة . ومرة أخرى لا أريد أن أكون هذا الرجل . وأؤكد لك أننى أحمل فى حياتى من المسئوليات ما يفوق إنشاء بيت وتكوين أسرة ، وأنت تعرف ذلك ، فليس موقفى هروبا من مواجهة المسئولية أو من تحمل التبعات .

ومع ذلك فأنا أنصح الآخرين بالزواج وعلى رأسهم أنت !

ولا تنس آخر الأمر أننى أشعر بعد أن تجاوزت الأربعين أننى قد تخطيت مرحلة الشباب المتفتح للحياة » .

وهكذا انتهت آخر كلمات المعـــداوى



خاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة مع أنور المعداوى وأدبه وحياته وعصره وعلاقته بفدوى طوقان تظهر أمامنا بعض النتائج الواضحة التى تستحق أن نضعها أمامنا ، لعلنا نجد فيها ضوءاً ينير طريق الذين يعيشون فى قلب الحياة الأدبية ويعانون من مشاكلها ومصاعبها المختلفة .

فنحن نجد أن أنور المعداوى قد تعب وانهزم فى معركة حياته ؛ لأنه رفع راية المثالية والكرامة والكبرياء ، ورفض أن يطلب شيئا من أحد ، ويبقى فى موقفه ينتظر أن تتحرك الحياة الأدبية نحوه وتعترف له بحقوقه وتعطيه قدره ومكانته ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وظل المعداوى يعانى ويتألم حتى مات وحيدا ، ولم يكد يشعر بموته إلا عدد قليل من الأدباء والأصدقاء . أين الخطأ هنا ؟ هل هو خطأ المعداوى أو خطأ الحياة الأدبية ؟ ، الحقيقة أن مثالية السلوك والحرص على الكرامة والكبرياء شىء أساسى فى حياة أى أديب حقيقى أصيل ،

ولكن هذه المثالية وهذا الحرص على الكرامة والكبرياء لا يبرران السلبية فى حياة أى أديب . ولقد كان المعداوى محقا كل الحق فى حرصه على كرامته وتضحيته من أجل هذه الكرامة ، بل وكان شجاعا وعظيما فى هذا الموقف ، ولكنه من ناحية أخرى كان سلبيا ، لم يشأ أن يتحرك نحو الحياة الأدبية ليفرض لنفسه مكانا فيها . والسبب فى ذلك هو أنه اعتصم بنوع من « الذاتية » حجب عنه جوانب الرؤية الموضوعية الكاملة للحياة الأدبية .

ولو تخلص المعداوى من ذاتيته الكثيفة لاستطاع أن يكافح ويناضل داخل الحياة الأدبية أكثر مما فعل ، ولاستطاع أن يواجه كل ما أصابه بقدر أكبر من الصبر والفهم والاحتمال ، فعلى الأديب الذى يريد أن يؤدى رسالته واجب كبير هو أن يتخلى بقدر ما يستطيع عن النظرة الذاتية للواقع العربى ، فى الميدان الثقافى أو فى غيره من الميادين ، ولسوف يجد الأديب الصادق من خلال النظرة الموضوعية أننا ما زلنا نعيش فى مجتمع يضع الأدب وسائر فروع الثقافة على الهامش ، ولم يصل مجتمعنا بعد إلى اعتبار الثقافة عنصرا أساسيا من عناصر بنيان هذا المجتمع ؛ ولذلك فمن الطبيعى أمام هذا الوضع أن يتعرض الكتاب والأدباء للإهمال والإنكار ، نتيجة لهذه الأزمة الحضارية التى يعانيها المجتمع العربى ويشكو منها ، وعلينا أن نتذكر أن معظم كتاب الجيل الأول مثل طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى وهيكل لم يستطيعوا أبدا أن يحتلوا مكانهم فى مجتمعنا عن طريق الأدب وحده ، بل عن طريق أعمال أخرى يعترف بها المجتمع ويحترمها ، فبعضهم عمل بالسياسة ، وساعدته السياسة على أن يحتل مكانته الأدبية ، ومعظمهم عملوا بالصحافة ، وبعضهم عمل بالجامعة ، وهم جميعا اهتموا بأن يكتبوا فى قضايا الدين حتى

يستطيعوا أن يصلوا للقارىء العربي العادى ، ولو اكتفى هؤلاء الأدباء بكتاباتهم الأدبية لما استطاعوا أن يحققوا ما حققوه من مكانة ونفوذ معنوى فى المجتمع العربي ، كل ذلك رغم أن أدبهم كان أرقى ما قدموه من إنتاج ، ولكن الأدب وحده فى مجتمع مثل مجتمعنا لا يكفى لفتح طريق الحياة أمام صاحبه ، ولقد كان فى ذلك الجيل نفسه ادباء بارزون آخرون ، اقتصروا فى إنتاجهم على الادب والثقافة فلم يحققوا نجاحا مذكورا فى المجتمع ، وعانوا فى حياتهم معاناة كبيرة رغم أنهم أصلا موهوبون وأصحاب نتاج غزير وفير مثل زكى مبارك وعبد الرحمن شكرى ومصطفى صادق الرافعى .

التصق المعداوى إذن بذاتيته ، ولم يدرك أنه كان يتعرض لأزمة لابد أن يعانيها كل كاتب موهوب فى مجتمع لم يعترف بعد بدور الثقافة وأهمية هذا الدور ، وتصور المعداوى أن محنته ككاتب هى محنة خاصة ، بينما كانت المشكلة - وما زالت - مشكلة عامة تتصل بوضع الثقافة فى المجتمع العربي . ومن هنا كثرت كلمة « أنا » فى كتابات المعداوى ، وكثر تأكيده لذاته وتمجيده لها كرد فعل لما كان يلقاه من متاعب ومصاعب ، ولم يستطع المعداوى فى اللحظات الحرجة من حياته أن يخرج من هذه الدائرة الذاتية القاسية ، ويا ليته استطاع أن يخرج منها ، إذن لاكتشف أن كل الموهوبين كانوا يعانون ما يعانيه ، ولكن بعضهم كان يرى ضرورة مواصلة الكفاح والصبر على مكاره الحياة الأدبية والثقافية ، حتى يتطور المجتمع وينتشر فيه نور العلم ، فيعرف للثقافة قيمتها وللمثقفين دورهم ، أما المعداوى فكان من النوع الذى استسلم لغضبه على الأوضاع الثقافية ، فانسحب واستسلم لآلامه الداخلية العنيفة حتى قضت عليه .

تكشف كتابات المعداوى ومعاركه من ناحية أخرى أن بعض المشاكل والقضايا الحادة التى كانت تشغل الحياة الأدبية فى أوائل الخمسينات كانت مشاكل ثانوية إلى حد كبير ، كان هناك نوع من خلو البال الأدبى إذا صح التعبير ، فهذا شاعر يكتب باسم شاعرة وشاعر آخر يتحايل للحصول على جائزة المجمع اللغوى ، وما إلى ذلك من المشكلات والقضايا . . . هل كان ذلك طابعا للعصر كله ؟ فى اعتقادى أن هذه الفترة كانت تغلى باتجاهات خفية لم تكن ظاهرة على السطح ، وقد كان على المعداوى أن يبحث عن هذه الاتجاهات الخفية حتى لا تفاجئه ، ولكنه تصور أن ظاهر الحياة الأدبية فى أوائل الخمسينات هو كل شىء ، ولم يكن هذا صحيحا ، فقد كانت هناك تيارات قوية تعمل فى باطن الأرض ، وكان أهمها التيار الواقعى الجديد الذى بدأ يلعب دوره بعنف فى حياتنا الأدبية منذ ١٩٥٤ ، والمعداوى لم ينتبه لهذا التيار إلا بعد ظهوره بفترة غير قصيرة ، وأن كان قد استطاع فى آخر الأمر أن يستوعب هذا التيار ويتعايش معه ، ولو طال به العمر لأصبح واحدا من فرسانه .

هل كانت حياتنا الأدبية هى وحدها التى تعانى من المشاكل التى جعلت من المعداوى ضحية وفريسة وحملته من الهموم ما ساهم فى القضاء عليه ؟ . . . الحق أن الحياة الأدبية لم تكن هى وحدها التى تعانى من هذه المشاكل ، فحياتنا الاجتماعية فى الوطن العربى كله كانت تعانى من هموم أكبر وأخطر ، وها هى قصة حب المعداوى لفدوى طوقان تتعرض للمشاكل والصعوبات حتى تختنق ولا يبقى لنا منها سوى قليل من العطر وكثير من الهموم والأحزان .

لقد عاش المعداوى وهو يحلم بأن يؤدى دورا أدبيا بارزا فأصابه

الإحباط والفشل بعد أن قطع فى طريق المجد الأدبى خطوات قوية لامعة ، وكان يريد أن يحب ، فلم ينل من الحب إلا السراب ، وشدته دوامة الأسى فى المجتمع العربى وقضت عليه . وعندما مات اهتز الضمير الأدبى لحظات قليلة جدا ، وأثمرت هذه الهزة منح اسم المعداوى جائزة الدولة التشجيعية ! فى الأدب . ثم نام الضمير الأدبى من جديد وما زال نائما حتى اليوم بالنسبة لهذا الاديب الشجاع الموهوب الذى عانى الكثير .

قصة المعداوى ستظل تذكرنا بأننا يجب أن نبتعد عن النظرة الذاتية للأمور حتى نتمكن من معرفة الحقائق الموضوعية ، وستظل هذه القصة تذكرنا بأن الثقافة ما زالت عنصرا غريبا على مجتمعنا العربى ولم تدخل فى البناء الأصلى لهذا المجتمع ، وقد كان على المعداوى ـ لو تخلص من ذاتيته ـ أن يدرك هذه الحقيقة فيستريح ويتخفف من آلامه وهمومه ، ويزداد صبرا على مهنة القلم أو محنة القلم بتعبير أصح ، ويعلم أن واجب الأديب الحقيقى فى بلادنا مثل واجب المحارب الذى يخوض المعارك فى أصعب الظروف .

على أن قصة المعداوى ستظل تذكرنا أيضا بأن مهنة « النقد » بالتحديد فى مجتمعنا العربى مهنة صعبة وشائكة ، وهى مهنة تعرض صاحبها للكثير من المتاعب والهموم والضربات ، والحياة الأدبية العربية ـ كجزء من التخلف الثقافى العام ـ لا تستطيع أن تتحمل ناقدا حرا صريحا مثل المعداوى دون أن تضع العراقيل فى الطريق والألغام تحت الأقدام .

وأخيرا فإن الحب فى مجتمعنا العربى ما زال عاطفة صعبة محاصرة، وربما استطاع الجيل الذى جاء بعد المعداوى أن يحقق بعض التقدم

وينتـزع لنفسـه بعض الحقـوق . . . ولكن ذلـك كله لا يكفى ، فمازالت العاطفة الإنسانية ، عاطفة الحب الحقيقى الصادق ، محاطة بكثير من الأسوار الشائكة التى يجب أن تتحطم ، حتى يتحطم معها الحزن الذى يضعف قدرة الإنسان على السعادة والمشـاركة فى بنـاء الحياة والمجتمع .

رحم الله المعداوى . . . ورحمنا جميعا معه مما نعانيـه فى الحياة الأدبية والاجتماعية من هموم وقيود وأحزان .

دمشق ٣١ أغسطس ١٩٥٠

أخي أنور

تحية رائقة أدبك، طيبة إنسانيتك

وبعد فلن تبكي وحدك الشاعرة المصرية (ن. ط ع) التي (ولدت مع الربيع وماتت مع الورد) كما يقول لامارتين، ولكني سأشاركك في البوح عليها، وأتمم الرسالة بجمعها، فإن من حق الشعر أن يبكي الشعر، وما تعرف أسى الشاعرة إلا شاعرة، وما هي ذي "قرنية تموت" تهدى إلى روح الشاعرة المصرية (ن. ط ع) التي تفتحت كما يتفتح الزهر وماتت كما تموت الفراشة ولكنها تركت عبقًا وعطرًا، وألوانًا وأحلامًا، فلئن استطاع الموت أن يمحو آثارها من الوجود، فلن يستطيع أن يمحو تذكارها من النفوس.

*

أعود إلى بعض ما أقول: لقد وددت أن نتلاقى في كتاب مشترك نطلع به على الناس، وما تدري بعد لعل هذه الرسائل التي نتبادلها تملأ صفحات "الرسالة" ستؤلف مادة الكتاب في غنيته [illegible] التي [illegible] الأدب يحمل الرأي [illegible] إلى الرأي، والفكرة تخلد إلى الفكرة، [illegible] الكتاب يؤلف نفسه، وينضج صفحات. ولكن حذار أن تذهب العصبية الإقليمية فلئن شغلت بعض الخواطر واستقرت في بعض النفوس فلن تشغل خاطري ولن تستقر في نفسي فأنا أرى الحق واحدًا والحب أن يتلاقى الناس في هواه، وأمقت من يتعصب لبيئة بعينها دون غيرها من البيئات ولكن بعينه دون غيره من الأوطان، ولعل الزمن وحده كافل أن يكشف من الحقيقة ويحسر عن الدخيلة، ويحيل الأعين تتطلع إلى قرارات النفوس، وحب الأدب أن [illegible] يكون الأمداح وتجيئه القلوب.

ومع تحيتي الطيبة وشكري الوفير لك

هجران شوقي

● صورة لإحدى رسائل الأديبة السورية هجران شوق إلى المعداوي، وقد تبين أن هجران هو اسم مستعار للشاعر أنور العطار ●

القاهرة في ١٤/٩/١٩٥٤

عزيزتي يا فدوى

كلما سمعت لما في نفسي بأن أحاول القلم لأكتب رسالة إلى عزيز، فتعني أن هذا العزيز صوامت .. ومع ذلك فإن هذا العزيز الأثير لم يرد على آخر رسالة بعثتُ بها إليه، لماذا؟ حتى الآن لا أدري! لقد كانت رسالة قاتمة، تعثرت كلماتها في الظلام وهي تلتمس طريقها إلى قلبك.. معذرة لهذا القلب إذا ضاق يوما برؤية ما هو حبيب أثقل على وجوده، من خلال ثوب أسود! أنا "الآن" واحد ممن يكرهون السواد في كل شيء، حتى في لون هذا المداد الذي أكتب به إليك.. وكم أتمنى أن يتحول تحت يدي إلى مداد أبيض، تقرئين الأحلام من أوله ونقطه، ليهبط منه على روحك وعينيك.. عطر مضيء!

أتعرفين هذا المداد؟ أنا أذكر أني صنعت به إليك أكثر من رسالة، وأريد أن أصنع به منذ الآن كل رسائلي المقبلة، حتى تحتفظ هي الأخرى بكل ما يليق من صفاء النور والأضواء.. إن أجمل الأشياء يا فدوى هو ما يحمل إلى نفوسنا لونا ورائحة؟ ولهذا كانت قصيدتك الأخيرة في "الآداب" بالنسبة إلى مقاييسي الشعورية، من أجمل الزهور في حديقة الشعر كله!

إن معالم النور التي زحفت إلى أعماق نفسي منذ فترة قريبة، هي التي تضيء الطريق اليوم للكلمات كانت بالأمس عمياء، فإذا بها الآن ترى مبصرة.. لقد كنت دائما أنتظرك يا فدوى، ولكنه كان انتظارا في الظلام، منذ ذلك "الجسر الكبير" الذي طلبت إليّ أن أمضي نحوه.. بالخطا زحفت إليه وانتظرت هناك، ولكن آه من ذلك الظلام الرهيب الذي كان يسلبني الرؤية، رؤية كل شيء كم* أُلح على التردد، وكم هربت للماضي، وكم تعثرت في "الذكرى"، وكم وكم وكم.. ولكنني كنت محتاجا إلى من يحمل إليّ مصباحا ولو صغيرا، لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك!

كان ذلك بالأمس، أما اليوم.. يا فدوى، لم تعد "حياتي شفقة منك".. إنك الآن لي وحدك الحقيقة إحساسا ورؤية. كل ما ينقصني هو أن أنتظرك "حقيقة" عند الجسر الكبير، هذه هي مشكلتنا الوحيدة.. أنا أشعر شعورا عميقا بأن كلينا ولو أنه يعيش في وطنه، محتاج إلى وطن كبير، إلى ذلك الوطن الذي ننسى فيه غربة الروح، "الوطن الشعوري" الذي يتحول فيه كل اثنين إلى واحد،

صورة للصفحة الأولى من آخر رسالة كتبها المعداوي إلى فدوى طوقان

٤

وراء المزهرية، وأحياناً أسعى وراء ذلك .. ومن الشرفة عند ذلك الجسر الكبير !!

أنا أحلم بهذا اليوم .. عندئذ تستطيعين أن تخرجي للناس ديواناً آخر ليس عنوانه «وحدي مع الأيام»، [illegible] لأن عنوانه سيكون كما أقترح وأحب، سيكون «شاعر» لستة حروف!

وأظنك بعد هذا تحبين أن تعرفي شيئاً عن واقع حياتي في هذه الأيام .. اسمعي يا فدوى: إن حالتي الصحية الآن جيدة، وهذا هو كل ما أطلبه من الحياة، ولكن برغم ذلك أكون راضياً عن كل شيء، وبعض من ذلك الوضع السخيف الذي وضعتني فيه وزارة المعارف المصرية! لقد أقصيت عن عملي بالتدريس عدة مرات فنقلت من مكان إلى مكان، ولا أعرف من وراء ذلك إلا المضايقة .. والسبب هو أني إنسان متعب جداً للرؤساء، وكل ما يتعب الرؤساء هنا أنني أعاملهم على قدر مناصبهم «الثقافية» وأنهم يحبون أن يعاملوا على قدر مناصبهم الحكومية! من هنا حدثت عدة مصادمات تنتهي بعدة تنقلات كان آخرها منذ أسبوعين حيث صدر قرار جديد بنقلي إلى مكان لا يمكن أن يطيقه إنسان مثلي، ولهذا أضربت عن التنفيذ .. وأنا الآن في بيتي مشغول بشيء واحد، هو هذه الرسالة التي أكتبها إليك [illegible] تسمعي مرة أخرى يا فدوى: ما دامت صحتي جيدة، فليحدث كل شيء، .. وما دمت أنت باقية إلى جانبي فليحدث كل شيء !! ومع ذلك فالحق أن هناك أملاً بانتقالي إلى الاشتغال بالصحافة. ومن المنتظر بعد أن يتفضلوا مشكورين بإصدار قرار جديد، يريحني من رحمة الوظائف الرسمية!

[illegible] اليوم جريدة «القاهرة» حتى أكتب إليك أنك ستقرئين قبل [illegible] صفحات «الأدب»؟ إني أفضل يا فدوى أن يكتب الأدب في الصحف اليومية بدلاً من أن يكتب في المجلات الأدبية، ذلك لأنه هناك مضمون الرواج لدى القراء من شتى الطبقات .. أما هناك في حين يكتب في مجلة خاصة فهو مقصور على طبقة معينة من جمهور القراء وهي محدودة العدد، ومن الخير للأدب في هذه الأيام أن يكون متاحاً لكل الناس.

ماذا بقي لأقوله لك؟ بقيت أشياء كثيرة، أدعو الله من قلبي أن يجمع بيننا يوماً لأقولها لك عند ذلك الجسر الكبير ونحن نمشي .. نمشي وقد طال الطريق بنا .. فنود لو نمشي إلى الأبد

ونود لو طالت الحياة لنا .. كل [illegible] .. ونحن معاً

وسلام عليك، وعلى نابلس، وعلى الجسر الكبير، وعلى الرفاق ... و[illegible] تذكري حتى [illegible]

أنور المعداوي

اكتبي على هذا العنوان { القاهرة - العجوزة / شارع المنتصر رقم ٤ }

صورة للصفحة الأخيرة من آخر رسالة كتبها المعداوي إلى فدوى طوقان

كتب أخرى للمؤلف

١ - فى أزمة الثقافة المصرية .
٢ - أبو القاسم الشابى « شاعر الحب والثورة » .
٣ - ثورة الفقراء .
٤ - فى أضواء المسرح .
٥ - أدباء معاصرون .
٦ - مقعد صغير أمام الستار « دراسات فى النقد المسرحى » .
٧ - أدباء ومواقف .
٨ - أصوات غاضبة فى الأدب والنقد .
٩ - كلمات فى الفن .
١٠- محمود درويش « شاعر الأرض المحتلة » .
١١- الانعزاليون فى مصر - رد على د . لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين .
١٢- أدب وعروبة .
١٣- عباس العقاد بين اليمين واليسار .
١٤- تأملات فى الإنسان .

تحت الطبع

١ ـ كفاق شاعر الانسانية .
٢ ـ دفاع عن طه حسين .
٣ ـ أزمة الثقافة فى مصر .
٤ ـ بصراحة أدبية .
٥ ـ أدباء ومواقف ـ الجزء الثانى .
٦ ـ أدباء ومواقف ـ الجزء الثالث .
٧ ـ مع الرواية العربية : دراسات نقدية .
٨ ـ هل كان العقاد شاعراً ؟
٩ ـ شخصيات وقضايا مسرحية .
١٠ـ سينمائيات .
١١ـ كتابات فى الغربة .
١٢ـ بين السياسة والثقافة .
١٣ـ الفن والانسان فى أدب نجيب محفوظ
١٤ـ عباقرة ومجانين .

الفهـــرس

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموضوع	الصفحة



هــذا الكتـــــاب

يضم هذا الكتاب سبعة عشرة رسالة كتبها الأديب والناقد المصرى المعروف أنور المعداوى إلى الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان ، وتكشف هذه الرســائل عن قصة حب صادقة وعفيفة نشأت بين الناقد المصرى والشــاعرة الفلسطينية ، وقد اعترفت فدوى طوقان فى شجاعة وأمانة بهذا الحب ، ولا يكتفى هذا الكتاب الهام بما جاء فى الرسائل من إشارات وأحداث ، بل يكشف من خلال دراسة دقيقة شاملة للرسائل عن جوانب كثيرة أخرى فى حياة فدوى طوقان وفى حياة المعداوى وفى حياة آخر من الأديبات والأدباء العرب المعاصرين . ويعتمد الكتاب على منهج واضــح هو منــاقشة القضايا المختلفة للحياة الأدبية بمنتهى الصراحة وبدون أى محاولة لإخفاء شىء أو التستر على شىء ، ذلك لأن مؤلف الكتاب الأديب الناقد رجاء النقاش يؤمن ـ كما أوضح فى مقدمة الكتاب ـ بأن الحياة الأدبية العربية تعيش فى جو من الكتمان وإخفاء الحقائق والحذر بصــورة أســاءت إلى الواقــع الثقــافى والواقــع الاجتماعى على السواء ، ولا يوجـد حل أمـام الأدب والإنسان فى المجتمع العربى إلا عن طريق مواجهة المشاكل وعدم الهروب منها والكشف عنها فى صراحة كاملة ، وفى هذا الكتــاب محاولة جادة وجريئة فى هذا المجال ، وهى محاولة تخترق حاجز التقليد والخوف فى التفكير العربى ، وتتحدى روح الحذر والتستر والمجاملة وإخفاء الحقائق فى الأدب والحياة معا .